
مركز دلائل
Dala'il Centre
DALAIL
ردود علماء الغرب
على الإلحاد المُعاصر
(عرض ونقد)
(الجزء الثاني)
د. جوهانس كلومنك
(د. عبدالله السويدي)

رُدودُ علماءِ الغرب على الإلحادِ المُعاصر

(عرضٌ ونقد)

- الجزء الثاني -

رسالةٌ علميَّة

لنيْل درجةِ العالمية العالية؛ الدكتوراه

إعدادُ

د. جوهانس كلومنك

(د. عبدالله السويدي)

إشرافُ فضيلة الأستاذ الدّكتور

صالح بن عبد العزيز سندي

 دار وقف دلائل للنشر، ١٤٤٤هـ/ ٢٠٢٢م

ردود علماء الغرب على الإلحاد المعاصر - عرض ونقد

د. جوهانس كلومنك (د. عبدالله السويدي)

١١٨٠ صفحة، ١٧ × ٢٤ سم - (٣ أجزاء)

ترقيم دولي: ٩٧٨ - ٩٧٧ - ٨٦٢٠٠ - ٣ - ٠

الطبعة الأولى

١٤٤٤هـ/ ٢٠٢٢م

DALAIL

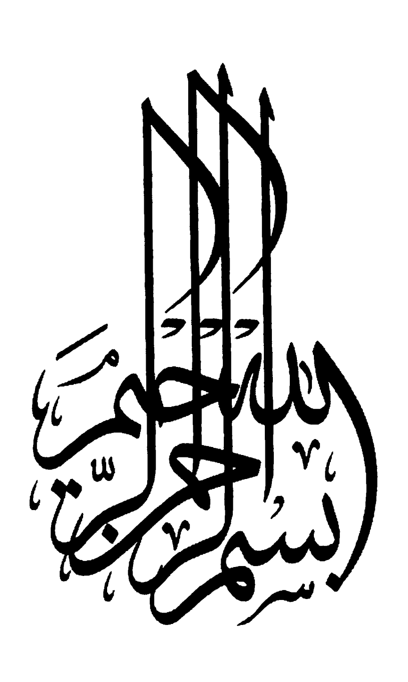
مركز دلائل
Dala'il Centre

Dalailcentre@gmail.com

الرياض - المملكة العربية السعودية

     Dalailcentre@

+٩٦٦٥٣٩١٥٠٣٤٠


بسم الله الرحمن الرحيم

المبحثُ الثّالث

البرامجُ والمقاطع المرئية

اشتهرَ الإعلامُ المرئي في هذا العصر بشكلٍ هائل. وإذا كان هذا النوع من الإعلام موجودًا في كلِّ بيت في القرن المنصرم تقريبًا، فإنَّه يكاد أن يكون موجودًا في كل جوَّال في هذا القرن. والمقاطعُ المرئية تنتشر بسرعةٍ شديدة في وسائل التواصل مثل: يوتيوب، وفيسبوك، وتويتر، وانستغرام، وتزيد سرعةُ انتشارها تطبيقات المحادثات مثل: الواتس وغيره.

وقد سبقَ أنَّ الملاحدة ينشطون كثيرًا في نشر إلحادهم عبر البرامج، والأفلام الوثائقية والمقاطع المرئية، فاستلزمَ ذلك أن ينشطَ مَن يردُّ عليهم في هذا المجال أيضًا. وقدْ أدرك علماءُ الغرب هذه المسألة جيّدًا فصنعوا مقاطعَ مرئية كثيرة جدًّا في بيان الأدلة على وجود الله ونقدِ الإلحاد. وهذه المقاطعُ كثيرة يصعب حصرُها، والغرض من هذا المبحثِ الوقوفُ على أهمِّ هذه المقاطع، معَ ذكر شيء من مضامينها. وسيتمُّ في هذا المبحث تقسيمُ هذه المقاطع المرئية إلى الأقسام الآتية:

١) الأفلام الوثائقية.

٢) مقتطفات من المناظرات والمحاضرات.

٣) موشن غرافيك.

٤) مقاطع مرئية قصيرة وهادفة في نقد الإلحاد.

أوّلًا: الأفلامُ الوثائقية:

هناك أفلامٌ وثائقية كثيرة في نقد الإلحاد، وهي تتناول موضوعاتٍ مختلفة. ومن أشهرِ هذه الأفلام:

- **الفيلم الأوَّل: العلمُ التجريبي قد وجد الأدلة على وجود الله**

(Science has found proof of the existence of God)(١).

عددُ المشاهدات: أكثر من ١٣ مليون مشاهدة في يوتيوب.

مدَّةُ الفيلم: هذا الفيلم مختصَرٌ في ٢٥ دقيقة فقط، ولكنّه جيّد ومؤثِّر.

مضمونُ الفيلم: طريقةُ عرضه أنَّ شخصًا يتكلَّم عن الأدلة العلمية على وجود الخالق، وتظهر صورُ ومقاطع على الطبيعة. والأدلةُ العلمية التي ذكرها ثلاثة: الأوّل: أنَّ الأدلة العلمية تشير إلى أنَّ للكون بداية. أنَّ الأدلة العلمية تدلُّ على الضبط الدقيق لقوانين الطبيعة. والثّالث: الأدلةُ العلمية في الخليَّة. وكلُّها أدلة جيِّدة وقوّية. ولكن في نهايةِ الفيلم توجَد دعوةٌ صريحة إلى النَّصرانية مع الأسف، وهذا مما يضعف قيمته.

- **الفيلمُ الثّاني: إلهُ العجائب - العلماء يجدون الأدلة على وجود الله عن طريق العلم التجريبي**

(God of Wonders: Scientists prove Almighty God's existence through Science)(٢).

عددُ المشاهدات: أكثر من مليوني مشاهدة في يوتيوب.

مدَّةُ الفيلم: حوالي ساعة ونصف.

مضمونُ الفيلم: هذا الفيلم فيه مقابلاتٌ معَ علماء من الغرب وهُم يتحدّثون عن الأدلَّة العلمية على عظمةِ الخالق، معَ لقطات عظيمة من المخلوقات. الفيلم مؤثِّر جدًّا، ولكنَّ المشكلة فيه أنه يكثر الاستشهاد بكتاب النصارى المقدَّس.

---

(١) انظر: https://www.youtube.com/watch?v=Er9D00DXQQs

(٢) انظر: https://www.youtube.com/watch?v=vvVt4lDSPeY

- **الفيلمُ الثّالث: وهم الملحد** (Atheist Delusion)[1].

عددُ المشاهدات: أكثر من ٣,٤ مليون مشاهدة في يوتيوب.

مدَّة الفيلم: ساعة واحدة.

مضمونُ الفيلم: وهو فيلم لأحدِ المنصِّرين -. وأسلوبُه في أفلامه الوثائقية أنه يعمل مقابلاتٍ مع ملاحدة، ويسألهم أسئلةً عنْ معتقداتهم ونظرياتهم الإلحادية، ثمَّ يلزمهم بإلزاماتٍ قويَّة ومُقنعة. وفي جزءٍ من هذا الفيلم أفحمَ وأسكت بعضَ كبار الملاحدة التطوُّريين في أَنَّه لا توجد أدلةٌ علمية مشاهدة مؤيِّدة لنظرية التطوُّر. وأسلوب المقابلات في عرض الفيلم الوثائقي جيِّد ومؤثِّر؛ لأَنَّه يُظهر للناس عجزَ الملاحدة عن الدفاع عن مُعتقداتهم، ويبرز تناقضاتهم. ولكنَّ الإشكالية معَ راي كومفورت بالذات أنه منصِّر متعصِّب، فيدخل الدعوة إلى النصرانية في كثيرٍ من الأحيان، ولا يلتزم بمجرّد نقد الإلحاد.

- **الفيلمُ الرّابع: الدليلُ المدهش على وجود الله**

(Amazing Proof that God exists)[2].

عددُ المشاهدات: أكثر من ١,٢ مليون مشاهدة في يوتيوب.

مدَّةُ الفيلم: ٢٨ دقيقة.

مضمونُ الفيلم: يذكر المقدِّم أدلةً علمية قوية ومُقنعة على وجود الله، ويردُّ على نظريةِ الانفجار العظيم ونظرية التطوُّر، وتظهر مقاطعُ جميلة على الطبيعة خلال كلامه. ولكنَّ الإشكال أنه يستشهد بكتابِ النصارى المقدَّس، ويدعو إلى النصرانية.

---

(١) انظر: https: / /www.youtube.com/watch?v=ChWiZ3iXWwM

(٢) انظر: https: / /www.youtube.com /watch?v=qz77atYHTOA&t=1512s

- **الفيلمُ الخامس: المطرودون: غير مسموح بالذكاء**

(Expelled: No Design allowed)[1].

عددُ المشاهدات: قد ظهرَ هذا الفيلم الوثائقي عام ٢٠٠٨ في الولايات المتَّحدة، وعُرِض على١٠٥٢ مسرح سينما. وهو رقمٌ قياسي في الأفلام الوثائقية في الولايات المتَّحدة[٢]. وهو معروضٌ في يوتيوب بأكثر من ٣٥٠ ألف مشاهدة.

مدَّةُ الفيلم: أكثر من ساعة ونصف.

مضمونُ الفيلم: مقدِّم الفيلم هو بين ستين – إعلامي يهودي، معروفٌ بالدفاع عن التصميم الذَّكي –، وهو يبحث عنْ قضية اضطهاد المجتمع العلمي للعلماء المتبنِّين لنظريةِ التصميم الذَّكي، والمخالفين لنظرية التطوُّر. والإعلامي بين ستين يعمل مقابلات معَ المتبنِّين لنظرية التَّصميم الذكي عن الاضطهاد الذي حصل لهم من قبَل التطوُّريين. كما أنَّ بين ستين عمل مقابلاتٍ مع المعارضين لنظرية التصميم الذكي مثل: مايكل شيرمير وريتشارد دوكينز. والفيلم مهمٌّ ومفيد في بيانِ حالة الضغط التي يعيشها العلماء المتديِّنون في الغرب، لا سيَّما والملاحدةُ من أكثر الناس حديثًا عن اضطهاد المتديّنين للعلماء. كما أنَّ بين ستين ألزمَ ريتشارد دوكينز بإلزاماتٍ قويَّة في مقابلته معه، وظهر دوكينز بصورةٍ غبية جدًّا، حيث أنَّه ينكر وجودَ الخالق زاعمًا أنه لا دليل على وجوده، ثمَّ يقول إنه قد يكون ثمَّة كائناتٌ فضائية زرعتِ الحياة على كوكب الأرض – رغم أنه لا دليلَ على وجودهم –. وقد انتشرتْ هذه المقابلة المأخوذة من الفيلم كثيرًا في يوتيوب أيضًا.

---

(١) انظر: https: / /www.youtube.com/watch?v=V5EPymcWp – g

(٢) انظر: http://www.boxofficemojo.com/genres/watch?v=documentary.htm

- **الفيلمُ السّادس: التطوُّر مردود نهائيًّا**

(Evolution is Debunked once and for all)[1].

عددُ المشاهدات: أكثر من ١٣٠ ألف مشاهدة في يوتيوب.

مدَّةُ الفيلم: ما يقارب ساعتين.

مضمونُ الفيلم: هذا الفيلم ينقد نظريةَ التطوُّر من أساسها. وذلك خلال ذكر اعترافاتِ التطوُّريين بفشل نظريتهم، وأقوال علماء الغرب في نقدها. والفيلم يتعرَّض لجوانبَ كثيرةٍ ومتعدِّدة في نقد هذه النظرية الباطلة.

فيظهرُ من خلال عرض هذه الأفلام الوثائقية أنها كثيرةٌ ومتنوِّعة في موضوعات مختلفة، وأنَّ لها شعبية كبيرة، وعدد المشاهدات كثير. فالأفلامُ الوثائقية من الوسائل المفيدة في نقد الإلحاد ونظرياته.

ثانيًا: مقتطفاتُ المناظرات:

مِن المقاطع المرئية في نقد الإلحاد: مقتطفاتٌ من المناظرات بين علماء الغرب والملاحدة. وهذه المقتطفاتُ مأخوذةٌ من اللحظات التي يفحم علماءُ الغرب الملاحدةَ بإلزاماتٍ قويَّة. وهذه طريقةٌ جيِّدة ومُفيدة ومُقنعة للمشاهدين. فقد سبق أن مشاهدةَ المناظرات من أوَّلها إلى آخرها فيها خطورةٌ كبيرة. ولكنَّ مشاهدة هذه المقتطفات تقنع المشاهدَ أنَّ غلبة الحجَّة لعلماء الغرب، وأنَّ الملاحدة لا قبَل لهم بمناظراتهم. وأكتفي بذكْر اثنين منها:

المقتطفُ الأوَّل: «لينوكس يقمع أتكنز» (Lennox puts down Atkins)[2]، وقد شاهدَ أكثرُ من ٤٧٠ ألف هذا المقطع، مع أنه أقصرُ من دقيقتين. والمقطع مأخوذ من مناظرةِ البروفسور جون لينوكس للبروفسور بيتر أتكنز عنْ وجود الله. وفي هذا

(١) انظر: https: / /www.youtube.com /watch?v=8jvZSosYh4M

(٢) انظر: https: / /www.youtube.com/watch?v=lecFYZHXEqY

المقطع يلزم لينوكس أتكنز بقوّةٍ في ادِّعاء الملاحدة أنَّ قوانين الطبيعة خلقت الكون، حيث أنه يبيِّن أنَّ القوانين مجرَّد وصف، وليست قادرة على خلق أي شيء.

المقتطفُ الثّاني: «ريتشارد دوكينز يُقمع» (Richard Dawkins gets owned)[1]. قد حازَ هذا المقطع على أكثر من ١٠٠ ألف مشاهدة في يوتيوب. وهو مأخوذٌ من مناظرة القسيس جورج بيل. والقسيس يذكر أنَّ هناك أشياء كثيرة لا تستطيع نظرية التطوُّر تفسيرَها، وبسببه كان شارلز داروين مؤمنًا بوجود الله. فقال ريتشارد دوكينز: «إنّ ما تقوله غيرُ صحيح»، فعارضَه القسيس بقوله: «بل هو صحيح، لأنه في صفحة ٩٢ من سيرتِه الذاتية [أنه قال ذلك عنْ نفسه]»، فبدأ المشاهدون يضحكونَ ويصفِّقون للقسيس. وبذلك ظهرَ دوكينز أمامَ الجمهور أنه جاهلٌ عن مؤسِّس نظريته المحبّبة - نظرية التطوُّر -.

وهذه بعضُ الأمثلة على هذه المقتطفات، وإلّا فهي كثيرة جدًّا في يوتيوب.

ثالثًا: مقاطعُ موشن غرافيك:

موشن غرافيك هي طريقةٌ جديدة في عرض المقاطع كرسومات متحرِّكة هادفة. وقد اهتمَّت مؤسسة البروفسور وليام لاين كرايغ: «الإيمان العقلاني» (Rational Belief) بإنتاج سبعةِ مقاطع موشنِ غرافيك في بيانِ الأدلة على وجود الله، ونقد أهمِّ الشبهات المتعلِّقة بهذا الباب، وكلُّها قصيرة لا تتجاوز عشر دقائق:

- **الفيلمُ الأوَّل**: «**الحجة الكلامية الكونية**» (The Kalam Cosmological Argument)[2].

حازَ على أكثر من ٦٠٠ ألف مشاهدة في يوتيوب. والفيلم يتحدَّث عن الحجة الكلامية الكونية - وهي أحدُ أشهرِ الأدلة على وجود الله -، وهي مبنيَّة على مقدِّمتين ونتيجة: المقدِّمةُ الأولى: كلُّ ما له بداية فلا بدَّ له من سبب. المقدِّمة الثانية: الكون له

---

(١) انظر: https://www.youtube.com/watch?v=LJDQPx1v5ZU

(٢) انظر: https: / /www.youtube.com /watch?v=6CulBuMCLg0

بداية. النَّتيجة: الكون لا بدَّ له من سبب. ثمَّ يشرح الفيلم أن هذا السبب لا بدَّ أن يكونَ خارج الكون، وذا قدرةٍ عظيمة. وهذا هو الإله الخالق.

- **الفيلمُ الثّاني: «الحجَّة الأخلاقية» (The Moral Argument)**[1]

وقد حاز على أكثر من ٨٠٠ ألف مشاهدة في يوتيوب، ويتحدَّث عن الحجة الأخلاقية. والحجَّة مبنية على مقدِّمتين ونتيجة: المقدِّمة الأولى: إن كان اللهُ غير موجود فلا يوجد أخلاق موضوعية. المقدِّمة الثانية: الأخلاقُ الموضوعية موجودة. النتيجة: اللهُ موجود. كما أن الفيلم ينتقد الأسسَ الأخلاقية لدى الملاحدة. وهذه الحجَّة جيِّدة من حيث إلزام الملاحدة في باب الأخلاق، وبيان خطورة الإلحاد على الأخلاق والقيم.

- **الفيلمُ الثّالث: «الحجة الكونية لليبنز» (Leibniz' Contingency Argument)**[2]

هذه الحجَّة تشبه الحجَّة الكلامية الكونية إلّا أنها مبنيَّة على ثلاث مقدِّمات ونتيجة؛ فهي كالآتي: المقدِّمة الأولى: كلُّ ما في الوجود لا بدَّ له من تفسير. المقدِّمة الثانية: إن كان للكون بداية فلا بدَّ أن يكون تفسيرُ وجوده هو الله. المقدِّمة الثالثة: الكون له بداية. النَّتيجة: التفسيرُ لإيجاد الكون هو الله. وهذه الحجَّة، مع أنها في الأساس قويَّة إلّا أنها أضعفُ من الحجَّة الكونية الكلامية حيث أنه كلَّما كانت المقدِّمات أقلَّ فيكون فهم الحجة أسهلَ وأقوى - في الغالب -.

- **الفيلمُ الرّابع: «الضبط الدقيق للكون» (The Fine - tuning of the Universe)**[3].

هذا الفيلم حازَ على ٢٤٠ ألف مشاهدة في يوتيوب، ويذكر أمثلة علمية على الضَّبط الدقيق للثوابت الفيزيائية في الكون. ومن الأمثلة على الثوابت الفيزيائية التي ذكرها:

١) ثابتُ الجاذبية الذي هو مضبوط بـ١ إلى ١٠٦٠.

---

(١) انظر: https: / /www.youtube.com/watch?v=OxiAikEk2vU

(٢) انظر: https://www.youtube.com/watch?v=FPCzEP0oD7I&t=64s

(٣) انظر: https://www.youtube.com/watch?v=EE76nwimuT0&t=263s

٢) الثابتُ الكوني الذي هو مضبوط ب،١ إلى ١٠١٢٠.
٣) والتوزيعُ بين المادة والطاقة في بداية الكون كان مضبوطًا بـ ١ إلى ١٠١٠١٢٣.
ثمَّ ذكرَ أنَّ سبب هذا الضبط الدقيق لا بدَّ أن حصل عن طريق إحدى الطرق الثلاث:

١) الضرورة الفزيائية. ٢) الصدفة. ٣) التصميم (الخلق).

وبعدَ ذلك ذكر أنه لا يمكنُ أن يكون بسبب الضرورة الفيزيائية، ولا الصدفة، فلا يبقى إلّا الخيار الثالث، وهو التَّصميم والخلق، وأنه خالقٌ خلقَ هذا الكون بهذا الضبط الدقيق.

- **الفيلمُ الخامس: «الحجة الوجودية» (The Ontological Argument)**[1].

والحجة الوجودية قد صاغَها القسيس أنسلم في القرون الوسطى، ثمَّ طوَّرها بعض الفلاسفة اللاهوتيِّين المعاصرين كألفن بلانتنغا. وهذه الحجَّة مبنية على خمس مقدِّمات ونتيجة:

المقدِّمة الأولى: هناك إمكانية أنْ يوجد كائن في غاية العظمة.

المقدِّمة الثّانية: كائنٌ في غاية العظمة يوجد في بعض العوالم الممكنة.

المقدِّمة الثّالثة: إنْ كان كائنٌ في غاية العظمة يوجد في بعض العوالم الممكنة فإنه يوجَد في جميع العوالم الممكنة.

المقدِّمة الرابعة: إن كان كائنٌ في غاية العظمة يوجد في جميع العوالم الممكنة فإنه يوجَد في العالم الحقيقي.

المقدِّمة الخامسة: كائنٌ في غاية العظمة يوجد في العالم الحقيقي.

النتيجة: بالتالي، فإنَّ الكائن في غاية العظمة موجود.

وهذه الحجَّة يستعملها الفلاسفة النصارى إلى يومنا هذا، حتى أنتجوا هذا الفيلم، معَ أنَّ هذه الحجة ضعيفة، ومُنتقَدَة من أوجه كثيرة، كما سيأتي الحديث عن ذلك في الباب الثاني.

---

(١) انظر: https: / /www.youtube.com /watch?v=xBmAKCvWl74&t=164s

- **الفيلمُ السّادس: «الألم والشَّر: المشكلة المنطقية» (Suffering and Evil: The Logical Problem)[1].**

هذا الفيلم حازَ على أكثر من ١٤٠ ألف مشاهدة في يوتيوب، ويعرض مشكلةَ الشَّر كما صاغها الفيلسوف إبيقور، ثمَّ ينتقدها بطريقة منطقية عقلية. والفيلم جيِّد ومُفيد، حيث يبيِّن الأخطاءَ المنطقية في مشكلة الشَّرِّ بذكر الحِكم من وجود الشَّر. ومِن ذلك أنَّ للإنسان حرِّية الإرادة. وحرِّيةُ الإرادة تستلزم أن بعض الناس يختارون فعلَ الشَّر. وذكرَ أقوالًا عن عددٍ من الفلاسفة الملاحدة أن مشكلة الشرِّ بصياغتها المنطقية لا تمنع من وجود الله.

- **الفيلمُ السّابع: «الألم والشَّر: نسخة الاحتمالات»** (Suffering and Evil: The Probability Version)[2].

وهذا الفيلم حازَ على أكثر من ٩٠ مشاهدة في يوتيوب، ويتحدَّث عن عرضِ مشكلة الشَّر بطريقةٍ أخرى. وهي أنَّ الملاحدة يقولون: إن مشكلة الشرِّ لا تجعل وجودَ الله مستحيلًا، ولكنَّها تجعل وجوده غير مرجّح للغاية.

وقد ردَّ على هذه الشبهة من عدَّة أوجه:

الوجهُ الأوّل: ليس بقدرةِ الإنسان أن يقول: إنَّه لا يوجد أسباب جيّدة للإله أن يسمحَ بوجود الشرور؛ لأنَّ الإنسان محدودٌ في الزمان والمكان والعقل والبصيرة. وأمّا الإله، فإنَّه يعلم كلَّ شيء عبرَ التاريخ والمستقبل. ولذلك فإنه لا بدَّ أن يكون هناك بعضُ الشُّرور - التي قد يبدو أنْ تكون بلا فائدة -، ولكن فيها حِكمٌ عظيمة، ولا يعلمُها إلّا مَن علم كلَّ شيء.

الوجهُ الثّاني: القول بأنَّ وجود الله غير مرجَّح للغاية مبنيٌّ على معرفة كلِّ ما هو مرجَّح وغير مرجَّح. والملاحدةُ ينظرون إلى زاوية واحدة فقط خلال مشكلة الشرّ، ولا ينظرونَ إلى الأدلة القويَّة المقنعة على وجود الله. فلو غُضَّ الطرفُ عن الأدلة

---

(١) انظر: https://www.youtube.com/watch?v=k64YJYBUFLM

(٢) انظر: https://www.youtube.com/watch?v=cxj8ag8Ntd4

على وجود الله، وينظر إلى وجود الشَّر في العالم، فقد يقال: إنَّ وجودَ إله سمح بهذه الشرور غير مرجَّح، ولكنْ بالنظر إلى الصورة الكاملة فإنَّ هذا القول باطل.

الوجهُ الثّالث: ليستِ الغايةُ مِن وجود الإنسان الحصول على المتعة والسعادة، بل مِن أسباب وجود الإنسان هو معرفةُ الإله وعبادته. وقد تبيَّن خلالَ التاريخ أنه إذا ازدادتِ الشرورُ فإنَّ الإنسان يرجع إلى ربِّه.

الوجهُ الرّابع: ليستِ الحياة منحصرةً في الدنيا، بل هناك حياةٌ بعد هذه الحياة، التي هي دارُ الجزاء. ومما يجازى عليه الإنسان: الصبر على الآلام والشرور.

هذا الفيلم جيِّد وقوي، ويردُّ على إحدى الشبهات المنتشرة بقوَّة عند الناس اليوم، ولكنَّ الإشكال في هذا المقطع بالذات أنه مشحونٌ بالدعوة إلى النصرانية.

رابعًا: مقاطعُ قصيرة في نقد الإلحاد:

هناك بعضُ المقاطع في نقدِ الإلحاد التي ليست بأفلام وثائقية، ولا موشن غرافيك، ولا مقتطفات من المناظرات. ولكنَّها مقاطع قصيرة هادفة في بيان الأدلة على وجود الله ونقدِ الإلحاد. وهذه المقاطعُ كثيرة جدًّا، ولكن أكثرها مشاهدة هي ما يأتي:

المقطعُ الأوَّل: آمن بالله في خمس دقائق (الأدلة العلمية) Believe in God in 5 minutes (Scientific Proof)[1]. في هذا المقطع يتحدّث الدكتور جيرالد شرودير[2] عن الأدلةِ العلمية على وجودِ الله خلالَ خمس دقائق فقط. والأدلة التي ذكرها. وقد حاز هذا المقطعُ على أكثر ٣,٤ مليون مشاهدة في يوتيوب. وقد ذكرَ الدكتور شرودير في هذا المقطع الأدلةَ العلمية على وجود الله، وركَّز على قضية

---

(١) انظر: https: / /www.youtube.com/watch?v=eQVm8RokoBA

(٢) جيرالد شرودير (Gerald Schroeder): عالم الفيزياء الأمريكي. وقد حصل على شهادة الدكتوراه في كلّ من الفيزياء والجيولوجيا. وهو يهودي متديّن، درس التوراة والتلمود لمدّة ١٥ سنة. وقد ألّف بعض الكتب عن أدلة وجود الله، وترجمت إلى تسع لغات. انظر: http: / /www.geraldschroeder.com /About.aspx

أن للكون بداية، وأن كلَّ ما له بداية فلا بدَّ له من خالق. والمقطعُ له رواجٌ كبير لأنَّ الدكتور شرودير من أشهر علماء الفيزياء في هذا الزمان، وهو الذي أقنع أنطوني فلو - الأب الروحي للإلحاد المعاصر - بأنْ يؤمن بالله؛ لما ذكر له الأدلة العلمية على ذلك في مناظرتهما المشهورة عن الإيمان بالخالق[1].

المقطعُ الثاني: «الأسئلة العشرة الأهمُّ التي لا يستطيع العلم التجريبي الإجابة عنها» (Top 10 Questions SCIENCE Can't Answer)[2]. هذا المقطع في ١١ دقيقة قد حازَ على أكثر من ٢,٢ مليون مشاهدة في يوتيوب. المقطع نفسه ليس في نقد الإلحاد أو إثبات وجود الله، ولكنَّه يتحدَّث عن حدود العلم التجريبي، والمبالغة في تعظيم العلم التَّجريبي من أهمِّ أسس الإلحاد المعاصر.

يذكرُ هذا الفيلم أنَّ هناك عشْرة أسئلة لم يستطعِ العلم التجريبي الإجابة عنها. والأسئلةُ التي ذكر المقطع أنَّ العلم التجريبي عاجزٌ عن الإجابة عنها هي:

١) كيف وُجدت المادة، ولماذا كانت المادةُ أكثر من المادة المضادَّة بعد بداية الكون؟

٢) ماذا يوجَد في عمق الثقوب السوداء؟

٣) ماذا يوجد وراء البُعد الرابع؟ حيث يعتقد العلماء أنَّ الكون مكوَّن من عشرة أبعاد.

٤) ماذا تدفع الصفائح التكتونية في الأرض للتحرّك؟

٥) كيف وُجِدت الجاذبية؟ نحن نعرف كيف تعمل الجاذبية، ولكن لا نعرف لماذا وُجِدت أصلًا؟

٦) ماذا يحصل بعد الموت؟

٧) ما هو الهدفُ من الحياة

٨) هل يوجد أشباح، وكلُّ ما أشار إليه علم النفس الموازي في الحقيقة؟

٩) هل نستطيع أن نسافر عبرَ الزمن؟

---

(١) انظر: https: / /www.youtube.com /watch?v=SJoOhbf3_Ts

(٢) انظر: https: / /www.youtube.com/watch?v=ZvQCVtD - zac

١٠) هل يوجد إله، وهل يستطيع العلم التجريبي إثباتَ وجوده أو نفيه؟

وبالطبع، فليس السؤالُ الأخير موجَّهًا بالطريقة الصحيحة. لا يمكن أن ينكر العلم التَّجريبي وجودَ الخالق، ولكنَّ العلم التجريبي مليء بالأدلة على وجوده - كما سيأتي بيانه في الباب الثاني إن شاء الله -. ولكنْ بقية الأسئلة جيِّدة، حيث أنها تدلُّ على عجز العلمِ التجريبي عن الإجابة على كثيرٍ من الأسئلة الأساسية التي يسألها الإنسان. وذلك خيرُ دليل على إفلاس المذهب العلموي.

فهذه أبرزُ أنواع البرامج والمقاطع المرئية التي يستخدمها علماءُ الغرب في بيان الأدلة على وجود الله، ونقدِ الإلحاد ونظرياته الباطلة. كما هو واضحٌ فإنَّ هذه المقاطع متنوّعة وتتناول موضوعاتٍ مختلفة. ولكنَّ هذه الوسيلة من أنفع الوسائل الدعوية في هذا العصر الذي شغف كثيرٌ من الناس بالمرئيات أكثرَ من الكتب، فينبغي للمسلمين أن يستخدموا هذه الوسيلةَ في نقد الإلحاد أيضًا - علمًا أنه يوجد مقاطع مرئية عديدة أنتجَها مسلمون في نقد الإلحاد أيضًا -.

المبحثُ الرّابع
النَّشرُ في وسائل الإعلام

الإعلامُ من أهمِّ وسائل النَّشر في هذا الزمان بلا شكّ. ووسائلُ الإعلام متنوِّعة ومتعدِّدة، منها: الوسائلُ التقليدية كالإذاعة والتلفاز والصحف، ومنها: وسائلُ حديثة مثل: مواقع الإنترنت. وحيث إنَّ الإلحاد ينتشر في الدول الغربية، وإنَّ الملاحدة يستغلُّون وسائلَ الإعلام في نشر إلحادهم - كما سبق في التمهيد - ؛ فإنَّ علماء الغرب قد تصدّوا لهذه الظاهرة الخطيرة في أنواعٍ مختلفة من الإعلام. وأهمُّ وسائل الإعلام التي استخدمها علماءُ الغرب في نقد الإلحاد هي: الإذاعة، والإنترنت[1].

أوّلًا: الإذاعة:

هناك برامجُ إذاعية كثيرةٌ في نقد الإلحاد، وبيان الأدلة على وجود الله في الغرب - ولا سيَّما الولايات المتَّحدة -. مِن الأمثلة على هذه البرنامج:

البرنامجُ الأوَّل: «برنامج لحظات الخلق» (Creation Moments)، ولعلَّ هذا البرنامج هو أشهرُ البرامج النَّقدية للإلحاد على الإطلاق. فقد استمرَّ هذا البرنامجُ منذ عام ١٩٨٧، ويبثُّ الآن عبر ١٣٠٠ محطة إذاعية في العالم يوميًّا! وكلُّ حلقة مخصَّصة لبيان الأدلَّة العلمية على وجود الله، والردّ على الإلحاد[2].

البرنامجُ الثّاني: «إذاعة معهد الأبحاث المختصة بالخلق» (Institute of Creation Research Radio)، ولها أكثرُ من مائة حلقةٍ مبثوثة، وأغلب هذه الحلقات ردودٌ علمية

---

(١) وحيث أنَّ المبحث السابق تناول الحديثَ عن المقاطع المرئية فلن يعاد الكلامُ عنه هنا.

(٢) انظر: http: / /www.creationmoments.com /radio

على الإلحاد، وبيان الأدلَّة على وجود الخالق[١]. ومعهد الأبحاث المختصة بالخلق من المعاهِدِ العريقة في نقدِ الإلحاد، فقد أسِّس المعهد عام ١٩٧٠م، ولا يزال نشيطًا إلى الآن[٢].

البرنامجُ الثّالث: «إذاعة شبكة العلم الخلقي» **(Creation Science Network Radio)**. هذه الإذاعة تبثُّ برامجه النقدية للإلحاد ٢٤ ساعة في اليوم، في جميع أيام الأسبوع. وموضوعُ الحلقات: الأدلة العلمية على الخلق ونقد الإلحاد[٣].

ثانيًا: الإنترنت:

الإنترنت هو أهمُّ وسيلة من وسائل الإعلام التي يستخدمها علماء الغرب للتصدِّي لظاهرةِ الإلحاد؛ فهناك نشاطٌ قوي جدًّا في نقد الإلحاد من خلاله. وينشر علماء الغرب الكتب، والمقاطع المرئية، والمناظرات، والمقالات في مواقعهم في الإنترنت. ولكن حيث إنَّه سبقَ الكلام عن الكتب، والمقاطع المرئية والمناظرات، فيختصُّ الحديث هنا عن نشْرهم للمقالات في مواقعهم الإلكترونية.

والمواقعُ المتخصِّصة في نقد الإلحاد يصعب حصرُها. ولكن مِن حيث العموم يمكن تقسيمُها إلى مواقع تنشُر مقالات في نقد الإلحاد علميًّا، ومواقع تنشر مقالات في نقد الإلحاد عقليًّا:

المواقعُ التي تنشُر مقالاتٍ في نقد الإلحاد علميًّا: توجد ١٢٢ منظّمة تتبنّى مذهبَ الخلق في الولايات المتَّحدة - فقط -، وكلُّها تهتمُّ بنقد الإلحاد علميًّا. وأغلب هذه المنظَّمات لها مواقعُ تنشر فيها الردود العلمية على الإلحاد والملاحدة[٤]. ولكن، هناك منظَّمتان تهتمّان كثيرًا بكتابة المقالات في نقد الإلحاد، وهما:

المنظَّمةُ الأولى: «كهنوت الخلق العالمي» (Creation Ministries International). أسِّست هذه الجمعية عام ١٩٧٣ في أستراليا، ثمَّ فُتحت لها مكاتب في نيوزيلندا، وكندا،

---

(١) انظر: http: / /www.icr.org /radio/

(٢) انظر: http: / /www.icr.org /who – we – are

(٣) انظر: http: / /www.creationproof.com/id15.html

(٤) انظر: https: / /creation.com /creationist – organizations – in – the – usa

والولايات المتَّحدة، والمملكة المتَّحدة، وجنوب أفريقيا[1]. ولها موقع ضخمٌ متخصِّص في بيان الأدلة العلمية على وجود الله ونقد الإلحاد[2]. يعمل ٤٦ عالمًا من هذه الجمعية في كتابةِ المقالات العلمية في نقد الإلحاد، والموقع لديه آلاف المقالات في نقد الإلحاد.

المنظَّمةُ الثّانية: «الأجوبة في سفر التكوين» (Answers in Genesis)، أسّست هذه المنظَّمة عام ١٩٩٤، ولديْها ٩٠٠ موظَّف، وهذا يجعلها أكبرَ منظَّمة في نقد الإلحاد والدِّفاع عن النصرانية في العالم[3]، ولديها إيراداتٌ سنوية تفوق ٢٠ مليون دولار[4]. وهذه المنظَّمة لها موقعٌ كبير، وفيه مقالات كثيرة في نقد الإلحاد، ويعمل العلماء العاملون في هذه المنظَّمة في كتابة الأجوبة عن استفسارات الملاحدة والمتشكّكين[5].

والمقالاتُ في هذين الموقعين كثيرةٌ ومتنوِّعة، ولا تكاد تأتي شبهة إلحادية متعلِّقة بالعلم التجريبي، إلّا وفي هذين الموقعين ردودٌ عليها. ويتميَّز هذان الموقعان بأنه يعمل فيهما فريقٌ كبير من المتخصِّصين في جميع أنواع العلوم تقريبًا.

وهذا بيان لبعض أكبر علماءِ الغرب الذين يكتبون مقالات، ويردُّون على شبهات إلحادية في هذين الموقعين حسب تخصُّصاتهم:

المواقعُ التي تنشرُ مقالاتٍ في نقد الإلحاد عقليًّا: هناك مواقعُ لها اتِّجاه آخر في نقدِ الإلحاد، وهي المواقعُ التي تنقد الإلحاد بحجج عقلية. وأفضل هذه المواقع - فيما أرى - هو موقع: «الإيمان العقلاني» (Reasonable Faith)، الذي يديره البروفسور وليام لاين كرايغ.

---

(١) انظر: https: / /creation.com /about – us

(٢) انظر: https: / /creation.com/

(٣) انظر: https: / /answersingenesis.org /about /history/

(٤) انظر:
https://www.charitynavigator.org/index.cfm?bay=search.summary&orgid=5214

(٥) انظر: https: / /answersingenesis.org/

هذا الموقع له عددٌ من المقالات المفيدة في الموضوعات المتنوّعة، ولكن أهمّها ثلاثونَ مقالًا عن الأدلة العقلية على وجود الله[1]. وهي مقالات طويلة وعميقة ومفيدة في بابها.

كما أنَّ الموقع يستقبل الأسئلةَ المتعلِّقة بالإلحاد وغيرها، ثمَّ ينشر الأجوبة في الموقع. وقد بلغ عددُ أجوبة البروفسور كرياغ أكثر من خمسمائة جواب[2]. والأجوبة في الغالب تكون مُختصرة، ولكنَّها مُفيدة في نقد الإلحاد. ويستفيد المسلم المتخصِّص في نقدِ الإلحاد من قراءة هذه الأسئلة والأجوبة بمعرفة الشبهات المثارة عن الإيمان بالله وكيفية الردِّ عليها. مع أنه لا بدَّ من توقّي الأغلاط التي يقع فيها البروفسور كرايغ حيث إنَّه نصراني، فلا ينبغي لغير المتخصِّص الدخولُ في صفحته.

---

(١) انظر:
https://www.reasonablefaith.org/writings/scholarly - writings/the - existence - of - god/

(٢) انظر: /https: / /www.reasonablefaith.org /writings /question – answer

المبحثُ الخامس

النَّشرُ في وسائل التواصل

قدِ انتشرت وسائلُ التَّواصل بشكلٍ هائل في الآونةِ الأخيرة، وقد استغلَّ الملاحدةُ هذه الوسائلَ في نشْر إلحادهم. ولذلك قام علماءُ الغرب بالتصدِّي للموجةِ الإلحادية في وسائلِ التواصل أيضًا. ولكنَّه يلاحظ أنَّ دعوة الملاحدة في وسائل التواصل أقوى من ردودِ علماء الغرب. فإنْ كان علماءُ الغرب أكثرَ كتابة للكتب، وأقوى في مناظرات؛ فإنَّ نشاطَهم في وسائل لا يقارن بنشاط الملاحدة.

وقد يكون سببُ ذلك أنَّ الإلحاد الجديد مبنيٌّ على السخرية والاستهزاء والتهكُّم بالآخرين. وكثيرٌ من روَّاد وسائل التواصل من الشباب يحبُّون مثل هذا الأسلوب الساخر، بينما يكون كلامُ علماء الغرب يتَّسم بالعقلانية والعمق. ومثلُ هذا الخطاب، ربَّما لا يناسب كثيرًا من الشباب المشتغلين بوسائل التواصل - واللهُ أعلم -.

وهناك أمرٌ آخر، وهو أنه توجَد حسابات كثيرة في الدعوة إلى النصرانية من حيث العموم، وهي حساباتٌ كبيرة ونَشطة، ولكنَّ الحسابات المختصَّة في نقد الإلحاد وبيان الأدلَّة على وجود الله ليست كثيرة.

ورغمَ ذلك، فإنَّ لعلماء الغرب نشاطًا في وسائل التواصل لا بأسَ به. ونشاطهم أقوى في موقعيْن من وسائل التواصل، وهما: فيسبوك وتويتر. وبيانُ ذلك كالآتي:

فيسبوك:

أكبرُ حسابات منظَّمات علماء الغرب في فيسبوك هي:

١) حساب منظمة «الإيمان العقلاني» (Reasonable Faith)، ولديهم أكثر من ٨١٢ ألف متابع[١].

٢) حسابُ منظَّمة: «الأجوبة في سفر التكوين» (Answer in Genesis)، وله أكثر من ٤٦٧ ألف متابع[٢].

٣) حسابُ منظَّمة: «كهنوت الخلق العالمي» (Creation Ministries International)، لديه أكثر من ٨٥ ألف متابع[٣].

وهذا العدد أقلُّ من الحسابات الإلحادية - التي سبقتِ الإشارة إليها - من حيث عدد الحسابات وعدد المتابعين لهذه الحسابات.

وأمّا الحساباتُ الشخصية لعلماءِ الغرب المعْتنين بنقدِ الإلحاد في فيسبوك فأشهرُها كالآتي:

١) حسابُ البروفسور جون لينوكس الشخصي، له أكثر من ٦٨ ألف متابع، ويهتمُّ بنقد الخطابِ الإلحادي للملاحدة الجدد في مسائل علمية[٤].

٢) حسابُ البروفسور وليام لاين كرايغ الشخصي، له أكثر من ٤٦ ألف متابع، يعتني بإيرادِ الحجج العقلية على وجود الله، والرَّد على شبهات الملاحدة الفلسفية[٥].

---

(١) انظر: https: / /www.facebook.com /reasonablefaithorg/

(٢) انظر: https: / /www.facebook.com /AnswersInGenesis

(٣) انظر: https: / /www.facebook.com /creationministries/

(٤) انظر: https: / /www.facebook.com /profjohnlennox

(٥) انظر: https: / /www.facebook.com /WilliamLaneCraig

٣) حسابُ الدكتور ستيفن ماير، عنده أكثر من ٣٥ ألف متابع، ويركّز على التَّصميم الذكي، ونقد نظرية التطوّر[١].

٤) حسابُ البروفسور ألستر ماكغراث الشخصي، له أكثر من ٢٠ ألف متابع، ويهتمُّ بنقد خطاب الملاحدة الجدد في مسائل دينية[٢].

تويتر:

أمّا دعوةُ الملاحدة المؤسَّسية في تويتر، وردُّ علماء الغرب عليهم، فهي أضعف من فيسبوك. ويتبيَّن ذلك خلالَ المقارنة بالمنظّمات الموجودة في فيسبوك وتويتر:

١) حسابُ منظمة: «الإيمان العقلاني» (Reasonable Faith) عنده ٩٠ ألف متابع[٣].

٢) حسابُ منظَّمة: «الأجوبة في سفر التكوين» (Answer in Genesis) عنده ٦٣ ألف متابع[٤].

٣) حسابُ منظَّمة كهنوت الخلق العالمي (Creation Ministries International)، لديه أكثر من ٦٧ ألف متابع[٥].

وأمّا الحساباتُ الشخصية لعلماء الغرب في تويتر فأشهرُها كالآتي:

١) حسابُ البروفسور جون لينوكس الشخصي، عنده أكثر من ٤٧ ألف متابع[٦].

---

(١) انظر: https: / /www.facebook.com /drstephencmeyer

(٢) انظر: https: / /www.facebook.com /AlisterMcGrath/

(٣) انظر: https: / /twitter.com /RFupdates

(٤) انظر: https: / /twitter.com /aig

(٥) انظر: https: / /twitter.com /creationnews

(٦) انظر: https: / /twitter.com /profjohnlennox

٢) حسابُ البروفسور ألستر ماكغراث الشخصي، له أكثر من ٢٣ ألف متابع[١].

٣) حسابُ الدكتور هيو روس الشخصي، عنده أكثر من ١٤ ألف متابع، وهو يعتني بإيرادِ الحجج من علم الفلك على وجودِ الله، ويردُّ على شبهات الملاحدة الفلكية[٢].

٤) حسابُ البروفسور بول كوبان الشخصي، عنده أكثر من ١٠ آلاف متابع، وهوَ يعتني بنقد الإلحاد من الناحية العقلية الفلسفية[٣].

وهذا أيضًا أقلُّ من الحسابات الإلحادية التي سبق ذكرُها. فهذا دليلٌ واضح على أنَّ الملاحدة لديهم نشاطٌ قويّ في وسائل التواصل، وأنَّ شعبيتهم هناك تفوق شعبية علماء الغرب بمراحل.

ويتبيَّن من خلال هذا المبحث البونُ الشاسع بين جهود علماء الغرب في نقد الإلحادِ في الإذاعةِ وكتابة المقالات والردِّ على الشبهات، وبين نشاطهم في وسائل التواصل. وينبغي للمسلمين أن يتَّعظوا من هذه التجربة لأنَّنا نعيش في عصر تتجدَّد فيه وسائل التواصل، وليستِ العبرة لدى كثيرِ الناس بمَن هو أقوى حجة، وإنما العبرة بمن يوصِّل رسالته إلى الناس أكثر. فلا بدَّ من الجمع بين قوَّة الحجَّة والاستفادة من الوسائل الحديثة لنشْر الحقِّ وردِّ الباطل، وإلّا لانتشرت ظلمات الباطل والزيغ، واندثر نور الحقِّ لدى أكثر الناس.

---

(١) انظر: https: / /twitter.com /alisteremcgrath

(٢) انظر: https: / /twitter.com /RTB_HRoss

(٣) انظر: https: / /twitter.com /PaulCopan

المبحثُ السادس

إصلاحُ العلوم التجريبية لتتوافقَ مع الحقائق الدينية

المناهجُ التعليمية في الدول الغربية تُبنى على المذهب الطبيعي في هذا العصر. المؤسساتُ التعليمية تدرِّس العلوم وفقَ هذا المذهب، والدوريات والمجلات العلمية المشهورة تنشرُ الأبحاث العلمية المبنيَّة عليه كذلك، كما سبق بيانه.

ولكنْ لم يكنِ الأمر بهذا الشكلِ في الدول الغربية في السابق، بل كانت جامعاتهم مؤسَّسة على الإيمان بالله. ومما يدلُّ على ذلك: شعاراتُ بعض أشهر الجامعات في الدول الغربية:

المثالُ الأوَّل: جامعة أكسفورد هي أوَّلُ جامعة أسِّست في بريطانيا، وكان ذلك عام ١٠٩٦م. وشعارُ هذه الجامعة إلى يومنا هذا هو: «الربّ نوري» (Dominus Illuminatio Mea)[١].

المثالُ الثّاني: جامعة أوبسالا في السويد، من أقدم الجامعات وأشهرها في العالم، حيث أسِّست عام ١٤٧٧م. وشعارها: «الحقُّ عن طريق رحمة الله وعن طريق الطبيعة» (Gratiae Veritas Naturae)[٢].

---

(١) انظر:
https://uni-of-oxford.custhelp.com/app/answers/detail/a_id/121/~/what-does-the-universitys-motto-dominus-illuminatio-mea-mean%3F

(٢) انظر: http: / /latinphrases.me /gratiae – veritas – naturae.html

المثالُ الثّالث: جامعة برينستون، مِن أعرق الجامعات وأفضلها في الولايات المتَّحدة، وشعارُها إلى يومنا هذا: «الازدهار تحت قدرة الله» (Dei Sub Numine Viget)[1].

والأمثلةُ على هذا الأمرِ كثيرة. وهذا يدلُّ على أن الجامعات الغربية العريقة أسّست على الإيمان بالله ودراسة مخلوقات الله.

وكان هذا هو الهدفَ الرئيس لدراسة الطبيعة في السابق لدى العلماء؛ قال البروفسور سي. أس. لويس: «أصبح الناس علماء لأنهم توقَّعوا وجود قانون في الطبيعة، وسببُ توقُّعهم وجود القانون: إيمانهم بوجود واضع للقانون»[2]. وقال البروفسور جون لينوكس معلّقًا على هذا الكلام: «وبسبب هذا الاعتقاد قام فرنسيس بيكون... - الذي يعتبرُ مؤسس العلم التجريبي الحديث - بتعليم الناس أنَّ الله قدَّم لنا كتابين: كتاب الطبيعة، والكتاب المقدَّس، وعلينا حقيقة أن ندرسَ كلا الكتابين بطريقة ملائمة، وأن نُعملَ عقولنا في دراستهما معًا. وكثيرٌ من رجالات العلم التجريبي يوافقون على هذا الطرح... فكلُّهم مؤمنون بالله، ومعظمُهم مسيحيون، ولم يعقْهم إيمانُهم عن عملهم في العلم التجريبي؛ بل كان الدافع الرئيس للاكتشافات العلمية غالبًا، ولم يكونوا يخجلون من التصريح بهذا»[3].

علمنةُ العلوم:

وهكذا كانت دراسةُ العلوم في أوروبا طيلةَ قرون غديدة إلى أن طلع قرن الإلحاد والعلمانية في القرن الثامن عشر؛ فألَّف جوليان أوفراي كتابه الطبّي: «الإنسان آلة» (L'homme Machine) عام ١٧٤٧م وفقَ المذهب الطبيعي. وألّف بارون دي هولباخ كتابَه: «نظام الطبيعة» (Systeme de la nature) عام ١٧٧٠ م، وصرّح فيه بالإلحاد[4].

---

(١) انظر:

https://www.princeton.edu/~oktour/virtualtour/korean/Info09-Flag.htm

(2) Miracles: a preliminary study (110)

(3) God's Undertaker (21)

(٤) وقد سبقتِ الإشارةُ إلى هذين الكتابين في التمهيد.

ولكنْ لم تحصل علمنةُ العلوم بقوَّة إلّا بعد ظهور نظرية التطوّر على يد داروين. وذلك أنَّ أنصار هذه النظرية يدَّعون أنهم توصَّلوا إلى طريقة علمية في تفسير التعقيد والإتقان في المخلوقات الحيَّة. ودليلُ الإتقان من أقوى الأدلة على وجود الخالق. فلما رأوا أنَّ العلم التجريبي استطاع أن يفسِّر ظواهر التصميم والإتقان في المخلوقات الحيّة اعتقدوا أنَّهم وجدوا دليلًا قويًّا على صحَّة المذهب الطبيعي والاستغناء عن الإيمان بالخالق. ولهذا يدافع الماديون عن نظرية التطوّر بما لا يدافعون عن أي نظرية أخرى. ويعرفون أنه إذا سقطت هذه النظرية فذاك يستلزم حتمًا سقوط المذهب الطبيعي، وبالتالي: ينهار الإلحاد.

معارضةُ الخلقيين لنظرية التطوّر:

لمّا صدر كتاب داروين: أصل الأنواع، بدأ المتديِّنون يعارضون نظريته بقوة حيث أدركوا خطورةَ هذه النظرية على الإيمان بالخالق؛ فأطلق داروين على خصومه لفظة: الخلقيّين (Creationists)[١]. وأصبحت هذه الكلمة لقبًا على كلّ مَن عارض تفسير العلوم عن طريق المذهب الطبيعي من حيث العموم، ونظرية التطوّر على وجه الخصوص.

ومنذُ ظهور نظرية التطوّر كانت معارضة علماء الغرب شديدة لهذه النظرية، وكانت المعارضة أقوى في الولايات المتَّحدة منها في بقية البلدان الغربية. وكانت الغلبة في بعض الأحيان للخلقيين، مثل ما حصل في عشرينيّات القرن العشرين حين منعت ثلاث ولايات في الولايات المتَّحدة تدريسَ نظرية التطوّر، وناقشت ٣٢ ولاية نحو هذا القرار. ولكنْ مع مرور الوقت تقوَّى التطوّريون، وصارت لهم الغلبة، ففرضوا بتدريس نظريتهم، بل جعلوها العمدة في علم الأحياء[٢].

بعد انتهاءِ الحرب العالمية الثانية ظهرَ النقاش عن نظرية التطوّر بقوَّة من جديد، حين عرف الناس أنَّ هذه النظرية كانت أساس أيديولوجية الحزب النازي الألماني. ولما بدأتِ

---

(١) انظر: Charles Darwin’s letter to J.D. Hooker, 5:th July 1856
http://www.darwinproject.ac.uk/letter/DCP-LETT-1919.xml

(٢) انظر: http: / /www.counterbalance.org /history/creat1920 – frame.html

الحرب الباردة تشتدُّ زاد النقاش؛ حيث إنَّ هذه النظرية كانت مقرونة بالإلحاد، والشيوعية - العدوّ اللدود للولايات المتَّحدة - هي مذهب إلحادي مبنيٌّ على نظرية التطوّر. ورغمَ ذلك استطاع العلمانيون الماديون إبقاءَ نظريتهم في المؤسسات التعليمية(١).

وفي عام ١٩٦١م، صدرَ كتاب: «الطوفان في سفر التكوين» (The Genesis Flood) للعالميْن: البروفسور هينري موريس وجون ويتكومب(٢). وكان موضوعُ الكتاب عن التفسير العلمي لطوفان نوح u. وصارَ له صدى كبيرٌ في الأوساط العلمية، ولقي قبولًا واسعًا، وكان سببًا في انتعاش مذهب الخلق. ففي عام ١٩٦٣م، أسَّس هنري موريس جمعيةَ الأبحاث المختصة بالخلق، واجتمع العلماء الخلقيون في هذه الجمعية لإعادة المنهج العلمي إلى أصله، وهو دراسة خلق الله تعالى.

ثمَّ توالى فتحُ الجمعيات والمؤسسات المختصة بمذهب الخلق، حتى بلغت المئات في الولايات المتَّحدة فقط(٣)، إضافةً إلى جمعيات في بريطانيا، وكندا، وأستراليا، وغيرها من البلدان(٤).

وفي عام ١٩٨٧م، قضتِ المحكمة العليا الأمريكية بوجوب تدريس نظرية التطوّر في المدارس، ومنع تدريس مذهب الخلق. والسببُ أن مذهب الخلق مبنيٌّ على الديانة النصرانية، ويفضِّل هذه الديانة على بقية الأديان، بينما ينصُّ التعديل الأوّل لدستور الولايات المتَّحدة الأمريكية على عدم تفضيل ديانة على ديانة أخرى(٥). فكانت ضربة قوية ضدَّ مذهب الخلق.

---

(١) انظر: http: / /creationwiki.org /History_of_creationism

(٢) جون ويتكومب (John Whitcomb): لاهوتي أمريكي وحامل شهادة الدكتوراه في علم اللاهوت. وقد تخصَّص في علم الإحاثة وتفسير الظواهر التاريخية وفقَ الكتاب المقدَّس، وألّف عددًا من الكتب في ذلك. توفي عام: ٢٠٢٠م. انظر:
https://answersingenesis.org/bios/john - whitcomb/

(٣) انظر هذه الصفحة التي ذكرت أسماء ١٢٤ جمعية ومؤسسة تتبنّى مذهب الخلق في الولايات المتَّحدة: https://creation.com/creationist-organizations-in-the-usa

(٤) انظر: http: / /creationwiki.org /Creationist_group

(٥) انظر: / / https: / /supreme.justia.com /cases

ظهورُ حركة التَّصميم الذكي:

لمّا قضتِ المحكمة العليا بمنع تدريس مذهب الخلق في المدارس ظهرت حركة علمية جديدة، وهي «حركة التصميم الذكي» (Intelligence Design Movement). وكان سببُ انطلاق هذه الحركة: صدورَ كتاب في عام ١٩٨٩م بعنوان: «من الباندا والناس» (Of Pandas and People). وقُدِّم الكتاب كمقرَّر دراسي للأطفال. والكتاب يشير إلى أنه لا بدَّ أن يكون هناك خالق لتفسير التعقيد والإتقان في المخلوقات الحيَّة بدون ذكر كتاب النصارى المقدَّس[١]. فأعيدَ الجدلُ مرَّة أخرى عن نظرية التطوُّر والمذهب الطبيعي في الأوساط العلمية والسياسية.

وبعدَ صدور هذا الكتاب بعامين أُسّس «معهد ديسكفري» (Discovery Institute)، وهو أشهرُ معهدٍ علمي لحركة التصميم الذكي يروِّج لنظرية التصميم الذَّكي[٢]. وفي وقت قصير انضمَّ عددٌ كبير من العلماء والسياسيين والقانونيين إلى هذا المعهد. وعندما شعر علماء حركة التصميم الذَّكي بأنَّ شوكتهم قويت طالب القانونيون المنضمون إلى الحركة بتدريس نظريتهم في مدارس الولايات المتَّحدة، ولكن قضت المحكمة الفيدرالية الأمريكية بمنْعهم من ذلك في قضية دوفر المشهورة[٣].

وقضيةُ تدريس مذهب الخلق ونظرية التصميم الذَّكي هي مسألة سياسية حساسة في الولايات المتَّحدة؛ حيث يؤيِّد كثيرٌ من سياسيّي الحزب الجمهوري تدريس هذه النظريات بخلاف الحزب الديمقراطي، ونوقشت هذه المسألة في الانتخابات الرئاسية[٤].

---

(١) انظر: https: / /ncse.com /library – resource /design – trial

(٢) انظر: https: / /www.discovery.org /about/

(٣) انظر:

https://law.justia.com/cases/federal/district-courts/FSupp2/400/707/2414073/

(٤) انظر:

https://www.salon.com/2016/02/02/make_them_talk_about_evolution_why_wont_a_single_republican_presidential_candidate_admit_that_darwins_right/

الفروقُ بين مذهب الخلق ونظرية التصميم الذّكي:

قد ذُكر خلالَ هذا المبحث كلٌّ من مذهب الخلق ونظرية التصميم الذَّكي؛ يجدر التنبيهُ على الفرق بينهما، ويمكن أن يلخَّص ذلك في ثلاثِ نقاط رئيسة[1]:

النُّقطةُ الأولى: مذهبُ الخلق مبنيٌّ على كتاب النصارى المقدَّس؛ فهو مذهب ديني علمي. وأمّا نظرية التصميم الذكي فإنها تختلفُ عن مذهب الخلق من كونها لا تفضِّل دينًا على دين آخر؛ ولا تبني تفسيراتِها العلمية على كتابهم المقدَّس؛ فهي حركة علمية محضة – وإن كان أغلب علمائها من النصارى –.

النُّقطةُ الثّانية: الخلقيون يتبنَّون ما يسمَّى بنظرية الأرض الفتية، بمعنى أن الكون خُلِق في ستة أيام حقيقية، وحصلَ ذلك قبل حوالي ٦٠٠٠ إلى ١٠,٠٠٠ سنة. ولهذا تكون الأرضُ فتية وحديثة، وليست مليارات السنوات كما يقوله القائلون بنظريتي الانفجار العظيم والتطوُّر. وسببُ أخذهم لهذا الموقف هو أن كتابهم المقدَّس ينصُّ على أنَّ الكون خُلق في ستة أيام، ويذكر تاريخ البشرية بعدَ ذلك من آدم ﷺ إلى المسيح ﷺ بسنوات محدَّدة. وهؤلاء العلماء يئوِّلون أيامَ الخلق بأنها مثل أيام الأسبوع العادية. وبتتبّع السنوات المذكورة في الكتاب المقدَّس من آدم إلى المسيح استنتجوا هذا العمر للأرض. وأمّا علماء التصميم الذَّكي، فإنهم يتبنّون مذهب الأرض القديمة، وهو أن الكون وُجد قبلَ ١٣,٧ مليار سنة، والأرض قبل ٤,٥ مليار سنة.

النُّقطةُ الثّالثة: الخلقيون يروْن أنَّ الله خلق الحيوانات والإنسان خلقًا مباشرًا، وأن آدم ﷺ هو أوّلُ بشرٍ على الأرض. وأمّا علماءُ التصميم الذَّكي، فقد يوافقون نظرية التطوّر على بعض القضايا المتعلِّقة بالتطوّر، ولكنَّهم ينتقدون آليات التطوّر

---

(١) انظر هذه الفروق في:
http://www.nj.com/hunterdon-county-democrat/index.ssf/2011/04/the_difference_between_creatio.html
و: http://www.slate.com/articles/news_and_politics/explainer/2005/05/creationism_vs_intelligent_design.html

كالطفرات العشوائية والانتخاب الطبيعي، ويروْن أنَّه لا بدَّ أن يكون هناك خالق خلق هذه المخلوقات الحيّة.

- **أيُّهما أقربُ إلى الصواب؟**

وتتبيَّن خلالَ هذه النقاط الثلاث أنَّ مذهب الخلق ونظرية التصميم الذكي يتّفقان في إثبات وجود الخالق ونقد المذهب الطبيعي، ويفترقان في ثلاث مسائل مهمَّة. ولكن أيُّهما أقرب إلى الصواب والحقِّ؟ سيأتي الحديث مفصَّلًا عن هذه القضية في الفصل الثّاني من البابِ الثاني عندَ الحديث عن شُبهات الملاحدة العلمية، إن شاء الله.

وسائلُ إصلاح العلوم التَّجريبية لتتوافق مع الحقائق الدينية:

قدْ تبيَّن خلالَ الاستعراض التاريخي للصراع بين أنصار المذهب الطبيعي وأنصار مذهب الخلق ونظرية التصميم الذَّكي، أنَّه ليس صراعًا علميًا محضًا، بل يحمل بُعدًا سياسيًّا وقانونيًّا أيضًا. فتنقسم جهودُ علماء الغرب في إصلاح العلوم التجريبية إلى جانبيْن رئيسين:

الأوَّل: الجانبُ العلمي. ولديهم أربعُ وسائل رئيسة في ذلك:

١) تأليفُ الكتب.

٢) عقدُ المناظرات.

٣) إنتاجُ الأفلام الوثائقية.

٤) المجلّات والدوريات العلمية.

وقد سبقتِ الإشارة إلى الوسائل الثلاث الأولى في هذا الفصل، وهي وسائل مُشتركة بين نقد الإلحاد من حيث العموم وإصلاح العلوم التجريبية على وجه الخصوص.

ولكنْ تبقى الوسيلةُ الرابعة، وهي المجلَّات والدوريات العلمية، وهي وسيلة خاصة بإصلاحِ العلوم التجريبية. وهي وسيلة مهمَّة جدًّا، لأنَّ أغلب المجلَّات والدوريات العلمية الموجودة اليوم تمنع نشرَ أبحاث علمية غير مبنية على المذهب الطبيعي. ويدّعي التطوُّريون أنَّه لم ينشر بحث علمي مبنيٌّ على نظرية التصميم الذَّكي

في دورية علمية بمراجعة أقران (Peer Reviewed Journal)[1] سوى مرّة واحدة. وقد سحب الناشر البحث من مجلّته بعد انتقادات حادَّة من قبَل التطوّرين[2]. ويستعمل التطوّريون عدم نشر الأبحاث العلمية المبنيَّة على نظرية التصميم الذكي كحجة في نقد النظرية، وأنها لا تتلقّى قبولًا لدى المجتمع العلمي.

ولكن أنصار التصميم الذَّكي ردّوا على هذا الادِّعاء في موقع معهد دسكفري بذكر ٢٥ بحثًا علميًّا منشورًا في مجلّات ودوريات علمية[3]. ورغم ذلك، فإنه عدد قليل مقارنة معَ عدد الأبحاث العلمية المنشورة. ولهذا سعى علماءُ الغرب إلى إنشاء مجلات ودوريات علمية خاصَّة بهم. وتنقسم هذه المجلات والدوريات إلى قسمين:

القسمُ الأوَّل: مجلّات ودوريات نظرية التصميم الذَّكي. قد أنشأ علماء التصميم الذَّكي «مختبر معلومات التطوّر» (The Evolutionary Information Lab)، و«معهد علم الأحياء» (Biological Institute)، وكلاهما ينشر أبحاث علمية بمراجعة أقران[4].

القسمُ الثّاني: مجلّات ودوريات مذهب الخلق. مؤسَّسات مذهب الخلق اهتمّت بموضوع المجلات والدوريات العلمية أيضًا. ومن الأمثلة على هذه المجلات والدوريات:

١) مؤسسة كهنوت الخلق العالمي (Creation Ministries International) لديها: «مجلة الخلق» (Creation Magazine)[5] و«دورية الخلق» (Journal of Creation)[6].

---

(١) دورية علمية بمراجعة أقران: دورية علمية تنشر أبحاث علمية بعد مراجعةِ متخصِّصين أنَّ البحث يتوافق مع المعايير العلمية المتّبعة.

انظر المقال: How to recognize peer – reviewed (refereed) journals, على الرابط:
https://www.angelo.edu/services/library/handouts/peerrev.php

(٢) انظر: http: / /biostor.org /reference/81375

(٣) انظر: /https: / /www.discovery.org /id /peer – review

(٤) انظر: http: / /www.evoinfo.org /index.html
وانظر: http: / /www.biologicinstitute.org /research

(٥) انظر: https: / /creation.com /creation – magazine

(٦) انظر: https: / /creation.com /journal – of – creation

٢) مؤسسة الأجوبة في سفر التكوين لديها «دورية أبحاث الأجوبة» (Answers Research Journal)[١]، ومجلة الأجوبة (Answers Magazine)[٢].

٣) ومعهد الأبحاث المختصة بالخلق لديه «مجلة الأعمال والحقائق» (Acts and Facts Magazine)[٣].

والقائمون على هذه الدوريات والمجلات متخصّصون في العلوم الطبيعية، ويراجعون الأبحاثَ قبل النشر مثل بقية الدوريات والمجلات العلمية. ولا شكَّ أن هذه الخطوة جيِّدة وموفَّقة في سبيل إصلاح العلوم التجريبية، مع التنبيه على ما في هذه المذاهب من الأخطاء. ولكن، ينبغي للمسلمين أن يستفيدوا من هذه التجارب ويسعوا لإنشاء مجلاتٍ ودوريات مماثلة، ولكن موافقة للدين الإسلامي الحنيف. فكون العلماء التجريبيين المسلمين ينشرون أبحاثهم العلمية في المجلات والدوريات المبنية على المذهب الطبيعي المنهجي فيه خطورةٌ كبيرة؛ لأنَّ المذهب الطبيعي المنهجي قد يؤدّي إلى المذهب الطبيعي الوجودي - كما سبقتِ الإشارة إليه -، وهو انسلاخ تامٌّ من الدين - والعياذ بالله -.

الثّاني: الجانبُ القانوني السياسي: وهذا الجانب من الأهمية بمكان، ولا سيَّما في الدول الديمقراطية مثل: الولايات المتَّحدة، حيث إنَّ سياسة التعليم تقع على عاتق السياسيين المنتخبين من قبَل الجمهور. والسياسيون يقرِّرون أي نظريات تدرَّس في المدارس. فإذا وافق السياسيون على السماح بتدريس مذهب الخلق ونظرية التصميم الذَّكي؛ فإنَّ مثلَ هذا القرار يعطيهما دفعة قويَّة للانتشار في الأوساط العلمية.

وقد تبيَّن في هذا المبحث أنَّ قضية تدريس نظرية التطوّر هي قضية سياسية تناقش في الانتخابات السياسية، وتنتهي في المحاكم. ولهذا نجد أنَّ بعض كبار الشخصيات في حركة التصميم الذَّكي سياسيون ومحامون.

---

(١) انظر: https: / /answersingenesis.org /answers /research – journal /about/

(٢) انظر: https: / /answersingenesis.org /answers /magazine /about/

(٣) انظر: http: / /www.icr.org /aaf

وهؤلاء - ومَن معهم مِن العلماء التجريبيين - قد وضعوا إستراتيجية تسمَّى: «إستراتيجية إسفين» (Wedge Strategy)، وهي خطة عمل سياسية واجتماعية وأكاديمية تسعَى إلى هزيمة المذهب المادي والطبيعي ونظرية التطوُّر وإثبات وجود الله بشكل متكامل[1]. وقد قسَّموا الإستراتيجية إلى ثلاثة محاور:

١) الأبحاث العلمية وتأليف الكتب والنشر.

٢) التأثير على الرأي العام (ويشمل الحملات السياسية والإعلامية).

٣) المواجهة الثقافية (وتشمل الإجراءات القانونية).

وقد طبَّق معهد دسكفري هذه الإستراتيجية بنجاح كبير، وأقاموا عددًا من الحملات في هزيمةِ المذهب المادي ونظرية التطوُّر، من أشهرها: «تعليم المتنازع فيه» (Teach the Controversy). وهذه الحملةُ تسعى على الصعيد الإعلامي والسياسي والقانوني لموافقة تسمح الحكومة الأمريكية على تدريس نظرية التصميم الذَّكي في المدارس والجامعات الأمريكية.

وإنْ لم تنجح هذه الحملاتُ في السماح بتدريس النظريات المخالفة حتى الآن، إلا إنَّ لها تأثيرًا كبيرًا على الرأي العام في الولايات المتَّحدة. فقد تبيَّن خلال استبيان عن مدى القبول لنظرية التطوّر قام به مركز بيو للأبحاث - وهو من مراكز الإحصاء المشهورة في الولايات المتَّحدة - عام ٢٠٠٩ النتائج التالية[2]:

١) المؤيّدون لمذهب الخلق: ٣١ ٪.

٢) المؤيّدون للتطوّر الموجَّه (وهو يشمل نظرية التصميم الذَّكي): ٢٢ ٪.

٣) المؤيّدون لنظرية التطوّر بآليات طبيعية: ٣٢ ٪.

وحيث إنَّ القائمين على هذه الحملات لهم خلفية في الحزب الجمهوري فإن

---

(١) انظر خطة العمل هنا: http: / /www.antievolution.org /features /wedge.pdf

(٢) انظر: http: / /www.people - press.org/2009 / 07 / 09/section - 5 - evolu-tion - climate – change – and – other – issues/

تأثيرهم أقوى في أتباع هذا الحزب من التأثير على الحزب الديمقراطي. ففي استبيان قامَ به معهد غالوب - وهو مِن أشهر معاهد الإحصاء - تبيَّن أنَّ ٦٨٪ من أتباع الحزب الجمهوري لا يؤمنون بنظرية التطوُّر في مقابل ٣٠٪ يؤمنون بها. وأمّا في الحزب الديمقراطي، فإن ٤٠ ٪ لا يؤمنون بنظرية التطوُّر في مقابل ٥٧ ٪ يؤمنون بها[١].

وهذه الحملات موجَّهة في المقام الأوَّل إلى الأمريكان، ولهذا كان تأثيرها أقوى من الدول الأوروبية. ومن الأمثلة على ذلك ما تبيِّنه الإحصاءات في بريطانيا، فقد قام مركز إبسوس موري (Ipsos Mori) - من أشهر مراكز الإحصاء في بريطانيا - باستبيان في هذه القضية، وتبيَّن أنَّ ٢٢ ٪ من البريطانيين يؤمنون بمذهب الخلق، و١٧ ٪ يؤمنون بنظرية التصميم الذَّكي، و٤٨ ٪ يؤمنون بنظرية التطوّر[٢].

والخلاصةُ أنَّ الخلقيين وأنصار نظرية التصميم الذَّكي يقومون بعمل قوي في سبيل إصلاح العلوم التجريبية لتتوافقَ مع الحقائق الدينية، وينبغي للمسلمين أن يستفيدوا من هذا العمل، وأن يعملوا وفقَ خطط عمل مدروسة وإستراتيجيات محكمة في مكافحة الإلحاد ومزاعمه العلمية.

---

(١) انظر: http: / /news.gallup.com/poll/27847/majority - republicans - doubt - theory - evolution.aspx

(٢) انظر: https: / /www.ipsos.com /ipsos – mori /en – uk /bbc – survey – origins – life

المبحثُ السّابع
نقدُ وسائل علماءِ الغربِ في الردود على الإلحاد

قدْ بيَّن هذا الفصل أبرزَ وسائل علماء الغرب في الردود على الإلحاد، وهي: تأليف الكتب، وعقد المناظرات، وإنتاج البرامج والمقاطع المرئية والنشر في وسائل الإعلام والنشر في وسائل التواصل الحديثة، إضافة إلى محاولة إصلاح العلوم التجريبية لتتوافق مع الحقائق الدينية.

وهذه الوسائل التي استعملها علماءُ الغرب في هذا الرد على الملاحدة هي وسائل جيِّدة ومفيدة. ويستعملها المسلمون المتخصِّصون في نقد الإلحاد أيضًا. وينبغي للمسلمين أن يأخذوا بكلِّ وسيلة مباحة لمقاومة هذه العقيدة الفاسدة. ومع ذلك فينبغي التنبيهُ على أربعة أمور فيما يتعلَّق بوسائل علماء الغرب في الردود على الإلحاد، وهي:

الأمرُ الأوَّل: الكتبُ وغيرها من الوسائل في نقد الإلحاد تشتمل على فوائد كثيرة، ولكنَّها أيضًا تشتمل على عددٍ من الأباطيل. فقلَّ ما يوجد لديهم كتاب في الردِّ على الإلحاد إلّا وأنَّه يشتمل على الدعوة إلى ديانتهم المحرّفة. ولهذا يصعب على المسلم أن يوصي بهذه الكتب إلّا للمتخصِّص في نقد الإلحاد الذي يستطيع أن يميِّز الغثَّ من السَّمين. ولو أوصى بهذه الكتب لعامَّة المسلمين لخشي لتحذيرهم من الإلحاد فقد يكون سببًا في دعوتهم إلى النصرانية. وكما أنَّ الإلحاد كفر فإنَّ النصرانية كفر أيضًا، وفي نهاية الأمر فإنَّ الكفر ملّة واحدة، وإن كانت دركات؛ بعضها أسفل من بعض.

الأمرُ الثّاني: قد سبق أنَّ علماء الغرب عقدوا أكثر من ثلاثمائة مناظرة مع الملاحدة. وهذا دليلٌ على عنايتهم الكبيرة بالمناظرات. وقد حرَّرت في آخر

المبحث المتعلق بهذا الموضوع خطورةَ عقد المناظرات العلنية، وخطورةَ الاستماع إليها إلا للمتخصِّص. فالملاحدةُ يبثُّون سمومهم في هذه المناظرات بكثرة، ويكثرون من الاستهزاء والسُّخرية بالله وبالمتديِّنين. وإنْ كان علماء الغرب في الغالب أقوى منهم من الناحية العقلية والجدلية في هذه المناظرات إلا أنَّ طريقة السخرية مؤثّرة في النفس. ولهذا قد يبدو للمستمع غيرِ الفاهم للحجج والبراهين أنَّ الملاحدة ينتصرون في هذه المناظرات. فينبغي للمسلمين أن يكونوا على حذرٍ شديد من هذه المناظرات، وإن كان المتخصِّص يستطيع أن يستفيد منها.

الأمرُ الثّالث: أنَّ تأثير علماء الغرب على عامَّة الناس يبدو أقل من تأثير الملاحدة. فكتبُ الملاحدة الجدد قد وصلتْ لأعلى المبيعات في الدول الغربية - كما تقدّم ذكره -، بينما ليس الأمرُ كذلك لأغلبِ الردود على هذه الكتب. وقد ذكرت أنّ علماء الغرب ألَّفوا أكثرَ من سبعين ردًّا على كتاب: وهم الإله لريتشارد دوكينز. ومع ذلك لم تؤثّر تلك الردودُ كما أثَّر كتابه هذا. كما أنَّ تأثير الملاحدة أقوى بكثير في وسائل التواصل، والمتابعون لهم أكثرُ من المتابعين لعلماء الغرب. وقد يكون من أسباب ذلك أنَّ الملاحدة الجدد يخاطبون عامَّة الناس بطرق جماهيرية بينما يكون خطاب علماء الغرب فيه شيء من العمق. ولا شكَّ أنَّ الحجج والبراهين والردود لا بدَّ أن يكون فيها عمق، إلا أنّه من المهمِّ كذلك في هذا الزمان أن يبسِّط الإنسان خطابَه للجماهير حتى يستطيع الوصول إليهم. والظاهر أنَّ علماء الغرب لم يوفّقوا في هذا الجانب.

الأمرُ الرّابع: قد سعى علماءُ الغرب إلى إصلاح العلوم التجريبية لتتوافق مع الحقائق الدينية عندهم. ولكنَّ هذه الحقائق الدينية نفسها قد تكون صحيحة أحيانًا، مثل: إيمانهم بوجود الخالق، وقد تكون باطلة أيضًا مثل: عقائدهم الفاسدة والنصوص المحرَّفة في كتابهم المقدَّس. ولهذا، فإنهم استطاعوا القيام بإصلاح هذه العلوم من نواحٍ وإفسادها من نواحٍ أخرى. ولهذا ينبغي للمسلمين القيام بهذه المهمة بأتمِّ وجه وطريقة. ولا يمكن أن يوجد الحقُّ الخالص إلّا عند أهل الإسلام والسنة.

البابُ الثّاني

حججُ علماء الغرب على إثباتِ وجود الله

وفيه ثلاثةُ فصول:

الفصلُ الأوَّل: حججُ علماءِ الغرب العقلية على إثبات وجود الله.

الفصلُ الثّاني: حججُ علماءِ الغرب العلمية على وجود الله.

الفصلُ الثّالث: حججُ علماءِ الغرب الحسية على وجود الله.

الفصلُ الأوَّل

حججُ علماء الغرب العقليَّة على إثبات وجود الله

وفيه عشرةُ مباحث:

المبحثُ الأوَّل: حجةُ الفطرة.

المبحثُ الثّاني: الحجَّة الكونية.

المبحثُ الثّالث: الحجَّة الغائية.

المبحثُ الرّابع: حجةُ التوافق الدقيق للكون.

المبحثُ الخامس: حجةُ الجمال.

المبحثُ السّادس: الحجَّة الوجودية.

المبحثُ السّابع: الحجَّة الأخلاقية.

المبحثُ الثّامن: حجةُ الوعي.

المبحثُ التّاسع: الحجَّة البرغماتية.

المبحثُ العاشر: نقدُ حجج علماء الغرب العقلية على وجود الله.

المبحثُ الأوَّل

حجَّةُ الفطرة

المرادُ بالفطرة:

قد وردتْ كلمة الفطرة في كثيرٍ من نصوص القرآن والسنة، مثل قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [سورة الروم: ٣٠]، وهي مذكورة في قول الرسول ﷺ: «كلُّ مولود يولَد على الفطرة فأبواه يهوِّدانه أو ينصِّراه أو يمجِّسانه»[١]. والمرادُ بالفطرة في هذه النصوص عند عامَّة علماء السلف هي: الإسلام[٢].

ولكن، ليس المرادُ بهذا الحديث أنَّ الطفل يعرف الإسلام عقائده وشرائعه، ولكنّ الفطرة تقتضي الإسلام؛ قال شيخُ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله): «وإذا قيل: إنه وُلد على فطرة الإسلام، أو خلق حنيفًا ونحو ذلك. فليس المراد به أنَّه حين خرج من بطن أمِّه يعلم هذا الدينَ ويريده. فإنَّ الله تعالى يقول: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [سورة النحل:٧٨]. ولكنَّ فطرته مقتضيةٌ موجبة لدين الإسلام، لمعرفته ومحبَّته. فنفس الفطرة تستلزم الإقرارَ بخالقِه ومحبَّته وإخلاص الدين له، وموجبات الفطرة ومقتضاها تحصل شيئًا بعد شيء، بحسب كمال الفطرة، إذا سلمت عن المعارض»[٣].

---

(١) متَّفق عليه. أخرجه البخاري في صحيحه (١٣١٩)، كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين (١ / ٤٦٥). وأخرجَه مسلم في صحيحه (٢٦٥٨)، كتاب القدر، باب ما معنى كلِّ مولود يولَد على الفطرة، وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين (٤ / ٢٠٤٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) انظر: التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد (١٨ / ٧٢).

(٣) درءُ تعارض العقل والنقل: (٨ / ٣٨٣).

وقال (رحمه الله) أيضًا: «إذا ثبتَ أنَّ نفس الفطرة مقتضية لمعرفته ومحبته، حصل المقصودُ بذلك، وإن لم تكن فطرة كلِّ أحد مستقلَّة بتحصيل ذلك، بل يحتاج كثير منهم في حصولِ ذلك إلى سببٍ معيَّن للفطرة: كالتعليم والتخصيص.

فإنَّ الله قد بعث الرسل، وأنزل الكتب، ودعوا الناسَ إلى موجب الفطرة: من معرفة الله وتوحيده، فإذا لم يحصل مانعٌ يمنع الفطرة، وإلّا استجابت لله ورسله، لما فيها مِن المقتضى لذلك. ومعلومٌ أنَّ قوله: كلّ مولود يولَد على الفطرة، ليس المراد به أنه حينَ ولدته أمُّه يكون عارفًا بالله موحِّدًا له، بحيث يعقل ذلك. فإن الله يقول: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـًٔا﴾ [سورة النحل:٧٨]. ونحن نعلم بالاضطرار أنَّ الطفل ليس عنده معرفة بهذا الأمر، ولكنْ ولادته على الفطرة تقتضي أنَّ الفطرة تقتضي ذلك، وتستوجبه بحسبها.

فكلَّما حصل فيه قوة العلم والإرادة، حصلَ من معرفتها بربها، ومحبتها له، ما يناسبُ ذلك،كما أنه ولِد على أنه يحب جلبَ المنافع ودفع المضار بحسبه، وحينئذ فحصولُ موجب الفطرة، سواء توقَّف على سبب، وذلك السبب موجود من خارج، أو لم يتوقَّف، على التقديرين يحصل المقصود. ولكن قد يتفق لبعضها فوات الشرط أو وجود مانع، فلا يحصل مقصود الفطرة»[١].

وخلاصةُ كلام شيخ الإسلام (رحمه الله) أنَّ في الفطرة قوّتين يجدهما الإنسان في نفسه بالضرورة، وهمَا: القوَّة العلمية والقوّة الإرادية. والقوّة العلمية مستلزمة للقوّة الإرادية عندَ انتفاء الموانع، والقوَّة الإرادية تتضمَّن العلم بالمراد، إذ يستحيل أن تكون الإرادة لغير مراد معلوم[٢].

وحيث إنَّ هذا البحث متعلِّق بإثبات وجود الله، فإنَّ الكلام سوف يكون عن القوّة العلمية فقط؛ «فأمّا اقتضاء القوَّة العلمية لفطرية معرفة الله وتوحيده، فلمّا تختصُّ به معرفةُ الله من عدم إمكان الفصل بين تصوُّر وجوده وتحقُّق وجوده. وذلك

---

(١) المصدر السابق (٨/ ٤٦٠ - ٤٦١).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (٤/ ٣٢).

أن معرفة الله ليست متعلِّقة بوجود مجرِّد من الصفات، بل هي متعلِّقة بموجود له الكمال المطلق، وهذه المعرفة ليست استدلالية نظرية، وإنَّما هي فطرية ضرورية، بحيث يكون الدليل على ثبوتِه مجرَّد تحقُّقها ووضوحها وكونها من المعارف البديهية. والحقائق الضرورية لا يمكن الاستدلال على كونها ضرورية بمقدِّمات ضرورية، وإلا لم تكن تلك الحقائق ضرورية، وإنَّما يمكن الاستدلال على نفي أن تكون نظرية، وإذا عُلم أنَّ المعارف إنما تكون ضروريةً أو نظرية، فإنه إذا انتفى أن تكونَ نظرية لزم أن تكون ضرورية. ومما يبيّن أن معرفةَ الله تعالى من المعارف الضرورية أنّه لا يمكن الاستدلال على وجود الله تعالى بمقدِّمات نظرية، وإنما يستندُ إثبات وجود الله تعالى على مقدِّمات ضرورية، وهي مُقتضى الإدراك الحسِّي المباشر لوجود المخلوقات بعد العدم، وما يتضمّنه خلقها من الإحكام والإتقان، وما يقتضيه ذلك مِن ضرورة أن يكون له موجد، بناء على مبدأ السببية الضرورية.

وإذا كانت المعرفة الفطرية بالله إنما تتحقَّق على أساس إثبات الكمال المطلق لله فإنَّ الوجود صفةُ كمال لا بدَّ أن يتحقّق مقتضاها، وهو ألا تكون معرفتنا بالله من حيث هو المتَّصف بالكمال المطلق مجرَّد معرفة عقلية لا يقابلها وجود حقيقي متعيّن لله في الخارج، بل لا بدَّ من إثبات وجود الله وتعيُّنه، وإلّا لم تكن الفطرة قد دلّت على الله من حيث هو المتَّصف بالكمال المطلق، وإلّا لزم التناقض بين دلالة الفطرة على أن معرفة الكامل الكمال المطلق ضرورية وبين عدم اقتضائها لوجوده بالفعل»[1].

وبناءً على هذا الكلام يمكن تلخيصُ حجَّة الفطرة بطريقة عقلية منطقية بالصياغة التالية:

المقدِّمة الأولى: الاعترافُ بوجود إلهٍ ذي كمال مطلق علم ضروري لكلِّ إنسان.

المقدِّمة الثانية: كلُّ علمٍ ضروري للإنسان لا بدَّ أن يكون له وجود واقعي خارج ذهنه.

---

(١) المعرفة في الإسلام (٢١٠ - ٢١١)، للدكتور عبد الله بن محمد القرني، (مركز التأصيل للدراسات والبحوث، الطبعة الثالثة، ١٤٣٤ هـ).

النتيجة: إذًا، المعرفةُ الفطرية الضرورية بالله ذي الكمال المطلق دالّة على وجوده الواقعي خارج إطار الذهن[1].

الفطرةُ عند اللاهوتيين المتقدّمين:

الفطرةُ من أقوى الأدلة على وجودِ الله، ورغم ذلك نجد أنَّ هذا الدليل قد غاب عن كلامِ كثيرٍ من اللاهوتيين النصارى المتقدِّمين. فعلى سبيل المثال: لم يذكر توما الأكويني حجةَ الفطرة في أدلته الخمسة المشهورة على وجود الله، وكان النصارى في السابق يعتمدون على هذه الأدلة إلى حدٍّ كبير - كما سبق في التمهيد -.

والسببُ لذلك - والله أعلم - أنَّ توما الأكويني كان يرى أنه لا يمكن الوصول إلى معرفةِ الخالق عن طريق العقل أو الحسِّ مباشرة، ولكن العقل يمهِّد الطريق للإيمان

---

(١) استفدتُ هذا الاستدلالَ المنطقي من كتاب: أفي الله شكّ (٥٨)، حيث قال المؤلّف: «وإذا لم تكنِ القضية القائلة «كلُّ ما هو فطري بالنسبة للإنسان لا بدَّ أنْ يكون له وجود واقعي خارجَ إطار الذهن»، - وهي الركنُ الأساسي للقياس - قابلة للإثبات، فإنَّ الاستدلال بالفطرة سيكون ناقصًا؛ لأنَّنا لا نستفيد من الآيات القرآنية أكثر من أن النزوع نحو الله والبحث عنه فطري.

والقياسُ الذي نتحدَّث عنه يمكن صياغتُه على النحو التالي:

النزوعُ والميل نحوَ الله فطري بالنسبة للإنسان.

كلُّ ما هو فطري بالنِّسبة للإنسان لا بدَّ أن يكون له وجود واقعي خارج إطار الذهن.

إذًا، الميلُ والنزوع الفطري إلى الله دالٌّ على وجوده الواقعي خارج إطار الذهن.

الإشكالُ ينصبُّ على إثبات المقدِّمة الثانية، حتَّى لو سلّمنا بصحة المقدّمة الأولى استنادًا إلى القرآن الكريم. نعم، إذا تأمَّل الإنسان في داخله، وشاهد حالاته المختلفة أثناء الحوادث السَّارة والمؤلمة لآمنَ بالله. ولكن إثبات هذا المعنى للآخرين بواسطة الفكر يبقى أمرًا صعبًا. ولذا، لا يطرح دليلُ الفطرة في العلوم العقلية على النحو موازٍ لسائر الأدلة، من قبيل الحدوث والحركة والإمكان».

فالمؤلّف شعرَ بأنَّ دليله بهذه الصيغة ناقص، وهو كذلك. وأمّا بالصياغة الثانية التي أوردها الباحث فهي أقوى بكثير، كما سيتبيَّن خلال هذا المبحث.

بوجود الإله، ثمَّ يأتي دورُ الوحي لتكميل هذا الإيمان[1]. وإلى نحوِ هذا الرأي ذهب وليم الأوكامي، وهو مِن أشهر اللاهوتيين النصارى في العصور الوسطى[2]. ولهذا أهمل هؤلاء اللاهوتيون المتقدِّمون - فيما وقفتُ عليه - الحديثَ عن الفطرة تمامًا، وأوردوا الأدلة العقلية على وجود الله، مع اعتقادهم أن هذه الأدلة ليست يقينية.

ظهورُ الكلام عن الفطرة في عصر النهضة:

ولكنْ في عصر النهضة تغيَّر الأمرُ إلى حدٍّ كبير، حين حصلت معارضة قوية للكنيسة الكاثوليكية، وبالتالي: علمُ اللاهوت المقرَّر لديهم. وكان أشهر من تكلّم عن الفطرة في عصر النهضة: اللاهوتي جون كلفن[3] والفيلسوف رينيه ديكارت. وبيان ذلك كما يلي:

اللاهوتي جون كلفن:

كان كلفن يتكلَّم عن الشعور بالوجود الإلهي (Sensus divinitatis) في داخل كلِّ إنسان، وأنه لا يمكن أنْ يكون هناك ملاحدة بالفعل؛ فقال: «المعرفة بوجود الله تظهر للجميع حتَّى لا يبقى للشرِّير عذر... كونه يوجد في العقل الإنساني وكذلك بالغريزة الطبيعية شعورٌ بالوجود الإلهي مما لا شكَّ فيه، حيث إنَّ الله نفسه قد وهب لكلِّ إنسان فكرةً بوجوده لا يمكن للإنسان تجاهلها. هذه الفكرة يجدّدها دائمًا وأحيانًا يعظِّمها لكي يعرف كلُّ إنسان أنه يوجد إله، وأنه صانعهم. ويمكن أن ينكر شخصٌ هذه المعرفة عندما لا يعبدونه ولا يركِّزون حياتهم على خدمته»[4].

---

(١) انظر: Med tanke på Gud (58)

(٢) انظر: المصدر السابق (٦٣).

(٣) جون كلفن (John Calvin): لاهوتي فرنسي، وأحد روّاد حركة البروتستانت. وقد أسّس الفرقة الكالفينية (Calvinism)، وهي إحدى فرق البروتستانت. توفي عام: ١٥٦٤م. انظر: https://www.britannica.com/biography/John - Calvin

(4) Institute of the Christian Religion (1/177)

الفيلسوف رينيه ديكارت:

أمّا ديكارت فقد قرَّر هذا الدليلَ بطريقة فلسفية دقيقة في كتابه: التأملات، حيث يرى أنَّ معرفةَ الله ضرورية وليست نظريةً استدلالية؛ فقال: «إن اعتيادي في سائر الأشياء الأخرى أن أميِّز بين الوجود والماهية قد يسَّر لي الميل إلى الاعتقاد بأن الوجود يمكن أن ينفصل عن ماهية الله، وأنّنا لذلك نستطيع أن نتصوَّر الله غير موجود في الواقع، ولكنَّني حين أفكِّر في الأمر بمزيدٍ من العناية أرى بجلاءٍ أن الوجود لا يمكن أن ينفصلَ عن ماهية الله، كما لا يمكن أن ينفصلَ عن ماهية مثلّث مستقيم الأضلاع أن زواياه الثلاث متساوية الزاويتين قائمتين، وكما لا يمكن أن تنفصل فكرة الوادي عن فكرة الجبل، ولهذا لا يكون تصوّرنا إلهًا - أي: موجودًا مطلق الكمال - ينقصه الوجود - أي: ينقصه كمال ما - أقلّ تناقضًا من تصوّرنا جبلًا غير ذي وادٍ...

إنَّ كوني لا أستطيع أن أتصوَّر جبلًا بغير وادٍ لا يقتضي وجود أيِّ جبل ولا أي وادٍ في الخارج، وإنما يقتضي أنَّ الجبل والوادي - سواء كانا موجودين أو غير موجودين - لا ينفصلُ الواحد منهما عن الآخر. أمّا كوْني لا أستطيع أن أتصوّر الله إلا موجودًا فيقتضي أنَّ الوجود غير منفصل عنه، ومن ثمّ أنه موجود حقًّا.

وليس فكري هو الذي يحصِّل هذا الوجود، ولا هو الذي يفرض سلطانه على الأشياء؛ بل على العكس، إنَّ الضرورة التي تقع في الشيء نفسه - أي: ضرورة وجود الله - هي التي تجعلني أنحو هذا النَّحو من التفكير؛ لأنه ليس في وسعي أن أتصوَّر إلهًا لا وجود له - أي: أن أتصوَّر موجودًا ذا كمال مطلق بغير كمال مطلق - كما في وسعي أن أتخيَّل فرسًا ذا جناحين أو غير ذي جناحين...

إنِّي أتبيَّن من وجوه كثيرة **أنَّ هذا المعنى [أي: الإيمان بالله] ليس شيئًا مصطنعًا ولا مخترعًا، ولا معتمدًا على فكري فحسب، بل إنَّه صورة لطبيعة حقيقية ثابتة.** أوّلًا لأنِّي لا أستطيع أن أتصوَّر غير الله شيئًا يخصُّ الوجود ماهيته على جهة الضرورة، ثمّ لأنه لا يمكنني أن أتصوَّر إلهين أو أكثر على شاكلته...

وأخيرًا لأني أتصوّر في الله صفات أخرى كثيرة لا أستطيع أن أنقص، أو أن أغيِّر منها شيئًا»[1].

وبيَّن في موضعٍ آخر أنَّ هذا العلم الضروري بوجود الله موجود مع الإنسان منذ ولادتِه، إذ قال: «لا يبقى ما يُقال بعد ذلك إلّا أنَّ هذه الفكرة وُلدت ووُجدت معي منذُ خُلقت، كما وُلدت الفكرة التي لديَّ عن نفسي، والحقّ أنه لا ينبغي أن نعجب من أنَّ الله حين خلقني غرسَ فيَّ هذه الفكرة لكي تكون علامة للصناع مطبوعة على صنعته»[2].

ورغمَ استعمال ديكارت لبعض الألفاظ الفلسفية المعقّدة في هذا الكلام إلا أنَّ معنى كلامِه صحيح، وهو أن «معرفة الله تعالى ليست من جنس التصوّرات الممكنة، بل هي تصوُّر ضروري مفْروض على الذهن، ولهذا لم يمكن الفصلُ بين تصوّر وجوده وتحقّق وجودِه كبقية الأشياء؛ لأنَّ تصوّرها ليس ضروريًّا بل ممكنًا، ولم يمكن تصوّر أكثر من إله؛ لأنَّ معرفة الله إنما تتعلّق بمعيّن متّصف بجميع صفات الكمال، والضرورة الفطرية لا تحتمل اتِّصافَ غير الله بها، كما لا يمكن النقص من صفات الكمال الثابتة لله تعالى بالفطرة لأنَّها ضرورية، ولو كانت قائمة على تصوّر نظري لأمكن النقص منها... والحاصلُ أنَّ مَن سلَّم بالمعارف الفطرية فلا بدَّ أن يسلِّم بهذا الاستدلال على وجود الله تعالى؛ لأنه مجرَّد كشف عن حقيقة المعرفة الفطرية لله تعالى، وهي معرفة لا تقوم على الاستدلال والنظر، وإنما على المعرفة المباشرة، من حيث هي مقتضى الخلقة والفطرة التي فطرَ اللهُ الناس عليها. وأمّا مَن نفى المعارف الفطرية، وادّعى أنه لا يمكن إثبات وجود الله تعالى إلّا عن طريق الاستدلال النظري فإنه لا يمكن أن يثبت وجود الله تعالى من مجرَّد تصوُّر الكمال المطلق؛ لأنه عنده تصوّر ممكن وليس بضروري»[3].

---

(1) التأملات في الفلسفة الأولى (١٩٩ - ٢٠٢)، لرينيه ديكارت، (مكتبة الأنجلو، ١٩٥١م. ترجمة: الدكتور عثمان أمين).

(2) المرجع السابق (١٥٥).

(3) المعرفة في الإسلام (٢١٣ - ٢١٥).

إذًا، فمحلُّ البحث هنا مرتبطٌ بثبوت المعارف الفطرية في الإنسان. وهذا ما لا يمكن جحدُه إلّا على سبيل المكابرة. وعليه؛ فمن سلّم بوجود المعارف الفطرية، وأنَّ الإيمان بالله معرفة ضرورية فطرية، فإنه لا بدَّ أن يسلّم بوجود الله خارج الذهن.

انتقادُ دليل الفطرةِ في عصر التنوير:

قد تعرَّض دليل الفطرة لهجوم في عصر التنوير من جانبين: من جانب من أنكر وجودَ المعارف الفطرية، ومِن جانب مَن انتقد استدلال ديكارت بالفطرة على وجود الله. وبيانُ ذلك كما يلي:

الجانبُ الأوَّل: كان ديكارت يرى أنَّ الإنسان يولد ومعه بعض المعارف الفطرية، ومِن ضمن هذه المعارف: المعرفة بوجود الله. وكان يرى أنَّ هذه المبادئ الفطرية هي الأساس للتفكير العقلاني. ويطلق على فلسفته: «الفلسفة الديكارتية» (Cartesian Philosophy): مذهب فلسفي من ضمن المذاهب العقلانية.

وفي عام ١٦٩٠م، أصدرَ الفيلسوف البريطاني جون لوك كتابه: «رسالة عن الفهم الإنساني» (An Essay Concerning Human Understanding)، وقرر أن الإنسان يولد صفحةً بيضاء (Tabula Rasa)، وأنكر المبادئ الفطرية. وكان يرى أنَّ العلم لا ينال إلا عن طريق الحسِّ. ويطلق على هذا المذهب: المذهب التجريبي - كما سبقت الإشارةُ إليه -.

وكان الفلاسفة في أوروبا القارية (Continental Europe) ينتحلون المذهب العقلاني متأثِّرين بفلسفة ديكارت، بينما كان الفلاسفة البريطانيون يتبنَّون المذهب الحسّي على طريقة جون لوك(١).

فجون لوك، وإن كان لا ينكرُ وجود الله، إلا أنَّه أنكر المبادئ الفطرية فكان ذلك تحدِّيًا للقول بحجّية الفطرة. وكان كلٌّ من ديكارت ولوك يبنون تصوّرهم عن وجود المبادئ الفطرية، أو عدم وجودها على فلسفة، وليس على الأبحاث العلمية. وسيأتي

---

(١) انظر: Västerlandets Filosofi (348 - 351)

- إن شاء الله - ما يبيِّن أنَّ الأبحاث العلمية الحديثة تثبت وجود هذه المبادئ الفطرية لدى الإنسان.

الجانبُ الثّاني: كان إيمانويل كانت من أشهر الفلاسفة في القرن الثامن عشر، وقد اشتهرَ بنقده لبعض أدلة وجود الله، ومن ضمن هذه الأدلة: دليل الفطرة، الذي ذكره رينيه ديكارت. وكان يبني هذا النقدَ على أساس أنه لا يمكن أن يكون الوجود الخارجي ثابتًا لله بناءً على مجرَّد تصوّر الكمال المطلق، وأنه لا تلازم بين التصوّر العقلي والوجود الخارجي، فتصوُّر الكمال المطلق لا يستلزم أنَّه موجود في الحقيقة، لإمكان تصوّر الكمال المطلق بدون أن يكون منسوبًا إلى موجود متعيّن[1].

ولكنَّ انتقادَ كانت لم يكن في محلِّه، بل هو لعدم تصوّره لحقيقة قول ديكارت. «والحقيقة أنَّ هذا النقد قد بُني على مغالطة، وهي عدم التفريق بين ما يمكن تصوّره وما يكون تصوّره فطريًّا ضروريًّا، وإذا صحَّ أنَّ ما أمكن تصوّره ليس ضروري الوجود، فإنه لا يصحُّ أن ما تحتَّم تصوُّره وكان ضروريًّا يمكن ألا يوجد، بل إن شهادة الفطرة الضرورية كافيةٌ في الدلالة على ووجوده، ومَن نازع في وجوده فإنما ينازع في كونه فطريًّا، وأمّا مَن يثبت فطريته فإنَّه لا يمكنه أن ينازع في وجوده، وإذا تقرَّر أنَّ معرفة الله تعالى فطرية من جهةِ عدم إمكان الاستدلال النظري على وجوده، وأنَّ ما ليس بنظري فلا بدَّ أن يكون ضروريًّا، فإنَّ وجود الله وتعيّنه لا بدَّ أن يكون ثابتًا من مجرّد كون معرفته فطرية ضرورية»[2].

فمحلُّ البحث إذًا في الاستدلال هو أنَّ معرفة الله فطرية، وليست نظرية. وقد بيَّن علماءُ الغرب المتأخّرون هذا الأمر بجلاء.

---

(١) نقد العقل المجرَّد (٦٥٢ - ٦٦٦)، إيمانويل كانت، (دار اليقظة العربية، ١٩٦٥م. ترجمة: أحمد الشيباني). وانظر: المعرفة في الإسلام (٢١٤).

(٢) المعرفة في الإسلام (٢١٤ - ٢١٥).

دليلُ الفطرة عندَ علماء الغرب المعاصرين:

قد ظهرَ دليلُ الفطرة على ساحةِ الجدل الديني في الدول الغربية من جديد في هذا العصر. وذلك من جانبين: الجانب العلمي، والجانب الديني الفلسفي، وبيانُ ذلك كما يلي:

الجانبُ الأوَّل: قدْ سعى علماءُ الغرب إلى إجراءِ أبحاث علمية متعلّقة بفطرة الإنسان. وهذه الأبحاثُ العلمية أجْريت في نوعين من أنواع العلوم: علم الوراثة (Genetics)، وعلم النفس (Psychology).

العلمُ الأوَّل: علمُ الوراثة:

أشهرُ عالم اهتمَّ بقضية الفطرة هو الدكتور دين هامير[1]. وقد اهتمَّ اهتمامًا كبيرًا بفطرية الإيمان بالله، وتوصَّل إلى نتيجة هي: أنَّ الإيمان بالله مربوط بقوّة في جينات الإنسان. وقد ألَّف كتابه المشهور: «الجين الإلهي: كيف أنَّ الإيمان مربوط بقوّة في جينياتنا» (The God Gene – How Faith is Hardwired into our Genes).
ويزعم أنه قد وجد الجين المسئول عن هذا الإيمان الفطري، وهو جين (VMAT٢). وهذا الكتاب ليس مبنيًّا على أسسٍ دينية، بل المؤلّف نفسه يصنِّف بأنه لاأدري[2].

وكوْن المؤلِّف حاول تفسيرَ الإيمان بالله بطريقة علمية مبنية على الاختزالية[3]، أثار غضبَ بعض اللاهوتيّين المشهورين مثل: البروفسور ألفن بلانتنغا؛ فقال معلّقًا على نتائج الكتاب: «فكرةُ الجين الإلهي تخالف جميعَ اعتقاداتي اللاهوتية. لا يمكنك أن تقطعَ الإيمان إلى المقام المشترك الأدنى من بقاء الجينيات. هو يدلُّ على إفلاس التفكير الاختزالي»[4].

---

(١) دين هامير (Dean Hamer): عالم الوراثة الأمريكي وحامل شهادة الدكتوراه في علم الوراثة من جامعة هارفارد. انظر: https: / /sites.wustl.edu /inclusion /people /dean – hamer/

(٢) انظر: The Newest Testament: A Secular Bible (655)

(٣) الاختزالية (Reductionaism): شرح العمليات والظواهر المعقدة في علوم الحياة من حيث قوانين الفيزياء والكيمياء. انظر: https: / /www.merriam – webster.com / dictionary /reductionism

(4) https://www.telegraph.co.uk/news/uknews/1476575/God-gene-discovered-by-scientist-behind-gay-DNA-theory.html

ولكنَّ الدكتور دين هامير ذكر أن نتائجه العلمية قد تكون دليلًا علميًّا على وجود الله فقال: «يمكن للمؤمنين المتديِّنين أن يشيروا إلى أنَّ وجود الجينيات الإلهية دليل على إبداع الخالق بطريقةٍ ذكية لمساعدة الإنسان للاعتراف بالوجود الإلهي وقبوله»[1].

الخلاصةُ هي أنَّ دين هامير عالم مادي، ويدرس الظواهر الطبيعية وفق المذهب المادي الطبيعي، ولهذا فسَّر فطرة الإنسان بوجود جين إلهي في داخل بدن الإنسان، دون أن يتعرَّض للروح. وذلك يؤكِّد ما سبق مِن أن المذهب المادي الطبيعي لا يسمح بالحديث عمّا هو غير مادي، مثل الروح. بينما دلَّت الأدلة الشرعية على أن الفطرة لها علاقةٌ بروح الإنسان، وليس بالبدن فقط، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ﴾ [سورة الأعراف:١٧٢]. واختلف المفسّرون في تفسير هذه الآية على قولين:

أحدهما: أنَّ الله مسحَ على ظهر آدم ﷺ فاستخرج منه ذريته فأشهدهم على أنفسهم، فأقرُّوا له بلسان المقال.

الثاني: أنَّ المرادَ بالأخذ والإشهاد خلقهم على الفطرة، المتضمنة الإقرار بالخالق والشَّهادة له بالربوبية؛ فالإشهادُ بلسان الحال، وليس بلسان المقال[2].

وعلى أيِّ حال، فالظاهرُ من القولين أنَّ الآية تتعلَّق بروح الإنسان وليس بجسده[3]، فيبدو أنَّ الفطرة لها علاقة بالروح. ولا ينافي ذلك أنه يمكن أن الله قد جعل الفطرة في داخل الجينات كذلك؛ إن ثبت ذلك.

والذي يهمُّنا من بحث الدكتور دين هامير هو وجود الفطرة في داخل الإنسان، وأنّ الاعترافَ بوجود الخالق علمٌ ضروري فطري. وهذا ما دلَّت عليه أبحاثه العلمية الكثيرة،

---

(١) المصدر السابق.

(٢) انظر: شرح العقيدة الطحاوية (١/ ٣٠٢ - ٣١٤).

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم (٣/ ٥٠٥).

وأمّا وجود هذا العلم الضروري في داخل جين معيَّن اسمه: (VMAT٢)، فهذا تفسير علميٌّ مبني على المذهب المادي، وقد اعترض غيره من العلماء على هذا التفسير[١].
فالخلاصة أنَّ بعض الأبحاث العلمية الوراثية قد أثبتت وجود الفطرة في داخل الإنسان، وأمّا تفسير هذه الأبحاث العلمية بالمذهب المادي، فلا يخْلو من اعتراض.

العلمُ الثّاني: علمُ النَّفس:

قدِ اهتمَّ البروفسور جاستين باريت[٢] بإجراء أبحاث علمية نفسية في البحث عن الفطرة الإنسانية اهتمامًا بالغًا. فقادَ البروفسور باريت مع زميله البروفسور روجير تريغ[٣] مشروعًا علميًّا ضخمًا مع ٥٧ باحثًا من ٢٠ دولة عن فطرية الإيمان، وكتب البروفسور تريغ كخلاصةٍ عن بحثهما بقوله: «لقدْ جمعنا أدلة كثيرة تثبتُ أنَّ التديُّن حقيقة مشتركة في طبيعة الإنسان في المجتمعات المختلفة»[٤].

وألَّف البروفسور باريت كتابه المشهور: «مؤمنون بولادة: علم الإيمان الديني لدى الأطفال» (Born Believers: The Science of Children's Religious Belief)[٥].

---

(١) انظر:
http://www.washingtonpost.com/wp-dyn/articles/A46793-2004Nov12.html

(٢) جاستين باريت (Justin Barrett): بروفسور علم النفس الأمريكي. كان يعمل في جامعة أكسفورد في بريطانيا لفترة. وهو متخصِّص في علم نفس الأطفال، ولا سيَّما فيما يتعلّق بالإيمان الفطري. انظر: https: / /biologos.org /people /justin – barrett

(٣) روجير تريغ (Roger Trigg): بروفسور الفلسفة في جامعة أكسفورد ببريطانيا، ومؤسس الجمعية البريطانية لفلسفة الدين. وقد ألَّف عددًا من المؤلفات في فلسفة الدين. انظر:
https://www.ox.ac.uk/news-and-events/find-an-expert/professor-roger-trigg

(٤) انظر:
https://www.telegraph.co.uk/news/politics/8510711/Belief-in-God-is-part-of-human-nature-Oxford-study.html

(٥) وقد ترجم مركزُ دلائل هذا الكتابَ وطبعَه بعنوان: فطرية الإيمان - كيف أثبتت التجارب أنَّ الأطفال يولدون مؤمنين بالله -.

وهذا الكتاب مبنيٌّ على تجاربِه العلمية خلالَ عشرين سنة، وقد دلَّل بأدلة كثيرة جدًّا مبنيَّة على أبحاث علميَّة أنَّ الأولاد يولدون مفْطورين على الإيمان بالخالق، وأنَّ المبادئ الفطرية - التي أنكرَها جون لوك - موجودةٌ لدى الإنسان منذ ولادته. وخلاصةُ كتابه أنَّه قال: «وبغضِّ النَّظر عن الثقافة، ودونَ الحاجة إلى تلقين بالإكراه؛ ينمو الأطفال بنزعة للبحث عن معنى محيطهم وفهمِه، وعند منْح المجال لتطوُّر عقولهم ونموّها طبيعيًّا يؤدّي بهم هذا البحثُ إلى اعتقاد بعالَم مصمَّم له غاية، وأنَّ صانعًا حكيمًا قد صمّمه، ويفترضون أن هذا الصانعَ المقصود كلّيُّ القدرة، وكلّيُّ العلم، وكلّيُّ الإدراك، وأبدي. ولا يحتاج هذا الصانعُ أن يكون مرئيًّا أو متجسِّدًا مثلَ البشر. ويربط الأطفال بسهولة هذا الصانع بالخير الأخلاقي، وبأنَّه مصدرُ الإلزام بالقيم الأخلاقية. وتعلِّل هذه الملاحظات والاستنتاجات جزئيًّا سببَ الانتشار الواسع للإيمان بالآلهة بهذه الصفات العامة عبر الثقافات وعلى مدى التاريخ»[1].

ومِن فوائد هذا الكتاب أنه ردَّ على شبهةٍ مَفادها: أنَّ فطرية الإيمان نتيجة لتلقين الوالدين فقط، وليس أنَّ الأطفال يولَدون مع هذه الفطرة. وقد ردَّ على هذا الزعم بكلامٍ مهمّ - ويُستحسن إيرادُه كلّه رغمَ طوله - إذْ قال: «وعندَ قراءتك لهذه المقولة عن وصفِ طبيعية الاعتقاد الديني ربَّما تفكِّر الآن في طرح تعليل بديل لتديّن الأطفال... والنُّسخة الأكثر ضبطًا لهذا التَّعليل الشائع لظاهرة ميل الأطفال للإيمان بالآلهة يمكن تسميتُه فرضيَّة التلقين (Indoctrination Hypothesis)، وتتلخَّص أن الأطفال يؤمنون بالله لأنَّ والديهم وغيرهم من البالغين ذوي الأهمية في محيطهم يعلِّمونهم الإيمان: أي أنهم يلقِّنونهم الإيمان. وبما أنَّ الأطفال لا يملكون الإمكانات الذهنية ليفكّروا لأنفسهم، فسيتبعونَ بشكل أعمى ما يُمليه الكبار عليهم.. يظنُّ بعض الأشخاص الأذكياء خطأً أنَّ التعليل بالتلقين يفسّر كل شيء...

إنَّ الأفكارَ الدينية مختلفة جدًّا عن الأفكار المدَّعاة أو الخيال، فمنذ أن بدأت بإلقاءِ محاضرات عامَّة عن المعارف التي بُني هذا الكتاب عليها وأنا أتلقّى الكثير من التقارير مِن أناسٍ يخبرون فيها عن مدى سهولة اعتناق أطفالهم للدين، ومدى صعوبة صدِّهم عن

---

(١) فطرية الإيمان - كيف أثبتتِ التجارب أنَّ الأطفال يولدون مؤمنين بالله - (٢٠ - ٢١)، للدكتور جستون باريت، (مركز دلائل، الطبعة الأولى، ١٤٣٨ هـ، ترجمة: مركز دلائل).

الإيمان بالله. فقدْ أخبرتني زميلةُ عمل سابقة عن بناتها الثلاث، وتبلغ أكبرهم الثامنة من عمرها تقول: (أنا مسيحيَّة لكنَّ زوجي ملحد، وقد قررنا ألا ندفع أولادنا في أيِّ اتِّجاه، لكنْ هذا لا يبدو أنه مهمٌّ؛ فالبنات الثلاث جميعهنّ يؤمنّ بالله وبدرجة عميقة، بل إنَّ «صوفي» أكبرهنَّ تشاجرت مع أبيها وأخبرته أنه مخطئ باعتقاده أن الله غيرُ موجود). كما أبدتْ أمٌّ ملحدة من أكسفورد في إنكلترا ذهولها عندما اكتشفت أنَّ طفلها ذا السنوات الخمس لديه إيمان راسخ بالله رغم كلّ جهودها للعكس...

يعلم آباء الأطفال الصغار، والمراهقين منهم على وجه الخصوص! أنهم لا يستطيعون ببساطةٍ برمجةَ معتقدات أطفالهم. نستطيع أحيانًا (تلقينهم)، لكنّنا غالبًا نفشل في ذلك»[١].

هذا الكلام - رغم طوله - في غاية الأهمِّية، ولا سيَّما والبروفسور باريت يعتبر أحدَ أشهر العلماء المعْتنين بهذه القضية في العالم. وكلامُه مبنيٌّ على تجارب علمية قام بها في بلدانٍ مختلفة خلالَ عشرين سنة، فلا شكَّ أنَّ لكلامه وزنًا كبيرًا، وهو يؤكّد أن الأطفال يولَدون على الاعتراف بالخالق.

وقد يعترضُ على كلامه أنَّه يذكر كلمة: (الآلهة)، رغم أن الأدلة الشرعية تؤكّد أن الأطفالَ يولَدون على التوحيد الخالص، وليس على الشرك. وقد ذكر البروفسور باريت في موطنٍ آخر الكلامَ الآتي: «الأطفال عرضةٌ للاعتقاد بالكائنات فوق الطبيعية مثل: الأرواح، والأشباح، والملائكة، والشياطين والآلهة، وذلك في السنوات الأربع الأولى من حياتِهم نتيجة النمو الطبيعي للإدراك ضمنَ بيئات بشرية طبيعية. وفي الواقع يوجد أدلة على أنَّ الأطفال قد يقْبلون ببساطة فكرةَ وجود خالق غير بشري للعالم الطبيعي كلّي القدرة، وكلّي المعرفة، وكلّي إدراك، أزلي، وبيده الخير كلّه.

واختصارًا سنسمِّي هذا النوع من الإله الخلّاق (الله) أو God بحرف كبير في الإنكليزية، وهذا صحيح، **إذ تبيَّن أنَّ عقول الأطفال مضبوطة فطريًّا لتعتقد بالآلهة عمومًا، وربَّما لتعتقد بالله على وجه الخصوص**»[٢].

فهنا، اقتربَ البروفسور باريت من الصَّواب، وإن كنّا على يقين تامٍّ من أن كلام الله

(١) المصدر السابق (١٥ - ١٧).

(٢) المصدر السابق (١٤).

ورسوله ﷺ مقدَّم على كلام كلِّ أحد، ولا شكَّ أنَّ الإيمان الفطري هو الإيمان بوجود إله واحد، وهو الخالقُ سبحانه وتعالى. ولكن لا يقلِّل هذا الأمر من قيمة الأبحاث العلمية التي أجراها البروفسور باريت، وهي مهمَّة جدًّا في إثبات وجود الفطرة في الإنسان.

الجانبُ الثّاني: وهو الاستدلالُ الفلسفي الديني بوجود الفطرة لدى الإنسان على أنَّ الخالق - سبحانه وتعالى - موجود. ومِن أبرز مَن اهتمَّ بهذه القضية في هذا الزمان: البروفسور بول هيلم(١)، البروفسور ألفن بلانتغا.

وقد قرَّر البروفسور بول هيلم أنَّ الشعورَ بالوجود الإلهي ليس حسًّا من الحواس الخمس المعروفة، ولكنَّه يُشبه هذا الحسَّ؛ حيث إنه أصيلٌ في الإنسان، وعالمي يشترك فيه جميعُ البشر(٢). وذكر أنَّ هذا الشعور جزءٌ من كون الإنسان إنسانًا على وجه الحقيقة؛ قال: «البشريةُ ليست مخلوقة بإمكانية معرفة الله فحسب، بل بمعرفته حقيقة... الإيمانُ بالله طبيعي، وهو جزءٌ من أصل الإنسان، حيث إنَّه جزء من معنى كون الإنسان إنسانًا»(٣).

بينما فسَّر البروفسور ألفن بلانتغا أنَّ المراد بهذا الشعور: أنَّ كلَّ إنسان عنده ميل شديدٌ إلى الإيمان بوجود الخالق(٤)، وليس المقصودُ أنَّ الإيمان نفسه موجود في داخل الإنسان، وإنَّما المراد أنْ توجد فيه نزعةٌ تميل إلى هذا الإيمان. وعندما يدرك الإنسان وجودَ الطبيعة حوله فإنه يتكوَّن لديه الاعتقادُ بوجود الخالق بناءً على هذه

---

(١) بول هيلم (Paul Helm): بروفسور تاريخ الأديان وفلسفتها في الكلية الملكية ببريطانيا سابقًا، وقد تخصَّص في لاهوت كلفن الذي كان يقرّر الإيمان الفطري. انظر:
https://www.htc.uhi.ac.uk/about-us/faculty/prof-paul-helm/

(2) "John Calvin, the sensus divinitatis, and the noetic effects of sin," International Journal for Philosophy of Religion 43 (1998): 94.

(3) John Calvin's Ideas (222) (Oxford: Oxford University Press, 2004)

(٤) انظر: Reason and Belief in God (66)
by: Alvin Plantinga, University of Notre Dame Press (1983)

النزعة الفطرية[1]. ولا بدَّ أن يكون هذا الميلُ الفطري مطبوعًا في داخل الإنسان من خارجه[2]. وهذا هو الدليلُ على أنَّ الله هو الذي خلق هذا الشعور فيه.

وهذه التقريراتُ جيّدة لدليل الفطرة، وتؤيِّد ما دلَّت عليه النصوص الشرعية من أن كلَّ إنسان مفطورٌ على الاعتراف بوجود الخالق، وأنَّ الاعتراف علم ضروري في كلِّ إنسان.

وخلاصةُ هذا المبحث أنَّ دليلَ الفطرة من أقوى الأدلة على وجود الله، وقد قرَّر علماءُ الغرب هذا الدليل بكلام جيِّد من حيث العموم، وإنْ كان لا يخلو من بعض النَّقص.

---

(١) المصدر السابق (٦٧).

(2) Warranted Christian Belief (174)
by: Alvin Plantinga, Oxford University Press (2000)

المبحثُ الثّاني
الحجَّةُ الكونية

الحجَّة الكونية (Cosmological Argument): إحدى أشهر الحجج التي يستخدمها علماءُ الغرب في الاستدلال على وجود الله في هذا العصر. وقد عرَّفها قاموس أكسفورد بأنَّها: «حجَّةٌ على وجود الله تذكر أن كلَّ شيء في الطبيعة يعتمدُ على شيء آخر لإيجاده، وأنه لا بدَّ أنْ يكون الكونُ بأكمله يعتمد على كائن موجود استقلاليًّا أو ضروريًّا»[1].

وهذه الحجَّة لها صلةٌ بحجج متشابهة؛ مثل: دليل الخلق - كما هو مذكور في القرآن -، والمحرِّك الأوَّل - الذي ذكره أرسطو -. والفرقُ بين هذه الأدلة ما يأتي:

الفرقُ بينَ دليل الخلق والحجة الكونية:

دليلُ الخلق في القرآن الكريم مبنيٌّ على الاستدلال بما يُعلم حدوثه بالضرورة كالحسِّ والمشاهدة، مثل: خلق الإنسان؛ قال شيخُ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله): «الطريقةُ المذكورة في القرآن هي الاستدلالُ بحدوث الإنسان وغيره من المحدثات، المعلوم حدوثُها بالمشاهدة، ونحوها على وجودِ الخالق سبحانه وتعالى، فحدوث الإنسانِ يستدلُّ به على المحدث، لا يحتاج أن يستدلَّ على حدوثه بمقارنة التغير أو الحوادث له، ووجوب تناهي الحوادث. والفرقُ بين الاستدلال بحدوثه، والاستدلال على حدوثه بيِّن. والذي في القرآن هو الأوَّل لا الثاني، كما قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [سورة الطور:٣٥]، فنفسُ حدوث الحيوان والنبات والمعدن والمطر والسحاب ونحو ذلك معلومٌ بالضرورة، بل مشهودٌ لا يحتاج إلى دليل، وإنما

---

(1) https://en.oxforddictionaries.com/definition/us/cosmological_argument

يعلم بالدليل ما لم يعلم بالحسِّ وبالضَّرورة. والعلمُ بحدوث هذه المحدثات علمٌ ضروري لا يحتاج إلى دليل، وذلك معلوم بالحسِّ أو بالضرورة: إمّا بإخبارٍ يفيد العلم الضروري، أو غير ذلك من العلوم الضرورية»[1].

وأمّا الحجةُ الكونية فهي حجَّة استدلاليةٌ وليست ضرورية؛ لأنَّ العلم بحدوث الكون ليس مدركًا بالحسِّ، أو علمًا ضروريًّا فطريًّا عند كلِّ إنسان، وإنما هو معلومٌ بالنقل أو الاستدلال العقلي والعلمي - كما سيأتي بيانُه -.

الفرقُ بين المحرِّك الأوَّل والحجَّة الكونية:

قدْ سبق الحديثُ في التمهيد عن دليل المحرِّك الأوَّل، وأنَّ أفلاطون هو أوّلُ مَن ذكره في كتابه: «القوانين». ثمّ استطردَ تلميذه أرسطو في الحديث عن هذ الدليل في كتابه: «السماع الطبيعي». ولكنَّ أرسطو كان يعتقد أنَّ الإله هو علّةٌ تامة أزلية، ومعلولُها معها قديم. وأنَّ هذه العلة الأزلية ثابتة لا تتحرّك، وإنما يحرّك معلولها. فالكونُ عند أرسطو أزليٌّ مثل العلة الأولى، ولكنَّ الكون متحرّك، تحرّكه هذه العلة. وأما الحجةُ الكونية فتقول إنَّ الكون حادث، وإنَّ كلَّ حادث لا بدَّ له من محدث.

تأثُّرُ اللاهوتيّين النصارى بفلسفة أرسطو:

قد تأثّرَ اللاهوتيون النصارى في العصور الوسطى بفلسفة أرسطو - كما سبق بيانه -، ولهذا نرى تشابهًا واضحًا بين كلام أرسطو عن المحرّك الأوّل، وبين الدليل الأوّل والثاني من أدلةِ توما الأكويني الخمسة. وبيانُ ذلك كما يلي:

الدليلُ الأوَّل: المحرّكُ غير المتحرّك، خلاصتُه: أننا نشاهد في العالم أن الأشياء متحرِّكة. وكلّ شيء متحرِّك فلا بدَّ له من مُحرّك. وهكذا ننتهي إلى محرّك غير متحرّك؛ وهو الله.

---

(١) درء تعارض العقل والنقل: ٧ / ٢١٩

والدليلُ الثّاني: السببُ الأوّل، وخلاصةُ هذا الدليل: أنَّ الطبيعة تؤكّد على وجود علةٍ سببية للمعلولات. ويستحيل الرجوعُ إلى ما لا نهاية له من الأسباب؛ فلا بدَّ من التوقُّف عند العلة الأولى؛ وهو الله(١).

وكان توما الأكويني يرى أنَّ الكون حادثٌ بناءً على دلالة كتاب النصارى المقدّس على حدوثه، ولكنَّه رأى أنه لا يمكن إقامةُ الأدلة العقلية على حدوثه(٢). فتوما الأكويني لم يذكرْ خلالَ هذين الدليلين أنَّ الكون حادث، ولا بدَّ له من مُحدث، بخلاف مَن جاء بعدَه من اللاهوتيين، كما سيأتي بيانُه - إن شاء الله -.

صياغةُ ليبنز وكلارك:

في عصرِ النهضة أحيَا اثنان من فلاسفة الغرب الحجةَ الكونية من جديد، ولكن بصياغاتٍ مختلفة، وهما: الفيلسوف غوتفريد ليبنز، والفيلسوف صامويل كلارك(٣). وقد صاغَا هذا الدليل بصياغاتٍ مختلفة قليلًا عمَّن سبقهما، وكانت صياغتهما أقوى في حجيَّتها.

فقد صاغها ليبنز بثلاثِ مقدِّمات ونتيجتين:

المقدِّمةُ الأولى: لكلِّ ما في الوجود تفسيرٌ لوجوده.

المقدِّمةُ الثّانية: إن كان للكون تفسيرٌ لوجوده فاللهُ هو ذلك التفسير.

المقدِّمةُ الثّالثة: الكونُ موجود.

---

(1) Summa Teologica, Question 2. The Existence of God. Article 3. Whatever God exists?
http://www.newadvent.org/summa/1002.htm#article2

(٢) انظر المقال: Aquinas on the eternity of the world
http://www.siue.edu/~evailat/aquinas-eter.html

(٣) صامويل كلارك (Samuel Clarke): لاهوتي وفيلسوف بريطاني في عصر التنوير. وقد أثّر كثيرًا في الفلاسفة واللاهوتيين البريطانيين في القرن الثامن عشر. توفي عام: ١٧٢٩م. انظر:
https://www.britannica.com/biography/Samuel-Clarke

النَّتيجة الأولى: للكون تفسيرٌ لوجوده.

النَّتيجة الثّانية: بالتالي، اللهُ هو تفسير وجود الكون[١].

وصاغَها كلارك بمقدِّمتين ونتيجة كالآتي:

المقدِّمة الأولى: كلُّ كائن (موجود أو كان موجودًا) إمّا أن يكون كائنًا معتمدًا على غيره، أو كائنًا موجودًا بذاته.

المقدِّمة الثانية: لا يمكن أن يكون كلُّ كائن معتمدًا على غيره.

النَّتيجة: بالتالي، فإنه يوجد كائنٌ موجود بذاته[٢].

فنجدُ أن كلًّا من ليبنز وكلارك قد صاغَا الحجة الكونية بالطريقة المنطقية المعروفة لدى الفلاسفة، ولكنَّ الحجة بهذه الصياغة لم تخلُ من نقد.

نقدُ الحجَّة الكونية في عصر التنوير:

قدِ انتقد ديفيد هيوم وإيمانويل كانت كثيرًا من الأدلة على وجود الله في عصر التَّنوير، ومِن ضمن هذه الأدلة: الحجَّة الكونية. وكان هيوم ينتقد المقدِّمة الأولى من صياغةِ ليبنز للحجَّة الكونية، بينما انتقدَ كانت النتيجة الثانية. وبيانُ ذلك كما يلي:

انتقادُ هيوم:

كان هيوم أشهرَ مَن نقدَ مبدأ السببية حيث أنه كان يرى أن معرفتنا بالأسباب لم تحصّل ألبتَّة من خلال البداهة العقلية، وهي تأتي دائمًا من تجربتنا في اكتشاف أن أشياء مخصوصةً ترتبط دائمًا بأخرى[٣]. ومادام أنَّنا لا نعرف شيئًا عمّا فوق الطبيعة، فلا يمكن تطبيقُ هذا المبدأ على وجود الخالق.

---

(١) انظر المقال: Leibniz Cosmological Argument – The Principle of Sufficient Reason
http://users.adam.com.au/bstett/ReligLeibnizCosmological147.html

(٢) انظر: The Cosmological Argument (xii)

(٣) انظر: An Enquiry Concerning Human Understanding, Chapter IV, by: David Hume
http://www.earlymoderntexts.com/assets/pdfs/hume1748.pdf

وهيوم بنى نقدَه لمبدأ السببية على أربع نقاط:

١) كلُّ الأفكار المتمايزة مُنفصلة عن بعضها.

٢) فكرتا السبب والأثر متمايزتان.

٣) مِن السَّهل التفكير في خروج الشيء إلى الوجود دون التفكير في سببه.

٤) التمييزُ بين السبب والأثر مُمكن، ولا يلزم منه تناقضٌ ولا محال(١).

انتقادُ إيمانويل كانت:

كان إيمانويل كانت يرى أنَّ الحجة الكونية تبيِّن أنَّه يوجد كائن ضروري (واجب الوجود)، ولكنَّ هذه الحجة تعتمدُ على الحجة الوجودية لتعيين هذا الكائن بأنه الله. وكان كانت مِن أبرز المنتقدين للحجَّة الوجودية، فرأى أنه مادام أنَّ الحجَّة الكونية تعتمدُ على الحجة الوجودية فإنَّ ذلك دليل على إبطالها.

وقد أثَّر انتقادُ هيوم وكانت في إضعافِ الحجة الكونية في الدوائر الفلسفية الغربية بعد ذلك إلى أن طوّر علماء الغرب هذه الحجة في عصرنا الحاضر، ودعموها بأدلة فلسفيةٍ وعلمية قويَّة.

الحجَّة الكونيةُ في العصر الحاضر:

قدْ أعاد علماءُ الغرب الحديثَ عن الحجة الكونية في هذا العصر بقوّة، وكان البروفسور وليام لاين كرايغ أبرزَ مَن اهتمَّ بهذه الحجة على الإطلاق. وكان من أهمِّ إسهاماتِه لهذه الحجَّة أنه أعادَ صياغتها بطريقة سهلة ميسَّرة، مستعينًا بذلك بعلماء أهل الكلام من المسلمين؛ ففي عام ١٩٧٩م، أصدرَ كتابه الأوَّل: «الحجة الكونية الكلامية» (The Kalam Cosmological Argument) في أكثر من ٢٠٠ صفحة. وذكر في هذا الكتاب أنَّ المتكلّمين والمتفلسفة المنتسبين إلى الإسلام قد أوردوا

---

(١) انظر: فمن خلق الله؟ (٣٢ - ٣٣)، للدكتور سامي عامري، (مركز تكوين للدراسات والأبحاث، الطبعة الثالثة، ١٤٤١ هـ).

هذه الحجة بطريقةٍ أفضلَ من اللاهوتيّين النصارى. وبعدَ صدور هذا الكتاب وإلى يومنا هذا، فإن وليام لاين كرايغ يهتمُّ بإيراد هذه الحجَّة - مدعَّمة بالأدلة العلمية والفلسفية - اهتمامًا بالغًا، ويردُّ على جميع الشبهات الموجَّهة إليها. ولهذا سوف يكون جلُّ النقول في هذا المبحث مِن كلام البروفسور كرايغ.

صياغةُ الحجَّة الكونية الكلامية:

قدْ صاغ البروفسور وليام لاين كرايغ الحجةَ الكونية الكلامية بالطريقة الآتية:

١) «لكلِّ شيء يبدأ في الوجود سببٌ لوجوده.

٢) بدأ الكون بالوجود.

٣) وبالتالي، فإنَّ للكون سببًا لوجوده»[1].

ولا شكَّ أنَّ الحجة بهذه الصياغة أقوى من صياغة كلارك وليبنز، فضلًا عن كلام توما الأكويني عن المحرِّك غير المتحرِّك والسبب الأوّل.

الحديثُ عن المقدّمة الأولى:

المقدِّمةُ الأولى في الحجَّة الكونية الكلامية كالآتي: لكلِّ شيء يبدأ في الوجود سببٌ لوجوده. وقد قال البروفسور كرايغ عن هذه المقدِّمة:

«مِن الواضح أنَّ المقدمة الأولى صحيحة- على الأقلِّ تبدو صحيحةً أكثر من صحّة عكسها -.

أوَّلًا: وقبل كلِّ شيء، إنَّ من لبِّ الواقع الحتمي أنه لا يمكن لشيء أن يوجد من لا شيء. إنَّ اقتراح ظهور الأشياء إلى الوجود ببساطة، وبدون أيِّ سبب هو إلغاء للتَّباحث الفلسفي الجدّي والتجاء للسحر.

ثانيًا: إذا كانت الأشياءُ تستطيع فعلًا أن تأتي إلى الوجود بلا سبب، ومِن لا شيء، فيصبح من المتعذَّر تفسير كيف يمكن حقًّا لأيِّ شيء وكلِّ شيء، ألا يأتي إلى الوجود بلا سبب ومِن لا شيء.

---

(1) The Kalam Cosmological Argument (63)

أخيرًا: إنَّ المقدمة الأولى مُصدَّق بشكل مستمرٍّ في خبراتنا. وبالتالي، فلدينا أقوى الدوافع لقبولها»[1].

فبنى هذه المقدِّمةَ على ثلاثة أدلة:

١) عدمُ قبول مبدأ السببية يؤدِّي إلى إلغاء التباحث الفلسفي الجدّي والتجاء للسِّحر.

٢) عدمُ قبوله يجعله مستحيلًا أن نفسّر كون الأشياء لا تأتي إلى الوجود بلا سبب. والواقع أنَّ الأشياء لا تأتي للوجود بلا سبب.

٣) مبدأ السببية مصدَّق بشكلٍ مستمر في خبراتنا.

الردُّ على انتقادِ هيوم للمقدّمة الأولى:

وقال البروفسور كرايغ عن انتقادِ هيوم لمبدأ السببية: «المقدّمة الأولى واضحة جدًّا بداهة، لا سيَّما إنِ انطبق على الكون، فلا يمكن لشخصٍ عاقل أن يرى أنها في الحقيقة باطلة. حتَّى هيوم اعترف أنَّ نفيه الأكاديمي لهذا المبدأ لم يخرجه من كونه يعتقد أنه حقيقي[2]. لا شكَّ أنَّ فكرة: أن أي شيء - ولا سيَّما الكون - يستطيعُ أن يظهر للوجود بلا سبب، هو كريهٌ إلى درجة أنَّ أكثر المفكِّرين يقبلون بأنَّ القول بظهور الكون بلا سببٍ لا يمكن قبولُه بطريقة جديَّة؛ لأنَّ الأمر كما ذكره أنطوني كيني[3]: «وفقًا لنظريةِ الانفجار العظيم، فإنَّ جميع مادة الكون ظهرت في الوجود في زمن معيَّن في الماضي البعيد. فمؤيّد مثل هذه النظرية، ولا سيَّما إن كان ملحدًا، لا بدَّ أن يعتقد أن الكونَ ظهر من لا شيء عنْ طريق لا شيء». وهذا الأمر يصعب جدًّا قبوله»[4].

---

(1) Richard Dawkins of Arguments for God, in God is Great God is Good (14)

(٢) انظر:
The Letters of David Hume, (1: 187), e.d. J.Y.T. Greig (Clarendon Press, 1932)

(٣) تقدَّم التعريف به، وهو بروفسور الفلسفة في جامعة أكسفورد سابقًا.

(4) The Kalam Cosmological Argument (63)

وأمّا حجَّة هيوم في إنكار مبدأ السببية بأنه من السَّهل التفكير في خروج الشيء إلى الوجود دونَ التفكير في سببه؛ فقد ردَّت البروفسورة إليزابيث أنسكومب [١] عليها بقولها: «المشكلةُ في حجَّته أنها غيرُ مقنعة للغاية؛ لأنَّنا لو قلنا إنه يمكن تصوُّر ظهور أرنبٍ للوجود بدون وَالِدَين، فهذا ممكن. يمكننا تصوُّر ظهور أرنب إلى الوجود، ويمكن أن نلاحظَ أنه ليس عنده والدان. ولكن، هل يمكنني أن أتصوَّر ظهور أرنب إلى الوجود بلا سبب؟... هذا مجرَّد توهُّم ظهور الأرنب إلى الوجود، مع إعطاء هذا التوهُّم اسمًا. ولكنْ كلُّ ما يأتي بعد هذا التصوُّر والتسمية هو مجرَّد تناقض وخيال في الواقع»[٢].

ولهذا لم يتلقَّ إنكارُ هيوم لمبدأ السببية قبولًا واسعًا بين الملاحدة المعاصرين، لما في قبوله من تكلفةٍ فلسفية باهظة؛ فدعوَى هيوم «لا تجد قبولًا في الساحة الإلحادية المعاصرة إلّا قليلًا، والسببُ الرئيس لذلك أن لقبولها تكلفة فلسفية باهظة جدًّا، وهي أنَّه لا يمكن الكشف عن قانون من «التجربة» و«الملاحظة»، وأن حال الاقتران بين «السبب» و«الأثر» لا يدلُّ على شيء غير العادة، ولا يمكن أن يبنى عليه شيء علميًّا، في حين أنَّ العلم الحديث قائم على مبدأ السببية في الكشف عن القوانين المضطرَّة من خلالِ التجربة والمشاهدة، فما يُحكم عليه اليوم بأنه «قانون» هو ما أكّدته التجارب المتكرِّرة»[٣].

وبهذا ثبتَ أنَّ المقدّمة الأولى ضرورية، ولا يمكن إنكارها.

الحديثُ عن المقدمة الثانية:

المقدّمةُ الأولى مبنيَّة على مبدأ السببية، وهو علم ضروري يجب قبوله. وأما المقدِّمة الثانية فتقول إنَّ للكون بداية. وقد دلَّل البروفسور كرايغ على هذه المقدّمة بنوعين من الأدلة: الحجج الفلسفية والأدلة العلمية. وبيانُ ذلك كما يلي:

---

(١) إليزابيث أنسكومب (Elisabeth Anscomb): بروفسورة الفلسفة البرطيانية، وقد عملت في جامعة كامبردج المشهورة. وتعتبر إحدى أكثر النساء الفيلوسوفات تأثيرًا في القرن العشرين. توفي عام: ٢٠٠١م. انظر: https: / /iep.utm.edu /anscombe/

(2) Whatever Has a Beginning of Existence Must Have a Cause", Hume's Argument Exposed, Analysis (34), (1974): 150, by: G.E.M. Anscombe.

(٣) فمن خلق الله؟ (٣٢).

النوعُ الأوّل: الحججُ الفلسفية على المقدّمة الأولى:

استطردَ البروفسور كرايغ في كتابه: الحجَّة الكونية الكلامية بالحديث عن الحجج الفلسفية على حدوث الكون[١]. ورغمَ هذا الاستطراد في الكلام، فإنه لم يقدِّم سوى حجَّتين فلسفيتين على المقدِّمة الثانية، وهما:

الحجَّة الأولى: استحالةُ وجود اللامتناهي؛ قال البروفسور كرايغ: «حجَّتُنا الأولى لدعْم هذه المقدِّمة: أنَّ للكون بدايةً مبنيَّة على استحالة وجود اللامتناهي. ونحن نقدِّم الحجة بهذه الطريقة:

١. لا يمكن أن يوجد اللامتناهي.

٢. سلسلة من الأحداث بلا نهاية تعتبر لامتناهيًا.

٣. وبالتالي، فلا يمكن أن يوجد سلسلة من الأحداث بلا نهاية»[٢].

الحجَّة الثانية: استحالةُ تكوين اللامتناهي الحقيقي بإضافات متتالية (Successive Addition)؛ قال البروفسور كرايغ: «نلفت أنظارنا إلى الحجة الفلسفية الثانية للمقدِّمة القائلة بأنَّ للكون بداية، وهي حجَّة: استحالة تكوين اللامتناهي الحقيقي بإضافةٍ متتالية. وتظهرُ هذه الحجة بالطريقة الآتية:

١. سلسلةُ الأحداث المؤقَّتة هي مجموعة متكوِّنة من الإضافة المتتالية.

٢. لا يمكن أن تكون مجموعة مكوَّنة من الإضافة المتتالية لامتناهيًا حقيقيًّا.

٣. بالتالي، لا يمكن أن تكون سلسلة من الأحداث لامتناهيًا حقيقيًّا»[٣].

ومِن الملاحظ أنَّ دعاة الإلحاد الجديد - مثل: ريتشارد دوكينز - لم يحاول إنكارَ الحجج الفلسفية على حدوثِ الكون؛ قال البروفسور كرايغ في معرض ردِّه على دوكينز:

---

(١) استغرقَ حديثه عن الأدلة الفلسفية على حدوث الكون حوالي ٥٠ صفحة، وهي من صفحة: ٦٥ إلى صفحة: ١١٠.

(2) The Kalam Cosmological Argument (69)

(٣) المصدر السابق (١٠٢ - ١٠٣).

«المقدِّمة الثانية يمكن دعمُها بالحجج الفلسفية والأدلة العلمية. وتهدف الحججُ الفلسفية إلى إظهار أنَّه من غير الممكن وجود استمرار لامتناهٍ لأحداث الماضي - وبكلمات أخرى -، لا بدَّ لسلسلة أحداث الماضي أن تكون قد امتلكت بدايةً. إن الحججَ الفلسفية ضدَّ التسلسل اللانهائي للأحداث حجج رائعة، وتفتح آفاقَ الذهن، لكنْ لحُسن الحظِّ لا نحتاج للنَّظر بها هنا؛ لأنَّ دوكينز لا يعترض على أيٍّ من مقدّمات هذه الحجج»[1].

وقد يكون مِن أسباب إعراض دوكينز عن هذه الحجج الفلسفية أنه لا يتقنُ الفلسفة أصلًا، بل يخبِّط فيها خبطَ عشواء.

النوعُ الثّاني: الأدلةُ العلمية على المقدّمة الثانية:

النوعُ الثاني من الأدلة على المقدِّمة الثانية هي الأدلة العلمية. والأدلة العلمية كلّها تشيرُ إلى أنَّ للكون بداية، ولا مجالَ للشكِّ في هذه القضية. وقد عرض الدكتور هيو روس ثلاثين دليلًا علميًّا على أنَّ للكون بداية في كتابه: «الخالق والكون» (The Creator and Cosmos)[2]؛ وأهمُّها:

الدليلُ الأوَّل: وجودُ إشعاع الخلفية الكونية. وهذه الإشعاعاتُ الكهرومغناطيسية موجودةٌ في كلِّ مكان من الفضاء. وقد فسَّرها علماءُ الكون بأنها من بقايا حدوث الكون.

الدَّليلُ الثّاني: توسُّعُ الكون: فقدْ أثبت العلماء أنَّ الكون يتوسَّع بمعدَّل معيَّن، وبقياس هذا المعدَّل إلى الخلف، يظهر أنه كان للكون بداية.

الدَّليلُ الثّالث: نسبةُ الفوتونات مقارنةً بالبريونات في الكون: نسبة الفوتونات مقارنةً بنسبة البريونات - البروتونات والنوترونات - في الكون تتجاوز ١٠٠ مليون للواحد، وهذا يثبت أنَّ الكون في حال أنتروبية عالية جدًّا. ولا تفسير لذلك إلّا أن الكونَ كلَّه قد تفجَّر بسرعة من حال حار وكثيف جدًّا.

الدَّليلُ الرّابع: حججُ النِّسبية العامَّة: أثبتتْ نظرية النسبية العامة صحّتها مرارًا وتكرارًا، ولا تصحُّ معادلاتها إلّا في كون له بداية، وله طبيعته التمدّدية.

---

(1) Richard Dawkins of Arguments for God, in God is Great God is Good (14-15)

(٢) انظر تلخيص الدكتور سامي عامري لهذه النقاط بطريقة جيّدة في كتابه: فمن خلق الله؟ (٨٩ - ٩٤).

وقدْ وقع شبهُ إجماع بينَ العلماء في هذا العصر على أن للكون بداية، ولا يبقى مجالٌ للشكِّ في هذه القضية؛ قال البروفسور كرايغ: «في الحقيقة، استطاع كل من أرفيند بورد[1]، وآلان غوث[2]، وألكسندر فيلنكين[3] في عام ٢٠٠٣م؛ إثباتَ أنَّه لا يمكن لأيِّ كونٍ في حالة توسُّع كوني أن يكون أزليًّا في الماضي، إنما لا بدَّ أن يكون قد امتلك بدايةً حتمية. لم يدَّخر فيلنكين جهدًا حينَ قال: «يُقال إنَّ الحجة هي ما يقنع الأشخاص المنطقيّين، وأنَّ الدليل هو ما تحتاجه لتقنع حتى الشخص غير المنطقي. والآن، ومعَ وجود الدليل، فلم يعدْ ممكنًا لعلماء الكونيات أن يختبئوا وراء إمكانية وجود كوْن أزلي الوجود. لا مناص من مواجهة مشكلة البداية الكونية»[4][5].

ومرادُ علماء الكون أنَّ للكون بداية: هو بروز جميع الأشياء المادية من لا شيء؛ قال البروفسور بول دافيس: «إنَّ ظهور الكون إلى الوجود، كما نوقش في العلم الحديث... ليس مجرَّد مسألة فرض نوعٍ من التنظيم... لحالة سابقة مفكّكة، إنما يعني حرفيًّا: بروز جميع الأشياء الماديَّة إلى الوجود من لا شيء»[6]. وهذا هو المذكور بعينه في المقدّمة الثانية.

---

(١) أرفيند بورد (Arvind Borde):بروفسور الرياضيات والفيزياء الأمريكي. وقد ألّف أبحاثًا كثيرة في الفيزياء وعلم الكون. انظر: http: / /arvind – borde.org

(٢) آلان غوث (Alan Guth): بروفسور الفيزياء النظرية وعلم الكون الأمريكي. وهو أحدُ أشهر علماء الكون المعاصرين، وقد قدّم بعض نظريات مشهورة في هذا العلم. انظر: https: / / www.britannica.com /facts /Alan – Guth

(٣) ألكسندر فيلنكين (Alexander Vilenkin):بروفسور الفيزياء النظرية وعلم الكون الأمريكي، كما أنه مديرُ إدارة علم الكون في جامعة توفت في الولايات المتَّحدة. انظر:
http://cosmos2.phy.tufts.edu/vilenkin.html

(4) Many Worlds in One: The Search for Other Universes (176), by: Alex Vilenkin, (Hill and Wang, 2006)

(5) Richard Dawkins of Arguments for God, in God is Great God is Good (15-16)

(6) Interview of Paul Davies by Philip Adams, “The Big Questions: In the Beginning”

الاعتراضاتُ على المقدِّمة الثانية:

كان الملاحدةُ يعترضون في السابق على المقدِّمة الثانية بقولهم: إن الكون أزلي، ولكنْ حين ظهرت الأدلةُ العلمية الكثيرة الدالَّة على أن للكون بداية في القرن العشرين تراجع أكثر الملاحدةِ عن القول بأزلية الكون إلى القول بأن للكون بداية، وذلك لقبولهم لنظرية الانفجار العظيم.

ولكنْ حاول بعضُ الملاحدة أن يقدِّموا نظريات علمية بديلة للانفجار العظيم التي تؤيِّد أزلية الكون. ومن أشهرِ هذه النظريات: نظرية الحال الثابتة. وقد «أدّى الكشفُ عنْ أدلة علمية لحدوثِ الكون، خاصَّة من خلال تمدّده، إلى ظهور محاولات في العقد الثّالث من القرن العشرين لتجاوز مشكلة البداية، غير أنه من بين كل النظريات المطروحة، لم تنلْ غير (نظرية الحال الثابتة) (Steady State Theory) لـ(فريد هويل) تقدير العلماء، وهي تقرِّر أنَّه مع تمدُّد الكون تنشأ مادة جديدة بين الكواكب المتباعدة. وتمثِّل هذه النظرية امتدادًا لفكر القرن التاسع عشر القاضي بأزلية الكون.

ومعَ نهاية النصف الأوَّل من القرن العشرين، لم يبقَ من النظريات الجادة المتنافسة غيرُ نظرية (هويل) و(نظرية الانفجار العظيم) التي تقرِّر أنه يلزم من اعتقاد تمدّد الكون في المستقبلِ أنَّ أجزاء الكون كانت أقرب إلى بعضها كلَّما رجعنا إلى الخلف في الزمن، حتى يعود كلُّ شيء إلى (مفردة) (singularity) منها تفجّر المكان.

استمرَّ الخلافُ بين النظريَّتين فترة من الزمن، غير أنَّ الاكتشافات الكونية أثبتت صحَّة نبوءات (نظرية الانفجار العظيم)[1]، وكان كشف وجود (إشعاع الخلفية الكونية الميكروي) سنة ١٩٦٤م أقوى دعم لـ(نظرية الانفجار).

لم تستطعْ (نظرية الحال الثابتة) أن تثبت بعد تقدُّم (نظرية الانفجار العظيم) أيضًا بسببِ مشاكلها الداخلية، فبالإضافة إلى فقدانها الأدلة الإيجابية لصحّتها، تقف الأدلة العلمية ضدَّها...

---

(١) سيأتي في الباب الثالث الكلام المفصَّل عن نظرية الانفجار العظيم إن شاء الله.

لقد أدَّى ظهورُ فساد (نظرية الحال الثابتة)، وعجز مخزونها النبوئي، إلى أن ينصرف عامَّة أنصارها عنها إلى (نظرية الانفجار العظيم) التي نجحت في ما فشلت فيه النظرية الأخرى...»[1].

فلم تبقَ معارضةٌ علمية قويَّة ضدَّ القول بأنَّ للكون بداية؛ فكانت هذه المقدِّمة مقدِّمة علمية يقينية شبه متَّفق عليها بين الملاحدة والألوهيين.

الحديثُ عن النتيجة:

قدْ سبق الحديثُ عن المقدِّمتين للحجة الكونية، وتبيّن أنهما مقدّمتان علميتان قويَّتان؛ يجبُ قبولهما. وهذا يؤدِّي بنا إلى قبول النتيجة، وهي أن للكون سببًا في وجودها. ولكن، ما هو هذا السبب؟ وما صفاته؟

حاولَ البروفسور كرايغ أن يجيبَ عن هذه الأسئلة قائلًا: «ما هي الخصائص التي يجب أن يمتلكها مثلُ هذا مسبِّب الكون؟ بطبيعة الحال يجب على مسبب المكان والزمان أنْ يتعالى على المكان والزمان، وبالتالي أن يوجد لا زمانيًّا ولا مكانيًّا (خارج الكون على الأقل). وبذلك يجب أن يكون هذا المسبب المتفوِّق ثابتًا وغير ماديّ، حيث أنَّ أيَّ شيء لا يتبع لحدود الزمان يجب أن يكون ثابتًا أيضًا، وأيّ شيء غير متبدِّل يجب ألا يكون فيزيائيًّا، وبالتالي أن يكون غير مادي (حيث أن الأشياء المادية تتغيَّر باستمرار على المستوى الجزيئي والذري). مثل هذا الكيان يجب أن يكون بلا بدايةٍ وبلا سبب لوجوده، على الأقلّ بمعنى الافتقار إلى أيِّ شروط سببية سابقة لوجوده، حيث لا يمكن أن يوجد ارتدادٌ لا نهائي للمسبّبات. إنَّ مبدأ نصل أوكام (Ockham's Razor) – المبدأ الذي ينصُّ على أننا يجب ألا نضاعف الأسباب أكثر مما يلزم – سوف تكشط أيَّ مسببات أخرى، ذلك أن سببًا واحدًا فقط يكفي لشرح التأثير. يجب أن يكون هذا الكيانُ قويًّا بشكل لا يمكن تصورُه – إن لم يكن مطلق القدرة – على اعتبار أنَّه يُنشأ الكون دون أيِّ مسبب مادي.

---

(١) فمن خلق الله؟ (٨٧ – ٨٨).

أخيرًا، ما يلفت النظرَ تمامًا أنَّ مثل هذا المسبب الأوّل المتفوّق: ذاتي إلى حدٍّ معقول. هنالك سببان قدْ يفسران هذا الاستنتاج:

أوَّلًا: ذاتيةُ السَّبب الأوّل للكون متضمّنة في اللازمن واللامادة. إن الكيانات الوحيدة التي يمكنها أن تمتلكَ مثل هذه الخصائص هي إمّا العقول أو الأشياء المجرّدة، كالأعداد مثلًا. لكنَّ الأشياء المجرَّدة لا تصمد في العلاقات السببية. على سبيل المثال: لا يمكن أن يسبِّب العدد (٧) أيَّ شيء بحدِّ ذاته. ولهذا، فإن مسبِّبَ أصل الكون المتفوُّق يجب أن يكون عقلًا غير مجسّدٍ.

وثانيًا: هذه الخلاصةُ تنطبق على منشأ أثرٍ له بدايةٌ من سبب ليست له بداية. استنتجنا أنَّ منشأ الكون أثرٌ لسبب أوَّل. وبطبيعة الحال، فلا يمكن أن تكون لهذا السبب بدايةٌ لوجوده أو سببٌ مُسبق. وإنَّما يوجد بطريقة غير متغيّرة بلا بداية، وقد أنشأ الكون إلى الوجود قبلَ زمن محدَّد»[١].

كلامُ البروفسور كرايغ من حيث العموم جيِّد ومنطقي وسليم، إلّا أنه استعمل كثيرًا مِن الألفاظ الفلسفية المجملة، مثل: «غير مادي»، و«غير مجسّد»، و»غير متبدّل». وهذه مِن الألفاظ المجملة التي يلزم منها مفاسدُ عقدية كبيرة مثل: إنكار الصفات الذاتية والفعليَّة. ووليام لاين كرايغ قد ذكرَ في مواضع أخرى ما يدلُّ على أنه ينحى مذهبَ التَّعطيل في الصفات؛ فقد قال: «إنَّ الله كائنٌ بسيط للغاية، فإنه ذكاء غير متجسّد، كائن غير مادي، ذكاء غير مركَّب من أجزاء وخصائصها البارزة»[٢].

وينبغي للمسلمين أن يكونوا على حذرٍ شديد من الاستفادة من كلام أمثال البروفسور كرايغ في حديثهم عن النتيجة من الحجة الكلامية.

---

(1) Richard Dawkins of Arguments for God, in God is Great God is Good (16-17)

(٢) انظر المقال: Dawkin’s Delusion

https://www.reasonablefaith.org/writings/popular-writings/existence-nature-of-god/dawkins-delusion/

وقد وقعَ الجهميةُ الأوائل ومَن تبعَهم في هذه الأخطاء أيضًا عند تقريرهم لدليل الأعراض وحدوث الأجسام. وقد ناقشهم شيخُ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) في هذه القضية مناقشةً قويَّة، وبيَّن أنَّ إنكارهم للصفات نتيجة لتقريراتهم الخاطئة في دليل الحدوث. ومما قاله في هذا المقام: «والتزم طوائف من أهل الكلام من المعتزلة وغيرهم لأجلها نفيَ صفات الرب مطلقًا، أو نفيَ بعضها؛ لأنَّ الدال عندهم على حدوث هذه الأشياء هو قيامُ الصفات بها، والدليلُ يجب طرده، فالتزموا حدوثَ كلِّ موصوف بصفة قائمةٍ به. وهو أيضًا في غاية الفساد والضَّلال، ولهذه التزموا القولَ بخلق القرآن، وإنكار رؤية الله في الآخرة، وعلوّه على عرشه، إلى أمثالِ ذلك من اللوازم التي التزمها من طردِ مقدِّمات هذه الحجة التي جعلها المعتزلة ومَن اتَّبعهم أصل دينهم»[1].

ولكن، هناك فرقٌ بين دليلِ الأعراض وحدوث الأجسام، وبين الحجة الكونية الكلامية، وهو أنَّ إنكار المعتزلة للصفات نتيجة مباشرة للدليل نفسه، لما فيه من الحديثِ عن الأعراض وحدوث الأجسام. وأمَّا الحجةُ الكونية الكلامية فليس فيها أيُّ كلامٍ عن الأعراض وحدوث الأجسام، ولذلك لا يكون إنكارُ الصفات من لوازمها الفاسدة مباشرة، وإنما يذكر البروفسور كرايغ هذه الألفاظَ المجملة في نتيجة الحجة بناءً على عقيدته الفاسدة.

فالحجةُ الكلامية الكونية قد يستخدمُها السنّي كحجةٍ عقلية على وجود الله، وأمّا دليلُ الأعراض وحدوث الأجسام، فلا يستخدمُه السنّي لما في الدليل نفسه من الألفاظ المجْملة واللوازم الفاسدة، وأنه كانت سببًا في تسلُّط الأعداء على عقيدة المسلمين؛ قال شيخُ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله): «وإنما أوقعَ هذه الطوائف في هذه الأقوال: ذلك الأصل الذي تلقَّوه عن الجهمية؛ وهو: أنَّ ما لم يخلُ من الحوادث فهو حادث، وهو باطلٌ عقلًا وشرعًا. وهذا الأصلُ فاسد مخالفٌ للعقل والشرع، وبه استطالت عليهم الفلاسفةُ الدهرية، فلا للإسلام نصَروا ولا لعدوِّه كسروا؛ بلْ قد خالفوا السلف والأئمة، وخالفوا العقلَ والشَّرع، وسلَّطوا عليهم - وعلى المسلمين

(١) درء تعارض العقل والنقل (١ / ٤١).

- عدوَّهم من الفلاسفة والدَّهرية والملاحدة، بسبب غلطهم في هذا الأصل الذي جعلوه أصل دينهم. ولو اعتصموا بما جاءَ به الرسول ﷺ لوافقوا المنقولَ والمعقول، وثبتَ لهم الأصل؛ ولكن ضيعوا الأصولَ فحرموا الوصول؛ والأصول اتِّباع ما جاء به الرسول ﷺ. وأحدثوا أصولًا ظنوا أنها أصول ثابتة»[1].

اعتراضُ الملاحدة على النتيجة:

قدْ سبق أنَّ إيمانويل كانت انتقدَ الحجَّة الكونية لكونها تعتمد على الحجّة الوجودية. وقدْ يكون هذا الاعتراضُ في محلِّه في انتقاد بعض الصياغات القديمة للحجة الكونية مثل: صياغة كلارك، فإنَّه لا يصدق على الحجة الكونية الكلامية بصياغتها المعاصرة. ولهذا لا فائدةَ من الالتفات إلى كلامه. ولكنَّ بعض الملاحدة المعاصرين قد اعترضوا على نتيجة الحجَّة الكلامية. وأشهر اعتراضاتهم:

الاعتراضُ الأوَّل: قولُ الملاحدة: إذا كان لكلِّ مخلوق خالق، فمن خلق الله؟

وهذه الشبهةُ مِن أبرز شبهات الملاحدة المعاصرين، بل ذكر ريتشارد دوكينز أنها حجَّته الرئيسة في كتابه: وهْم الإله[2]. وحيث أنَّ هذه الشبهة من الأهمية بمكان، أفردتها بمبحث مستقلٍّ في الباب الثالث، وسيأتي الحديث عنها هناك - إن شاء الله -.

الاعتراضُ الثّاني: أنَّ الحجةَ الكلامية لا تعين الخالق، وغاية ما في هذه الحجة إثباتُ وجود سببٍ لحدوث الكون، وليس فيها أنَّ الله المتّصف بصفات العظمة والجلال هوَ هذا السبب. وقد ذكر ريتشارد دوكينز هذا الاعتراضَ بقوله: «حتى إذا سمحنا للترف المريب لتصوُّر اعتباطي عن نهايةِ التسلسل اللانهائي، ومن ثَمَّ إعطائه اسمًا، فليس هنالك على الإطلاق أيُّ سببٍ لإعطاء تلك النهاية، أي من الخصائص التي يوصَف بها الإله في الحالةِ الطبيعية: القدرة المطلقة، العلم المطلق، الخير، والإبداع في التصميم، ناهيك عمّا يرتبط

---

(١) مجموع الفتاوى (١٣ / ١٥٧).

(٢) انظر: The God Delusion (157 - 158)

بالصفاتِ الإنسانية، مثل: الاستماع للصلوات، وغفران الذنوب، والعلم بما تخفي الصدور»[1].

هذا الاعتراضُ يدلُّ على جهله المركَّب؛ لأنَّه لم يفهم الحجة الكلامية، وما ترمي لإثباته. وقد ردَّ عليه البروفسور كرايغ بقوله: «بعيدًا عن الشتيمة في بداية كلامه، فهذا تصريحٌ تميَّز به دوكينز بشكلٍ مُذهل. لا يعارض دوكينز بأنَّ الحجة تثبت وجود خالق ذاتي للكون، قوي بشكلٍ لا يوصَف، ليس له بداية، لا يوجد مسبّب لوجوده، غير متغيِّر، غير مادي، ولا يحدُّه الزمان ولا المكان. غاية ما يشتكي من دوكينز أنَّ هذا المسبِّب لا يتبيَّن أنَّه مطلق القدرة، مطلق العلم، ودود، بديع التصميم، يسمع الصلوات، يغفرُ الخطايا ويعلمُ ما في الصدور. فماذا هنالك إذًا؟ إنَّ الحجة لا تتطرّق إلى إثباتِ مثل تلك الأشياء. قد يكون ذلك شكلًا غريبًا من الإلحاد - في الحقيقة شكلًا لا يستحقُّ أن يُسمّى إلحادًا - ذلك الذي يقرُّ بوجود خالق ذاتي للكون ذي قوة فوق التصوُّر، ولا يوجد سببٌ لوجوده، ليس له بداية، غير متغيِّر، غير مادي، ولا يحدُّه الزمان ولا المكان، والذي قد يمتلك أيضًا - كما نعرف جميعنا - الخواص الأخرى التي أدرجَها دوكينز. لا نحتاج لأنْ نسمِّي الخالق الذاتي للكون «إلهًا» إن كان دوكينز يجد أنَّ هذا غيرُ مفيد أو مضلل؛ تبقى المسألة أنَّ كائنًا مثل الذي وصفناه قبل قليل لا بدَّ أن يكون موجودًا»[2].

تقييمُ الحجة الكونية:

خلاصةُ الكلام عن الحجَّة الكلامية الكونية بصياغتها الحديثة أنها حجّة عقلية قوية ومُقنعة للدلالة على وجود الله، وهي مبنيَّة على مقدّمتين واضحتين، تتبعهما نتيجة واضحة. ومعَ ذلك، فإنَّ طريقة القرآن في الاستدلال بدليل الخلق أقوى وأوقع في النَّفس؛ فيمكن أن نجعل: «دلالة الحوادث عليه - تعالى - على مستويين، باعتبار طبيعة الحوادث قربًا وبُعدًا من الحسِّ والمشاهدة، ومدى وقوع لحظة الحدوث تحت الحسِّ والمشاهدة:

- حدوثُ آحاد المخلوقات المشاهدة.
- حدوثُ العالم (جنس الحوادث).

---

(1) The God Delusion (77)

(2) Richard Dawkins of Arguments for God, in God is Great God is Good (17)

وإذا تأمَّلنا في طبيعة تناول الوحي لهذا النمط الاستدلالي؛ فسنجد أن المستوى الأوَّل هو أكثرُ حضورًا، وذلك أنَّه مدرك بضرورة الحسِّ، وهو الطريقُ الأقصر المفضي إلى تحصيلِ المطلوب، دون تطويلٍ في المقدِّمات، أو الدخول في جدليات فلسفية واسعة، أو محاولةُ البرهنة والتدليل على ما ليس حاضرًا ومشاهدًا»[1].

ولا شكَّ أنَّ طريقة القرآن أقوى وأجْود، وأنَّ الحجة الكونية في السابق كانت تعتمد على مقدِّمات فلسفية يصعب فهمُها على عامَّة الناس في التدليل على أن للكون بداية.

ولكنَّ هذه الحجة تعتمدُ في هذا العصر على الأدلة العلمية المتكاثرة على أن للكون بدايةً أيضًا، وهي أدلةٌ يسلِّم لها أغلبُ الملاحدة. وهذا مطلوبٌ في الجدل، بأن يسلِّم الخصمُ للمقدِّمات. ولذلك، أرى أنَّ الحجَّة الكونية الكلامية بصياغتها وأدلتها المعاصرة ينبغي استخدامُها لمناقشة الملاحدة، كما أنه تنبغي الاستفادةُ من كلام علماء الغرب في تقريرِ الدليل واستدلالاتهم، مع التنبُّه لما في كلامهم من المخاطر العقدية، ولا سيَّما عند الحديث عن النتيجة.

---

(١) شموع النهار (٩٦ - ٩٧)، لعبد الله بن صالح العجيري، (مركز تكوين للدراسات والأبحاث، الطبعة الأولى، ١٤٣٧ هـ).

المبحثُ الثّالث
الحجَّةُ الغائية

مقدّمة عن الحجّة الغائية:

قد تقدَّم في المبحث السابق أنَّ الحجة الكونية من الحجج القوية على وجود الله التي يذكرُها علماء الغرب. والحجةُ الكونية تقرِّر أنه من المستحيل أنَّ الكون جاء من العدم، وأنَّه لا بدَّ أن يكون خالقٌ خلقه. وهذه الحجةُ مشهورة بأسماء متعدّدة في الفضاء الدِّيني، منها: المحرِّك الأوَّل، ودليلُ الخلق والإيجاد، ودليل الحدوث، ودليل الاختراع، وغير ذلك من الأسماء.

والحجَّة التي يوردُها العلماءُ في الغالب بعدها هي حجَّة الإتقان والإحكام. وتسمّى أيضًا بدليلِ الرعاية، ودليل العناية، ودليل التصميم، والحجة الغائية، وغير ذلك من الأسماء. وهذه الحجَّة تتعلَّق بالمخلوقاتِ الموجودة نفسها، وأنَّ الإتقان والإحكام فيها يدلُّ على وجود مُتْقن ومُحكم، وأنَّه يستحيل أنه قد أتى هذا الإتقان والإحكام عن صدفة.

هذه الحجَّةُ تتعلَّق بمخلوقات كثيرة جدًّا، منها: الكون بأكمله، والمخلوقات الحيّة. ودراسة هذه المخلوقات تندرج تحتَ أنواع مختلفة من العلوم كعلم الكون، والفيزياء، وعلم الأحياء. وبسببه أورد علماءُ الغرب هذه الحجَّة بطرقٍ مختلفة مدعَّمة بأدلة علمية من علومٍ متفاوتة. وأشهرُ الحجج التي يوردُها علماء الغرب اليوم هي: حجّة التصميم في المخلوقات، وتندرج تحتها: حجة التعقيد غير القابل للتبسيط، وحجّة التعقيدات المتخصّصة، وحجة التوافق الدقيق للكون.

وجميعُ هذه الحجج ترجع في الأصل إلى الحجة الغائية (Teleological Argument) فيستحسن إيرادُ الكلام عن تاريخ هذه الحجّة، ثمَّ يتبع هذا الكلام عن حجة التصميم وما

يندرجُ تحتها كحجَّة التعقيد المخصّص وحجّة التعقيد غير القابل للتبسيط. وفي المبحثِ القادم أتكلَّم عن حجة التوافق الدقيق للكون.

تاريخُ الحجَّة الغائية:

قد سبقَ أنَّ هذه الحجة تعتمد على أنَّ النظام في الطبيعة يدلّ على التصميم، والتصميم يدلُّ على وجود مصمِّم. وهي مِن أوَّل الحجج التي أوردها الفلاسفة اليونانيون. وقد تقدَّم في التمهيد أن أوَّل مَن اشتهر بإيراد هذه الحجّة هو الفيلسوف سقراط، وكان يأخذُ تلاميذه إلى السوق ويسألهم ما هي الأشياءُ التي تبدو أنها مصمّمة وماذا تبدو أنها عشوائية، ثمَّ يقيس الطبيعةَ على هذا، وأنه لا يمكن أن تكون نتيجة لمجرَّد عشوائية عمياء.

وكان أرسطو مِن أشهر فلاسفةِ اليونان الذين استخدموا هذه الحجَّة في الردِّ على الماديين، كما أنَّه ربط هذه الحجّة بأبحاثه العلمية في علم الأحياء، في كتابه: «تاريخ الحيوانات» (Τῶν περὶ τὰ ζῷα ἱστοριῶν) - كما سبق بيانه في التمهيد -.

وانتقلتْ هذه الحجَّة من الفلاسفة اليونانيين إلى الفلاسفة الرومانيين، فاستخدمها الفيلسوفُ سيسيرو في الردِّ على الماديين بقوله: «عندما ترى ساعة شمسية أو ساعة مائيَّة فإنَّك ترى أنها تخبرُك عن الوقت بناءً على التصميم وليس بالصدفة. فكيف تتخيَّل أنَّ الكون بأكمله خالٍ عن الغاية والذكاء، حيث أن الكون يحيط بكلِّ شيء، بما في ذلك هذه الصناعات وصانعيها»[١]. وكانت هذه الحجَّةُ متداولة بين الفلاسفة الرُّواقيين في العصر الروماني[٢].

وقد تأثَّر بولس اليهودي المتنصِّر بهذه الحجَّة، وذكرها في رسالته إلى أهل روما إذ قال: (لأَنَّ غَضَبَ اللهِ مُعْلَنٌ مِنَ السَّمَاءِ عَلَى جَمِيعِ فُجُورِ النَّاسِ وَإِثْمِهِمِ الَّذِينَ يَحْجِزُونَ

---

(١) انظر: De Natura Deorum ii, 34, M.T. CiceroDe natura Deorum (the nature of the gods), book II, XXIV

(٢) انظر: Creationism and Its Critics in Antiquity (xvii), by: David Sedley, (University of California Press, 2007)

الْحَقَّ بِالإِثْمِ. إِذْ مَعْرِفَةُ اللهِ ظَاهِرَةٌ فِيهِمْ لأَنَّ اللهَ أَظْهَرَهَا لَهُمْ، **لأَنَّ مُنْذُ خَلْقِ الْعَالَمِ تُرَى أُمُورُهُ غَيْرُ الْمَنْظُورَةِ وَقُدْرَتُهُ السَّرْمَدِيَّةُ وَلاَهُوتُهُ مُدْرَكَةً بِالْمَصْنُوعَاتِ حَتَّى إِنَّهُمْ بِلا عُذْرٍ**»[1]. وكانت الحجةُ بعدَ هذه الرسالة من الحجج الأساسية في الديانة النصرانية؛ فقد أوردَها اللاهوتيون المتقدِّمون مثل: أغسطين في القرن الخامس الميلادي[2].

وهي الحجةُ الخامسة من الحجج التي أوردها توما الأكويني من حججِه الخمس المشهورة، وكان يسمِّيها: قابلية الطبيعة للتوجيه[3].

وفي عصرِ التنوير وما بعدَه تطوَّر العلم الطبيعي تطوّرًا هائلًا، وكان العلماء التجريبيون يربطونَ هذه الحجّة بأبحاثهم العلمية، ويروْن أنَّ ما تكشفه الطبيعة من العجائب من أدلِّ الأدلة على وجود خالقٍ لهذا الكون. وكان بعضهم يستدلُّ بانتظام الكون على وجود الخالق مثل إسحاق نيوتن إذْ هو القائل: «لا يمكن أن هذا النظام الرائع للشمس، والكواكب، والنيازك قد ظهرَ بدون تصميم وتدبير من كائن ذكي وقوي[4]»[5].

واستدلَّ غيرُه بالتصميم في الطبيعة والمخلوقات الحيَّة على وجود مصمِّم لها. وأشهر مَن قام بذلك هو اللاهوتي وليام بايلي في كتابه: «اللاهوت الطبيعي» (Natural Theology)، إذْ ضرب مثاله المشهور المعروف بمماثلة صانع الساعات (Watchmaker Analogy) التي قال عنها: «لنفترض أنني أثناءَ عبور مرج حطَّت قدمي على قطعة "حجر"، وسُئلت كيف وصلَ الحجر إلى هنا، لعلّي سأجيب بأنه

---

(١) رسالة إلى أهل روما (١: ١٨ - ٢٠).

(٢) انظر: City of God, Book XI, Chapter 4

(٣) هذه الطرق كلها مذكورة بالتفصيل في:

Summa Teologica, Question 2. The Existence of God. Article 3. Whatever God exists?
http://www.newadvent.org/summa/1002.htm#article2

(٤) إطلاق وصف (كائن) و(ذكي) على الله شيء لم ترد به الأدلة في ديننا، وإنما أحكي ما قاله.

(5) Encyclopedia of Science and Religion (621), by: a number of authors, (MacMillan, 2003)

لو لم أعلم بعكس ذلك فإنَّه يقبع هناك منذُ الأبد. ولعلَّه قد لا يكون من السهل جدًّا إظهار سخف هذه الإجابة. ولكنْ لنفرض أني وجدتُ "ساعة" على الأرض، وأنه ينبغي البحث عن كيفية وصولِ هذه الساعة لهذا المكان، فلا أظنُّ أني سأفكِّر بنفس الإجابة التي أدليت بها مسبقًا...

لا بدَّ أنه كان هناك في زمن ما، وفي مكانٍ ما صانع أو عدَّة صانعين صنعوا هذه السَّاعة للغاية التي نبحث عنها، وقد أدركوا صناعته وصمَّموها لهذا الاستعمال. كلُّ دلالة على الاختراع، وكلُّ مظهر للتصميم موجود في الطبيعة، ولا فرق، إلّا أنه أظهر في الطبيعة، يفوق جميع الحسابات»[1].

إذًا، كانت الحجَّة الغائية من أقوى الأدلَّة على وجود الله إلى عصر التنوير، ولم يكد ينازع أحدٌ في قوّة دلالتها، إلى أنْ طلع قرنُ الإلحاد والنقد الديني في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. وبيانُ ذلك كما يلي:

نقدُ الملاحدة للحجة الغائية:

تلقَّت الحجّةُ الغائية انتقاداتٍ كثيرة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. وأشهر مَن انتقد هذه الحجَّة ثلاثةُ أشخاص: ديفيد هيوم، وإيماونويل كانت، وتشارلز داروين. وبيانُ ذلك بما يلي:

- **أوَّلًا: ديفيد هيوم:**

أبدى هيوم تأييدًا لحجَّة التصميم في كتابه: «رسالة عن طبيعة الإنسان» (Treatise of Human Nature)[2] الذي صدر عام ١٧٤٠م، ولكنّه بدأ ينتقدها في كتابه: «رسالة عن الفهم الإنساني» (An Enquiry Concerning Human Understanding) الذي صدر عام ١٧٤٨م، وكان سببُ انتقاده في هذا الكتاب يشبه انتقاده للحجة الكونية، وهو

---

(1) Natural Theology (2)

(٢) انظر: The Blackwell Guide to Hume’s Treatise (12), by: JP Wright, (John Wiley & Sons, 2008)

موقفه السَّلبي لمبدأ السببية، وقوله إنَّ هذا المبدأ مبنيٌّ على التجربة والملاحظة فقط، فلا يمكن استعمالُه لما هو فوق الطبيعة، كالاستدلال على وجود خالق مصّمم[١].

ثمَّ زاد انتقاداته لهذه الحجّة في كتابه الأخير: «حوارات عن الدين الطبيعي» (Dialogues Concerning Natural Religion)، الذي أنهاه في سنة وفاته عام ١٧٧٦م، وذكرَ في هذا الكتاب أنَّ علمنا بالتصميم في الكون قليل جدًّا؛ فقد نرى الانتظام في بعضِ الأجزاء منه، بينما قد توجَد فوضى في أجزاء أخرى. وكان يورد انتقاداته على لسانِ أحد المتحاورين اسمه فيلو، وهو يقول: «جزءٌ بسيط من هذا النظام العظيم، يُكشف لنا خلالَ فترة قصيرة جدًّا، بطريقة ناقصة، ومعَ ذلك نميل إلى القول بيقين تام إنَّنا نعرف مصدرَه ككلّ؟»[٢]. وكان ذلك بدايةَ انتقاد هذه الحجَّة بجدِّية في الأزمان المتأخّرة.

- **ثانيًا: إيمانويل كانت:**

كان إيمانويل كانت يناقشُ الحجةَ الغائية في كتابه: «نقد العقل المجرّد» (Critique of Pure Reason)، فذكر أنَّها أقدمُ وأوضح حجَّة على وجود الله، ولكنَّ هذا الثناء لم يمنعه مِن انتقادها. وانتقاداتُه لهذه الحجَّة تشبه انتقاداته للحجة الكونية بأنها تعتمد في الأصل على الحجَّة الوجودية لإثباتِ وجود كائن فائق. وحيث إنه يرى أن الحجّة الوجودية باطلة، فإنَّ كلَّ ما يعتمد عليها باطل أيضًا. فهو يسلِّم بوجود أدلة على غائية وتصميم في الكون، ولكنَّه أنكرَ دلالتها على وجود كائن عظيم قد صمّم الكون لغاية[٣].

فتتلخَّص هذه الردود بأنَّ ديفيد هيوم انتقد مقدِّمات الحجَّة من وجود الإتقان في الكونِ ومبدأ السببية، بينما انتقدَ إيمانويل كانت النتيجة بأن الحجَّة تدلُّ على وجود الإله.

---

(١) انظر: A Companion to Hume (118), by: LE Loeb, (John Wiley & Sons, 2010)

(2) Dialogues Concerning Natural Religion, number 2

(٣) انظر:
Kant's 'Critique of Pure Reason': An Introduction (279), by: JV Buroker, (Cambridge University Press, 2006)

وقد سبق الردُّ على موقف هيوم من السببية، وقياس ادِّعاء كانت أنَّ الحجَّة الكونية تعتمد على الحجّة الكونية.

وأمَّا ادِّعاء هيوم أَنَّه لا يمكن التحقُّق من الإتقان والإحكام في الكون بأكمله ففيه سخافةٌ وسَفَه، لأَنَّه ولو كان علمُ الناس بالكون في ذلك الوقت محدودًا، فإن الذي عرفوه عن الكون أَنَّه منتظم للغاية. وكان العلماء التجريبيون مثل: إسحاق نيوتن يؤكِّدون ذلكَ خلال أبحاثهم العلمية. ولكن، على فرض صحَّة ادِّعائه أنَّ علمهم في ذلك الوقت بالكون كان محدودًا، فإنَّ علمهم بالمخلوقات الحيّة الموجودة كان أوسع بكثير، حيث يمكن دراستُها، والاطِّلاع على الإتقان والإحكام فيها. فلم يستطع هيوم أنْ ينكر هذا النوعَ من التصميم والإتقان. ولكن تشارلز داروين تحدَّى القول بوجود التَّصميم في المخلوقات الحيّة بنظريته. وبيانُ ذلك كما يلي:

- **ثالثًا: تشارلز داروين:**

قد سبقَ أنَّ داروين كان معجبًا بوليام بايلي وكتابه: اللاهوت الطبيعي في مقتبل عُمره، بل هو القائل: «ما أظنُّ أنني كنت أحترمُ كتابًا كما كنت أحترم كتاب اللاهوت الطبيعي لبايلي»[(١)].

ولكنَّه رأى بعدَ تنظيره لنظرية التطوّر أنه يمكن تفسيرُ وجود التصميم في المخلوقات الحيَّة عن طريق الانتخاب الطبيعي، ولا حاجَّة إلى القول بوجود خالق مصمّم؛ فقال: «الحجَّة القديمة عن التصميم في الطبيعة كما ذكرَها بايلي، التي كانت تبدو حاسمة لي، تفشلُ عندما اكتشفَ قانونُ الانتخاب الطبيعي. لا يمكن أن نجادلَ على سبيل المثال أنَّ المِفصَل الجميل في ذوات الصدفتين (bivalve shell) قد اخترعها كائن ذكي، مثل المِفصل لباب الإنسان... كلُّ شيء في الطبيعة نتيجة لقوانين ثابتة»[(٢)].

---

(1) Life and Letters of Charles Darwin, C. Darwin to John Lubbock, 15 November, 1859, D. Appleton and Co., New York, Vol. 2, p. 15, 1911.

(2) Life and Letters of Charles Darwin (1:133) The

وكانت نظريتُه أقوى ضربةً لهذه الحجَّة في القرن التاسع عشر، ومازال الملاحدة يتمسَّكون بنظريته أيَّما تمسَّك لإبعاد أيِّ تفسير ديني لوجود هذا التصميم، ويدّعون أنه يمكنُ تفسيرُ الإتقان والإحكام في المخلوقات الحيَّة بالطفرات العشوائية والانتخاب الطبيعي.

وإضافةً إلى ما سبق، فبقي أمران مهمَّان متعلِّقان برفض الحجة الغائية استنادًا إلى نظرية التطوّر:

الأمرُ الأوَّل: نظرية التطوُّر - على فرض صحَّتها - تفسِّر التصميم في المخلوقات الحيَّة، وليست لها علاقة بوجود التصميم في هذا الكون الفسيح. وكان داروين يعترف أنَّ دليلَ التصميم في الكون من أقوى الأدلة على وجود الله إذ يقول: «يمكنني أن أقول إنَّ استحالة إدراكنا الواعي لتكوُّن هذا الكون الفسيح والبديع تبدو أنَّها الحجة الرئيسة على وجود الله؛ ولكنْ لم أقرِّر موقفي من ذلك. أنا أعرف أنه إذا اعترفنا أنه يوجد سببٌ أوَّل، فإنَّ الذهن مازال يفكِّر متى ظهرَ هذا السبب وكيف؟ ولا يمكننا تخطِّي فكرةَ الآلام الكثيرة الموجودة في العالم أيضًا. فأنا أقتنع أيضًا إلى حدٍّ ما بالقرار أن كثيرًا مِن الرجال البارعين كانوا يؤمنون بالله، ولكنّي أرى مدَى ضعف الحجّة بأن أقتنع بالإيمان بمجرَّد إيمانهم هُم. الاستنتاجُ الأكثر أمنًا لهذه القضية كلِّها أنها خارجة عن حدود عقل الإنسان تمامًا...»[1].

فيظهرُ من هذا الكلام أنَّ داروين كان لاأدريًّا، ويرى أن الحجة الرئيسة لوجود الله هي استحالةُ تكوُّن هذا الكون عن طريق الصدفة. ولكنَّ معضلة الشرّ كانت تعرقله، ودفعتْه نحو الموقف اللاأدري.

الأمرُ الثّاني: أنَّ نظرية التطوُّر - على فرض صحّة تفسيرها لبعض التصميم في المخلوقات الحيَّة - لا يمكنها تفسيرُ كلِّ شيء. وعليه، فإنَّ كلَّ مظهر من مظاهر التَّصميم والإتقان الذي لا تفسِّره نظرية التطوّر يتحدَّاها ويدلُّ على بطلانها. وقد اعترفَ داروين بذلك إذ يقول: «إنْ كان يمكن أن يبرهنَ على أنه كان يوجد عضو معقَّد لم يتطوَّر عن طريق تغييرات عديدة طفيفة متتالية؛ فإنَّ نظريتي سوف تفشل تمامًا. ولكنِّي لا أرى أنه كذلك»[2].

---

(1) Darwin's Letter to N.D. Doedes, 2 April, 1873

(2) The Origin of Species (189)

فإذا كان بإمكان بيانِ ذلك الأمر فإنَّ داروين يعترف بأن نظريته فاشلة، وبالتالي يجب القولُ بالحجّة الغائية على وجود الخالق.

وقد بنى علماءُ الغرب على هذين الأمرين صياغاتٍ جديدة للحجة الغائية، وهما:

1) حجَّة التعقيد المخصّص.

2) حجَّة التوافق الدقيق للكون.

وسأتناول الحجَّة الأولى في هذا المبحث، والحجَّةَ الثانية في المبحث القادم إن شاء الله.

حجَّةُ التعقيد المخصّص:

قد سبقَ الحديث عن تاريخ الحجَّة الغائية، وأنَّ جذورها ترجع إلى العصر اليوناني، وأنَّها كانت الحجّة الرئيسة على وجود الله عند الفلاسفة واللاهوتيين والعلماء التجريبيين إلى عصر التنوير حيث ظهرت انتقاداتُ ديفيد هيوم وإيمانويل كانت. وتلقّت هذه الحجّةُ ضربةَ قويَّة معَ قبول كثير من العلماء لنظرية التطوّر، وشكّلت هذه النظرية تحدِّيًا خطيرًا لهذه الحجّة.

وقد عبَّر ريتشارد دوكينز عن أهمية هذه النظرية في نقد الحجَّة بقوله: «الفهم العميق للدّاروينية يعلّمنا الحذرَ عندما نفترض بأنَّ التصميم هو البديل للصدفة، ويعلّمنا أنْ نبحثَ عن سلسلة تدرُّجات بطيئة جدًّا باتِّجاه التعقيد. وقبل داروين، كان الفلاسفة مثل: هيوم يفهمونَ أنَّ عدمَ احتمال الحياة لا يعني بالضرورة أن تكون مصمّمة ولكنّهم لم يستطيعوا تخيُّل البديل. وبعدَ داروين، علينا جميعًا أن نشعر، مِن كلّ أعماقنا، بالشكِّ في نظرية التصميم ذاتها. وَهمُ التصميم هو الفخُّ الذي وقعنا فيه من قبل، ويفترض أن داروين أعطانا المناعة ضدَّه برفع مستوى وعينا»[1].

وذكرَ الدكتور ستيفن ماير ما حصلَ في الفترة التي أعقبت صدور كتاب: أصل الأنواع: «وكنتيجةٍ لذلك، انحسرت فكرةُ التصميم وتقلّصت حتى أصبحت مجرّد

---

(1) The God Delusion (114)

اعتقاد شخصيٍّ في الميادين الفكرية، فيمكن المرء أن يؤمنَ بوجود عقل يراقب ويشرف على الطبيعة المنتظمة التي تتشابَه مع القوانين، ولكن عليه أن يؤكِّد على أنَّ الطبيعة وقوانينها قائمةٌ بذاتها. ولذلك لم يعدْ لاهوتيو الطبيعة في نهاية القرن التاسع عشر يشيرون إلى أيِّ خاصَّة تتطلّب ذكاءً كشرطٍ ضروري لتفسير نشوئها، وبهذا أصبحَ التصميم الذكيُّ غير مقبول سوى في عيون الإيمان»[1].

ولكنْ بدأ هذا الموقف يتغيَّر بعد النصف الثاني من القرن المنصرم، فقد اعترف عددٌ كبير مِن علماء التطوُّر بمشاكل أساسية في نظريتهم، ولا سيَّما فيما يتعلَّق بكون الآلية الداروينية تفسيرًا كافيًا للإتقانِ في المخلوقات الحيّة[2]. ومع صعود نجم نظرية الخلق ونظرية التصميم الذَّكي على الساحة العلمية باتتْ نظرية التطوّر في مأزق كبير. وحيث أنَّه لا توجد نظرية علمية جادَّة في تفسير التصميم والإتقان في المخلوقات عند الملاحدة إلّا نظرية التطوّر، أدركوا أنَّ سقوط هذه النظرية يلزم منه حتمًا الإيمان بوجود الخالق. ولهذا دافعَ الملاحدة عن هذه النظرية دفاعًا مستميتًا، بل استعملوا الإرهاب الفكري ضدَّ كلِّ مَن خالفها في الأوساط العلمية، لكيلا يتنفَّس العلماء المعارضون للنظرية ولا يكون لهم صوتٌ في المجتمع - كما سبق بيانُه -.

ولكنَّ أصوات المعارضين لنظرية التطوّر تتعالى يومًا بعد يوم، ويزداد عدد المنتقدين لها في بلدانٍ شتّى. وقد أدرك علماءُ التصميم الذَّكي أنه لا يكفي مجرّد نقد بعض الأطروحات التطوّرية، بل يلزم إيجادُ حجَّة عقلية علمية تنقد نظرية التطوّر، وفي الوقت نفسِه تثبت وجود الخالق المصمِّم لهذا التصميم. والحجَّة التي صاغها علماء الغرب في علمِ الأحياء على وجود الله تسمّى: حجّة التعقيد المخصّص.

---

(١) التصميم الذَّكي - فلسفة وتاريخ النظرية - (٢١ - ٢٢)، للدكتور ستيفن ماير، (مركز براهين لدراسة الإلحاد ومعالجة النوازل العقدية، الطبعة الأولى، ٢٠١٦ م. ترجمة: محمد طه وعبد الله أبو لوز).

(٢) انظر: العلم ودليل التصميم في الكون (١٧ - ١٨)، لمجموعة من المؤلفين، (مركز تكوين للدراسات والأبحاث، الطبعة الأولى، ١٤٣٧ هـ، ترجمة: رضا زيدان).

والذي أبرزَ هذا الدليل هو الدكتور وليام ديمبسكي في كتابه: «استنتاج التصميم» (The Design Inference)، الذي طبعته مطبعة جامعة كامبردج عام ١٩٩٨ م[1].

وقد بيَّن سببُ تسميته الحجَّة بالتعقيد المخصّص بقوله: «فعندما يتصرّف العاقلون يتركون وراءهم علامة متميِّزة أو توقيعًا؛ وهو الذي سمَّيته (تعقيدًا مخصّصًا). ويكشف معيار خصائص التعقيد عن التصميم، وذلك عنْ طريق تحديد الدليل أو التوقيع في الأشياء المصمّمة»[2].

وقال الدكتور ستيفن ماير مبيّنًا استدلالَ الدكتور ديمبكسي في كتابه: «استنتاج التصميم»: «حاجج ديمبسكي بأنَّ الكائنات العاقلة يكشفون ويستنبطون نشاط عقول مصمَّمة أخرى من خلال تتبُّع خصائص الآثار التي يتركونها. فعلماءُ الآثار - على سبيل المثال - يفترضون أنَّ كائنات عاقلة أوجدت النقوش الموجودة على حجر رشيد. ومحقّقو الاحتيالات في مؤسَّسات التأمين يكتشفون أنماطَ احتيال محدَّدة، تدلُّهم على تلاعب مقصودٍ بالظروف، وعلى استبعاد دور الكوارث الطبيعية. وعلماء التشفير يميّزون بين الإشارات العشوائية وتلك التي تحملُ رسالات مشفَّرة. لقد بيَّن ديمبسكي في دراسته أن تحديدَ وتعيين نشاطِ وأفعال الكائنات الذَّكية يشكّل نوعًا منتشرًا ومنطقيًّا من الاستنباط. والأهمُّ من ذلك، هو صياغة ديمبسكي في مؤلّفه منهجية ومعايير محدّدة تتعرَّف من خلالها الكائناتُ العاقلة آثارَ كائنات عاقلة أخرى، ويميّزوها عن الآثار الناجمة عن الأسباب الطبيعية»[3].

وذكر الدكتور ديمبسكي أنَّه يجب ملاحظة ثلاثة أشياء عند الاستدلال على التَّصميم: «الاحتمالية (احتمال حدوث شيء مصادفة)، والتعقيد، والتخصيص. وتعني الاحتمالية: أنَّ حدثًا ما هو واحدٌ من عدَّة احتمالات؛ وذلك يؤكّد أن شيئًا ما نتيجة عملية تلقائية، ومن ثمَّ غير ذكية. أمّا التعقيد فيتضمَّن: أنَّ شيئًا ليس بسيطًا، ولا

---

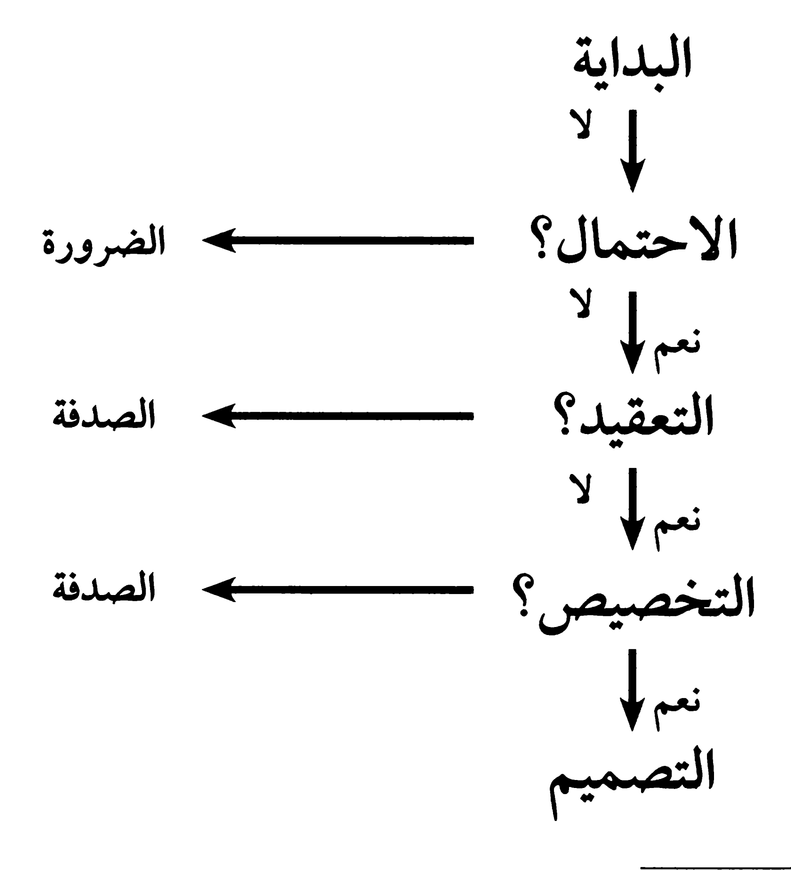
(١) انظر: التصميم الذَّكي - فلسفة وتاريخ النظرية - (٨٦ - ٨٧).

(2) Science and Evidence for Design in the Universe (23)

(٣) التصميم الذَّكي - فلسفة وتاريخ النظرية - (٨٧).

يفسّر حصولُه عن طريق الصدفة. أمَّا التخصيص فيتضمّن: أنَّ الكائن يدلُّ على نوع من أنماط الذكاء»[١].

ثمَّ شرح هذا الأمرَ بقوله: «فعندما نأتي ونفسِّر حدثًا أو شيئًا أو تركيبًا فلدينا القرار لعزْو ذلك إمّا إلى الضرورة، أو الصدفة، أو التصميم. وطبقًا لمعيار التعقيد المخصّص فلكي نعرفَ الجوابَ يجب أن نجيبَ عنْ ثلاثة أسئلة بسيطة: هل الحدث محتمل؟ هل هو معقَّد؟ هل هو مخصَّص؟ وبناءً على ذلك يمكن لمعيار التعقيد المخصّص أن يمثّل ما أطلقت عليه: الفلتر التفسيري»[٢]. وقد رسمه ديمبسكي بالشكل الآتي[٣]:



---

(1) Science and Evidence for Design in the Universe (25-26)

(٢) المصدر السابق (٣١).

(٣) انظر: المصدر السابق (٤٥).

فلا يستنبط التصميم إلّا بهذه الأمور الثلاثة، وبالمثال يتَّضح المقال؛ فقد لخّص الدكتور ستيفن ماير الفلترَ التفسيري للدكتور ديمبسكي بطريقة جيّدة، وإن كان فيها نوعٌ من الطول، ولكن يستحسنُ إيرادُه لإيضاح هذه القضية أكثر؛ فقد قال الدكتور ماير: «ولتوضيح هذه المفاهيم (التعقيد والتخصّص)، انظر إلى المتسلسلات الرمزية التالية:

- «ثثخقركهخحهخكقتهعثتؤـهقهثعاقخمنعؤهخقتثقو».
- «لا ينتظر الوقت والفرصة أيّ رجل».
- «أ ب أ ب أ أ ب أ ب أ ب أ أ ب أ ب أ ب أ ب أأ ب أ ب أ ب».

كلتا الجملتان: الأولى والثانية تتَّصفان بالتعقيد لأنَّ كلتيهما تستعصيان على التوصيف بقاعدةٍ أو علاقة بسيطة؛ فكلتاهما تمثِّل تسلسلات غير نمطية وغير متكرّرة كما تعبِّر عن تسلسل تحقُّقُه قليلُ الاحتمال. أمّا الجملة الثالثة فليست بمعقَّدة، ولكنّها بالمقابل متكرّرة ونمطية.

وبينَ الجملتين اللَّتين تتَّصفان بالتعقيد، واحدة فقط هي التي تعبِّر عن مجموعة من الشُّروط الوظيفية المستقلَّة، أي: متخصِّصة؛ فاللغة الإنجليزية تحتوي على العديد من تلك المتطلّبات الوظيفية.

فعلى سبيل المثال، لكي نوصل معنى ما فلا بدَّ من استخدام مصطلحات موجودة مِن الكلمات (مجموعة من المتسلسلات الرمزية التي ترتبط وتعبِّر عن أشياء: مفاهيم وأفكار)، وكذلك لا بدَّ من التقيُّد بمجموعة من الاصطلاحات أو التوافقات الحالية على نمطِ تركيب الجملة، بالإضافةِ لقواعد الصفِّ والنحو (كالقاعدة التي تقول: كلُّ جملةٍ تتطلّب فاعلًا وفعلًا).

فلا يحصلُ التواصلُ إلّا بترتيب مجموعة من التراكيب الرمزية وفقًا للاصطلاحات الحالية على شكل الكلمة وقواعد النحو والصرف في لغةٍ ما (بمعنى أنّها تتّفق مع الشُّروط الوظيفية)؛ فهذه التراكيب تُظهر تخصّصًا.

والجملةُ الثّانية تظهر بشكل جليٍّ هذا التوافقَ بين تسلسل رموزها وبين الشروط الوظيفية المتمثِّلة بالاتِّفاق مع الاصطلاحات الحالية لشكل الكلمات والقواعد النحوية والصرفية، فقط وظَّفت هذه المتسلسلة الشروطَ الاصطلاحية للتعبير عن فكرة ذات معنى.

فمِن المتسلسلاتِ الثلاث، الثانية فقط هي التي تحتوي المؤشّرات الضرورية الدالة على نظامٍ مصمَّم؛ فالمتسلسلةُ الثالثة تفتقرُ إلى التعقيد، بالرغم من أنها تظهر نمطًا مكرَّرًا، والّذي يعتبر نوعًا من التخصّص.

والمتسلسلةُ الأولى معقَّدة، ولكنَّها لا تتَّصف بالتخصَّص كما بيَّنّا. المتسلسلة الثانية فقط هي التي تتَّصف بكلٍّ من التعقيد والتخصّص؛ فإذًا، وفقًا لنظرية ديمبسكي، فإن المتسلسلةَ الثانية وحدها هي التي تدلُّ على مسبب ذكي، بخلاف الأولى والثالثة، كما يخبرنا حدسُنا تمامًا»[١].

وهذا الكلام واضحٌ جدًّا من حيث التأصيل؛ فالشيء الذي يجمع بين التعقيد والتَّخصّص لا بدَّ أن يكون مصمَّمًا، وهذا أمر يدركه الإنسان بالبديهة العقلية.

وصياغة حجَّة التعقيد المخصّص بهذه الطريقة تشبه صياغة البروفسور وليام لاين كرايغ لحجَّة التوافق الدقيق للكون نوعًا ما. وهي طريقةٌ عقلية علمية جيّدة ومقنعة، إلا أنَّ كلَّ مقدِّمة بحاجةٍ إلى استدلال عقلي وعلمي، بخلاف صياغة الحجج الإسلامية المبنيَّة على مقدِّمتين ضروريَّتين ونتيجة حتمية لازمة لهاتين المقدِّمتين. ولكن في زمن العلم التجريبي الذي نعيشه الآن فإنَّ هذه الطريقة مقنعة للمتخصّصين في العلوم التجريبية.

التعقيدُ والتخصُّص في العالم الجزيئي:

هذا التعقيدُ والتخصُّص ملاحَظ في علم الأحياء بكثرة، ولكن أكثر ما يشاهد هذا التعقيد والتخصّص في العالم الجزيئي - الذي كان شبهَ مجهول في زمن داروين -. وقد بيَّن الدكتور مايكل دينتون هذا الأمرَ بكلام مطوَّل، ولكنَّه مفيد للغاية، فيحسن إيرادُه بطوله حيث قال: «ربَّما لا يشكّل التعقيدُ الشديد وبراعة التكيّفات البيولوجية تحديًا

---

(١) التصميم الذَّكي - فلسفة وتاريخ النظرية - (٨٨ - ٩٠).

في مجالٍ آخر من البيولوجيا الحديثة أكثرَ وضوحًا من عالم الخلية الجزيئي الجديد الفاتن؛ لأنَّه إذا عُرضت الخلية الحيَّة تحتَ مجهر ضوئي بتكبير إلى نحو عدّة مئات المرّات - كما كانت الإمكانياتُ في زمن داروين - فستظهر بمشهدٍ محبط نسبيًّا، فلا يبدو سوى قالبٍ دائم التغير مضطرب ظاهريًّا من النقاط والجسيمات التي ترميها قوى عنيفة غير مرئيَّة جزافًا في جميع الجهات، لكنْ لندرك حقيقة الحياة كما أظهرتها البيولوجيا الجزيئية يجبُ علينا أن نكبِّر الخلية ألفَ مليون ضعف، حتى يصل قطرها إلى عشرين كيلومترًا، وتشابه منْطادًا ضخمًا لدرجةٍ تكفي أن يغطّي مدينة ضخمة، مثل لندن ونيويورك، وما ستراه عندئذٍ سيكون شيئًا فريدًا من التعقيد والتصميم التكيّفي، سنرَى على سطح الخلية ملايين الفجوات التي تشبهُ كوّات سفينة فضائية ضخمة، تفتح وتغلق لتسمح لتيارٍ مستمرٍّ من المواد أن يتدفَّق داخلًا وخارجًا. لو أردنا أن ندخل إحدى هذه الفجوات، فسنجدُ أنفسنا في عالم من التكنولوجيا العالية والتعقيد المذهل؛ حيث سنرى أورقةً لا تحصى عددًا، وقد نظمت إلى حدٍّ كبير، ونجد أقنية متشعّبة في كلِّ جهة، متَّجهة إلى خارج حدود الخلية، بعضها يصل إلى بنك الذاكرة المركزي في النواة، وبعضها الآخر إلى مصانع التجميع ووحداتِ المعالجة، وستكون النواة بمفردها على شكلِ حجرة كرويَّة واسعة، بقُطر طوله أكثرُ من كيلومتر مثل قبّة جيوديسية[1]، نرى في داخلِها أميالًا من السلاسل الملفتة من جزيئات الحمض النووي تتكدَّس جميعُها معًا في مصفوفاتٍ مرتّبة، ويستمرُّ نطاقٌ ضخم من المنتجات والمواد الخام عبر الأقنية المتشعّبة بشكل منظَّم تنظيمًا عاليًا، مِن وإلى جميع مصانع التجميع المختلفة في المناطق الخارجية من الخلية.

وستعجبُ مِن مستوى التحكُّم الكامن في حركة كثير من الأشياء على طول ما يبْدو أنَّه أقنية لا نهاية لها، تتحرَّك جميعها بانسجام تام، وسنرى حولنا وكيفما قلّبنا النظر جميع أنواع الآلات التي تشبه الروبوتات الآلية. سنلحظُ ونذهل من أنَّ

---

(١) القبَّة الجيوديسية (Geodesic dome): هي هيكل قشري خفيف ذات شكل كروي أو شبه كروي مبنيَّة على أساس شبكة من الدوائر العظمى على سطح كرة.

انظر: https: / /www.britannica.com /technology /geodesic – dome

أبسط المكوِّنات الوظيفية للخلية: الجزيئات البروتينية، هي آلياتٌ جزيئية معقَّدة، كلٌّ منها يتكوّن من ثلاثةِ آلاف ذرَّة مرتَّبة بهيئة ثلاثية الأبعاد منظَّمة تنظيمًا دقيقًا. وستعجب أكثر عندما نشاهدُ نشاطات هذه الآلات الجزيئية العجيبة، التي نستغرب أنها نشاطات هادفة، لا سيَّما عندما ندرك أنَّه رغم كلِّ معرفتنا التراكمية في الفيزياء والكيمياء تبقى مهمّة تصميم آلة جزيئية واحدة كهذه - أي جزيء بروتيني وظيفي واحد فقط - خارجَ نطاق قدراتنا تمامًا في الحاضر، ومِن المحتمل أنَّه لن يتمَّ ذلك حتى في بداية القرن القادم على الأقل[١]، فكيف إذن تعتمدُ حياة الخلية على النشاطات المتكاملة لآلاف الجزيئات البروتينية - بالتأكيد عشرات الآلاف - وربّما مئات الآلاف»[٢].

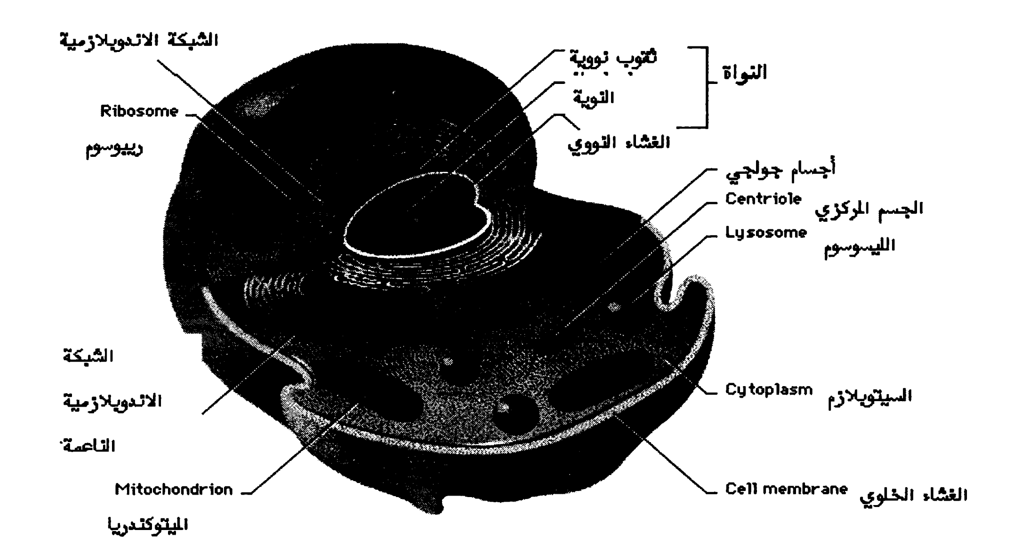
ثمَّ ذكر الدكتور دينتون أن مكوِّنات الخلية تشبه آلات الإنسان الحديثة إلى حدٍّ كبير؛ فقال: «سنرى أنَّ كلَّ ميزة تقريبًا من ميزات آلاتنا المتقدّمة لها نظير في الخلية؛ كاللغات الاصطناعية وأنظمة تشْفيرها، وبنوك الذاكرة المخصَّصة لتخزين المعلومات واستردادها، وأنظمة التحكُّم الراقية التي تنظِّم التجميع الذاتي للقطع والمكوّنات، وأجهزة الوقاية من الأعطال (error fail - safe)، وأجهزة التدقيق اللغوي المستخدمة في التحكّم بالجودة، وعملياتُ التجميع التي تتضمَّن مبدأ التصنيع المسبق والبناء الجزيئي. في الحقيقة سنعيش شعورَ (لقد رأينا هذا من قبل) - الديجافو (deja - vu) - بشكل عميق جدًّا، وسيكون التشابهُ مقنعًا جدًّا لدرجةِ أنَّنا سنقتبس الكثير من مصطلحات عالم التكنولوجيا في أواخر القرن العشرين لوصف هذا الواقع الجزيئي الساحر»[٣].

---

(١) ألّف الدكتور دينتون هذا الكتاب عام ١٩٨٥م.

(٢) التطوّر نظرية في أزمة (٤٠٠ - ٤٠١).

(٣) المصدر السابق (٤٠٢).



صورةٌ توضيحية لمكوِّنات الخلية

فهذا كلامٌ لأحدِ كبار علماء الأحياء الجزيئي يصف التعقيدَ المخصَّص في مكوِّنات الخلية، وأنَّ كثيرًا من هذه المكوِّنات تشبه آلات الإنسان. فلا شكَّ أنَّ هذه المكوّنات مِن أدلِّ الأدلَّة على هذا النوع من التعقيد الذي يدلُّ على التصميم من خالق عليم قدير.

وتقتضي نظريةُ التطوُّر أنَّ جميع هذه المكوّنات قد ظهرت عن طريق: الطفرات والانتخاب الطبيعي. وقد سبقَ من كلامِ ريتشارد دوكينز أنه قال: «الفهمُ العميق للداروينية يعلِّمنا الحذرَ عندما نفترض بأنَّ التصميم هو البديل للصدفة، ويعلّمنا أنْ نبحثَ عن سلسلة تدرُّجات بطيئة جدًّا باتّجاه التعقيد».

وللردِّ على هذه الشبهة أنه يمكن أن يتطوَّر كلُّ مكوِّن من مكوّنات العالم الجزيئي تدريجيًّا أتَى علماءُ الغرب بحجَّةٍ أخرى تسمَّى حجَّة التعقيد غير القابل للتَّبسيط. والحديثُ عنها كما يلي:

حجّةُ التعقيد غير القابل للتبسيط:

رائدُ هذه الحجَّة هو البروفسور مايكل بيهي، وقد نشأ البروفسور بيهي كاثوليكيًّا، والكنيسةُ الكاثوليكية تتقبَّل نظرية التطوُّر، فلم يعارض النظرية في مُقتبل عمره. ولكنّه قرأ كتابَ الدكتور مايكل دينتون - الذي سبقتِ الإشارة إليه -، فبدأ يشكُّ في هذه النَّظرية من الناحية العلمية، «فبدأ بيهي تباعًا بدراسةِ الأدلة في مجال اختصاصه وموقفها من معقوليَّة الآيات الداروينية على إنتاج التعقيد المترابط وظيفيًّا الذي تتميَّز بها الأعمال الداخليةُ في الخلية، فخلُصَ إلى أنَّ التصميم الذَّكي لا بدَّ أن يكون له يد في هذه العملية، وبينما كان اهتمامُه بالإشكالية ينمو؛ بدأ بيهي بتدريس مساقٍ جامعي حول إشكالية التطوّر»[1].

وفي عام ١٩٩٦م، نشرَ كتابًا بعنوان: «صندوق داروين الأسود» (Darwin's Black Box)، وقدّم فيها حجّةَ التعقيد غير القابل للتبسيط. ويعتبر النظام معقّدًا بشكل غير قابلٍ للتبسيط إنِ احتوى على أنظمةٍ فرعية متعدِّدة الأجزاء - يعني: مجموعة من جزئين مُرتبِطين أو أكثر - لا يمكن تبسيطُها دونَ تدمير الوظيفة الأساسية لهذا النظام[2].

ومِن الأمثلة على مثلِ هذا النظام التي ذكرها البروفسور بيهي في هذا الكتاب أنَّ الخلايا البكتيرية تحرِّك نفسها بقوَّةٍ دفع قد تصلُ إلى سرعة دورات تبلغ مائة ألف دورة في الدقيقة، ناجمة عن محرِّكات دوَّارة تسمَّى المحرّكات السوطية. وهذه المحرّكات تحتوي على العديدِ من الأجزاء الميكانيكية المكوَّنة من البروتينات تتضمّن أجزاء للدوران، وأجزاء ثابتة، والخواتم الربطية، والبطانات، والماصل الميكانيكية، بالإضافة إلى أعمدة دوران ناقلة للعزم. والمحرِّك السوطي يعتمدُ على عمل مترابط ومنسَّق بين ثلاثين مكوّن بروتيني، وإزالة أحدِ بروتيناته الضرورية تؤدِّي إلى فقدانه القدرة على العمل.

---

(١) التصميم الذَّكي - فلسفة وتاريخ النظرية - (٧٨).

(٢) انظر: تصميم الحياة (٢٥٧)، للدكتور وليام ديمبسكي والدكتور جونثان ويلز، (مركز تكوين للدراسات والأبحاث، الطبعة الأولى، ٢٠١٤م. ترجمة: الدكتور موسى إدريس والدكتور مؤمن حسن، والدكتور محمد القاضي).

وهذا يعتبر تحدِّيًا كبيرًا للآلة الداروينية المسمَّاة بالانتخاب الطبيعي، لأنه لا يستطيع إنتاجَ المحرِّك عبرَ مراحل متتابعة، بل لا بدَّ أن يظهر هذا المحرّك بأجزائه الثلاثين دفعة واحدة، وإلّا فإنه لا يعمل أصلًا[1].

وقدْ أزعج البروفسور بيهي الملاحدةَ كثيرًا بكتابه، حتى خصّص ريتشارد دوكينز فصلًا من كتابه: «وهْم الإله» في محاولة الردِّ عليه[2]. ورغمَ ذلك لم يستطعِ الملاحدة منذ صدورِ كتابه قبلَ أكثر من عشرين سنة أن يفسِّروا ظهور هذه الأنظمة المعقّدة بالانتخاب الطبيعي سوى ببعض الفرضيّات الغامضة غير المقنعة. وهذا مما يدلُّ على قوَّة حجّة البروفسور بيهي[3].

وحجَّةُ البروفسور بيهي جزءٌ من حجَّة التعقيد المخصّص التي قدّمها الدكتور وليام ديمبسكي[4]؛ فالدكتور ديمبكسي عالمُ رياضيات واحتمالات، وقد اهتمّ بالجانب النظري العقلي، بينما البروفسور بيهي عالمُ كيمياء حيويَّة فانصبَّ اهتمامه في الجانب العلمي. فيمكن أن يقال إنَّ حجَّة التعقيد غير القابل للتبسيط هي تطبيق علمي عملي للحجة العقلية: التعقيد المخصّص.

وسيأتي المزيدُ من الأمثلةِ العلمية على هذه الحجَّة في الفصل القادم عن الأدلة العلمية على وجود الله - إنْ شاء الله -.

الاعتراضاتُ على الحجَّة الغائية:

أمَّا الاعتراضاتُ على هذه الحجَّة فترجع إلى أمرين:

الأمرُ الأوَّل: الشبهاتُ الفلسفية المتعلِّقة بالحجّة الغائية، وقد سبق الردُّ عليها في المطلب السابق.

---

(١) انظر: Darwin's Black Box (59 - 73)

(٢) انظر: The God Delusion (119 - 125)

(٣) انظر: التصميم الذّكي - فلسفة وتاريخ النظرية - (٨٢ - ٨٣).

(٤) انظر: Science and Evidence for Design in the Universe (68)

الأمرُ الثّاني: الشبهاتُ العلمية. وجميعُ هذه الشبهات ترجع إلى نظرية التطوُّر، وسيأتي نقدُها في مبحثٍ مستقلٍّ في الباب الثالث - إنْ شاء الله -.

تقييمُ حجَّة التعقيد المخصِّص:

الخلاصةُ أنَّ حجَّة التعقيد المخصَّص من الحجج العقلية القوّية على وجود الله، لا سيَّما في سبيل إقناع المتخصِّصين في العلوم التجريبية. ولكن غيرُ المتخصِّص ليس بحاجة إلى الخوضِ في هذه التفاصيل، لأنَّه يدرك بالحسِّ أنَّ المخلوقات الحيّة مصمّمة بإتقان، حتَّى قال أعتى ملحدٍ في هذا الزمان ريتشارد دوكينز: «الكائنات الحية تبدو مصمَّمة، إنَّها تبدو بشكلٍ غامر كما لو أنَّها مصمَّمة»[1]. فمَن لم يتلوَّث بالشبهات الداروينية التي تدور على أنَّ هذا التصميم مجرَّد وهْم، فليس بحاجةٍ إلى معرفة التفاصيل عن حجّة التعقيد المخصَّص، بل يبني حجَّة التصميم على مقدِّمتين ونتيجة. وهاتان المقدِّمتان معلومتان بالضرورة و«تتعلَّق إحداهما بالإدراك الحسِّي الضروري لما يظهر من الإحكام والإتقان في المخلوقات، والثانية أنَّ ذلك لا يمكن أن يكون اتّفاقيًّا من غير خالق ولا لأمرٍ يعود إلى طبيعةِ المخلوقات، بل لا بدَّ أن يكون هو مقتضى خلق الله للمخلوقات وفقَ علمه وحكمته. وإذا كانت المقدِّمات الضرورية هي أساس الاستدلال - ولذا لا يكون الاستدلالُ عليها ممكنًا - فإنَّ الاستدلال بالإحكام والإتقان على وجود الله تعالى إنَّما يكون بالكشفِ عن وجْه الضرورة في هاتين المقدِّمتين، بحيث إذا حصل التصوُّر لوجْه دلالتهما لزمَ التسليم بوجود الله تعالى تسليمًا ضروريًّا»[2].

وهذا هو الصوابُ في هذه المسألة. فمَن لم يقع في فخِّ التطوُّريين وشبهاتهم، فلا حاجةَ له إلى هذا الاستدلال الطويل، وأمَّا مَن حصلت له الشبهة، فإنَّ هذه الحجّة ستكون نافعة جدًّا ويستفيد منها.

---

(1) Royal Institution Christmas Lectures, 1991

(٢) المعرفة في الإسلام (٥٠٨).

المبحثُ الرّابع
حجّةُ التّوافق الدقيق للكون

حجَّةُ التوافق الدَّقيق للكون من الحجج العقلية القويَّة على وجود الله، وهي مشتقَّة مِن الحجَّة الغائية. وهي حجَّةٌ عقلية في الأصل، ولكنَّها تعتمد على أدلة علمية دالَّة على أنَّ الكون مضبوطٌ بضبطٍ دقيق للغاية. فقد اكتشفَ العلماء في القرن العشرين أنَّ قيامَ الحياة في الكون لا يتحقَّق إلّا بتوفُّر أرقام معيَّنة من ثوابت فيزيائية دقيقة جدًّا، وأنَّ أقلَّ تغيير لهذه الثوابت سيؤدّي إلى انعدام الحياة أو حتَّى انهيار الكون بأكمله.

ومعَ تكاثر الأدلَّة العلمية صار الكلامُ عنِ الضَّبط الدقيق في الكون من المسلَّمات العلمية لدى أكثرِ العلماء. وقد صرَّح العلماءُ بهذا الضَّبط الدقيق، وذكروا شواهدَ عديدة عليه، ومِن تلك التصريحات:

تصريحاتُ العلماء بالضَّبط الدقيق للكون:

قدْ صرَّح عددٌ كبير من علماءِ الغرب المرموقين في العلوم الطبيعية - سواء أكانوا ملاحدةً أم متديِّنين - أنَّ هذا الكون مضبوطٌ بدقَّة متناهية. والتصريحات في ذلك كثيرة جدًّا، ولكيْلا يطول المقامُ أكتفي بذكر ثلاثة منها:

التَّصريحُ الأوَّل: قال البروفسور جون لينوكس: «أثبتت الأبحاث الحديثة أن كثيرًا من الثوابتِ الأساسية في الطبيعة بدءًا من مستويات الطاقة في ذرة الكربون[1]، وصولًا إلى سرعة توسُّع الكون؛ لها القيمُ الصحيحة تمامًا المطلوبة لوجود الحياة.

---

(١) الكربون (Carbon): عنصر لا فلزِّي أساسيّ في تكوين الفحم بجميع أنواعه، يوجد على صور مختلفة؛ بعضها مُتبلور كالفحم، وبعضها غير مُتبلور كالماس، ويدخل في تركيب جميع الكائنات الحيّة. انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة (٣/ ١٩١٧).

وأيُّ تغيير بسيط لهذه الثوابت سيجعل الكونَ مُعاديًا للحياة، وغيرَ قادر على دعم وجودها»[١].

التَّصريحُ الثّاني: قال البروفسور بول دافيس: «الشيء المدهشُ فعلًا أنَّ الحياة على الأرض ليست وحدَها التي تبدو متَّزنة جدًّا وكأنها على حافَّة سكين، بل الكون بأجمعه كذلك، ولو أنَّ الثوابت الطبيعية في هذا الكون تغيَّرت ولو على نحوٍ يسير لغرق العالم في فوضى عارمة»[٢].

التَّصريحُ الثّالث: قال آلين سانديج[٣]: «إنَّ العالم شديد التعقيد في كلّ أجزائه وتشابكاتِه، حتَّى إنَّه يستحيل أنْ يكون وليدَ الصدفة وحدها، إنّي مقتنعٌ أن وجود الحياة بكلِّ ما فيها من تنظيم في كلِّ كائن من كائناتِها الحيَّة مركّب بمنتهى البراعة»[٤].

فهذه بعضُ تصريحات العلماء - المتديّنين وغير المتديّنين - بوجود هذا الضبط الدقيق في الكون، وأمّا الشواهدُ العلمية على هذا الضبط بالتفصيل، فستأتي في الفصل القادم عنِ الأدلة العلمية على وجود الله - إن شاء الله -.

ولكن، قد يصعبُ على غير المتخصِّص فهمُ مدى دقَّة هذا الضبط. ولهذا مثّل البروفسور مايكل تورنر[٥] للضَّبط الدقيق بمثالٍ طريف يفهمُه غيرُ المتخصّصين إذ

---

(1) God’s Undertaker: (70)

(2) BBC Documentary, The Anthropic Principle, as cited by: Gerald Schroeder in: http://www.geraldschroeder.com/FineTuning.aspx

(٣) آلين سانديج (Allan Sandage): بروفسور علم الفلك الأمريكي، وأحد أشهر الفلكيين في القرن العشرين، حيث قدَّم أكثر من ٥٠٠ بحث علمي. توفي عام: ٢٠١٠م. انظر:
https://www.britannica.com/biography/Allan-Sandage

(4) A Scientist Reflects on Religious Belief, Truth 1, 1985, p. 54

(٥) مايكل تورنر (Michael Turner): بروفسور علم الفلك والفيزياء الفلكية في جامعة شيكاغو بالولايات المتَّحدة. انظر:
https://web.archive.org/web/20091016203306/http://astro.uchicago.edu/people/michael-s-turner.shtml

قال: «هذا الضبطُ هو مثل أنْ ترمي سهمًا عبرَ الكون كلِّه، وتصيب في الطرف الآخر عينَ ثور قطرُ دائرتها ملليميتر»[1].

ولا يشكُّ عاقل أنَّه يستحيل أن يأتي مثل هذا الضبط عن طريق الصدفة. ولهذا استدلَّ علماءُ الغرب بالضَّبط الدقيق للكون على وجود الخالق الضابط لهذه القوانين والثوابت الفيزيائية.

الضبطُ الدقيق نوعان:

قدْ بيَّن علماءُ الغرب أنَّ الضبط الدقيق للكون ليس نوعًا واحدًا، بل هو نوعان؛ قال البروفسور كرايغ: «الضبط الدقيق» نوعان:

أوَّلًا: عندما تعبِّر عن قوانين الطبيعة بالمعادلات الرياضية، فإنَّك تجد بوضوح أنّها محدَّدة بثوابتَ معيَّنة، مثل: الثابتة التي تمثِّل قوةَ الجاذبية. هذه الثوابتُ لا تحدّدها قوانين الطبيعة. وقوانينُ الطبيعة متَّسقة معَ مجال واسع من القيم لهذه الثوابت. على سبيل المثال، فإنَّ قانون الجاذبية لنيوتين هو F=Gm١m٢ / d٢ حيث إن F هي قوة الجاذبية بين كتلتين، و m١ وm٢ يفصلُ بينهما d مسافة. وحيث إن G هي ثابتة الجاذبية تبقى هذه المعادلة لحساب F صحيحة حتَّى إذا كانت G ذات قيمة تختلف عما هي عليه. سيبدو العالم أكثرَ اختلافًا إذا كانت G ذات قيمة مختلفة - إذا كانت ثابتة الجاذبية أقوى بكثير سينهارُ كلُّ شيء، وإذا كانت أضعف بكثير فسيندفع كل شيء بعيدًا عن بعضه البعض - لكنْ سيبقى قانونُ حساب F ذاته في مثل هذه العوالم حيث أن قيمة G مستقلَّة عن القانون بحد ذاته.

ثانيًا: بالإضافةِ لهذه الثوابت هنالك كميَّات اعتباطية محدَّدة توضع فقط كشروط أوَّلية لـعملِ قوانين الطبيعة. فعلى سبيل المثال، كمية الإنتروبيا، أو التوازن بين المادة والمادة المضادَّة في الكون. هذه الثوابت والكميَّات تقع في مجال ضيق حرج للقيم التي تجيزُ الحياة. ولو استبدلتْ هذه الثوابت أو الكميات بمقدار أقلَّ من سمك

---

(1) http://www.geraldschroeder.com/FineTuning.aspx

الشعرة، فإنَّ التوازنَ الذي يسمح بوجود الحياة سوف ينهار، ولن يوجَد أيّ نوع من أنواع العضويات الحية»[1].

الاستدلالُ بحجَّة التوافق الدقيق للكون على وجود الله:

قدْ تبيَّن أنَّ القول بالضبط الدقيق للكون من المسلّمات العلمية لدى أكثر العلماء اليوم، ولكنْ لا يعني ذلك ضرورةَ الاعتراف بوجود الخالق، لأن بعض العلماء القائلين بالضَّبط الدقيق ملاحدة. ولكنَّ علماء الغرب المؤمنين بالخالق قد استدلّوا بهذا الضبط الدَّقيق على وجود خالق ضبط هذه الثوابت الفيزيائية بهذه الطريقة الدقيقة.

هناك طرقٌ مختلفة للاستدلالِ بالضبط الدقيق للكون على وجود الخالق، والطريقةُ المتبادرة للذهن - التي ذكرها بعضُ الباحثين المسلمين في نقد الإلحاد - كالآتي:

المقدِّمةُ الأولى: الكونُ متقنٌ ومحكم في خلقته.

المقدِّمةُ الثانية: الإتقانُ والإحكام لا بدَّ له من فاعل عليم حكيم.

النَّتيجة: اللهُ تعالى هو الخالقُ العليم الحكيم الذي خلق الكون[2].

وهذه الصياغةُ واضحة وسهلة، ويمكن الاستدلالُ على المقدِّمة الأولى بطريقين. «وقد تنوَّعت الأدلة والشواهدُ على صحَّة هذه المقدِّمة، وهي منقسمة إلى نوعين أساسيين:

أمَّا **النوعُ الأوَّل**: فهو الدليلُ الحسّي المباشر، فكلُّ عاقل يشاهد أصنافًا منوَّعة من الإتقانِ في الوجود، وأشكالًا متعدِّدة من الإتقان في صنعة الأشياء...

وأمّا **النوعُ الثّاني**: فهو الدليلُ العلمي التجريبي، فقد كشف العلماء مع التطوّرات العلمية الحديثة أصنافًا من الإتقان والإحكام في الكون، وألوانًا مبهرة

---

(1) Richard Dawkins of Arguments for God, in God is Great God is Good (20-21)

(٢) انظر: ظاهرة نقد الدين في الفكر الغربي (٢/ ١٨٤)، للدكتور سلطان بن عبد الرحمن العميري، (مركز تكوين للدراسات والأبحاث، الطبعة الثانية، ١٤٣٩ هـ)، وشموع النهار (١٧٤).

من الدقّة والتقدير، وأشكالًا مُختلفة من التصميم المبهر الذي لا تكاد تستوعبه العقول»[1].

وأمّا المقدِّمة الثانية فهي «مِن أجلى المقدّمات وأظهرِها في العقول، ويدلُّ على صحَّتها وضرورتها أمران:

الأمرُ الأوَّل: الضرورةُ العقلية؛ وذلك أنَّ الإحكام والإتقان في حقيقته فعلٌ من الأفعال، والعقلُ الضروري يدلُّ على أنَّ الفعل لا بدَّ له من فاعل يقوم به؛ إذ يستحيل أنْ يوجد فعل في الوجود من غير فاعل...

وأمّا **الأمرُ الثّاني**: فهو الضرورةُ الرياضية، ففضلًا عن أنَّ الضرورة العقلية تدلُّ على استحالةِ وجود الإتقان بغيرِ فاعل حكيم عليم قادر مريد، فإنَّ الحسابات الرياضية تدلُّ على ذلك أيضًا، وتؤكِّده، وتثبتُ بطلان كلِّ الاحتمالات الأخرى، كالحدوث بالصدفة المفاجئة أو التطوّر طويل الأمد»[2].

فهذه الصياغةُ واضحة ومبنيَّة على مقدّمتين ضروريتين. ولكن علماء الغرب، وعلى رأسهم البروفسور كرايغ، صاغَ هذه الحجَّة بطريقة مُغايرة مشتملة على ثلاث مقدّمات ونتيجة؛ وهي كالآتي:

المقدِّمة الأولى: الضبطُ الدقيق للكون إمّا أن يكون عنْ حتمية فيزيائية، أو صدفة أو تصميم.

المقدِّمة الثانية: الضبطُ الدقيق لم يأتِ عن طريق الحتمية الفيزيائية.

المقدِّمة الثالثة: الضبطُ الدقيق لم يأتِ عن طريق الصدفة.

النَّتيجة: إذًا، الضبطُ الدقيق للكون أتى عن طريق مصمِّم[3].

---

(١) ظاهرة نقد الدين في الفكر الغربي (٢ / ١٨٥ - ١٨٦).

(٢) انظر: المصدر السابق (٢ / ١٩٢).

(٣) انظر:
https://www.wordonfire.org/resources/blog/how-the-fine-tuning-of-the-universe-points-to-god/5171/

وهذه الصياغة مبنيَّة على السبر والتَّقسيم بذكر كافة الاحتمالات الممكنة، واستبعاد الباطل منها. وباطراح الاحتمالين الأوَّلين لا يبقى إلّا التسليم للاحتمال الثالث؛ قال البروفسور كرايغ: «كيف نفسِّر إذًا هذا الضبطَ الدقيق للكون؟ تعطي المقدِّمة الأولى لحجَّتنا البدائل ببساطة، وهي: الحتمية الفيزيائية أو الصدفة أو التصميم. والسؤالُ هو أيُّ هذه البدائل الأكثر منطقية؟»[1].

واستخدامُ طريقة السبر والتقسيم في الاستدلال طريقة جيِّدة، وقد ذكرها الله تعالى في القرآن إذ قال: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الطور: ٣٥ - ٣٦].

نقدُ احتمال الحتمية الفيزيائية:

قد ذهبَ بعضُ الملاحدة المعاصرين إلى أنَّ الضبط الدقيق للكون نتيجة للحتمية الفيزيائية، وأنَّه لم يكن بإمكان الكون إلّا أنْ يكون مضبوطًا بهذه الدقّة.

ولكنَّ هذا القولَ رجمٌ بالغيب، وغيرُ مبنيٍّ على أيِّ دليل تجريبي؛ قال البروفسور بول دافيس: «لا يوجد دليلٌ مطلقًا على أنَّه كان من المتحتّم على الكون أن يكون بهذه المجموعة من الثَّوابت الفيزيائية التي فيه»[2].

ولهذا يحاول الملاحدةُ إيجادَ نظرية علمية تفسّر هذا الضبط الدقيق بالحتمية الفيزيائية تسمَّى نظرية الأوتار الفائقة، أو نظرية أم؛ قال البروفسور كرايغ: «إنَّ الاحتمال الأوَّل لتفسيرِ الضبط الدقيق أي: الحتمية الفيزيائية، غير معقول مطلقًا لأنَّ الثوابت والكميات مستقلَّة عن قوانين الطبيعة كما رأينا. ولذلك، فعلَى سبيل المثال،

---

(1) Richard Dawkins of Arguments for God, in God is Great God is Good (21)

(2) The Mind of God (185) بواسطة كتاب: شموع النهار (185).

فإن المرشّح الواعد حتَّى الآن هو «نظرية كلِّ شيء»، نظرية الأوتار الفائقة[1] أو نظرية إم [2] يسمح بوجود «مشهد كوني» فيه حوالي 10^{500} كوْن محتمل مختلف تحكمها قوانين الطبيعة الحالية»[3].

فهذه النظريةُ مبنيَّة على صحَّة نظرية الأكوان المتعدّدة. سيأتي الحديثُ عن بطلان هذه النظرية لاحقًا - إن شاء الله -.

فنظريةُ إم مبنيَّة على نظرية الأكوان المتعدّدة، وهذه النظرية غيرُ صحيحة في الأصل. ولكنْ على افتراض صحَّة نظرية إم، فهل يؤدّي ذلك إلى صحَّة التفسير الحتمي للكون، والذي يلزم منه التنكُّر لوجود الله تعالى؟ الجواب: لا. و«ذلك لأمرين اثنين:

الأوَّل: لنفترض أنَّ مثل هذه الثوابت الكونية محكومة فعلًا بقانون ما بحيث أنه لا يمكنُ أن تكون قيمها في ظلِّ ذلك القانون إلّا وفقَ المعطيات الموجودة فعلًا، فهل مثل هذا القانون في حدِّ ذاته حتمي لا يتصوَّر إلّا أنْ يكون على هذه الهيئة، أم أنه يمكن أن يتَّخذ صورًا وأشكالًا متعدِّدة تنتج قيمًا مختلفة للثوابت الكونية، إن كان الأمرُ كذلك فسينتقلُ السؤال من (لماذا وُجدت الثوابتُ على هذه الهيئة؟) إلى (لماذا وُجدت هذه النُّسخة من القانون الكلّي على هذه الهيئة دون النسخة الأخرى الممكنة؟) فلا يكون لعمليَّة التفتيش عن قانون كلّي ينتظم

---

(١) نظرية الأوتار الفائقة (Super – string theory): نظرية في فيزياء الجسيمات تحاول دمج ميكانيكا الكمِّ مع نظرية النسبية العامَّة لألبرت أينشتاين. تأتي نظرية الأوتار الاسمية من نمذجة الجسيمات دونَ الذرية ككياناتٍ صغيرة، أحاديةِ البعد «تشبه الأوتار» بدلًا من النهج الأكثر تقليدية حيث يتمُّ نمذجتُها كجسيمات نقطية صفرية الأبعاد. انظر:
https://www.britannica.com/science/string - theory

(٢) نظرية – إم. (M – theory): نظرية في فيزياء الجسيميات تتضمن كونًا مشتملاً على أحد عشر بعدًا تتَّحد فيه القوى الضعيفة والقوية والجاذبية، وتنتمي إليها جميع نظريات الأوتار. انظر: https: / /www.vocabulary.com /dictionary /M – theory

(3) Richard Dawkins of Arguments for God, in God is Great God is Good (21)

جميع النظريات أثرٌ في الجدل حول وجود الله تعالى؛ لأنَّ الله سيكون واضعَ مثل هذا القانون الأوَّلي، والذي يحدِّد تلك القيم والأرقام، والتي تجعل من الكون قابلًا للحياة.

الثّاني: هبْ أنَّ شخصًا ما اتَّخذ موقفًا أكثرَ حدية، وزعمَ أنَّ هذا القانون لا يمكن إلّا أنْ يكون على الصورة التي هوَ عليها، بحيث لا يتصوَّر مطلقًا أن يكون ثمة نسخٌ أخرى مُباينة في أيِّ كون نقوم بافتراضه، ولو قدرنا وجودَ أكوان متعدّدة أخرى فستكون جميعًا نسخًا مكرَّرة من كوْننا لهيمنةِ مثل هذا القانون الكلِّي على الكلّ، وبالتالي فسيكون هذا القانونُ في حدِّ ذاته حتميًّا، وما ينشأ عنه من ثوابت فيزيائية حتمي هو الآخر، لا يبدو مثل هذا الخيار مقبولًا أيضًا، وهو يفرض حزمةً من التساؤلات العميقة، بل هو ينطلقُ من فرضيات مُسبقة لا يمكن البرهنةُ عليها علميًّا، بل هي في الحقيقة مجرّد دعوى ميتافيزيقية مُتناقضة مع المنهج العلموي، أحدُ السؤالات العلمية المشروعة التي ستردُ في هذه الحالة، والتي ستشكِّل لغزًا هائلًا لمن تبنّى مثلَ هذا التصوُّر: ما معنى أن يكون القانونُ الكلّي الوحيد، والذي لا يمكن أن يكون إلّا على هذه الهيئة قانونًا تنشأ منه مظاهر الدقَّة والإحكام الموجودة في كوننا؟ ما تفسيرُ أن يكون قانون حتمي - لا يتصوَّر أن يتغيّر - قانونًا تتشكّل في ضوئه ثوابتُ تجعل من الكون كونًا قابلًا للحياة؟ هذا التصوُّر يجعل من وجودنا أمرًا حتميًّا، وهو أمرٌ ينبغي أن يكون محيّرًا جدًّا لمن تبنّى هذا التصوّر»[1].

فخلاصةُ القول: إنَّ تفسير الضبط الدقيق للكون بالحتمية الفيزيائية ليس عليه دليلٌ علمي، وهي مبنيَّة على صحَّة نظرية الأكوان المتعدّدة - وسيتبيَّن أنها نظرية غير مقبولة، كما أنْ يطرح على القائلين به تساؤلات محيِّرة جدًّا. وعلى فرض التسليم بصحّة التَّفسير الحتمي، فإنّه لا يتناقضُ في حقيقة الأمر مع الإيمان بوجود الله، لأنّه من الممكن أنَّ الله خلقَ القوانين بهذه الطريقة الحتمية؛ لذلك، فإنَّ هذا التفسير ليس مقبولًا للضبط الدَّقيق للكون. ولننتقل إلى التفسير الثاني.

---

(١) شموع النهار (١٨٦ - ١٨٧).

نقدُ احتمال تفسيرِ الضَّبط الدقيق للكون بالصدفة:

التَّفسيرُ الثّاني للضبط الدقيق للكون هوَ الصدفة. وهذا التفسير مشكل جدًّا عند تأمُّل الدقَّة الهائلة للثوابت الفيزيائية؛ قال البروفسور كرايغ: «إذًا، ماذا عن الاحتمال البديل الثاني القائل بأنَّ الضبطَ الدقيق للكون وليدُ الصدفة؟ المشكلة مع هذا البديل أنَّ ترجيحَ كفَّة وجود كون يسمحُ بوجود الحياة وصلَ إلى حدٍّ غير معقول بحيث لا يمكن قبولُه بالمنطق. ولإنقاذِ البديلِ المتمثِّل بالصدفة، فقد أجبر أنصارَه أن يتبنوا فرضية وجود عددٍ لانهائي من الأكوان المرتَّبة بشكل عشوائي لتكوِّن نوعًا ما مجموعة من العوالم أو الأكوان المتعدِّدة بحيث يكون كونُنا جزءًا منها فقط. وفي مكانٍ ما في مجموعة العوالم اللانهائيَّة هذه، ستظهر أخيرًا الأكوانُ مضبوطةَ التوافق عن طريق الصدفة فحسب، وحدث أن كنّا أحدها»[١]. وهذا هو التفسيرُ الذي وجده دوكينز التفسير الأكثر عقلانية[٢].

إذًا، التفسيرُ بالصدفة والتفسيرُ بالحتمية الفيزيائية يعتمدان على نظرية واحدة، وهي نظريةُ الأكوان المتعدِّدة. فما مدى صحّة هذه النظرية؟

نقدُ نظرية الأكوان المتعدّدة:

قد أوجدَ الملاحدةُ الماديون الغلاةُ هذه النظرية لتفسير الضبط الدقيق للكون دون الرجوعِ إلى الخالق؛ قال البروفسور جون بولكنغهورن: «بالنسبة للمؤمن فإنَّ الكون ليس فقط «أي عالم قديم». إنَّه خَلق قد منحنا إيّاه الخالق دون أدنى شكٍّ وهو ذو ظروف وقوانين مضبوطة الدقَّة تمامًا بحيث سمحت له بأن يمتلك تاريخًا مثمرًا هو التعبير عن الغرضِ الإلهي.

ولبغْضهم للتَّهديد الذي يجلبه الإيمانُ بخالق للكون، بحثَ بعض العلماء عن تفسير بديلٍ لما يبدو واضحًا بأنَّه ضبط دقيق. ويحصلُ هذا عن طريق تخمين وجود أكوان متعدِّدة، وهو شكلٌ موسَّع من المذهب الطبيعي يفترض أنَّ هذا الكون هو فردٌ

---

(1) Richard Dawkins of Arguments for God, in God is Great God is Good (21)

(٢) انظر: The God Delusion (145)

واحد فقط مِن مجموعة واسعةٍ من عوالم منفصلة، لكلٍّ منها ظروفه وقوانينه الخاصة التي ينفرد بها. إذا كانتْ هذه المجموعةُ كبيرة كفايةً ومتنوِّعة؛ فيمكن أن يكون أحدُ هذه الأكوان مضبوطًا بدقَّة بحيث يسمح بنشوءِ حياة قائمة على الكربون، والمقصود هو كوننا لأننا حياةٌ قائمة على الكربون. إذًا، فإنَّ كوننا الخصب ببساطة هو بطاقة يانصيب عشوائية رابحة في اليانصيب الضخم للأكوان المتعددة»[١].

وقد ردَّ علماءُ الغرب على هذه النَّظرية من أوجه عديدة، أكتفي بذكر أربعة منها:

الوجهُ الأوَّل: الملاحدةُ يدَّعون أنهم يتَّبعون المنهج العلمي، وينكرون وجود الله لأنه لا يمكن إثباتُ وجوده بالمنهج العلمي. ومعَ ذلك فإنَّ نظرية الأكوان المتعدّدة تخالف المنهجَ العلمي حيث لا يمكن إثباتُها بأدلة تجريبية، بل لا يمكن الوصول إلى هذه الأدلة أصلًا؛ قال الدكتور ستيفن ماير: «رغمَ الابتكار الواضح فيها إلّا أن نظرية الأكوان المتعدِّدة تعاني صعوباتٍ جوهرية، فليس لدينا أيُّ دليل على وجود كونٍ آخر غير كوننا، بالإضافة إلى أنَّ الأكوان الممكنة بحكم تعريفها لا يمكن الوصولُ إليها، فلا دليل على وجودها»[٢].

وقد اعترفَ البروفسور مارتن ريس[٣] بأنَّ هذه النظرية - التي يفضّلها هو - مجرّد تخْمين، إذْ قال: «إنْ لم يؤمن أحدُنا بتصميم خاضع للعناية الإلهية، ولكنه لا يزال يرى أنَّ الضبط الدقيق للكون يحتاج للتفسير، فمازالَ لدينا وجهة نظر أخرى وهي تخمينية جدًّا لدرجةِ أنَّني أكرِّر التحذيرَ منها دومًا؛ إنَّها النظرة التي أفضّلها رغم أن مقدار معرفتنا الحالي لا يجعلُ هذا التفضيل بقيمةٍ أكثر من مجرّد تخمين»[٤].

---

(1) God and Physics, in God is Great God is Good (70-71)

(2) Science and the Evidence for Design in the Universe (62)

(٣) مارتن ريس (Martin Rees): بروفسور علم الكون والفيزياء الفلكية البريطاني. ويعتبر أحد أبرز علماء الكون المتخصّصين في بداية الكون اليوم. انظر:
https://www.britannica.com/biography/Martin-Rees

(4) Our Cosmic Habitat (164)

الوجهُ الثّاني: لا تفترُ ألسنةُ الملاحدة عن التظاهر بالعقلانية، لكن استبدال الإيمان بخالقٍ واحد ضبط هذه الثوابت الفيزيائية بوجود عددٍ لانهائي من الأكوان في غاية اللاعقلانية؛ قال البروفسور ريتشارد سوينبورن: «افتراضُ وجود تريليونات من الأكوان بدلًا عنِ الإله لتفسيرِ النظام في كوننا هو أمر في نهاية اللاعقلانية»[1].

الوجهُ الثّالث: على فرضِ التّسليم بوجود هذه الأكوان المتعدّدة فلا يلزم منه أنَّ أحدَ هذه الأكوان سيكون مضبوطًا بهذا الضبط الدقيق؛ قال البروفسور جون بولكينغهورن: «يوجد أيضًا عددٌ من الصعوبات التِّقنية في تقييم تناسق وفعالية نظرية الأكوان المتعدِّدة فيما يتعلَّق بالضبط الدقيق. على سبيل المثال، فإنَّ الحصول ببساطة على مجموعةٍ لا نهائية من الكيانات لا يشكِّل ضمانًا بأنَّ أحدها سيمتلك صفة معينة. فهنالك عددٌ لانهائي من الأعداد الصحيحة الزوجية، ولكن لن تجد أيًّا منها ممتلكًا لصفةِ الفردية. قد يكون المذهبُ المادي انقادَ إلى فرضية الأكوان المتعددة للتعامل مع الضَّبط الدقيق للكون، لكن يجد المذهبُ الألوهي تفسيرًا واضحًا في نظرته الشاملة للعالم»[2].

الوجهُ الرّابع: يقال أيضًا على فرض صحَّة نظرية الأكوان المتعدّدة: أنها لا تعارض الإيمانَ بالله، بل يمكن أنَّ الله خلق هذه الأكوان كلّها؛ قال البروفسور جون لينوكس: «الافتراض أنَّ الضبطَ الدقيق يعني إمّا أن وجد إله أو أكوان متعدِّدة، فإن هذين الاحتمالين ليسا مُتناقضين، إذْ يمكن أن يوجدَا معًا رغم أنهما يعرضان على أنهما فكرتان مُتعارضتان. فعلى كلِّ حال، إنَّ الأكوان المتعددة يمكن أن تكون من عمل خالق»[3].

وعلى فرضِ التّسليم بوجود الأكوان المتعدّدة، فلا يستطيع الملاحدةُ أن يجيبوا عن السّؤال الأصلي: مِن أين أتت هذه الأكوان؟ لا بدَّ من موجِد لهذا الوجود.

---

(1) Is There a God? (68)

(2) God and Physics, in God is Great God is Good (71-72)

(3) God's Undertaker (75)

وقد اعترفَ ريتشارد دوكينز أنَّ نظرية الأكوان المتعدّدة ليست مقبولة لدى أكثر الفيزيائيِّين، وكشفَ عن سرٍّ قبوله لها عندما قال: «هذه الفكرةُ بغيضةٌ عند معظم الفيزيائيّين... أعتقدُ أنَّها جميلة، ربما لأنَّ إدراكي قد ربي على أفكار داروين»[1].

وقد ردَّ البروفسور بنيامين ويكر والبروفسور سكوت هون على هذه الخزعبلات بقولِهما: «بكلماتٍ أخرى، يؤمنُ دوكينز أنَّ نظريةَ الأكوان المتعددة تسمح بالاصطفاء الطَّبيعي بين الأكوان، وبالتالي فهي تؤيد قوةَ الدارونية في علم الكونيات كما تفعل في علمِ الأحياء. وهو لم يذكرِ السببَ الذي جعل معظمَ الفيزيائيين يبغضون نظرية الأكوان المتعدِّدة؛ وهو أنَّه لا يوجد أيُّ دليلٍ يدعمها على الإطلاق. وفي الواقع لا يوجد أي طريقةٍ مطلقًا لجمع الأدلَّة عنها، إذ يستحيلُ التقصِّي عن الأكوان الافتراضية الأخرى أو تحديدها. بالاختصار، فإنَّ نظريةَ الأكوان المتعدّدة مثيرةٌ للاهتمام من منظور واحد فقط: أنَّها دليلٌ جيِّد لِيأس كلٍّ من دوكينز وبعضِ الفيزيائيين تحقّق ما يريدون من تجنُّب النَّتيجة الواضحة: أنَّ الضبط الدقيق لكوننا يتطلب تفسيرًا إلهيًّا»[2].

نتيجةُ حجَّة التوافق الدقيق للكون:

اتَّضح خلالَ مقدّمات هذه الحجَّة أنَّ تفسير الضبط الدقيق للكون بالحتمية الفيزيائية والصدفة؛ غيرُ مقبول، ولهذا لا يبقى إلّا خيار واحد، ألا وهو الخلقُ والتصميم؛ قال البروفسور كرايغ: «ولهذا، فإنَّ الضبط الدقيق للكون لا يمكن منطقيًّا أن يكونَ نتيجةً للحتمية الفيزيائية أو الصدفة، مما يعني أنَّ الضبط الدقيق نتيجة للتصميم»[3].

---

(1) The God Delusion (145)

(2) Answering the New Atheism (38-39)

(3) Richard Dawkins of Arguments for God, in God is Great God is Good (21)

اعتراضاتُ المَلاحدة على النتيجة:

حجَّةُ التوافق الدقيق للكون حجَّةٌ قوية ومُقنعة، ويجب على المنْصف قبولها، إلّا أن الملاحدةَ المعاصرين مشاغبون في اعتراضاتهم، ولا يقبلون الحقَّ وإن كان واضحًا وضوحَ الشمس؛ فقد اعترضوا على نتيجةِ هذه الحجَّة بعددٍ من الاعتراضات، ولكن من أهمّها اعتراضان:

الاعتراضُ الأوَّل: هو الاعتراضُ الذي سمّاه ريتشارد دوكينز بالحجَّة الرئيسة في كتابِه: وهْم الإله[١]. وهو أنَّه إذا كان اللهُ عايرَ الكون، فمَن عاير المعايِر؟ وهذا الاعتراضُ يُشبه شبهة: «إذا كان اللهُ خلقَ كلَّ شيء، فمَن خلق الخالق؟» وسيأتي ردٌّ مفصَّل على هذا الاعتراض في الباب الثالث - إنْ شاء الله -. فلا حاجةَ إذًا لإعادة الكلام عنه هنا.

الاعتراضُ الثّاني: الاعتراضُ بما يسمَّى: «المبدأ الإنساني الضعيف». وهو تحريفٌ للمبدأ الإنساني (Anthropic Principle) الذي عرّفه قاموس أكسفورد بأنه: «المبدأ الكوني أنَّ النظريات الكونية مقيَّدة بضرورة السماح بوجود الإنسان»[٢]. «أما (المبدأ الإنساني الضَّعيف) فيقتصر على جزءٍ من المبدأ دون أن يدخلَ في متاهة السؤال المترتّب عليه، فيقول: لوْلا أنَّ الكون معايرٌ بشكل دقيق لما كنَّا موجودين لنتحدّث عن ذلك، أو بعبارةٍ أخرى: لأنَّنا موجودون فلا بدَّ أن يكون الكون مضبوطًا من أجل وجودنا، فاحتمالاتُ وجودنا في كونٍ يسمح لنا بالحياة هي في الحقيقة ١٠٠٪ فلا محلَّ للاستغراب، ولا موضع للتساؤل»[٣].

وهذا الاعتراضُ من أغربِ الاعتراضات الإلحادية، وهو دالٌّ على شذوذ الفكر الإلحادي؛ فهذا المبدأ لا يفسِّر أيَّ شيء، وإنما هو ملجأ لمنْ فشل في

---

(١) انظر: The God Delusion (147)

(2) https://en.oxforddictionaries.com/definition/anthropic_principle

(٣) شموع النهار (٢٢٤).

النقاش ومسلٍّ له؛ قال البروفسور آلان غوث: «إنَّ المبدأ الإنساني الضعيف غامضٌ بشكل كبير، يمكن أن تستخدمَه لو أردتَ في تفسير كلِّ شيء تقريبًا، ولن يقدِّم أيَّ تنبؤات، وإنما يفسّر ما أنْ ما رأيته بعد أنْ وقع الحدثُ هو بطريقة ما مقبول. ووجهة نظري: أنَّ هذا المبدأ سيكون الملجأ الأخيرَ دائمًا؛ فلو أنَّك لم تستطع أن تجد نظرية مقبولة متوافقة مع ما تراه وتتنبأ به يمكنك حينَها أن تلجأ إلى هذا المبدأ، فهو مبدأ مسلٍّ فقط»[١].

فما هذا الاعتراضُ إلّا هروبٌ من تفسير الضبط الدقيق للكون بوجود الخالق، ولا يمكنُ أن يسمَّى اعتراضًا حقيقيًّا. وقد نصَّ على ذلك اثنان من كبار علماء الفيزياء والكون في هذا الزمان:

النصُّ الأوَّل: قال البروفسور أوفين جينجيريش[٢]: «لقد قلّبوا أصلَ المسألة، فبدلًا عنْ قبول أنَّنا هنا لأنَّ هناك مصمّمًا متعاليًا مريدًا، فقد ادَّعوا أن الكون ببساطة يجب أن يكونَ على هذا النحو وإلّا لن نكون هنا، هذا كلُّ ما في الأمر»[٣].

النصُّ الثّاني: قال البروفسور جون بولكينغهورن: «المبدأ الإنساني الضعيف ليس أكثرَ من تكرارٍ في المعنى، فنحنُ هنا وجميعُ الأشياء يجب أن تعمل من أجل هذا الاحتمال. وهذا فشلٌ تامٌّ في معالجة الضبط الدقيق...»[٤].

ولهذا لا ينبغي الانشغالُ بمثل هذه الاعتراض السفسطائي الدّال على اعوجاج تفكيرِ الملاحدة وإفلاس حججهم في الحقيقة.

---

(1) Alan Guth as quoted in Hereen, (311)

(٢) أوفين جينجيريش (Owen Gingerich): بروفسور علم الكون وتاريخ العلوم في جامعة هارفارد، وكان رئيسَ قسم تاريخ العلوم ف يجامعة هارفارد سابقًا. انظر:

https://histsci.fas.harvard.edu/people/owen-gingerich

(3) Dare a Scientist Believe in Design? (26)

(4) Beyond Science (87-88), by: John Polkinghorne, (Cambridge University Press, 1999)

وقد تبيَّن خلالَ هذا المبحث قوَّة حجة التوافق الدقيق للكون، وأنها من أقوى الحججِ على وجود الله. ويمكن عرضُ هذه الحجَّة بطريقتين: الطريقة المنطقية العادية المبنيَّة على مقدِّمتين ونتيجة، وطريقةُ السبر والتقسيم. والطريقتان قويّتان ومقنعتان لكلِّ مُنصف.

المبحثُ الخامس

حجَّةُ الجمال

حجَّةُ الجمال من الحججِ العقلية الدالة على وجود الله. وتستندُ هذه الحجة إلى الجمالِ الموضوعي[١] في المخلوقات ودلالتِه على وجود الخالق تعالى. ولكون هذه الحجة تتحدَّث عن الإتقان والإحكام في هذا الجَمال، فقد جعلَها البروفسور ريتشارد سوينبورن متفرِّعة عن الحجة الغائية[٢]. وهذا ما يبدو صوابًا.

وقد نبَّه الدكتور بيتر وليامس[٣] - وهو مِن أكثر مَن كتب عن هذه الحجّة - على أنَّ الفلاسفة لا يستخدمونَ هذه الحجَّة إلّا قليلًا، وإذا كتبوا عنها فإنَّ كلامهم لا يتجاوز سطورًا في الغالب[٤].

وقد يكونُ من أسباب قلَّة استخدام هذه الحجّة أنّها ضعيفة في بعض صياغاتها، مما جعلَ بعضَ الملاحدة يتجاهلون الردَّ عليها، مثل: الملحد الشرس البروفسور

---

(١) الجمال الموضوعي: أنّ الشيء نفسه جميل، وليس جميلاً في أعين الناظر فقط.
انظر: https: / /plato.stanford.edu /entries /beauty /

(٢) انظر: The Existence of God (Chapter Six)

(٣) بيتر وليامس (Peter Williams): أستاذ مساعد في علم الاتصال ورؤى العالم في جامعة أن أل أي بالنرويج. وهو مهتمٌّ بنقد الإلحاد وإبراز حجة الجمال. انظر:
https://philpeople.org/profiles/peter-stephen-williams

(٤) انظر البحث:
Aesthetic Arguments for the Existence of God, in Quodlibet Journal: Volume 3, Number 3

جي أل ماكي[1] في كتابه: «معجزة اللاهوت»(The Miracle of Theism)، بينما سخر منها بعضُ الملاحدة الآخرين كريتشاد دوكينز في كتابه: «وهم الإله»[2].

ومعَ ذلك، فقد استخدم بعضُ علماء الغرب المعاصرين مثل: البروفسور ريتشارد سوينبرون والبروفسور كيث وارد هذه الحجَّة – كما سيأتي ذكرُه –.

وبعضُ صياغات هذه الحجَّة فيها قوَّة معتبرة، لا سيَّما في نقد القول بالعشوائية والصُّدفة، كما سيأتي بيانه في هذا المبحث.

تاريخُ هذه الحجَّة:

الجمالُ موجود أينما تتَّجه الأبصارُ في هذا الكون. فالإنسان يرى الجمال في السَّماء والأفق، كما أنَّه يراه في الجبال، والأودية، والشجر، والزهور، والحيوانات والإنسان. فالإحساسُ الجمالي في الإنسان عميق، وهذا ما جعل بعضَ الفلاسفة يسمّي جنسَ الإنسان العاقل بـ(Homo Aestheticus) بمعنى: الإنسان الجمالي[3].

ومعَ أنَّ الإحساس به موجودٌ لدى الإنسان منذ القدم، فإنَّ مِن أقدم مَن كتب عن الجمال ودلالاتِه هو الفيلسوفُ أفلاطون. فكان يؤسِّس للقول بأنَّه يوجد جمال موضوعي، وأنَّ الإحساسَ بالجمال لا يرجع إلى آراءِ الناس فقط. وذلك في فلسفته المتعلِّقة بالكليات الأفلاطونية المشهورة بالمثُل. وكان يرى أنَّ الجمال الكامل لا يوجد إلّا في عالم المثُل. وهذا العالمُ غير مادي ومُستقلٌّ عن الإحساس الناقص لدى الإنسان[4]. وهذه الفلسفة لم يُردْ بها إثباتَ وجود الخالق، لأنّه كان مشركًا – كما سبق بيانُه –، ولكنَّه سعَى إلى إثبات عالم غير مادي.

---

(١) جي أل ماكي (J.L. Mackie): واسمه: جون ليزلي ماكي. بروفسور الفلسفة الأسترالي، ويعتبر أحدَ أشهر فلاسفة الإلحاد في القرن العشرين، وكان يهتم بنقد أدلة وجود الله وإبراز شبهة مشكلة الشر. توفي عام: ١٩٨١م. انظر:

http://adb.anu.edu.au/biography/mackie-john-leslie-14214

(٢) انظر: (87 - 86) The God Delusion

(٣) انظر كتابها عن ذلك: Homo Aestheticus: where art comes from and why

(٤) انظر: Learning to Philosophize (119), by: E.R. Emmet

وقد أثَّرت هذه الفلسفةُ في فلاسفةٍ بعدَه مثل: أفلوطين الذي أثبت وجود «الواحد» الذي لا يتجزأ، المتعالي على كلِّ شيء. ومزجَ هذا المفهوم مع مفهوم الخير ومبدأ الجمال. وهي الفلسفةُ المعروفة بالأفلاطونية المحدثة. وهذه الفلسفة أثّرت في بعض اللاهوتيّين النصارى مثل: أغسطين. ومِن مظاهر تأثُّره بهذه الفلسفة أنَّه كان يربط بين وجودِ الجمال في المخلوقات وبينَ جمال الخالق. ومِن الأقوال المأثورة عنه أنه قال: «مَن صنعَ هذه الأشياء الجميلة المتغيِّرة، إنْ لم يكن الجميلُ وغير المتغيِّر؟!»[1]. فجمع بين الإشارةِ إلى حجَّة الجمال، وإلى القول بأنَّ الخالق غير متغيِّر على طريقة الفلسفة الأفلاطونية الحديثة، وهي من الألفاظ المجملة - كما سبقت الإشارة إليه في الحجة الكونية -. ولكنَّ الشاهد أنَّ الحديث عن الربط بين جمال الخالق وجمال المخلوقات موجودٌ منذ زمن آباء الكنيسة الأوائل، وبقيَ حاضرًا عند بعض النصارى بعد ذلك أيضًا.

فالحديثُ عن الجمال في الفلسفة وعلمِ اللاهوت قديم، ولكنَّ علم الجمال استقلَّ كفنٍّ فلسفي خاص - لبيان الأحكام التقويمية التي تميِّز الجميل عن القبيح - في القرن الثّامن عشر معَ صدور كتاب: «تأملات فلسفية في موضوعات متعلّقة بالشعر» (Meditationes philosophicae de nonnullis ad poema pertinentibus) لألكسندر باومجارتن[2] ثمَّ ألّف كتابَه الأشهر: «فلسفة الجمال» (Ethica philosophica) عام ١٧٤٠م. وقد أثَّر باومجارتن بصورة بالغة في فلاسفة عصره برؤية الجمال[3].

---

(١) انظر: Sermons of St. Augustine, 241، Easter: c.411 CE

(٢) ألكسندر باومجارتن (Alexander Baumgarten) فيلسوف ألماني من تلاميذ الفليسوف المشهور غوتفريد لايبنز. وقد اشتهر باومجارتن لأنه أظهر الجمال كفنٍّ مستقل في الفلسفة. توفي عام: ١٧٦٢م. انظر:
https://www.britannica.com/biography/Alexander-Gottlieb-Baumgarten

(٣) انظر: براهين وجود الله في العقل والنفس والعلم (٦٨٠)، للدكتور سامي عامري، (مركز تكوين للدراسات والأبحاث، الطبعة الأولى، ١٤٤٠ هـ).

وقد استخدمَ بعضُ علماء الغرب هذه الحجَّة في كتبهم مثل: ريتشارد سوينبورن في كتابه: «الوجود الإلهي» (The Existence of God)[1]. ولكن من أكثر من تميّز بجمع الصِّياغات المختلفة لهذه الحجَّة هو الدكتور بيتر وليامس حيث ألّف بحثين علميَّين عن هذه الحجَّة، وهما: «من الجمال إلى وجود الله» (From Beauty to the Existence of God)[2]، و«الحجج الجمالية لوجود الله» (Aesthetic Arguments for the Existence of God)[3]، وجمع فيهما صياغات علماء الغرب لهذه الحجة.

استدلالُ علماء الغربِ بحجَّة الجمال:

كلمةُ حجَّة الجمال تجمعُ في الحقيقة عددًا من الحجج المختلفة تحتها، ولكن ذكرَ بيتر وليامس أنه يمكن تقسيمُ هذه الحجج إلى قسمين رئيسين:

القسمُ الأوّل: حجَّةُ الجمال المعرفية.

القسمُ الثّاني: حجَّةُ الجمال الوجودية.

ولذلك سيتمُّ تقسيمُ هذا الجزء من المبحثِ إلى هذين القسمين:

القسمُ الأوَّل: حجَّة الجمال المعرفية:

حجَّةُ الجمال المعرفية تعتمدُ على علم الإنسان بالجمال والشعور بذلك، وأنَّ أفضلَ تفسيرٍ لوجود هذا الشعور هو أنَّ الخالق غرزَه في الإنسان. وعليه، فلا يمكن تفسير هذا الشعورِ عن طريق المذهبِ المادي الميتافيزيقي؛ قال وليام سي ديفيس[4]: «يتمتع البشرُ بعددٍ من

---

(١) انظر: The Existence of God (190 - 191)

(٢) انظر: Falsafeh, Vol. 36, No. 3, Autumn 2008، pp. 43 - 46، وهو موجود على هذا الرابط:
https://literature.ut.ac.ir/documents/10469/36295256/3-From%20Beauty%20to%20the%20Existence%20of%20God.pdf

(٣) انظر: Quodlibet Journal, Volume 3, Number 3, Summer 2001

(٤) وليام سي ديفيس (William C. Davis): بروفسور الفلسفة في المعهد اللاهوتي RTS في الولايات المتّحدة. انظر: https: / /rts.edu /people /dr – william – davis/

الميْزات التي يمكن تفسيرُها بسهولة أكثرَ عن طريق المذهب الألوهي من المذهبٍ الطبيعي الميتافيزيقي، حيث إنَّ المذهب الطبيعي الميتافيزيقي إنما يشرح القدرات البشرية كلَّها بالقدرة على البقاء. ومِن هذه الميزات التي يمكن للمذهب الألوهي شرحها بطريقةٍ أفضل: امتلاك القدراتِ الموثوقة التي تهدفُ إلى إدراك الحقيقة، وتقدير الجمال، وروح الدعابة»[1].

فخلاصةُ هذه الحجَّة أنَّ المذهب الطبيعي يستند إلى نظرية التطوّر لشرح الخصائص في الإنسان، ونظرية التطوُّر تفسِّر جميعَ هذه الخصائص من أجل البقاء للأصلح. ولكنْ هناك بعضُ الخصائص في الإنسان لا علاقةَ لها بشأن البقاء. ومن ضمن هذه الخصائص: الشعورُ بالجمال؛ فلا فائدةَ إطلاقًا لبقاء الإنسان على قيد الحياة لكونه يشعرُ بأنَّ شيئًا ما جميل! فهذا الشعورُ متعالٍ على الحاجةِ إلى البقاء؛ فمن أين جاء هذا الشعورُ المتعالي إذًا؟ لا يمكن تفسيرُ هذا بالمذهب الطبيعي المادي ونظرية التطوّر، فلا بدَّ من النَّظر إلى خالقٍ مُتعالٍ على الكون غرزَ هذا الشعور الفطري في الإنسان.

وهذه الحجَّة فيها نوعٌ من القوَّة في نقد نظرية التطوّر والمذهب المادي، ولكنها ليستْ واضحةً وبيِّنة في إثباتِ وجود الخالق. ولكن إنِ انضمَّت هذه الحجة إلى حجَّة الجمال الوجودية فإنّها تكتسبُ شيئًا من القوة. فما هي هذه الحجة إذًا؟

القسمُ الثّاني: حجَّةُ الجمال الوجودية:

لخَّص الدكتور بيتر وليامس هذه الحجّةَ بأنَّ الجمال الموضوعي موجود في الكون، ولا يمكن أن يتوقَّع أنَّ قوانين الطبيعة العشوائية تنتج هذا الجمال الباهر[2].

فـ«إذا كان الكونُ مادة وطاقة في حال عبثٍ دائب وأعمى؛ فالمتوقع أن لا يوجد جمالٌ في الكون؛ إذِ الجمال معطى كوني مرتبطٌ بغائية لإمتاع الذائقة؛ وقد جاء في

(1) Theistic Arguments, by: William C. Davis, in Reason for the Hope Within (37), ed. Michael J. Murray (Eedermans, 1999)

(٢) انظر:

Aesthetic Arguments for the Existence of God (3), by: Peter Williams, Quodlibet Journal (Volume 3, number 3)

القرآن قولُه تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الكهف: ٧] تأكيدًا للصلة الجوهرية التي تربط لوائحَ الجمال بجاذبية الإمتاع.. وليس في العشوائية ما يمكن أن يربطها بإسبال ثوبِ الجمال الواسع على المادة العابثة»[١].

فهذه الحجَّة مبنيَّة على أنَّ الجمال الموضوعي موجود، وأنّه لا يمكن شرح هذا الجمال بدون وجودِ الخالق. فهل الجمالُ الموضوعي موجود في الحقيقة؟

الجواب: أنَّ الجمال الموضوعي موجود، وليس الجمالُ كامنًا في عين الناظر فقط، بل الجمالُ حقيقة موضوعية. وهذا أمرٌ مغْروز حتَّى في الأولاد الصغار، فقد بيّنت دراسة في جامعةِ إكستر أنَّ المواليد الجدد الذين لم تتجاوزْ أعمارهم أسبوعًا واحدًا لديهم وعي أصيلٌ بالأشياء الجذابة، ويميلون إلى الأشخاص الجميلين[٢]. والقاعدة العقلية التي هي مبدأ المبادرة إلى التَّصديق تقول: إنَّ علينا أن نصدِّق أنَّ الأشياء على ما تبدو عليه حتَّى توجَد حجَّة عندنا أننا مخطئون، كما ذكر البروفسور ريتشارد سوينبور[٣]. فوعيُنا «بالجمال يخبرُنا دائمًا أنَّ الجمال وجودٌ خارجي مستقلٌّ بنفسه عنّا، والانصراف عن ذلك يحتاج برهانًا»[٤].

فالخلاصةُ أنَّ للجمال وجودًا مستقلًّا عن أذهاننا، وهو أمر مغروز في الفطرة والعقل، ولا يجحدُه إلّا المكابر؛ فالجمالُ الباهر في البحار والجبال والأنهار والأشجار والزهور ظاهرٌ وواضح. وإنْ كان الناسُ يختلفون في حُكمهم على ما هو الأجمل من بينها، ولكنْ كون هذه الأشياء جميلةً لا يمكن جحدُه.

---

(١) براهين وجود الله (٦٧٩).

(٢) انظر:

A Case for the Existence of God (57-58), by: Dean L. Overmanm (Lanhamn: Rowman & Littlefield, 2009)

(٣) انظر: Is There A God? (115)

(٤) براهين وجود الله (٦٩٥).

ولهذا فإنَّنا نجد أنَّ الملاحدة يتحدَّثون عن الجمال بطريقة موضوعية؛ قال البروفسور بول ديفيز: «حتى العلماءُ الملحدون الذين يشكّلون جزءًا ضئيلًا جدًّا وهشًّا من الكون يدبِّجون قصائدَ المديح في ضخامته وعظمته وتناغمه وأناقته وعبقريته»[١].

ومِن ذلك ما قاله زعيمُ الملحدين ريتشارد دوكينز: «العالم والكون مكانان في غاية الجمال، وكلَّما فهمنا الكون، بدَا لنا بصورةٍ أجمل»[٢]. فعندما يقول دوكينز وغيره مثلَ هذه الأقوال فإنَّهم يعبّرون عنْ حقيقة موضوعية، وأنَّ هذا العالم هو بالفعل جميل، وهذا القولُ لا يعبِّر عن رأيه الشخصي فقط. فهذا أمرٌ يعرفه كلُّ أحد في قرارة نفسه، ولا ينكرُه إلّا مكابر.

وإذا كان الجمالُ الموضوعي موجودًا، فكيف يفسِّر المذهب الطبيعي الإلحادي هذا الجمال؟ كيف تأتي الطبيعةُ الصَّماء بجمالٍ باهر؟ هذا ما لا يمكن للمذهب الطبيعي تفسيره!

«وأمّا الملحد - المدرك للوازم الإلحاد - فيرَى أنَّ من كمال العقل واستقامة الفكر وصلاح المعتقد أنْ يخلو الوجودُ من الجمال؛ لأنَّ الجمال فكرة ناشزة عن أصل العبث في كوْن موجود بلا مبدأ، ويسيرُ إلى غير غاية. إنَّ آفاق المادة في عيني الملحد يجب أن تنافرَ حقيقة الجمال؛ لأنَّ الجمال (الموضوعي) موصول ضرورة بالحكمة الأولى والغائية؛ ولذلك فالكونُ الإلحادي قبيحٌ أو ميت بلا دلالةٍ على جمال، وهو لا يغادر أحدَ مظهريْن؛ فوضى عارمة أو تماثل بارد»[٣].

وهذا الجمالُ الموضوعي مُشاهَد في عالم الأحياء بكثرةٍ مثل النباتات، والأشجار، والحيوانات، والأسماك، والطيور، وفي الإنسان. والملحد يضطرُّ إلى تفسير الجمال في

---

(١) الجائزة الكبرى، لماذا الكون مناسب للحياة؟ (٣١).

(٢) قاله دوكينز في مقابلة مع بي بي سي، ونقله دون أن باج في:
The Everett Mulitiverse and God, in: God and the Multiverse: Scientific Philosophical, and Theological Perspectives (53), ed. Klaas Kraay, (Routledge Studies in the Philosophy of Religion, 2014)

(٣) براهين وجود الله (٦٨٧).

عالم الأحياء عنْ طريق نظريةِ التطوّر بآلةِ الانتخاب الطبيعي. وهذه الآلة تعمل فقط لمصلحة الكائن نفسِه من أجل البقاء. وأمّا وجودُ الجمال فهو من أجلِ إمتاع الآخرين بمشاهدة هذا الكائن. وقد قال داروين: (لو كان مِن الممكن إثباتُ أنَّ أي جزءٍ من بنية أي نوع تمَّ تشكيلُه من أجل فائدةِ الأنواع الأخرى فقط، فسيتمُّ إبطالُ نظريتي، لأنه لم يكن بالإمكان إنتاجُه خلالَ الانتقاء الطبيعي)[1]. واعترف أنَّ بعضَ المعاصرين له: «يعتقدون أنَّ كثيرًا من التركيبات خُلقت من أجل الجمال لإمتاعِ الإنسان أو الخالق... أو من أجل التنوُّع أكثر... ولو صحَّت هذه المعتقدات لكانت ضربة قاتلة لنظريتي»[2]. وهذا التحدِّي فيه صعوبةٌ بالغة للتطوُّريين؛ لأنَّ الجمال ليس موجودًا في شيء واحد أو شيئَيْن؛ بل هو موجودٌ في كلِّ مكان. ومهْما حاول داروين في كتابه أن يفسّر هذا الجمال عنْ طريق الانتخاب الجنسي للحيوانات إلّا أنَّه عرف تحدّي ظاهرة الجمال لنظريتِه؛ فكتبَ لأحدِ أصحابه: «عندما أنظرُ إلى ريشة في ذيل الطاووس أصابُ بالغثيان»[3]. وذلك لأنَّ جمالَ هذه الريشة لا يمكن تفسيرُه عن طريق الانتخاب الطَّبيعي. وهذا الجمالُ المشاهَد في ريشة الطاووس جزءٌ بسيط جدًّا جدًّا من الجمال المشاهَد في عالم الأحياءِ بأكمله؛ فلا شكَّ أنَّ هذا كفيل بإبطال نظريته الفاسدة. وقد سبقَ مرارًا أنَّ نظرية التطوّر هي الركن الركين للإلحاد في هذا العصر.

ويُضاف أيضًا: على فرضية أنَّ الجمال يمكن تفسيرُه في عالم الأحياء، فإنّ الجمال موجودٌ في كلِّ مكان، وليسَ في عالم الأحياء فحسب. وقد ذكر البروفسور جي بي مورلاند أنَّ الجمالَ الموضوعي موجودٌ في غروب الشمس، وأعالي الجبال، والأشجار الملوَّنة في الخريف، وغيرُ ذلك كثير. فهذه الأشياء ليس لها أيُّ فائدة لبقاء الأصلح من الأنواع، ولا يمكن تفسيرُه عن طريق الانتخاب الطبيعي[4].

---

(1) On the Origins of Species (126)

(٢) هذا التصريح موجود في بعض نسخ كتابه دون بعض، انظر:
On the Origins of Species: A Variorum Text (367)

(٣) ذكر ذلك في رسالته لآسا غراي في الثالث من أبريل عام ١٨٦٠، وهو موجود على هذا الرابط:
https://www.darwinproject.ac.uk/letter/DCP-LETT-2743.xml

(٤) انظر:
Scaling the Secular City: A Defense of Christianity (41), by: J.P. Moreland, (Baker Book House Company, 1987).

خلاصةُ كلام علماءِ الغرب عن حجَّة الجمال:

خلاصةُ ما سبق أنَّ حجةَ الجمال تشكّل تحديًا كبيرًا لنظرية التطوّر والإلحاد من وجهيْن: الحسِّ الجمالي في داخل الإنسان، والجمالِ الموضوعي المشاهَد في كلِّ مكان. ورأى البروفسور كلارك بنوك[١] أنَّ هذا التحدّي من أقوى التحدِّيات للإلحاد؛ فقال: «أفضلُ مواجهة لتحدِّي الإلحاد، والعدمية التي تقترن به عادة، هي برؤيةٍ أوضح للجَمال البهي الذي خلقَه الله، لا عن طريق محاججات عقلية»[٢].

ولكنَّ حجَّة الجمال ليست حجَّةً في نقض الإلحاد فحسب، بل تثبت وجودَ خالق لهذا الكون متَّصف بالكمال والجَمال. وقد ذكر جون سي ورايت[٣] ذلك؛ فقال: «إنَّ أقوى حجَّة ضدَّ الإلحاد... ليستْ حجَّة يمكن صياغتها بكلمات، إذ هي حجةُ الجمال... إذا كنت فعلًا ترى جمالًا حقيقيًّا، ونسيت نفسَك بسبب هذا الشعور؛ فاعلمْ عندها أنَّك قد انسلختَ من نفسك في شيء أكبر. في تلك اللحظة اللازمانية مِن الانقطاع المجيد، يدرك القلب أنَّ العالم الممل الذي ألف الخيانة والألم والإحباط والحزم ليسَ هو العالم الوحيد هنا، حتَّى إن كان اللسانُ لا يملك أن يعبّر عن ذلك بكلمات. إنَّ العالم يشير إلى عالمٍ خارج عن هذا العالم، عالم أعلى... إنَّ الجمال يشير إلى ما هو إلهي»[٤].

---

(١) كلارك بنوك (Clark Pinock): بروفسور اللاهوت النظامي في جامعة ماكماستير في كندا. توفي عام ٢٠١٠م. انظر: https: / /www.mcmaster.ca /mjtm /bio١ – htm.٢

(2) Most Moved Mover: A theology of God's openness (2), (Caralisle: Paternoster Press, 2002)

(٣) جون سي ورايت (John C. Wright): الأديب الأمريكي صاحب المؤلفات في الخيال العلمي. وقد تحوَّل من الإلحاد إلى النصرانية في الفرقة الكاثوليكية. انظر: https://www.ncregister.com/blog/an-interview-with-catholic-sci-fi-author-john-c-wright

(٤) المقال: How We've Been Robbed of Beauty by the Left المنشور على الرابط: https://www.everyjoe.com/2014/07/03/politics/robbed-of-beauty-by-the-left/.

فخلاصة كلام علماء الغرب أنّ هذه الحجّة مركّبة من حجّتين: حجة الجمال المعرفية وحجة الجمال الوجودية. ومجموع الحجتين يشكّل تحديًا كبيرًا للإلحاد، كما أنه يدلّ على وجود خالق متّصف بالكمال والعلم والحكمة والجمال.

تقييمُ حجّة الجمال:

لا شكَّ أنَّ حجةَ الجمال تشكّل تحديًا قويًّا لنظرية التطوّر، وهي أهمُّ نظرية في الفكرِ الإلحادي المعاصر. وهذه الحجَّةُ تكتسب قوَّتها إذا انضمت إلى دليل الخلق والإيجادِ ودليلِ الإتقان والإحكام. فإذا تحدَّث المؤمنُ مع الملحد عن ظهور المخلوقات مِن العدم وإتقانها وإحكامها؛ فيُستحسن أن يتكلَّم عن جمالها وحسنها. وأنّ هذا الجمالَ يدلُّ على جمال الخالق، وأنه يحبُّ المخلوقات الجميلة.

وقد أرشدَ اللهُ تعالى إلى النظر إلى جمالِ مخلوقاته في آياتٍ عديدة، منها قوله تعالى ﴿ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَاۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ ﴾ [النحل: ٥ - ٦] وقولُه عزَّ وجلّ: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾ [ق: ٦ - ٨]. وقوله تعالى: ﴿ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ [النمل: ٦٠].

وقد أخبرَ النبي (ﷺ) أنَّ من أسماء الله: الجميل، ومِن صفاته الجمال، وهو يحبُّ المخلوقاتِ الجميلة؛ فقال: «إنَّ الله جميلٌ يحبُّ الجمال»[1].

وذكرَ الإمام ابنُ القيم (رحمه الله) في أبياتٍ جميلة أنَّ الجمال في المخلوقات من آثار جماله تبارك وتعالى؛ فقال:

وَهُوَ الجَمِيلُ عَلَى الحَقِيقَةِ كَيْفَ لا ... وجمَالُ سَائِرِ هذِهِ الأكْوَانِ
مِنْ بَعْض آثَارِ الجَمِيلِ فَرَبُّهَا ... أَوْلَى وَأَجْدرُ عِنْدَ ذِي العِرْفَانِ
فَجَمَالُهُ بِالذَّاتِ والأوصَافِ وَالـ ... أفعَالِ وَالأسْمَاءِ بالبُرهَانِ
لا شَيءَ يُشْبِهُ ذَاتَهُ وصِفَاتِهِ ... سُبْحَانَهُ عَنْ إفْكِ ذِي بُهْتَانِ[2]

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٦٥)، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية (٣/ ٧٠٦ - ٧٠٧)، لمحمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية (دار عالم الفوائد، الطبعة الأولى، ١٤٢٨ هـ، ت. مجموعة من المحققين بإشراف بكر بن عبد الله أبو زيد).

وقال الشيخ محمد خليل الهراس (رحمه الله) معلّقًا على هذه الأبيات: «وأما الجميل؛ فهوَ اسمٌ له سبحانه من الجمال، وهو الحسنُ الكثير، والثابتُ له سبحانه من هذا الوصفِ هو الجمالُ المطلق، الذي هو الجمالُ على الحقيقة؛ فإنَّ جمال هذه الموجودات على كثرةِ ألوانه وتعدُّد فنونه هو مِن بعض آثار جماله، فيكون هو سبحانه أوْلى بذلك الوصف مِن كلِّ جميل؛ فإنَّ واهبَ الجمال للموجودات لا بدَّ أنْ يكون بالغًا مِن هذا الوصف أعلى الغايات، وهو سبحانَه الجميل بذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله»[1].

وقد أبدعَ الإمام ابن القيّم (رحمه الله) في كتابه: مفتاح دار السعادة بذكر عددٍ كبير مِن الأمثلة على الجمالِ في الطبيعة، ودلالة هذا الجمال على وجود الخالق، والردّ على الملاحدة. وسأكتفي بذكرِ أربعة أمثلة على ذلك:

المثالُ الأوَّل: تأمُّل خلقِ السماء: قال (رحمه الله): «تأمَّلْ خلقَ السماء وارجعِ البصرَ فيها كرَّة بعد كرَّة، كيف تراها من أعظم الآيات في علوِّها وارتفاعها وسعتها»[2].

المثالُ الثّاني: تزْيينُ النجوم للسَّماء: قال (رحمه الله): «ثمَّ تأمَّلْ حكمته تبارك وتعالى في هذه النُّجوم وكثرتها، وعجيب خلقها، وأنَّها زينة للسماء وأدلة يهتدي بها»[3].

المثالُ الثّالث: ألوانُ الطيور وأصباغها: قال (رحمه الله): «تأمَّلْ هذه الألوان والأصباغَ والوشي التي تراها في كثيرٍ من الطير. فمِن أين في الطبيعة المجردة هذا التشكيل والتَّخطيط والتلوين؟!»[4].

---

(١) شرح القصيدة النونية (٢ / ٦٩)، لمحمد خليل الهراس، (دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٢٥ هـ).

(٢) مفتاح دار السعادة (٢ / ٥٨٩).

(٣) المصدر السابق (٢ / ٥٩٨).

(٤) المصدر السابق (٢ / ٦٩٨).

المثالُ الرّابع: العروقُ في الأوراق: قال (رحمه الله): «تأمَّلِ الحكمةَ في خلق الورق فإنَّك ترى في الورقة الواحدة من جُملة العروق الممتدَّة فيها المبثوثة فيها ما يبهرُ الناظر»[1].

والأمثلةُ على ذلك لا تعدُّ ولا تُحصى كما قال الإمام ابن القيّم (رحمه الله): «فسبحانَ مَن لا يحصي العادّون آياته، ولا يحيطون بتفصيلِ آيةٍ منها على الانفراد»[2].

فالخلاصةُ أنَّ هذه الحجَّة تستعمَل في نقد الإلحاد ونظرية التطوّر، كما أنه يستحسن إيرادُها بعدَ دليل الخلق والإيجاد، ودليل الإتقان، لتقوية هذه الأدلة كسلسلة مترابطة. وكذلك ينبغي إيرادُ أمثلةٍ على جمال المخلوقات من باب التأمّل والتفكّر.

(١) المصدر السابق (٢/ ٦٤٢).

(٢) المصدر السابق (٢/ ٧١٦).

المبحثُ السّادس

الحجَّةُ الوجودية

الحجَّةُ الوجودية حجَّةٌ عقلية محْضة على وجود الله. فهذه الحجّةُ تعتمد على التَّفكير المجرّد، ولا تسندُ إلى ربط المخلوقات بخالقها - كما هي حقيقة الحجّة الكونية، والحجّة الغائية -. وهي حجَّةٌ قبلية (A Priori)، أي أنها تنطلق لإثبات وجود الله من حقيقةِ هذا الوجود نفسه، وهي تختلف عن الحجّة الخلفية (A Posteriori)[١] التي تبدأ من النَّتيجة رجوعًا إلى السبب، أو مِن الأثر إلى المؤثِّر. فعمليةُ الاستنتاج في هذه الحجّة تمضي من الوجودِ الإلهي الضَّروري إلى إثبات وجوده بخلاف غيرها من الحجج المبنية على السَّببية التي ترصدُ النتيجة لتستنتج بها وجودَ السبب أو الفاعل[٢].

وهذه الحجّةُ محلُّ أخذٍ وردٍّ بين اللاهوتيّين النصارى، ولا تكاد تنتشرُ بين المسلمين إطلاقًا. وذلك أنها أقلُّ قوَّة من الحجج السابقة، وإنِ استطاع بعضُ الفلاسفة إعطاءها شيئًا من القوَّة. وقد مرَّتْ هذه الحجة بثلاثِ مراحل رئيسة: مرحلة القديس أنسلم، ومرحلة رينيه ديكارت معَ تصويبات ليبنز، والمرحلة المعاصرة. وبيانُ ذلك كما يلي:

أوَّلًا: مرحلةُ القديس أنسلم:

سادَ في العصور الوسطى مذهبان رئيسان بينَ رهبان النصرانية: أحدهما يحاول تفسيرَ العقائد النصرانية تفسيرًا عقلانيًّا معتمدًا على أعمال أرسطو، والثاني معادٍ للفلسفة والجدل. وكان الأسقفُ أنسلم كانتربري مِن أكبر المنتصرين للمذهب

---

(١) الحجّة القبلية تؤخذ من مقدّمات عامة مجرّدة.

الحجّة الخلفية تعتمد على معلومات خاصة مستمدّة من الإدراك الحسّي.

انظر: http://www.philosophypages.com/dy/a5.htm#a-pr

(٢) انظر: الإلحاد للمبتدئين (٨٤).

الأوّل، وقد تأثَّر تأثّرًا واضحًا بكتبِ أرسطو. وكان يرى أنَّ العقل هو المصدر الوحيد للبرهان[1].

ولهذا أرادَ أن يقدِّم حجَّة على وجود الله معتمدًا على العقل المجرّد، وهي الحجّة الوجودية. ولكنَّه لم يقدِّم هذه الحجّة بصياغةٍ منطقية معروفة بمقدّمات ونتيجة، وإنما قدَّمها وفقَ مناجاته لله في كتابه: «بروسولوجيون» (Prosologion) في الباب الثاني[2]؛ فقال:

«إنَّنا نؤمن بأنَّك الشيء الذي لا يمكن تصوُّر شيء أعظم منه. أفمثالُ هذه الطبيعة لا وجودَ لها، لمجرَّد أنَّ الأحمق قال في نفسه: الله غيرُ موجود؟ غير أن هذا الأحمق إذْ يسمع ما قلته: (الشيء الذي لا يمكن تصوُّر شيء أعظم منه)، يفهم على أيَّة حال ما يسمعه وما يفهمُه من كلمة (موجود) في عقله، حتَّى ولو كان لا يفهم أنَّ هذا الشيء موجود، وأنْ يكون الشيء موجودًا في العقل شيء، وأنْ يكون موجودًا في الواقع شيء آخر... ومن المؤكَّد أنَّ الموجود الذي لا يمكن تصوّر شيء أعظم منه لا يمكنُ أن يوجَد في العقل وحده، وبالفعل، حتَّى إذا كان موجودًا في العقل وحده، فمن الممكنِ أن نتصوَّر موجودًا مثله له وجودٌ في الواقع أيضًا، وهو بالتالي أعظم منه. وعليه، إذا كان موجودًا في العقل وحده فإنَّ الموجود الذي لا يمكن تصوّر شيء أعظم منه سيكونُ من طبيعةٍ تستلزم أن يكونَ بالإمكان تصورُ شيء أعظم منه في العقل وفي الحقيقة أيضًا»[3].
ثمَّ استمرَّ في البابِ الثالث بأنه لا يمكن تصوُّر أنَّ الله غير موجود، لأنَّه لا يمكن تصوُّر ما هو أعظمُ من الله، فما لا يمكن تصوّر وجوده فليس هو الله[4].

---

(١) انظر: نصوص من الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط (٩٦ - ٩٨).

(٢) سبق إيرادُ هذه الحجَّة ولكنْ يستحسن إيراده مرّة أخرى في هذا المقام.

(٣) الكلام في الأصل موجود في كتابه: Prosologian, Chapter two
وقد تمَّت الاستعانةُ بترجمة كلامه من كتاب: تاريخ الفلسفة (٣/ ٥١ - ٥٢).

(٤) الكتاب موجود بترجمة إنجليزية في:
https://sourcebooks.fordham.edu/basis/anselm-proslogium.asp

وكان الراهبُ جونليون[1] مِن معاصري الأسقف أنسلم، وكان معارضًا للمذهب العقلاني، وبالتالي ردَّ على الحجَّة الوجودية. وقد ألَّف في ذلك كتابًا سمّاه: «للدفاع عن الأحمق» (In behalf of the fool)، لأنَّ الأسقف أنسلم ذكر في بداية مناجاته أنَّ الأحمقَ قال في نفسه إنَّ الله غيرُ موجود، ثمَّ ساق هذه الحجّة غير المقنعة.

وكان أساسُ ردِّ الراهب جونليون على القديس أنسلم أنه لا يفرِّق بين التصوّر الذِّهني والوجود الفعلي. ومِن الأمثلة على ذلك أنَّ اللوحة قد تكون متصوّرة في ذهن الرسَّام قبلَ الرسم، ولكنّها لا توجَد في الواقع قبلَ أن يرسمها. وضرب جونليون مثالًا شهيرًا ينقدُ الحجَّة الوجودية، وهي: تصوُّر جزيرة مفقودة هي أعظمُ وأجمل الجزر. فهذا يمكن تصوُّر وجودُها في الذهن، ولكن لا يستلزم وجودها في الواقع[2].

وردَّ الأسقف أنسلم على هذا الاعتراض بأنَّه رأى أنَّ جونليون لم يفهم حقيقة حجَّته، لأنَّه ذكر في كتابه: بروسولوجيون، أنَّ كلَّ ما سوى الله يمكن تصوّر وجوده وعدم وجوده، ولكنَّ الله لا يمكن تصوُّر عدم وجوده أصلًا[3].

قَبِل بعضُ اللاهوتيين النَّصارى حجَّة أنسلم[4]. ولكن اللاهوتي المشهور توما الأكويني لم يقبلْها، وقدَّم حججَه الخمس المشهورة على وجود الله، وأعرض عن هذه الحجَّة. وذلك لأنَّه رأى أنَّ الإنسان لا يمكنه إدراكُ حقيقة الوجود الإلهي، ولهذا لا يمكن الوصولُ إلى وجودِه بطريقةِ تفكير أنسلم. وحيث إنه لا يعلم أحدٌ عن طبيعة وجودِ الله إلّا اللهُ نفسه، فلا يمكن استخدامُ هذه الحجة إلّا الله وحده. وإعراض

---

(١) جونيلون (Gaunilo): راهب بنيديكتي في الكنيسة الكاثوليكية في فرنسا. اشتهر بسبب مُعارضته الشديدة للحجة الوجودية على وجود الله. لا تُعرف سنة وفاته، ولكنه في القرن الحادي عشر الميلادي. انظر:

https://www.britannica.com/biography/Gaunilo

(٢) انظر: نصوص من الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط (١٠٨ - ١٠٩).

(٣) انظر: https://plato.stanford.edu/entries/anselm/#ArgPro

(٤) انظر: نصوص من الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط (١٠٨).

توما الأكويني عنْ هذه الحجة جعلَ معظمَ اللاهوتيين الكاثوليك يعرضون عنها أيضًا لأنهم اعتمدوا عليه في الاستدلال على وجود الله[1].

ثانيًا: مرحلةُ رينيه ديكارت:

في عصرِ النهضة، سادتْ فلسفةُ الاعتماد على العقل المجّرد مرّة أخرى. وكان رينيه ديكارت مِن أشهر الفلاسفة العقلانيّين. وقد سبق أنَّ ديكارت تبَّنى منهج الشكّ. وكان يقصد بذلك: عدم قبولِ شيء على أنَّه حقيقي ما لم يخضع لامتحان الشكّ، ثمَّ يستطيع بعدَ ذلك الوصولَ إلى شيء يقيني عنْ طريق برهان عقلي. وهذا المبدأ اليقيني هو: «أنا أفكِّر، إذًا أنا موجود». ثمَّ بنى الحجَّة الوجودية على هذا التفكير، وتوصَّل من خلالِها إلى وجودِ الله، ومن ثمَّ وجود العالم. ولهذا اختلفتْ قاعدة انتقال الفكر عند ديكارت عنِ انتقال الفكر عندَ اليونانيين الأقدمين كأرسطو. فقاعدةُ انتقال الفكر عند ديكارت هي: «أنا - الله - العالم»، فاستدلَّ على وجود العالم بوجود الله. وأما الأقدمون فكانوا يستدلُّون على وجود الله بالعالم كالتالي: «أنا - العالم - الله»[2]، وذلك بالحجَّة الغائية وغيرها من الحجج.

وديكارت بنَى الحجَّةَ الوجودية على أنَّ الله هو الذي غرز هذا التفكير في نفس الإنسان؛ فقال: «وليس فكْري هو الذي يحصّل هذا الوجود، ولا هو الذي يفرض سلطانَه على الأشياء، بل على العكس، إنَّ الضرورة التي تقع في الشيء نفسه - أي: ضرورة وجود الله - هي التي تجعلني أنْحو هذا النحوَ من التفكير؛ لأنه ليس في وسعي أن أتصوَّر إلهًا لا وجود له - أي: أن أتصوَّر موجودًا ذا كمال مُطلق بغير كمال مطلق - كما في وسْعي أن أتخيَّل فرسًا ذا جناحين أو غير ذي جناحين... إنّي أتبيّن من وجوه كثيرة أنَّ **هذا المعنى [أي: الإيمان بالله] ليس شيئًا مصطنعًا ولا مخترعًا، ولا معتمدًا على فكْري فحسب، بل إنَّه صورة لطبيعة حقيقية ثابتة.** أوّلًا لأني لا أستطيع أن أتصوَّر غير الله شيئًا يخصُّ الوجود ماهيته على جهةِ الضرورة، ثمَّ لأنه لا يمكنني أن أتصوَّر إلهين أو أكثر على

---

(١) انظر: http: / /www.newadvent.org /summa/1002.htm

(٢) انظر: ديكارت (١١٥).

شاكلته... وأخيرًا لأني أتصوَّر في الله صفات أخرى كثيرة لا أستطيعُ أن أنقص أو أنْ أغيِّر منها شيئًا»[1]. فهنا أبرزُ أنَّ هذا التفكير ناشئ عن الفطرة التي فطرَ اللهُ عليها العباد. ويتبيَّن من ذلك أنَّ الحجّة الوجودية عند ديكارت أقوى منها عندَ القديس أنسلم؛ لأنَّ الحجّة الوجودية عند ديكارت هي في الحقيقة حجَّة الفطرة.

ثالثًا: تصويبات ليبنز:

جاءَ غوتفريد ليبنز بعدَ ديكارت بحوالي قرن، وكتب تعليقًا على كتابه: «المبادئ» (Principles)، واستحسنَ الحجَّة الوجودية، ولكن بشرط أن يصحِّح قليلًا؛ فاستخلص من الحجَّة الوجودية عند أنسلم وديكارت ما يأتي: «الكائن[2] الضروري موجود (وهو كائنٌ ماهيَّته هو الوجود أو كائن موجود بذاته)، كما هو واضحٌ من لفظه. والإله هو هذا الكائن؛ لأنَّه في الحقيقة تعريفٌ للإله، وبالتالي فإن الله موجود»[3].

ثمَّ قال بعدَ ذلك: إنَّ هذه الحجّة «صحيحة إن كانت تتضمَّن أنَّ الكائن الأعظم أو الكائنَ الضروري ممكن، وأنَّه لا يتضمَّن أيَّ تناقض، أو... أنَّ هذه الماهية ممكنةٌ، وبالتالي يكون وجودُه كذلك ممكنًا. ولكنْ مادام أنَّه لا تبرهن لهذه الماهية، فلا يمكن أن يُقال: إنَّ وجودَ الله مُبرهَن بطريقةٍ مثالية في هذه الحجّة»[4].

وذكرَ ليبنز أنَّ هذه الحجَّة لا تكون كاملة إلّا إذا قدَّم دليلًا على إمكانية وجود الإله. وذكرَ أنَّ هذا الدليلَ مطلوب؛ لأنَّه «لا يمكن أن نستنتج من التعريفات إلّا إذا عرفنا أنَّها حقيقية وغيرُ متناقضة. وسببُ ذلك أنَّه يستنج استنتاجات متناقضة من

---

(١) التأملات: (١٩٩ - ٢٠٢).

(٢) كلمة «الكائن» لا يصحُّ إطلاقُها في حقّ الله كاسْمٍ وصفة، ولكنّ الفلاسفة يتجوّزون كثيرًا في الإخبار عن الله تعالى بنحو هذه الألفاظ.

(3) Leibniz: Philosophical Papers and Letters, 2nd ed., ed. and transl. by L. E. Loemker (p. 386)

(٤) المصدر السابق (٣٨٦).

مفاهيمَ متناقضة، وهذا أمرٌ سخيف»[1]. فاحترزَ ليبنز لهذه الحجّة بذكر شرطين، هما: إمكانيةُ وجود الله، وعدمُ تناقض وجوده. وبيَّن أنّه مادام أنَّ وجود الإله ممكن، وأنَّ ذلك غيرُ متناقض؛ فإنه موجودٌ ضرورة.

رابعًا: انتقاداتٌ للحجَّة الوجودية في القرن الثامن عشر:

في القرن الثامن عشر، تلقَّت الحجَّة الوجودية انتقاداتٍ شديدة من قبل الفيلسوفيْن المشهورين: ديفيد هيوم وإيمانويل كانت. وبيانُ ذلك بما يأتي:

انتقادُ ديفيد هيوم:

كان هيوم يتبنَّى المذهبَ التجريبي فرأى أنَّه لا يمكن الاعتمادُ على التفكير القبلي / البدهي (reasoning A priori)، وإنما يعتمدُ على التفكير الخلفي / الاستدلال (A posteriori)، لأنَّه مبنيٌّ على الإدراك الحسي[2]، ويمكن تلخيصُ حجَّته على ذلك كالآتي:

١) الطريقةُ الوحيدة لإثبات شيء بدهي، هو إذا كان مقابله يدلُّ على تناقض.

٢) إذا كان شيء يدلُّ على تناقض فإنه لا يمكن تصوّر وجوده.

٣) ما مِن شيء إلّا ويمكن تصوُّر عدم وجوده.

٤) إذًا، لا يوجد شيء بدهي.

فإذا أمكنَ تصوُّر عدم وجود أيِّ شيء، فإنه غيرُ بدهي، وبالتالي فإنه بحاجة إلى الاستدلال[3].

---

(١) المصدر السابق (٢٩٣).

(٢) انظر: Dialogues concerning natural religion (part 9)

(٣) انظر:
http://www.philosophyofreligion.info/theistic-proofs/the-ontological-argument/st-anselms-ontological-argument/hume-on-a-priori-existential-proofs/

انتقادُ إيمانويل كانت:

هو أشهرُ فيلسوف انتقدَ الحجَّة الوجودية على الإطلاق، وذلك في كتابه: «نقد العقل المجرّد» (Kritik der reinen Vernunft). والغريب أن إيمانويل كانت خصّص نقدَه لديكارت، وتجاهلَ نقدِ القديس أنسلم[١]، ولكنّه ركّز نقده على قضية عدم التلازم بين التصوُّر الذهني والوجود الخارجي. وهذا النقدُ صحيح، ويصدُق على أنسلم، ولكنّه لا يلزم ديكارت - كما سبق بيانُه عند الحديث عن حجَّة الفطرة - لأنَّه لا يبني حجّته على التصوُّر الذهني المجرّد، وإنَّما بناها على أنَّ هذا التفكير مغروزٌ في الإنسان، وأنه لا بدَّ أن يكونَ الله هو الذي غرزه فيه.

«ولا بدَّ من التأكيد ابتداءً أنَّ هذا الدليل الذي قال به أنسلم ليس هو نفسَ الدليل الوجودي الذي استدلَّ به ديكارت على وجود الله تعالى؛ لأن ديكارت يصرّح أنَّه لم يستدلّ بالكمالِ المطلق لله من حيث هوَ قضية استدلالية، وإنما هو من حيث هوَ حقيقة فطرية لا يمكنُ إنكارها، فما قاله ديكارت حقٌّ يجب التسليم به، بخلاف ما ادَّعاه أنسلم في هذا الاستدلال فإنَّه مجرَّد مُصادرة لا دليلَ عليها، والذين نقدوا الدليل الوجودي عند ديكارت[٢] لم يتبيَّنوا هذا الفرق الأساسي بين الدليلين، مع أن استدلالَ ديكارت مبنيٌّ على أساسٍ ضروري، بينما استدلال أنسلم مبنيٌّ على مصادرة»[٣].

ومعَ أنَّ انتقادَ إيمانويل كانت لديكارت كان خاطئًا، فإنَّ كتابه: نقد العقل المجرّد أثّر كثيرًا في الفلسفة الغربية[٤]، وبالتالي أثَّر في عدم قبول الحجّة الوجودية فترة من الزمن.

---

(١) انظر: http: / /www.scandalon.co.uk /philosophy /ontological_kant.htm

(٢) مثل: إيمانويل كانت.

(٣) المعرفة في الإسلام (٥١٨).

(٤) انظر: The Oxford Companion to Philosophy (470), (Oxford University press, second edition)

المرحلةُ المعاصرة:

أعادَ بعضُ الفلاسفة الغربيّين الحجَّة الوجودية إلى ساحة الفلسفة اللاهوتية في الستّينيات من القرن العشرين. وعلى رأس هؤلاء: نورمان مالكوم[١]، وتشارلز هارتشورن[٢]. فقد كتبَ كلٌّ من مالكوم وهارتشورن[٣] صياغة منطقية للحجّة الوجودية مبنيَّة على مقدِّمات ونتيجة، بينما صاغَ أنسلم وديكارت قبلهما هذه الحجّة عن طريق تأمُّلات. ومِن أكبر الأعلامِ المعاصرين المنتصرين لهذه الحجَّة هو البروفسور ألفن بلانتنغا، حيث ألَّف كتابه: «الحجَّة الوجودية: من القديس أنسلم إلى فلاسفة معاصرين» (The Ontological Argument: From St. Anselm to Contemporary Philosophers)، وجمع الرسائل الفلسفيَّة المؤيّدة وناقدة للحجَّة الوجودية. وانتقدَ الصياغة المنطقية للحجّة عند مالكوم وهارتشورن، وقدَّم صيغة معدّلة لها[٤].

ثمَّ من أواخر مَن جاء وعدَّل صياغة الحجَّة هو البروفسور وليام لاين كرايغ. ولكوْنه مِن أواخر مَن عدَّل صياغةَ هذه الحجّة، وأنه أشهرُ فيلسوف لاهوتي يستخدمها في نقد الإلحاد، يناسبُ إيراد صياغته فقط لكيْلا تختلط الصيغ بعضها ببعض.

وقد صاغَ البروفسور كرايغ هذه الحجَّة بالطريقة الآتية:

المقدِّمة الأولى: هناك إمكانيةُ أنْ يوجد كائن في غاية العظمة.

المقدِّمة الثانية: كائنٌ في غاية العظمة يوجَد في بعض العوالم الممكنة.

---

(١) نورمان مالكوم (Norman Malcolm) فيلسوف أمريكي حاصل على شهادة الدكتوراه من جامعة هارفارد في الفلسف. توفي عام ١٩٩٠م. انظر: https: / /www.iep.utm.edu /malcolm/

(٢) تشارلز هارتشورن (Charles Hartshorne): فيلسوف أمريكي حاصل على شهادة الدكتوراه من جامعة هارفارد في الفلسفة، وأحدُ أهمِّ فلاسفة الدين في القرن العشرين. توفي عام ٢٠٠٠م. انظر: https: / /plato.stanford.edu /entries /hartshorne /

(٣) انظر: Till den kristna trons försvar (95)

(٤) انظر: https: / /plato.stanford.edu /entries /ontological – arguments /

المقدِّمة الثالثة: إن كان كائنٌ في غاية العظمة يوجَد في بعض العوالم الممكنة فإنَّه يوجد في جميع العوالم الممكنة.

المقدِّمة الرابعة: إنْ كان كائنٌ في غاية العظمة يوجَد في جميع العوالم الممكنة فإنَّه يوجد في العالم الحقيقي.

المقدِّمة الخامسة: كائنٌ في غاية العظمة يوجد في العالم الحقيقي.

النَّتيجة: بالتالي، فإنَّ الكائنَ الذي هو في غاية العظمة موجود(1).

وقد فسَّر هذه الحجَّةَ في مقطع موشن غرافيك بالطريقة الآتية:

الإلهُ يُعرَّف بأنه كائنٌ في غاية العظمة، بمعنى أنه عليم بكلِّ شيء، قادرٌ على كلِّ شيء، ومثالي في الطيب.

والمرادُ بالعوالم الممكنة: الطريقةُ التي يمكن أن يكون عليها العالم، وإذا كان العالم بهذه الطريقة فإنَّ هذا الشيء سيوجَد بهذه الطريقة. وحتى وإن لم يوجدِ الحيوان أحادي القرْن في العالم الحقيقي، فإنَّه غيرُ مُستبعد أنْ يوجد في عالم ممكن. ولكنَّ الأعزبَ المتزوِّج غيرُ موجود في أيِّ عالم ممكن؛ لأنه متناقض منطقيًّا، فلا يمكن وجوده.

وإذا أمكنَ أن يوجَد كائنٌ في غاية العظمة في بعض العوالم الممكنة، فإنه موجود في بعضِ العوالم الممكنة. ولكنَّ الكائن في غاية العظمة لا يكون عظيمًا للغاية إذا كان موجودًا في بعض العوالم الممْكنة، فلا بدَّ أن يكون كذلك في جميع العوالم الممكنة.

فإذا وُجِد في بعض العوالم الممكنة، فلا بدَّ أن يوجد في جميع العوالم الممكنة، وإذا وُجِد في جميع العوالم الممكنة فإنه يوجَد في العالم الحقيقي.

والنتيجة: أنَّ الكائن في غاية العظمة يوجد في الحقيقة.

وذكرَ أنَّ المقدِّمة الثانية إلى السادسة غيرُ مثيرة للانتقاد، بخلاف المقدِّمة الأولى. فإذا أمكنَ الملحد أنْ يبرهن على أنَّ وجود الإله مستحيل منطقيًّا؛ فإنَّ الحجّة تسقط.

---

(1) Richard Dawkins and the Arguments for God (29)

وأما إذا سلَّم بالمقدِّمة الأولى، فإنَّه يجب التسليمُ ببقية المقدِّمات تبعًا. ولكن، هل فكرة وجودِ الإله مستحيلةٌ عقلًا مثل: الأعزب المتزوج أو الدائرة الرباعية؟ الجواب: لا، بل فكرةُ وجوده مسلَّم بها منطقيًّا، وبالتالي، فلا بدَّ أن يوجد في الحقيقة[1].

هذه خلاصةُ شرح البروفسور كرايغ لهذه الحجَّة، ومن الواضح أنّه استفادَ في حجّته مِن الفلاسفة السابقين، ولا سيَّما من تصويبات الفيلسوف ليبنز عندما أضاف شرطيْن للحجَّة، وهمَا: إمكانية وجود الإله وعدم تناقض وجوده.

تقييمُ الحجّة الوجودية:

الحجَّة الوجودية التي قدَّمها ديكارت فيها نوعٌ من القوّة حيث إنها تعتمد على فطرة الإنسان، وأنَّ الله هو الذي غرز العلمَ به في نفس الإنسان - كما سبق بيانُه عند الكلام عن حجَّة الفطرة -. ولكنَّ الحجَّة الوجودية المعتمدة على التفكير المجرّد كما قدّمها القديسُ أنسلم والفلاسفةُ المعاصرون: حجَّة ضعيفة، ويترجَّح لدى الباحث أنه لا يجوز استخدامُها. وذلك لثلاثة أسباب:

السببُ الأوَّل: أنَّ هذه الحجَّة ليست واضحةً وقطعية، ولهذا يصعب فهمها. فهذه الحجَّة - في صياغة البروفسور كرايغ - مبنيَّة على خمس مقدّمات ونتيجة، وكلّ مقدّمة بحاجةٍ إلى شرح. وهذا بخلافِ الحجَّة الكونية، والحجَّة الغائية، والحجَّة الأخلاقية؛ فإنّها مبنيَّةٌ على مقدِّمتين واضحتيْن، ثمَّ نتيجة يجب التسليمُ بها عند قبول المقدّمتين. ولا بدَّ أنْ يكون الذي يردُّ على الملاحدة صاحبَ إقناع قوي، وإلّا ما أعطى الموضوع حقّه. وقدْ ذكر شيخ الإسلام هذه النقطة إذ قال: «وكلُّ مَن لم يناظر أهلَ الإلحاد والبدع مناظرة تقطع دابرَهم لم يكنْ أعطى الإسلام حقَّه، ولا وفَّى بموجب العلم والإيمان، ولا حصلَ بكلامه شفاء الصدور وطمأنينة النفوس، ولا أفادَ كلامه العلم واليقين»[2].

السببُ الثّاني: أصبحتْ هذه الحجَّة مجالَ ضحكٍ ومزاح لدى الملاحدة لعدم وضوحِها. ومِن الأمثلة على ما قاله الملاحدة:

---

(١) انظر: https: / /www.youtube.com/watch?v=xBmAKCvWl74

(٢) مجموع الفتاوى (٢٠ / ١٦٤ - ١٦٥).

المثالُ الأوَّل: أرثر شوبينهاور: ذكرَ الفيلسوف الملحد شوبينهاور أنَّ هذه الحجَّة إنَّما هي: «مزحة لطيفة»[1].

المثالُ الثاني: ريتشارد دوكينز: خصَّص دوكينز سبعَ صفحات من كتابه: «وهم الإله» للسُّخرية من هذه الحجّة[2].

المثالُ الثّالث: وكتور ستينجر[3]: قامَ بعضُ الملاحدة بإعداد حجج وجودية ساخرة، منهم الملحدُ وكتور ستينجر الذي قال في مناظرته للبروفسور كرايغ إنَّه يستطيع بهذه الحجَّة أنْ يثبت أنه توجَد بيزا في غايةِ العظمة التي يمكن تصوُّرها في عالم ممكن[4].

السببُ الثّالث: أنَّ هذه الحجَّة تتضمَّن مغالطة المصادرة على المطلوب؛ قال الشيخ مصطفى صبري (رحمه الله): «إنَّ استخراج البرهان على وجود الله من تصوّر القائلين به على أنه جامعٌ لكلِّ كمال - ومنه الوجود طبعًا - توهُّم محض، من نوع المصادرة على المطلوب؛ لأنَّ إثباتَ وجود الله يتوقَّف على كونه جامعًا لكلّ كمال، في حين أنَّ الحكمَ بكوْنه جامعًا كلِّ كمال يتوقَّف على كونه موجودًا، بناء على القاعدة المنطقيَّة بأنَّ صدقَ القضية الموجبة مشروطٌ بوجود موضوعها، فيتوقَّف إثباتُ وجود الله على كوْنه موجودًا، وهو الدورُ والمصادرة على المطلوب»[5]. ولهذا كانت الحجّةُ الوجودية من الحجج الضعيفة التي لا يجوز استخدامُها في مناظرة الملاحدة.

---

(1) The Fourfold Root of the Principle of Sufficient Reason (66)

(٢) انظر: The God Delusion (103 - 109)

(٣) ويكتور ستينغر (Victor Stenger): بروفسور الفلسفة الأمريكي وحامل شهادة الدكتوراه في الفلسفة. وهو ملحد يدعو إلى الإلحاد، وصنّف في ذلك بعض الكتب. انظر: https: / / www.closertotruth.com /contributor /victor – stenger /profile

(٤) انظر:
https://www.reasonablefaith.org/media/reasonable-faith-podcast/the-death-of-victor-stenger/#_ftn1

(٥) موقف العقل والعلم والعالم من ربّ العالمين وعباده المرسلين (٢ / ٢٢٦)، لمصطفى صبري، (دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثانية، ١٤٠١ هـ).

المبحثُ السّابع
الحجَّةُ الأخلاقية

الحجَّةُ الأخلاقية من الحجج المشهورة على وجودِ الله تبارك وتعالى. وهي تختلف نوعًا ما عن الحججِ التي سبق ذكرُها، حيث إنّها لا تستندُ إلى دلالة المخلوقات على الخالق، وإنما تستندُ إلى أنَّ الله هو المصدرُ للقيم والأخلاق الموضوعية، وأنه يستحيلُ للملاحدة أنْ يبنوا أساسًا سليمًا لهذه الأخلاق.

وهذه الحجَّة أصبحت محلَّ جدلٍ واسع بين الملاحدة والمتديّنين في الغرب، فألَّف كلا الفريقين كتبًا عنها[1]، كما أنَّه أقيمت مناظرات بينهم بسببها[2].

ومعَ ذلك فإنَّ هذا «الدليل معَ صحَّته وأهميته البالغة إلّا أنه يكادُ لا يوجد له ذكر في كلامِ علماء الإسلام، وإن كانت كثيرٌ من تقريراتهم تدلُّ على مقدِّماته»[3]. ومع ذلك فقدِ اهتمَّ بعضُ الباحثين المسلمين المهتمِّين بقضايا الإلحاد بهذه الحجّة في كتبهم التي صدرت مؤخّرًا[4].

وقبلَ الخوض في صياغةِ هذه الحجّة ينبغي الوقوفُ على شيء من تاريخها؛ وبيانُ ذلك كما يلي:

---

(١) ومن هذه الكتب: The Science of Good and Evil, Why is Good Good? Can we be good without God, Moral Minds.

(٢) مثل مناظرة البروفسور وليام لاين كرايغ مع الملحد سام هاريس، وقد ترجم مركز دلائل هذه المناظرة، وطبعها ككتابٍ بعنوان: الإلحاد بين قصورين.

(٣) ظاهرة نقد الدين في الفكر الغربي الحديث (٢ / ٢٢٠).

(٤) انظر على سبيل المثال: شموع النهار (٥٧ - ٧٢)، والحقيقة الإلهية (٢٤٥ - ٢٦٠)، وظاهرة نقد الدين في الفكر الغربي الحديث (٢ / ٢١٩ - ٢٤٨).

تاريخُ الحجّة الأخلاقية:

لم يذكرِ الفلاسفة اليونانيون - مثل: أرسطو وأفلاطون - الحجّةَ الأخلاقية ضمن حجَجِهم العقلية على وجودِ الله، كما أنَّ اللاهوتيين النصارى في العصور الوسطى لم يذكروها في كتبهم. ولكنْ رأى بعض المتخصِّصين[١] في الفلسفة أن توما الأكويني قد أشارَ إلى هذا الدليل ضمنًا في الدليل الرابع - وهو دليلُ التفاضل الذي سبقت الإشارةُ إليه - مِن أدلَّته الخمسة على وجود الله.

وإنَّما ظهر كلامٌ يشبه هذه الحجَّة في عصر النهضة على يد الفيلسوف الألماني إيمانويل كانت. وقد تقدَّم أنَّ إيمانويل كانت كان ينتقد الحجج العقلية المشهورة على وجودِ الله، مثل: الحجة الكونية والحجّة الغائية في كتابه: «نقد العقل المجرّد» (Critique of Pure Reason). ولكنه ذهب في كتابه: «نقد العقل العملي» (Critique of Practical Reason) إلى أنَّ الأخلاق تفترض وجود الله من الناحية العملية. وذلك أنه يجبُ على الإنسان تحقيقُ السَّعادة والفضيلة الكاملتين، وهذا لا يمكن إلّا بالإيمان بالله والآخرة، فيجبُ على الإنسان أن يفترض وجودَ الله[٢].

فلا يمكن أن يُقال: إنَّ إيمانويل كانت قدَّم الأخلاقَ كحجَّة عقلية على وجود الخالق، وإن نُسبَ إليه ذلك، ولكنَّه رأى أنَّ الأخلاق تفترض وجوده من الناحية العملية[٣].

وأوَّل مَن قدَّم الحجَّة الأخلاقية كحجّةٍ عقلية على وجودِ الله هو البروفسور وليام ريتشي سورلي[٤]. وقد صاغَها بالصياغة الآتية:

---

(١) انظر:
Stanford Encyclopedia of Philosophy, Moral Arguments for the Existence of God
https://plato.stanford.edu/entries/moral-arguments-god/

(٢) انظر: Critique of Practical Reason (Book ٢, Chap ٢, Sect ٥)

(٣) انظر: The Existence of God (٢١٢)

(٤) وليام ريتشي سورلي (William Ritchie Sorley): فيلسوف إسكتلندي، وعمل كبروفسور الفلسفة الأخلاقية في جامعة كامبردج، وألّف عددًا من الكتب في فلسفة الأخلاق. توفي عام: ١٩٣٥م. انظر:
https: / /www.giffordlectures.org /lecturers /william – ritchie – sorley

المقدِّمة الأولى: إذا كانتِ الأخلاقُ موضوعيَّةً ومُطلقةً فإنَّ الله يجبُ أن يكون موجودًا.

المقدِّمة الثّانية: الأخلاقُ موضوعية ومطلقة.

النتيجة: إذًا، يجب أن يكون اللهُ موجودًا[١].

وقد استحسنَ كثيرٌ من المفكِّرين الغربيين هذه الحجَّة في القرنين التاسع عشر والعشرين، حين ظنُّوا أنَّ الحجّج المبنية على التصميم لم تعدْ قوية بسبب تقدّم العلم التجريبي[٢].

وفي هذا القرن، اهتمَّ بعضُ علماء الغرب[٣] بهذه الحجَّة غاية الاهتمام. وكان البروفسور وليام لاين كرايغ من أكثر مَن أبرزها. وقد أعادَ صياغتها بطريقة مختلفة، وجادلَ في إثبات مقدِّماته وردَّ على شبهات الملاحدة عن هذه الحجّة في مقالات ومناظرات. وصياغةُ البروفسور كرايغ كما يلي:

الصِّياغةُ الجديدة للحجَّة الأخلاقية:

بينما صاغَ البروفسور وليام ريتشي سورلي المقدِّمة الأولى للحجَّة الأخلاقية بطريقة الإثبات: «إذا كانتِ الأخلاقُ موضوعيّةً ومُطلقةً فيجبُ أن يكون اللهُ موجودًا»، فإنَّ البروفسور كرايغ صاغَ هذه المقدِّمة بطريقة النَّفي، فأصبحت صياغته كالتالي:

المقدِّمة الأولى: إذا لم يكنِ اللهُ موجودًا فإنَّ الواجبات والقيم الأخلاقية الموضوعية لن تكون موجودة.

المقدِّمة الثّانية: إنَّ الواجبات والقيم الأخلاقية الموضوعية موجودة بالفعل.

النَّتيجة: إذًا، فاللهُ موجود[٤].

---

(١) انظر: Atheism: A Philosophical Justification (213 - 214)

(٢) انظر: The Existence of God (212)

(٣) منهم: روبيرت آدمس - بروفسور الفلسفة الأمريكي -، وجون هار - بروفسور اللاهوت الفلسفي البريطاني -، وسي ستيفن إيافانز - بروفسور الفلسفة الأمريكي -.

(٤) انظر:
"Richard Dawkins on Arguments for God", in: "God is Great, God is Good" (18)

وهذه الصياغة أدقُّ من الصياغة الأولى؛ لأنَّ أغلب الناس يسلّمون بالمقدّمتين؛ قال البروفسور كرايغ: «ما يجعل هذه الحجَّة الصغيرة فعّالة جدًّا: ليس فقط أنها مسلحة بالمنطق، لكنْ لأنَّ الناس عمومًا يؤمنون بهاتين المقدمتين. ويبدو في الحقيقة أنَّ دوكينز نفسَه ملتزمٌ بكلتا المقدمتين»[1]. فإذا كان الملحد منصفًا بعد تسليمه بالمقدّمتين فإنّه يسلِّم للنتيجة أيضًا، ويعترف بأنَّ الله موجود. وأمَّا في الصياغة الأولى، فإنَّ المقدّمة الأولى تكون محلَّ نزاعٍ مباشرة مع الملحد، وقد لا يواصل قراءةَ بقيّة الحجة.

حقيقةُ هذه الحجَّة:

لكي نفهمَ هذه الحجَّة على حقيقتها ينبغي الوقوف على ثلاث نقاط:

النُّقطةُ الأولى: هذه الحجَّة تتعلّق بعلمِ وجود الأخلاق (Moral Ontology)، وليستْ علم معرفة الأخلاق (Moral Epistemology). العلم الأوّل يتحدّث عن كون الأخلاقِ الموضوعية موجودةً أو غير موجودة، وأمّا العلم الثاني فيتحدَّث عن كيفية معرفة الأخلاق الطيبة والسيِّئة. والملاحدةُ يخلطون بينهما[2]. فثمَّة مستويان في هذه القضية:

«**المستوى الأوَّل**: هل للقيم الأخلاقية المطلقة وجود، أم لا؟

المستوى الثّاني: كيف نتعرَّف على تلك القيم الأخلاقية، إن كان لها وجود؟

وبسببِ شعور الملاحدة الجدد بمأزقِ السؤال الأوَّل في ظلِّ تصوّرهم الإلحادي، تراهم يعمدونَ إلى تجاوزه والقفزِ عليه؛ ليصرفوا الموضوعَ إلى السؤال الثاني: كيف يمكن أنْ نتعرَّف على حَسَن الأخلاق من قبيحِها؟ وهل ثمّة سبيلٌ للتعرُّف عليها خارج عن إطار الدين أم لا؟ وهل بإمكانِ العلوم الطبيعية مساعدتنا في حلِّ هذا الإشكال؟

---

(١) المصدر السابق.

(٢) انظر: الحقيقة الإلهية (٢٥٦ – ٢٥٧).

ويظلُّ السؤالُ الأوّل كما هو معلّقًا ينتظر الجواب، ولا جواب. وهو ما يمثّل مأزقًا حقيقيًّا ضخمًا للفلسفة الإلحادية»[1].

النُّقطةُ الثّانية: هذه الحجَّة تتعلّق بالأخلاق الموضوعية، وليست بجميع أنواع الأخلاق. والأخلاقُ الموضوعية «ليست مُعتمدة أو مبنيَّة على عقل شخص ما أو مشاعر شخصية. وبهذا المعنى فهو خارجُ قدرات الشخص المحدودة. الحقائق الرياضية (مثل: ١+١=٢)... هي حقيقةٌ بغضِّ النظر عن طبيعة شعورك حولها. وهكذا، فإذا كانتْ هذه الأخلاقيات خارجَ أنفسنا، فإنه يجبُ أن يكون لها تأسيس، أو بعبارة أخرى تحتاج أساسًا. إذا كانتِ الأخلاق الموضوعية لا تعتمدُ على قدراتنا المحدودة، فنحتاج الإجابة عن الأسئلة التالية: «مِن أين أتتْ هذه الأخلاق الموضوعية؟» و«ما طبيعتها؟» حتَّى نجيبَ على هذه الأسئلة، نحتاج أساسًا منطقيًّا، وهذا سيفسِّر طبيعتها الموضوعية، ويقدِّم تعليلًا منطقيًا يوضِّح من أين أتت...

وطريقةٌ أخرى لوصف الحقائق الأخلاقية الموضوعية هو كوْنها تتجاوز الذاتية الإنسانية. فعلى سبيل المثال، حقيقة أنَّ قتلَ طفلٍ عمره خمس سنوات أمر خاطئ أخلاقيًّا سيصحُّ في كلِّ الأحوال لو اتَّفق العالم كلُّه على أنَّ قتلَ طفل عمره خمس سنوات صحيح أخلاقيًّا»[2].

النُّقطةُ الثّالثة: هذه القيمُ الأخلاقية الموضوعية يتَّفق عليها العقلاءُ، ويقرُّون بها إقرارًا ضروريًّا؛ لأنَّها مغروسة فيهم. «ولا يمكنُ لتلك القيم أن تكون غيرَ متَّصفة بالضرورة والإطلاق؛ لأنَّه حينئذ ستتغيَّر حياةُ الإنسان وتنقلبُ رأسًا على عقب، فكلُّ تصرُّفات الإنسان التي جعلتْ منه كائنًا متفرِّدًا في بناء حياته، ومتميِّزًا في تأسيس حضارتِه؛ قائمةٌ على تلك القيم، فبيعُ الناس وشراؤهم، وتعليمهم وعلاقاتُهم مع جيرانهم وأصدقائهم وآبائهم وأبنائهم؛ قائمةٌ على تلك القيم، فلا تكاد تجد شعبًا من

---

(١) شموع النهار (٦٢).

(٢) الحقيقة الإلهية (٢٤٦ - ٢٤٧).

الشعوب الإنسانية ينازع في كوْن العدل والصدق والأمانة معانٍ محمودةً، ولا بدّ من الأخذ بها، وأنَّ الظلم والكذب والخيانة معانٍ مذمومة لا بدَّ من الابتعاد عنها»[١].

وبفهْمِ هذه النقاط الثلاث تتبيَّن حقيقةُ هذه الحجّة. والآن، يستحسن الرجوعُ إلى المقدِّمتين والنتيجة:

المقدِّمة الأولى:

المقدِّمة الأولى تنصُّ على أنه: «إذا لم يكنِ الله موجودًا فإنَّ الواجبات والقيم الأخلاقية الموضوعية لن تكونَ موجودة». وهذه النقطةُ واضحة؛ لأنَّ الإلحاد لا يقدِّم أساسًا متينًا للأخلاقِ الموضوعية. وقد لخَّص البروفسور كرايغ حقيقة الرؤية الإلحادية للأخلاق الموضوعية بقوله: «لو لم يكنِ الإله موجودًا فما الأساسُ الذي يبقى لدينا لتفسيرِ وجود القيم الأخلاقية الموضوعية؟ وبالتحديد، لماذا نعتقد أنَّ الكائنات البشرية ستمتلكُ قيمةَ أخلاقية موضوعية؟ فالإنسانُ من وجهة النظر الإلحادية ليس إلّا منتجًا ثانويًّا للمصادفة في الطبيعة، وقد تطوَّر في وقتٍ متأخّر نسبيًّا فوق ذرّة غبار كوني مُتناهية في الصِّغر تدعى الأرض، وقدَّر عليه الفناء الفردي والجماعي في زمن قصير نسبيًّا»[٢].

وهذا ما ذكرَه البروفسور كرايغ عنِ الملاحدة ليس مأخوذًا من الهواء، بل يدلُّ عليه كثيرٌ من تصريحاتهم؛ أكتفي بذكر ثلاثة منها:

التَّصريحُ الأوَّل: وقد صرَّح زعيمُ الإلحاد ريتشارد دوكينز أنه لا يوجد خيرٌ ولا شرٌّ في هذا الكون: «الكونُ الذي نشاهده توجَد فيه الخصائص التي نتوقّعها. هو في الحقيقة بلا تصميم، ولا هدف، **ولا شرٌّ ولا خير**، ولا شيء سوى اللامبالاة القاسية»[٣]. واعترف بصعوبة بناءِ منظومة أخلاقية على أساسٍ غير ديني، إذْ قال:

---

(١) ظاهرة نقد الدين في الفكر الغربي الحديث (٢ / ٢٢١ - ٢٢٢).

(٢) الإلحاد بين قصورين (٢٢)، (مركز دلائل، الطبعة الثانية، ١٤٣٧ هـ، ترجمة وتعليق: د. مؤمن حسن، ود. عبد الله الشهري).

(3) River out of Eden (133)

«من الصعوبة بمكانٍ الدفاعُ عن القيم الأخلاقية المطلقة على أرضية أخرى غير الدين»[١].

التَّصريحُ الثّاني: قد ذهبَ الملحدان البروفسور مايكل روس والبروفسور إدوارد ويلسون[٢] في مقالٍ لهما إلى أنَّ الأخلاق مجرَّد وهْم، وليس بحقيقة، إذْ قالا: «الأخلاق - أو بدقَّة أكبر إيمانُنا بالأخلاق - مجرَّد تكيُّف أخذَ مكانه لتعزيز تكاثرنا في النهاية. وبالتالي فإنَّ الأساس الأخلاقي لا يكمن في مشيئة الإله، ولا في الجذور المجازية للتطوُّر، أو أيِّ جزء آخر من إطارِ عمل الكون. وبالمعنى المهمِّ فإنَّ الأخلاق - كما نفهمُها نحن - وهمٌ خدعتنا به جيناتُنا لإجبارنا على التعاون فيما بيننا. ليس لها أرضية خارجية تستندُ عليها. الأخلاقُ هي نتاج التطوُّر، لكن لا يمكن للتطوّر أن يبررها لأنها مثل خنجر ماكبث[٣]، فهو يخدم هدفًا مهمًّا دونَ وجوده حقًّا... ولكن على خلاف خنجر ماكبث فإنَّ الأخلاق وهمٌ مشترك عند جميع البشر»[٤].

التَّصريحُ الثّالث: تحرَّج الفيلسوف الوجودي الفرنسي جان بول سارتر من اختفاء الأخلاقِ الموضوعية بسبب إلحادِه، إذْ قال: «وبالعكس، فإنَّ الوجودي يعتقد أنه محرج نوعًا ما أنَّ الإله غيرُ موجود؛ لأنَّ كلَّ احتمال للعثور على قيم في سماء من الأفكار يختفي باختفاءِ الله. كتبَ دوستويفكسي: «إذا كان اللهُ غير موجود فإنَّ كلَّ شيء سيكون مباحًا»، وهذه نقطةُ انطلاق الوجودي»[٥].

---

(1) The God Delusion (232)

(٢) إدوارد ويلسون (Edward Wilson): بروفسور علم الأحياء في جامعة هارفارد بالولايات المتَّحدة. انظر: https: / /environment.harvard.edu /about /faculty /edward - o - wilson

(٣) في القصة المأساوية لشكسبير عندما أوشك ماكبث على قتل الملك دنكان، أصيب بهلوسة هيَّأت له وجودَ خنجر يعوم في الهواء.

(4) Michael Ruse and Edward O. Wilson, "The Evolution of Ethics," in Philosophy of Biology, p. 316.

(٥) مقال: Existentialism is a Humanism
https://genius.com/Jean-paul-sartre-existentialism-is-a-humanism-annotated

ففي الرؤيةِ الإلحادية يكون الإنسانُ كما عبَّر عنه الملحد المشهور ستيفن هوكينغ بقوله: «مجرَّد وسخٍ كيميائي، موجود على كوكب متوسِّط الحجم»[1]. وتكون النتيجة كما قال البروفسور كرايغ: «لو لم يكنْ هناك إلهٌ فسيزول أيُّ سببٍ لادِّعاء الصحة الموضوعية لأخلاقيَّة القطيع التي تطوّرت عندَ الإنسان العاقل على هذا الكوكب؛ أخرج الإله من المشهد، ولنْ يبقى سوى كائناتٍ تشبه القرودَ، تعيش على ذرَّة من الغبار الكوني تشغلها أوهام سموّ الأخلاق»[2].

المقدِّمة الثانية:

هذه المقدِّمة تقول: «إنَّ الواجبات والقيم الأخلاقية الموضوعية موجودة بالفعل». وقد سبقَ أنَّ هذه الأخلاق الموضوعية يتَّفق عليها العقلاء، فهي من المعاني الفطرية التي يجدُها الإنسان في نفسه[3]. ومِن هنا، يقع الملاحدةُ في مشكلة كبيرة، حيث إنهم يقدِّمون أنفسَهم بأنهم إنسانيون، ومِن أكثر ما يركّزون عليه في خطابِهم النقدي للدين هو أنَّ بعضَ التعليمات الدينية تتنافى معَ الأخلاق والقيم الإنسانية. فيلزم علماء الغرب الملاحدة في هذه المقدِّمة بإلزاماتٍ قويَّة، ويبيّنون تناقضهم في هذا الباب. ومن ذلك ما قالَه البروفسور وليام لاين كرايغ في معرض ردِّه على ريتشارد دوكينز: «على الرغم من قولِه بعدم وجود شرٍّ أو خير أو أيِّ شيء إلّا لامبالاة عديمة الجدوى فإنَّ دوكينز في الحقيقة شخصٌ أخلاقي متعنِّت. ويعلنُ دوكينز نفسه «مهانًا» لأنَّ جيف سكيلينغ المدير التنفيذي لـ إنرون يعتبر كتابَ دوكينز «الجين الأناني» كتابَه المفضَّل بسبب ما فيه من دارونيَّة اجتماعية ظاهرة[4]. يدْعو دوكينز الحنوَّ والكرم «عواطف نبيلة»[5]. هو يُعلن أن الخطيئةَ الموروثة قبيحةٌ من الناحية

---

(1) (1995) From the TV show Reality on the Rocks: Beyond Our Ken

(٢) الإلحاد بين قصورين (٢٤).

(٣) انظر: شموع النهار (٥٧).

(٤) انظر: The God Delusion (215)

(٥) انظر: المصدر السابق (٢٢١).

الأخلاقية[1]. ويدينُ بشدَّة بعضَ الأفعال مثل سوء معاملةِ المثليّين ومضايقتِهم، والتَّلقين الديني للأطفال، وممارسة شعب الإنكا لتقديم القرابين البَشرية، وتبجيل الناس للتنوُّع الثقافي على حسابِ اهتمامات أطفال أميش. حتَّى أنَّه علاوة على ذلك عرضَ وصاياه العشْر المعدَّلة لإرشاد السلوك الأخلاقي. لقد كان طوالَ الوقت شديدَ التغافل عنِ التناقض مع ذاتيته الوهمية[2].

أثناءَ إلقاء دوكينز نظرةً عامَّة عن حجج وجود الله، استعرض نوعًا من الحجج الأخلاقية سمَّاها «الحجَّة من درجة الكمال»[3]، لكنها تحمل قليلاً من الشبه بالحجة المقدَّمة أعلاه. نحنُ لا نجادل في درجاتِ الخير وصولًا إلى الخير الأعظم، إنما نجادل انطلاقًا من الحقيقةِ الموضوعية للقيم والواجبات الأخلاقية وصولًا إلى أساساتها في الواقع. من الصَّعب التصديقُ بأنَّ جميعَ الإثباتات والاستنكارات الأخلاقية الساخنة لدوكينز ليست معدَّة فعلًا لأنْ تكون أكثرَ من رأيه الشخصي، فهو كمَن يهمس جانبًا: «لا أظنُّ بأنَّ سوء معاملة الأطفال والرهاب من المثلية والتعصب الديني خاطئ حقًّا! افعلْ ما تريد، ليس هنالك تغايرٌ أخلاقي!» فالتأكيدُ على الواجبات والقيم الموضوعية لا يتوافقُ مع إلحاده، وحسبَ المذهب الطبيعي فنحن مجرّد حيوانات، قرود متقدمة نسبيًّا، والحيوانات ليست مسئولة أخلاقيًّا. وبإثباتِ كلا الافتراضين للحجة الأخلاقية يكون دوكينز بذلك قد علق ضمنَ اللامنطقية ملتزمًا بخلاصة الحجة؛ أي أنَّ الله موجود[4]».

الردُّ على محاولةِ الملاحدة لإيجاد أساس للقيم والأخلاق الموضوعية:

حيث إنَّ الملاحدة الجدد لا يكتفونَ بالكفر والإلحاد لأنفسهم، بل يسعون جاهدينَ إلى دعوة غيرهم إلى هذا الضَّلال والانحراف، وهُم يعرفون أنَّ هذه النقطة من نقاطِ الضعف في خطابهم، ولذلك فإنَّهم يحاولون تأسيسَ أسس للأخلاق

---

(١) انظر: المصدر السابق (٢٥١).

(٢) انظر: المصدر السابق (٢٣، ٢٦٤، ٣١٣ - ٣١٧، ٣٢٦، ٣٢٨، ٣٣٠).

(٣) انظر: المصدر السابق (٧٨ - ٧٩).

(4) Richard Dawkins on Arguments for God, in: God is Great, God is Good (18-19)

الموضوعية لكيْلا يتحرجوا أمامَ أتباعهم بهذه النقطة. وكان سام هاريس هو مَن تولّى كبرَ هذا الأمر مِن الملاحدة. فقد ألَّف كتابه: «المشهد الأخلاقي: كيف يحدّد العلمُ القيم الأخلاقية» (The Moral Landscape: How Science Can Determine Human Values)، وردَّ في هذا الكتاب على الملاحدة القائلين بالنسبية الأخلاقية، ودعا إلى إيجاد أخلاق وقيم موضوعيةٍ محدَّدة غيرِ خاضعة لآراء الناس. وذلك أنَّ الخير هو ما يؤدّي إلى رخاء الكائنات الواعية، ويمكنُ للعلم التجريبي تحديدُ ما يؤدِّي إلى هذا الرخاء[1].

وقد وقعتْ مناظرة مهمَّة بين سام هاريس والبروفسور وليام لاين كرياغ عن هذا الموضوع بعنوان: «هل أساسُ القيم طبيعي أو فوق الطبيعة؟» (Is Foundations for Moral Natural or Supernatural). وقد ردَّ البروفسور كرايغ على سام هاريس بردود قويّة أنه لا يمكنُ بتاتًا للإلحاد أن يوفِّر أساسًا متينًا للأخلاق والقيم الموضوعية. ويمكن تلخيصُ ردودِه في وجهين:

الوجهُ الأوَّل: أنَّ سام هاريس لم يستطع خلال كتابه: المشهد الأخلاقي أن يضعَ تعريفًا صحيحًا للخير والشرِّ بناءً على الرؤية الإلحادية، وإنما أتى بمصطلحات خارجة عنْ علم الأخلاق؛ قال البروفسور كرايغ: «كيف يطرح سام هاري حلًّا لمشكلة القيم؟ لقد طرحَ ببساطة حيلةً أعاد بها تعريفَ ما يقصده من كلمة «الخير» و«الشرّ» وذلك بمصطلحاتٍ ليست هي مِن مصطلحات علم الأخلاق في شيء، فقال: «علينا أن نعرِّف الخيرَ بما يؤدِّي إلى رخاء الكائنات الواعية»، ويتابع قائلًا: «لذلك فإن قضايا القيم... هي بالحقيقةِ قضايا عن رخاءِ الكائنات الواعية»، وبالتالي يستنتج: «لا يوجد أيُّ معنى...؛ لأنْ تسأل إنْ كانت زيادة الرخاء أمرًا خيِّرًا». لم لا؟ فهو يعيد تعريفَ كلمة «خير» لتصبح «رخاء الكائنات الواعية»، ولذلك أن تسأل: «لماذا تعتبر زيادة رخاء الكائنات أمرًا خيِّرًا؟» يعادل وفقَ تعريفه الجديد سؤال: «لماذا تعتبر زيادة رخاء الكائنات زيادة في رخاء الكائنات؟» إنه مجرَّد حشْو، إنه مجرَّد الحديث في دوائر

---

(١) انظر: The Moral Landscape (24 - 25)

مفرغة! وهكذا «**حلَّ**» الدكتور هاريس مشكلةَ القيم بإعادة تعريف المصطلحات فقط، وهذا مجرَّد تلاعب بالألفاظ... وهكذا فشلَ الدكتور هاريس في حلِّ مسألة القيم، إذ لم يقدِّم أيَّ تبرير أو شرح على أرضية إلحادية لسؤال: لماذا ستوجد القيم الأخلاقية وجودًا موضوعيًّا؟ فما سمَّاه «**حلًّا**» لم يكن سوى حيلةٍ للتلاعب بدلالات الألفاظ (Semantical Trick) بإعادة تعريف اعتباطية وذاتية التركيب (Idiosyncratic) لمصطلحات الخير والشرِّ بمفردات غير مفردات علم الأخلاق»[١].

الوجهُ الثاني: أنَّ سام هاريس يحاول أن يساوي بين السعادة والخير، وبين البؤس والشرِّ رغمَ أن هذه الألفاظ غيرُ متساوية، فقد يشعر الإنسان بالسعادة وهو شرير، ويشعرُ الإنسان بالبؤس وهو خيِّر. وقد نبَّه البروفسور كرايغ على هذا الأمر بقوله: «ومقارنة هاريس بينَ الحياة الحسنة والحياة السيئة ليست مقارنة أخلاقية بين الحياة الخيِّرة أخلاقيًّا والحياة الآثمة أخلاقيًّا، بل هي مقارنة بين الحياة السعيدة والحياة البائسة، ليس هناك سببٌ للمساواة بين «السرور والبؤس» و«الخير والشرّ»، وخصوصًا ضمن النظرة الإلحادية. وهكذا فلا يوجد مطلقًا أيُّ سبب في الرؤية الإلحادية يدفع للاعتقاد بأنَّ ازدهار الكائنات الواعية هو خيرٌ موضوعي.

لكنْ على الدكتور هاريس أن يدافعَ عن ادِّعاءٍ أكثر غلوًّا من ذلك: حيث ادَّعى تطابقَ سمة أن تكون خيرًا معَ سمة ازدهار الكائن. ولم يقدِّم أيَّ دفاع عن هذا التعريف المفرد في المغالاة. فالواقع أنَّ لدينا حجَّة قاضية ضدَّ ذلك التطابق... ففي الصفحة قبل الأخيرة من كتاب الدكتور هاريس نجده يقدِّم اعترافًا معبِّرًا، بأنه إن كان بإمكان مرتكبي الاغتصاب والكذب والسرقة أن يشعروا بالسعادة تمامًا كالناس الخيّرين، عندها لن يبقى أمامَنا «مشهد أخلاقي» كما سمَّى كتابه. لكن سنكون أمام متَّصل[٢] من الرخاء يمكن أنْ يبلغ قممَه الأشخاص الخيِّرون الجيّدون والسيّئون الأشرار على حدٍّ سواء»[٣].

---

(١) الإلحاد بين قصورين (٢٥ - ٢٦).

(٢) أضاف المترجم في تعريف كلمة «متّصل»: «سلسلة من الأشياء المرتّبة، كلّ واحدة تشبه تمامًا تقريبًا التي بجوارها، لكن الأولى والأخيرة مختلفتان تمامًا».

(٣) الإلحاد بين قصورين (٥٢ - ٥٣).

وقد اعترفَ سام هاريس في أثناء المناظرة بأن يتفهَّم القلق الذي أصاب الناس في موضوع الأخلاق الإلحادية؛ فقال: «وأنا حقًّا أشاطر الناسَ هذا الخوف. وقد أصبحت أعتقد أنَّ هذا القلق الموجود لدى كثير من الناس المتديّنين بخصوص تدهور الأخلاق العلمانية، ليس عديم الأساس تمامًا»[١].

ولذلك، فإنَّ هذا الأساس الذي قدَّمه سام هاريس ليس أساسًا متينًا في الحقيقة، وإنَّما هو مجرَّد تلاعب بالألفاظ والخلطِ بين السعادة والخير، وبين الشَّر والبؤس. فالنزعة الفطرية في الملاحدة - ومنهم ريتشارد دوكينز وسام هاريس - تدفعُهم إلى القول بوجود الأخلاق الموضوعية، ولكنَّ هذه الأخلاق تتنافى مع إلحادهم، فلا يمكنهم بناءً على رؤيتِهم الإلحادية أن يؤسِّسوا لها أساسًا صحيحًا. ومن هنا تتكمّن قوّة هذه الحجّة في إلزام الخصم.

النتيجة:

المقدِّمتان في الحجَّة الأخلاقية واضحتان وبيِّنتان، ومَن سلَّم لهما يلزمه - إن كان منصفًا - التسليمُ بالنتيجة، وهي: «إذًا، فاللهُ موجود». فالإلهُ هو الأساس المنطقي الوحيدُ للأخلاق الموضوعية، ولا يمكن للإلحاد تقديمُ أيِّ أساس للشعور الفطري بهذه الأخلاق؛ قال البروفسور إيان ماركهم[٢]: «يفسِّر الإله الحتمية الأخلاقية الغامضة التي تفرض نفسَها في حياتنا؛ فالإلهُ يفسِّر الطبيعة العامة للادِّعاء الأخلاقي. وبما أن الإله خارج العالم، فإنَّ الإله الخالق يمكن أن يكون كلا الأمرين: أن يكون خارج، وأن يضع الأوامر العامة»[٣].

---

(١) المصدر السابق (٣٢).

(٢) إيان ماركهم (Ian Markham): بروفسور اللاهوت والأخلاق البريطاني، ولديه ردود على الإلحاد الجديد. انظر:

https://vts.edu.faculty/the-very-rev-ian-s-markham

(3) Against Atheism: Why Dawkins, Hitchens, and Harris are Fundamentally Wrong (34), by: I.S. Markham (Wiley-Blackwell: 2010)

وفي هذا الكلام نجد أنَّ الإله لا يفسِّر وجودَ الأخلاق الموضوعية فقط، بل لا يمكن أنَّه يجب الالتزام بهذه الأخلاق إلَّا بوجوده. فلا يمكنُ للملحد يوفِّر أساسًا لوجوب هذه الأخلاق أصلًا، ولا يمكنه تفسيرُ وجوب الالتزام بها أيضًا؛ قال البروفسور كرايغ مفسّرًا هذه النقطة: «تنشأ الواجباتُ والممنوعات استجابةً لأوامر سلطة قادرة. فمثلًا، إن أَمَرَك رجلُ شرطة أن تركنَ سيَّارتك إلى جانب الطريق، فبسبب سلطتِه وصفته، فإنّ عليك إلزامًا تشريعيًّا لركْن سيَّارتك. لكن إن أتى أحدُ الغرباء، وقال لك: أن تركن سيّارتك جانبَ الطريق، فلن يكون عليك أيُّ إلزام تشريعي لفعل ذلك. الآن، ما هي السلطة الموجودةُ التي تطلق الأوامرَ والنواهي بغياب الربِّ؟ لا يوجد أيُّ سلطة من هذا النوع في الإلحاد، وبالتالي ليس هناك أيُّ أوامر أخلاقية يجب علينا طاعتُها. وبتغييب الربّ لن يوجَد أيُّ نوع من الواجبات أو المحرَّمات الأخلاقية التي تميِّز حياتنا. وتحديدًا، لسنا مُلزمين أخلاقيًّا بتعزيز ازدهار الكائنات الواعية»[1].

تقييمُ الحجَّة:

الحجَّة الأخلاقية حجَّةٌ عقلية قويَّة على وجود الله من ثلاثة أوجه:

الوجهُ الأوَّل: أنَّ أكثر الناس يقبلون المقدّمتين.

الوجهُ الثّاني: أنَّ هذه الحجَّة قريبةٌ من فطرة الإنسان لقبول أكثر الناس أنَّ الأخلاق الموضوعية موجودة.

الوجهُ الثّالث: أنَّها تبيِّن عوارَ الفكر الإلحادي، وتبيِّن ضعفه في تأسيس أساس متين للأخلاق والقيم الموضوعية.

ولكنَّ الحجَّةَ تكون ضعيفة مِن وجه آخر، وهي أنه يمكن للملحد أن يدحَض هذه الحجَّة بعدم قبول الأخلاق الموضوعية، وأن يقول إنَّها مجرَّد وهم - كما سبق نقله عن بعضهم -. وبذلك تسقط الحجَّة رأسًا على عقب. ولكن كلُّ ما كان الإنسان قريبًا من فطرتِه وبعيدًا عن السفسطة؛ فإنَّه يجب عليه قبول الحجة، وألّا يغالط بمثل هذه المغالطات.

---

(١) الإلحاد بين قصورين (٥٤ – ٥٥).

المبحثُ الثّامن

حجّةُ الوعي

حجَّةُ الوعي[1] مِن الحججِ العقلية العلمية الدالَّة على وجود الخالق. وهذه الحجّة مبنيَّة على أنه لا يمكن تفسيرُ وجود الوعي في الإنسان عن طريق المذهب المادي، لأن الوعيَ غير مادي. ولذلك، يجبُ أن يوجد خالقٌ خلقَ هذا الوعي. فحجّة الوعي تشبه الحجَّة الغائية نوعًا ما، حيث إنَّها استدلالٌ بخلق الله على وجوده. ولكنَّ طبيعة المستدلّ به تختلفُ في هذه الحجَّة عن الحجَّة الغائية؛ ففي الحجَّة الغائية يستدلّ بالإتقان والإحكام في المخلوقات المشاهدة، وأمّا في حجَّة الوعي، فيستدلُّ بالوعي الذي هو غير مادي، وبالتالي لا يمكن مشاهدته.

وحجَّة الوعي من الحجج الحديثة نسبيًّا على وجود الخالق؛ فلا يوجد لهذه الحجّة ذكرٌ في المؤلَّفات اللاهوتية القديمة، وقد ذكر البروفسور ريتشارد سوينبورن أن أوّل من تعرَّض لهذه الحجَّة عرضًا هوَ الفيلسوف البريطاني جون لوك، ثمّ أفاض العلماء المعاصرون الكلامَ عنها في هذا الزمان[2]. وذكر البروفسور جي بي مورلاند أن سببَ استدلال العلماء بهذه الحجَّة في هذا الزمن المتأخِّر يرجع إلى أمرين:

الأمرُ الأوّل: كثرةُ المؤلَّفات في الفلسفة اللاهوتية في الآونة الأخيرة، وأنَّ علماء الغرب أعادوا النظرَ في طريقة إيراد الحجج على وجود الله.

---

(١) الوعي (Consciousness): الحالة عندمت يكون مدركًا ومستجيبًا لمحيطه. انظر:
https://en.oxforddictionaries.com/definition/consciousness,

(٢) انظر: The Existence of God (192 - 193)

الأمرُ الثّاني: زيادةُ الاهتمام بفلسفة الوعي، وأنَّ كثيرًا من الفلاسفة الماديين أدركوا عجزَ مذهبهم عن تفسير هذه الظاهرة[1].

ويزادُ على ذلك **أمرٌ ثالث**، وهو أنَّ علماء الأعصاب - رغم تقدُّم علمهم في هذا الزَّمان - أدركوا أنَّه مهْما درسوا دماغَ الإنسان، فإنهم غيرُ قادرين على تفسير ظاهرة الوعي - كما سيأتي بيانُه في هذا المبحث -.

وقد أوردَ علماءُ الغرب حجَّة الوعي بطرقٍ مختلفة(٢)، ولكنّ أهمّها وأبرزها طريقتان:

الطريقةُ الأولى: الاستدلالُ المنطقي بظاهرة الوعي على فساد المذهب المادي.

الطريقةُ الثانية: الاستدلالُ بأنَّ وجود الخالق أحسن تفسير لوجود الوعي.

وهاتان الطريقتان مُتكاملتان، حيث أنَّ الأولى تهدم أساسًا من أسس الإلحاد - وهو المذهب المادي -، والثانية تثبتُ أنَّ الخالق أحسنُ تفسير لوجود الوعي بطريقة عقلية علمية. وبيانُ ذلك كما يلي:

الطَّريقةُ الأولى: الاستدلالُ المنطقي بظاهرةِ الوعي على فساد المذهب المادي:

الطريقةُ الأولى تهدفُ إلى بيان عجزِ المذهب المادي في تفسير الوعي. وأغلبُ الملاحدة اليوم يتبنَّون المذهبَ المادي، يروْنه أصلًا من أصولهم. وبسقوط هذا المذهب يضعفُ الإلحاد كثيرًا أمام التفسيرات الدينية لحقائق الوجود.

وقدْ أورد البروفسور ديفيد شالمرز[3] حجَّة مكوَّنة من مقدِّمتين ونتيجة في نقد تفسيرِ المذهب المادي لظاهرة الوعي:

المقدِّمةُ الأولى: هناك حقائقُ مُتعلقة بالوعي لا يمكن الاستدلال عليها عن طريق الحقائق الفيزيائية.

---

(١) انظر: Consciousness and the Existence of God (x)

(٢) انظر: المصدر السابق (٣٢).

(٣) ديفيد شالمرز (David Chalmers): بروفسور الفلسفة وعلم الأعصاب الأسترالي، وهو متخصّص في فلسفة الوعي. انظر: http: / /consc.net/

المقدِّمة الثانية: إذا كان هناك حقائقُ عن الوعي لا يمكن الاستدلال عليها عن طريقِ الحقائق الفيزيائية، فإذن يكون المذهب المادي خطأً.

النتيجة: إذًا، المذهبُ المادي خطأ[١].

المقدِّمة الثانية واضحةٌ حيث إنَّ المذهب المادي يحصر الوجود في الحقائق الفيزيائية - كما سبق بيانُه -، فإذا تبيَّن أنه توجد حقائقُ موجودة ليست فيزيائية فيعني ذلك أنَّ المذهبَ المادي غير صحيح. فالمقدِّمة الثانية واضحة وبيِّنة بتعريف المذهب المادي نفسه.

وأمّا المقدَّمةُ الأولى في هذه الحجَّة، فتحتاج إلى شيء من الشرح والتفصيل. وينبغي أوَّلًا بيانُ أنَّ هناك فرقًا بين الدماغ والوعي؛ فـ«خذوا القياسَ التالي في الاعتبار: الدماغ هو السيارة، والوعي هو السائق. لن تتحرَّك السيارة بدون السائق، والسائق لن يستطيع تشغيلَ السيارة - أو يستخدمها بشكلٍ صحيح - إذا كانت تالفة أو معطّلة. ومع ذلك، فكلاهما مختلفٌ عن الآخر ومستقلٌّ عنه بطريقة ما»[٢].

فالدماغُ مكوَّن من موادّ فيزيائية، ولكنَّ الوعي نفسه غير مادي. ولهذا يمكن للعلم التَّجريبي أن يفسِّر **ماذا** يحصل في داخلِ الدماغ من التفاعلات الكهروبيولوجية، ومتى يحصلُ ذلك، ولكن لا يمكن تفسيرُ **كيف** تنتج هذه المادة شيئًا غير مادي كالوعي. فـ«حتى ولو كنت تعرف كلَّ شيء عن دماغي المادي، فلن تكون قادرًا على معرفة كيف يكون حالُ معايشتي لتجربة معيَّنة، سواء كانت تلك التجربة شربَ عصير برتقال، أو مشاهدةَ منظر غروب جميل، أو الوقوع في الحبّ. السببُ الرئيس خلف هذا الشيء هو أنَّ علم الأعصاب هو علمٌ يختصُّ - بالدرجة الأولى - بالعلاقات الترابطية. يقوم علماءُ الأعصاب بملاحظةِ نشاط الدماغ، ويربطون ذلك النشاط بما يخبرهم به المشاركون من حالةِ وعي يعيشونها. ولكن لا يمكن لهذه الارتباطات أن

---

(1) The Character of Consciousness (109), by: David Chalmers, (Oxford University Press, 2010)

(٢) الحقيقة الإلهية (١٨٤).

تخبرنا أبدًا عن كيف يكون الحالُ لهؤلاء المشاركين في حالةٍ أو أخرى من حالات الوعي؛ فكلّ ما تستطيع إخبارنا به هو متى تحدث فقط»[١].

وهذه المشكلة تواجه علماءَ الأعصاب الماديون بقوّة، حتَّى سمّوها: «مشكلة الوعي الصعبة» (The Hard Problem of Consciousness)؛ قال الدكتور دانيال بور [٢] عنها: «هناك الكثيرُ من المشاكل الصعبة في العالم، ولكن هناك مشكلة واحدة فقط تستحقّ أن تسمِّي نفسها بـ«المشكلة الصعبة». تلك المشكلة هي مشكلة الوعي الصعبة: كيف لـ١٣٠٠ جرامًا من الخلايا العصبية أنْ يستحضر ذلك الخليط من الأحاسيس والأفكار والذكريات والمشاعر التي تشغلنا في كلِّ لحظة من لحظات يقظتنا... المشكلة الصعبة لا تزال بدون حلّ»[٣].

بل صرَّح البروفسور كريستوف كوخ[٤] أنَّ مشكلة الوعي الصعبة قدْ حطَّمت المنهجَ العلمي المبنيِّ على المذهب الطبيعي إذ قال: «كيف يحوّل الدماغُ النشاط الكهروبيولوجي إلى حالاتٍ ذاتية، كيف تتحوَّل الفوتونات المنعكسة من الماء بشكل سحريٍّ إلى بحيرة جبليَّة محسوسة طيفية اللون، فهذا لغز. طبيعة العلاقة بين النظام العصبي والوعي تبقى محيِّرة وموضوع مناظرات ساخنة لا تنتهي... تفسير كيف يمكن لجزءٍ من المادة المنظِّمة بشكل عالٍ أن يحتوي على منظور داخلي قد حطَّم المنهج العلمي، والذي أثبت في مناطق أخرى كثيرة أنه مثمر جدًّا»[٥].

---

(١) المصدر السابق (١٨٢).

(٢) دانيال بور (Daniel Bor) عالم الأعصاب البريطاني. حامل شهادة الدكتوراه علم الأعصاب، وأستاذ في جامعة كامبردج. انظر:

https://www.neuroscience.cam.ac.uk/directory/profile.php?DanielBor

(3) New Scientist: The Collection. The Big Questions. Vol I, Issue I, p. 51.

(٤) كريستوف كوخ (Christof Koch): بروفسور علم الأعصاب في معهد كاليفورنيا للتقنية بالولايات المتَّحدة سابقًا. وقد ألّف عددًا من المؤلفات عن الوعي. انظر:

https://alleninstitute.org/what-we-do/brain-science/about/team/staff-profiles/christof-koch/

(5) Consciousness: Confession of a Romantic Reductionist (23-24), (MIT Press, 2012)

وقد ضربَ روي أبراهام فرغيز مثالًا - وقد تقدَّم ذكرُه - لبيان صعوبة هذه المشكلة إذْ قال: «فكِّر لدقيقة في طاولة رخامٍ موضوعة أمامك. هل تظنُّ أن هذه الطاولة ولو بعدَ مرور تريليونات السنين، بل إلى الأبد، ستصبح فجأة أو تدريجيًّا واعية بما يحيط بها وبهويتها؟ مِن البساطة أن يكون مِن غير المتصوَّر أن يحدث هذا. ونفس الأمر يسري على أيِّ نوع آخر من المواد. ما إنْ تفهم طبيعة المادة، والكتلة - طاقة حتَّى يتحقّق لك بالطبيعة الأساسية لهذه الأشياء أنَّها لن تصبح أبدًا واعيةً ولا قادرة على التفكير أو التعبير. لكنَّ الوضع الإلحادي في لحظةٍ ما من تاريخ الكون يقتضي أن يكون المستحيل وغير القابل للتصوُّر واقعًا. فتصبح المادة (بما فيها الطاقة هنا) التي لا يتميَّز بعضها عن بعضٍ في لحظة ما «حية»، ثمَّ واعية، ثمَّ ماهرة من حيث الفهم، ثمَّ معبِّرة عن ذاتها. لكن بالعودةِ إلى طاولتنا، نرى لَمَ الأمرُ مثيرٌ للضحك ببساطة. فليس لها أية خصائص الكائن الواعي، ولو استمرَّت إلى الأبد لن «تكتسب» مثل هذه الخصائص»[1].

فالمشكلة الصَّعبة لغزٌ للملاحدة الماديين، ومن أكبر التحديات لمذهبهم المادي، ومِن الأدلة الواضحة على فساده.

موقفُ الملاحدة الماديّين من مشكلة الوعي الصعبة:

قدْ حاول الملاحدةُ الماديون تجاوزَ هذه المشكلة بإستراتيجيات مختلفة؛ ذكر البروفسور ديفيد شامرز خمسةً منها، ولكنَّها كلَّها لا تجيب عن مشكلة الوعي الصعبة، وإنَّما يتهرَّبون من هذه المشكلة بالكلام عن شيء آخر. وهو دليلٌ واضح على فشل هذا المذهب تجاه هذه المشكلة[2].

ولعلَّ أشهرَ ملحدٍ حاول الهروبَ من هذه المشكلة الكبرى هو دانيال دينيت - أحد فرسان الإلحاد الجديد الأربعة -. ففلسفةُ الوعي هي تخصُّصه الفلسفي الدقيق، وقد ألَّف فيها مؤلَّفات. ومِن ضمن تلك المؤلَّفات، كتابه المشهور: «الوعي موضّحًا»

---

(1) Roy Varghese, There is a God, appendix I, 163

(٢) انظر: The Character of Consciousness (11 - 13)

(Consciousness Explained)، وقدَّم فيه رؤيته الفلسفية للوعي. وخلاصتها: أنه ليس للإنسان تجاربُ ذاتية حقيقية، وإنما هي أوهام يتوهَّمها. فالإنسان عند دينيت أشبه ما يكون بروبوت ذاتي كالزومبي[١] مع وهم التجربة الذاتية[٢].

وهذا مثالٌ واضح على هروب الملاحدة من إيجاد حلٍّ حقيقي لمشكلة الوعي الصعبة، حيث عرَّف الوعي بشيء آخر تمامًا، وفسَّر التجارب الذاتية بأنها أوهام، رغم أنَّ كلَّ عاقل يدرك أنها حقيقية. ولهذا انتقد علماءُ الغرب تلاعب دينيت انتقادًا لاذعًا وكان البروفسور أنتي ريفونسو[٣] من أشهرِ العلماء المنتقدين له في كتابه: «الوعي: علم الذات» (Consciousness: The Science of Subjectivity)، ومما قاله في هذا الكتاب: «تمَّ نقدُ نظرية دينيت بكثرةٍ لأنها تبدو وكأنها تعيدُ تعريف الوعي بطريقة تجعل المصطلح يعني شيئًا مختلفًا جدًّا عمَّا كنّا نريد أن نفسِّره في الأساس. كتاب دينيت المشهور (١٩٩١) المعنون بـ «الوعي موضحًّا»، ولكنَّ الكثير شعروا أنه كان ينبغي أن يكون عنوانه «الوعي مئوَّلًا» (Consciousness Explained Away). فما كان يريد أكثر الناس تفسيرًا له هو ظاهرة الوعي والكيفيات المحسوسة والذاتية، ولكن دينيت تجاهلها باعتبارها مجرّد أوهام»[٤].

ومِن آخر ما يتمسَّك به الملاحدة الماديون: قولهم إنَّه لا يوجد للعلم التجريبي حلٌّ لمشكلة الوعي الصَّعبة الآن، ولكنَّ الجواب سيأتي مع تطوّرات العلم في المستقبل. وهذا الادِّعاء خاطئ؛ لأنَّ ظاهرة الوعي خارجة عن نطاق العلم التجريبي المبني على المذهب المادي. العلمُ التجريبي المبني على هذا المذهب يتناول ما

---

(١) الزومبي: شخص يظهر أنه بدون حياة، وشعور وغير مستجيب إطلاقًا لمحيطه. والرابط:
https://en.oxforddictionaries.com/definition/zombie

(٢) انظر: الحقيقة الإلهية (١٩٦).

(٣) أنتي ريفونسو (Antti Revonsuo): بروفسور الفلسفة وعلم الأعصاب الفنلندي، ويعمل حاليًا في جامعة شوفدي في السويد، وقد جمع في دراساته للوعي بين الفلسفة وعلم الأعصاب وعلم النفس. انظر: https: / /www.his.se /en /about – us /staff /antti.revonsuo /

(4) Consciousness: The Science of Subjectivity (180-181)

يمكن ملاحظتُه فقط، والوعي لا يمكن ملاحظتُه مهما تطوَّر العلم. فيمكن للعلماء الماديين اكتشافُ مزيد عن نشاط الدماغ، ولكنَّ هذا هو حدُّهم الذي لا يمكن تجاوزه. فالمشكلةُ الأساسية تكمن في مذهبِهم الاختزالي الذي يحصر الموجودات في العالم المادي فقط. وأما الوعي فيصدر من روحِ الإنسان، والروح لا يمكن ملاحظتُها في المختبرات أبدًا. وهذا ما بيَّنه العلماء في الطريقة الثانية لحجّة الوعي.

الطريقةُ الثّانية: الاستدلالُ بأنَّ الخالق أحسن تفسير لوجود الوعي:

تقدَّم في الطريقة الأولى أنَّ المذهب المادي عاجز عن تفسير ظاهرة الوعي، وأنه يدلُّ على فساد المذهب. ولكنْ لا يعني ذلك ضرورة أنَّ الله موجود؛ فقد يعترف الملحد بأن المذهبَ المادي فاسد، ويحاول تفسيرَ الوعي بطريقةٍ خارجة عن نطاق العلم التجريبي المبني على المذهبِ المادي مع تمسُّكه بإلحاده. وهذا فعلًا ما ذهب إليه بعض الملاحدة المعاصرين. ومِن الأمثلة على ذلك ما ذهبَ إليه البروفسور توماس ناغل[(١)] من القول بالروحية الشاملة[(٢)]. وخلاصةُ نظريته: أن كلَّ جزءٍ من المادة يحتوي على وعي، فوعي الدماغ مجرَّد تراكم لهذه الأجزاء من الوعي[(٣)].

والبروفسور ناغل ينتقد المذهبَ المادي، بل صنَّف كتابًا في الردّ على الماديين بعنوان: «الوعي والكون: لماذا كان تصوُّر الماديين التطوّريين الجدد عن الطبيعة باطلًا على الأرجح (Mind and Cosmos: Why the Materialist Neo – Darwinian Conception of Nature is Almost Certainly False). ومع نقده لهذا المذهب فإنه يصنّف نفسه بأنه ملحد[(٤)].

---

(١) توماس ناغل (Thomas Nagel): فيلسوف أمريكي من أصل صربي يهودي. ويعمل كبروسفور في جامعة نيويورك في الولايات المتّحدة. https: / /as.nyu.edu /faculty /thomas – nagel.html

(٢) الروحية الشاملة (Panpsychism): الرأي القائل بأن جميع الأشياء ذات وعي أو لها خصائص شبيهة بالعقل. انظر: https: / /iep.utm.edu /panpsych /

(٣) وللردِّ على هذه النظرية ينظر: الحقيقة الإلهية (٢٠٧ – ٢٠٨).

(٤) انظر: The Last Word (130 - 131), by: Thomas Nagel (Oxford University Press, 1997).

فالطريقةُ الأولى تردُّ على أغلب الملاحدة المعاصرين الذين يبنون إلحادهم على المذهب المادي، ولكنَّها لا تثبت ضرورةَ وجود الله. ومع ذلك فإنَّ الطريقة الأولى تمهّد الطريقَ للطريقة الثانية، وتهدم حصنَ أغلب الملاحدة الحصين، وهو المذهب المادي. وتأتي الطريقةُ الثانية بعدَ ذلك وتبيِّن أنَّ وجود خالق متعالٍ على العالم المادي خلق الوعي في الإنسان هو أحسنُ تفسير لوجود هذا الوعي؛ قال البروفسور جي بي مورلاند: «الحقيقة أنَّه لا توجد للمذهبِ الطبيعي طريقة معقولة لتفسير ظهور الخصائص والأحداث العقلية الأصيلة المتعذّرة التبسيط في الكون... عندما تتمُّ مقارنتها بالمصادر التفسيرية الثرية الموجودة في علم اللاهوت»[1].

ومِن أشهر العلماء الذين تبنَّوا هذه الطريقة هو البروفسور ريتشارد سوينبورن في كتابه: الوجود الإلهي. وقد بنى طريقتَه على ثلاثة أمور:

الأمرُ الأوَّل: أنه لا يمكن تفسيرُ الوعي إلّا بالقول: إنَّ الإنسان مكوّن من الروح والجسد؛ فقال: «مهْما عرفنا عمّا يحصل في دماغي - قد نعرف ماذا حصل في كلِّ ذرَّة من ذرّاته - وفي كلِّ جزء فيزيائي منّي، فإنَّنا لا نعلم ضرورة ماذا حصل بي. وبالتالي، فإنَّه لا بدَّ أن أشتمل على أكثر من المادة التي تكوّن جسدي ودماغي. ولا بدَّ أن يوجد شيء ضروري غيرُ فيزيائي متعلِّق بالدماغ والجسد. وهذا الشيء هو ما أعطيه الاسم التقليدي: الروح»[2].

الأمرُ الثّاني: أنَّ العلم عاجزٌ عن تفسير علاقة الروح بالجسد، ولا يمكن تفسيرُ هذه العلاقة إلَّا بوجود إلهٍ قادر على الربط بينهما؛ فقال: «علاقة الوعي بالدماغ غريبٌ جدًّا إلى حدٍّ أنَّه لا يمكن للعلم التجريبي أن يفسّره. لا بمكن أن تكون هذه العلاقة نتيجة لنظرية علمية أكثر تأصيلًا كذلك، وإنَّه في الحقيقة يوجد أكثر الترابطات المختلفة لكي تشكِّل قوانين. ولكن، مرَّة أخرى، فإنه يمكن أن يوجد تفسير ذاتي: وهو أنَّ الإله قادرٌ على كلِّ شيء، فهو قادرٌ على ربط الأرواح

(1) Consciousness and the Existence of God (192)

(2) The Existence of God (198)

بالأجساد. وهو يستطيع أنْ يجعل هذه الأحداث المعيّنة للدماغ والوعي بناءً على العلاقات الترابطية»[1].

الأمرُ الثّالث: أنَّ الإله قادر على ربط الأرواح بالأجساد، بل هناك أسباب وحِكم لكوْنه يربط بينهما، ومِن أبرزها: خلق الإنسان بقدرة على الاختيار؛ فقال: «للإله سببٌ جيِّد في إيجاد الأرواح وربْطها بالأجساد. ومن هذه الأسباب... إيجاد كائنات بشريَّة حرَّة تكون بحاجةٍ إلى أبدان تشعر بأحاسيس ممتعة، وتكون لها معتقدات صحيحة عن العالم، وهي تكوِّن أغراضها الذاتية في ضوء هذه المعتقدات، التي تستطيع أن تصنع التغيّرات في العالم»[2].

هذا الكلامُ الأخير من حيث التأصيل جيِّد، فلا شكَّ أنه توجد للخالق حِكم وأسبابٌ في خلق الأرواح والأبدان والربط بينهما، إلّا أنَّ تعبيراته فيها شيء من الخلل. فالمسلمون يعتقدون أنَّ الله خلق البشر - بروحه وجسده - لهدفٍ سام عظيم، وهو عبادتُه سبحانه وتعالى؛ فقال عزّ وجلّ: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦]، كما أن وصفَه البشر بكائنات حرَّة ليس صحيحًا بهذا الإطلاق؛ فمشيئة الإنسان تحت مشيئة الله وليست حرَّة. وسيأتي تفصيلُ ذلك في مبحث: ردودهم على شبهة: سلب الإرادة في الباب الثالث - إن شاء الله -.

حجَّةُ الوعي من المنظور الإسلامي:

حجَّةُ الوعي حجَّة جيِّدة على وجود الله، وإنْ كانت الحجَّة الغائية أوضح منها. ومِن أكثر مَن وجدته متخصّصًا في إبراز هذا الدليل من المسلمين هو صاحب كتاب: «الحقيقة الإلهية» (The Divine Reality)، حيث إنه تكلّم عنها بكلام مطوّل. ولكنّه أضافَ نقطتين مهمّتين لم يسبق التنبيهُ عليهما، وهما:

النُّقطةُ الأولى: بيَّن المؤلف أنَّ هذا التفسير الألوهي لظاهرة الوعي لا يقلّل من التَّفسيرات البيولوجية من علم الأعصاب، ولكنَّ هذه التفسيرات البيولوجية ليست كاملة بحدِّ ذاتها؛ فقال: «للتفسير الألوهي لنشأة الوعي قوّة تفسيرية أكبر من

---

(١) المصدر السابق (٢٠٩)

(٢) المصدر السابق.

التفسيرات المنافسة. ولكن يجب أن أؤكِّد هنا على أنّي لا أنكر فائدة التفسيرات البيولوجية في كشفِ الارتباطات العصبية، ويمكن عملُ البحوث في علم الأعصاب في سياقٍ ألوهي بنفس المستوى من القوَّة والإنتاج. ما أحاول المناداة به هو إضافة الألوهية كَأساسٍ فلسفي حتَّى نستطيع بشكلٍ كامل تفسيرَ ما لم تستطع تفسيره التفسيراتُ اللاألوهية: مشكلة الوعي الصعبة. وبهذا المعنى، فإنَّ منظوري من النوع الثنائية التي يمكن تسميتُها بـ الثنائية الألوهية. في إطار الثنائية الألوهية، لا يقلِّل من قيمة علم الأعصاب ويمكن لكلِّ المشاريع البحثية فيه أن تقدِّم رؤيتها واستنتاجاتها المدهشة حول هذا الموضوع، ولكنَّ الثنائية الألوهية هي أطروحة ماورائية تقدِّم تفسيرًا متكاملًا»[1].

النُّقطةُ الثّانية: أنَّ هذه الحجَّة متوافقة مع ما جاء به الإسلام من أن الإنسان متكوِّن من الروح والجسد، ولا تتعارض هذه الحجّة بأننا نجهل كيفية الروح؛ فقال: «سيتساءل القرّاءُ المسلمون - ولهم الحقّ - عمّا إذا كانت هذه الحجَّة متوافقة مع الدين الإسلامي الصحيح. عادةً يتضمَّن الاعتراض الشائع حقيقة أن القرآن يصرّح بوضوح بأنَّ الروح هي مِن شأن أو أمر الله، وأنَّ البشر أعطوا قدرًا قليلًا جدًّا من هذا العلم حولها: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٨٥]. وللتوفيق بين هذا التعارضِ الديني الظاهري[2]، يجب أن يُفهم أنَّ الآية تتعلّق بجوهر وأصل الوعي أو الروح، وليس وجوده. تؤكِّد الآية على أنَّ عنصرًا غير مادي هو الذي يحيي الجسد؛ بعبارةٍ أخرى هو الروح أو الوعي. وهذا بالضَّبط هو ما قدَّمته الحجة المذكورة في هذا الفصل؛ وهو أنَّ وجود الوعي لا يمكن أن يفسّر إلّا بمنظور غير مادي»[3].

---

(١) الحقيقة الإلهية (٢١٢).

(٢) مع أنّه لا يسلّم بوجود هذا التعارض الظاهري.

(٣) الحقيقة الإلهية (٢١٣).

وهذه خلاصةٌ جيِّدة عن هذه الحجَّة، ويمكن للمسلمين الاستفادة منها في الاستدلال على وجودِ الله، ولا سيَّما مع المعجب بالعلم التجريبي وفق المذهب المادي، فإنَّ هذه الحجَّة تسقط المذهب المادي أوّلًا، ثمَّ تبيَّن أنَّ الله هو الخالق ثانيًا. ومع ذلك، فإنّي أرى أنه لا ينبغي ذكرُ هذه الحجة بمفردها، وإنما تذكر تبعًا للحجة الغائية لكون تلك الحجة أوضحَ وأقوى من حجة الوعي.

المبحثُ التّاسع
الحجَّةُ البراغماتية

قدْ سبق في مباحث هذا الفصل الحجَّج العقلية على وجود الله. ولكنَّ علماءَ الغرب لا يكتفون بإيرادِ الحجج العقلية في نقاشهم مع الملاحدة، وإنما يستخدمون - أحيانًا - بعضَ المرجِّحات ترجِّح كفَّة الإيمان على الإلحاد[1]. وأشهر هذه المرجّحات: ما يسمَّى برهان باسكال. ولكي نفهمَ حقيقة هذا المرجّح ينبغي الوقوفُ على شيء من سيرةٍ وفلسفة مبتكر هذا الرهان:

بليزي باسكال (Blaise Pascal):

وُلِد باسكال في فرنسا عام ١٦٢٣م، وتربّى تربيةً غير متديّنة، والتجأ نحو تعلّم العلوم الدنيوية، وصارَ من علماء الرياضيات الفيزياء الكبار في زمنه، وقدّم إسهامات كبيرةً في بيان نظرية الاحتمال، واختراع آلة الحاسب الميكانيكية. انشغل باسكال في أوَّل عُمره بهذه العلوم، ولم يستطع أن يتقبَّل العقائد اليسوعية الكاثوليكية السائدة في زمنه. ولكن في عام ١٦٤٦م، انكسر وركُ والده في حادث، وجاء الرهبان من فرقة الينسينية[2] الكاثوليكية لمعالجة والده، فتأثّر باسكال بهذه الطائفة تأثّرًا كبيرًا[3].

ومِن عقائد هذه الفرقة: النظرة الدونية لطبيعة الإنسان وقدراته الفكرية، وبالتالي رأوا أنَّه لا فائدة من الاشتغال بالفلسفة ولا سيَّما للوصول إلى العلم بالله.

---

(١) انظر: الإلحاد للمبتدئين (١٢٩).

(٢) الينسينية (Jensenism): فرقة كاثوليكية في القرنين السابع والثامن عشر. واشتهرت باهتمامها بالتوفيق بين العناية الإلهية وإرادة الإنسان. انظر:
https://www.britannica.com/topic/Jansenism

(٣) انظر: https: / /www.biography.com/people/blaise - pascal - 9434176

أَلَّف باسكال كتابه المشهور: «أفكار» (Pensées) للدفاع عن النصرانية، وذكر فيه أنَّه يمكن الإيمانُ ببعض المعتقدات بدون أيِّ دليل. وفي هذا الكتاب قدّم باسكال رهانَه[1]. توفِّي باسكل عام ١٦٦٢م، ولم يطبع كتابه إلّا بعدَ ثمان سنوات من وفاته، عام ١٦٧٠م[2].

رهان باسكال (Pascal's Wager):

هذا الرهانُ يمثِّل أمرين رئيسين من حياة باسكال:

الأول: علمُه العميق بالرياضيات، ولا سيَّما نظرية الاحتمال.

الثاني: تأثُّره بفرقة الينسينية.

وهذه خلاصةُ صياغة الرهان التي ذكرها:

١) الإلهُ موجود، أو الإله غيرُ موجود. العقل لا يستطيع أن يحسم بين الخيارين.

٢) تُلعب لعبة... وقد تظهر الطرّة أو النقش.

٣) لا بدَّ أن تراهن (وليس لك خيار).

٤) لنوازنَ بين الربح والخسران في كوْن الله موجودًا. إنْ ربحت فإنك ربحت كلَّ شيء، وإن خسرت فإنّك لم تخسر شيئًا.

٥) راهن إذًا، بدون شكٍّ أنه موجود. يمكنك ربحُ حياة لانهائية وسعادة أبدية. إمكانية الربح، بمقابل احتمالات محدودة من الخسران، ورهانُك محدود. فمسألتنا هذه في قوَّة لانهائية، حين يكون الرهان محدودًا في لعبة فيها مخاطر متساوية من الربح والخسران، والربح لانهائي.

٦) ولكنَّ بعضَ الناس لا يستطيع الإيمان. هؤلاء ينبغي لهم تعلّم عدم قدرتهم على الإيمان والسعي لإقناع أنفسهم[3].

---

(١) انظر: Västerlandets filosofi (363 - 365)

(٢) انظر: Pensées, Introduction (p. x), by: A.J. Krailsheimer, (Penguin 1995)

(٣) انظر: Pensées, part III, §233.

ثمَّ شرحَ رهانه بعد ذلك، ويمكن تلخيص شرحِه في النقاط الآتية:

النُّقطةُ الأولى: إنْ كان الله موجودًا فلا شكَّ أنه لا يمكن إدراكه، وذلك أنه ليس له أعضاء ولا حدود[1]؛ فلا يوجد تقارب بيننا. لا يمكننا أن نعرف ما هو، أو إن كان موجودًا.

النُّقطةُ الثّانية: الإله موجودٌ أو غير موجود. لا يمكن العقلُ أن يثبت أو ينفي هذه القضية، بل العقل متوقِّف في المسألة.

النُّقطةُ الثّالثة: لا توبِّخ الذي أخطأ في هذه المسألة؛ لأنَّك لا تعلم شيئًا عن هذه القضية. العقلُ متوقِّف في المسألة بين الخيارين، فليس هناك خيار إلّا المراهنة.

النُّقطةُ الرّابعة: الرهان ليس أمرًا خياريًّا في هذه المسألة، وإنما هو حتمي، فانظر إلى أحسنِ الخيارين. إنْ ربحت فإنك ربحتَ كلَّ شيء، وإن خسرت فإنك لم تخسر شيئًا. راهن إذًا، بلا شكّ أنه موجود.

النُّقطةُ الخامسة: هذا الرهانُ يتعلّق بربح حياةٍ سعادة لانهائية، فالأمر جادّ، ولا بدَّ للإنسان أن يتَّخذ القرار الصحيح في هذه المسألة[2].

فخلاصةُ هذه الحجَّة: أنَّ باسكال نفسه لم يجد أدلة مقنعة على وجود الله بناءً على تأثّره بفرقةِ الينسينية؛ فساقَ هذا الاستدلال العملي على وجود الله. ولكن لا يقال إنَّ باسكال كان لاأدريًّا، كما أشار إليه بعض الباحثين[3]، بل كان متديّنًا كاثوليكيًّا ومؤمنًا بوجود الله. وذكر البروفسور بيتر كريفت[4] أنه بينما رأى أكثر الفلاسفة أنَّ هذا

---

(١) الأعضاء والحدود من الألفاظ المجملة في حقّ الله، التي لا يجوز إثباتها ولا نفيها.

(٢) المصدر السابق.

(٣) انظر: الإلحاد للمبتدئين (١٢٩).

(٤) بيتر كريفت (Peter Kreeft): لاهوتي كاثوليكي وبروفسور الفلسفة في كلية بوستون بالولايات المتَّحدة. وقد ألّف ٩٥ كتابًا. انظر:
https://www.peterkreeft.com/about.htm

الدليل هو أضعفُ دليلٍ على وجود الله، فإنَّ باسكال نفسه رأى أنه أقوى دليل[١]. وقد انقسمَ الناس تجاهَ هذا الدليل بين مُستحسن وناقد. وبيانُ ذلك كما يلي:

استحسانُ رهان باسكال:

بينما لم يستحسنْ أكثرُ فلاسفة النصارى هذا الرهان، فقد بدأ الاهتمام به في هذا الزمان الذي سادتْ فيه الشكوك والإلحاد. وقد ألَّف بعض الفلاسفة النصارى مؤلّفات خاصَّة عن هذا الرهان. ومن الأمثلة على ذلك: البروفسور جيفري جوردان[٢] الذي جمعَ رسائل عن رهان باسكال في كتابه:» قمار عن الإله: رسائل عن رهان باسكال» (Gambling on God: Essays on Pascal's Wager)، وكتاب خاص بتأييد هذا الرهان بعنوان: «رهان باسكال: حجج عملية والإيمان بالله» (Pascal's Wager: Pragmatic Arguments and the Belief in God)[٣]. وكذلك البروفسور مايكل روتا[٤] في كتابه: «الأخذ برهان باسكال: الإيمان، الدليل والحياة الوفيرة» (Taking Pascal's Wager: Faith, Evidence and Abundant Life)[٥].

وهذه الكتبُ تروِّج لرهان باسكال بأنه رهانٌ صالح، ولكن ينبغي أن يستخدم في ظلِّ الأدلة على وجود الله الأخرى؛ فالبروفسور روتا يذكر الأدلة المؤيّدة للإيمان

---

(١) انظر: http: / /www.peterkreeft.com /topics /pascals – wager.htm

(٢) جيفري جوردان (Jeffrey Jordan): بروفسور الفلسفة في جامعة ديلاوير بالولايات المتّحدة، وقد اشتهر باهتمامه برهان باسكال. انظر:
https://scholar.google.com/citations?user=ZZ4OWlsAAAAJ&hl=en

(٣) انظر: https: / /www.philosophy.udel.edu /faculty – staff /faculty /Jeff

(٤) مايكل روتا (Michael Rota): بروفسور الفلسفة في جامعة ساينت توماس بالولايات المتَّحدة. وهو متخصّص في فلسفة الدين. انظر:
https://mikerota.wordpress.com/

(٥) انظر: https: / /mikerota.wordpress.com /

مثل: حجَّة التوافق الدقيق للكون، والحجج ضدَّ الإيمان مثل: معضلة الشرّ، ثمّ يستعمل الرهان لترجيح كفَّة الأدلة المؤيّدة للإيمان[1].

وهذا ما فعله صاحبُ كتاب: الإلحاد للمبتدئين[2]، فقد ذكر الأدلة على وجود الله، ثمَّ صنَّف رهانَ باسكال ضمن مرجّحات الإيمان، وليس من ضمن أدلته.

ومَن نظرَ في حقيقة الرهان الذي وضعه باسكال، فليس هذا قصده؛ إنما كان يرى أنَّه لا يوجد أدلةٌ عقلية على وجود الله، ولهذا لا بدَّ أن نستخدم هذا الدليل العملي. فطريقةُ هؤلاء مغايرة لطريقة واضع الرهان الأصلي.

وقد حاولَ اللاهوتي الكاثوليكي المعاصر جون باسكويني أن يربط بين رهان باسكال وما يعيشُه الملاحدة من التعاسة في هذه الحياة الدنيا بقوله: «عالم الرياضيات الشَّهير في القرن السابع عشر والعبقري المعترف به، بليزي باسكال، استطاع أن يقول: إنَّ الإيمان بالإله أكثرُ حكمةً من عدم الإيمان به. فمَن يؤمن بالإله يعيش حياة سعيدة، وعندما يموت يُكافأ بهديةٍ من النعيم الأبدي في الجنة. وإذا كانت نهاية المؤمن وهو على خطأ، فإنه لا يزال في حالةِ فوز، لعيشه - على الأقل - في هذه الرحلة الدنيوية حياةً سعيدة وذات معنى؛ لأنَّنا خلقنا من أجل الإله، فإنَّ واقع الإنسان الحقيقي الأساسي هو عبارة عنِ استجابته له. الإلهُ في صميم الوجود، فلا يمكن لرغبة الشخص العميقة أو حنينه أن يكون إلّا في سبيل الإله. ولهذا السبب، فإنَّ الذين ينكرون الإله ينكرون واقعَهم العميق جدًّا وينكرون طبيعتهم كبشر...

يجدُ الملحد من جهةٍ أخرى - دائمًا حسبَ باسكال - نفسه في مأزق شنيع. فيعيش حياةً مريعة في هذه الرحلة الدنيوية مطاردًا الأرواح أو آلهة الشهرة والقوة والمخدّرات وكلَّ أشكال الفسوق. لتصبحَ الحياة رحلة بطيئة ضعيفة سائرة نحو التحطّم والموت. وإذا لم يضعِ الملحد رغباتِه تحت السيطرة فإنه يصبح ببساطة متطفلًا على الأعراف الاجتماعية التي مقتَها بتهوُّر لكونها مقيّدة وكابتة لأهوائه.

---

(١) انظر: https: / /www.ivpress.com /taking - pascal - s - wager

(٢) انظر: الإلحاد للمبتدئين (١٢٩).

فهل من العجب أنَّ للملحدين النسبة العليا في معدَّل الانتحار؟ وهل من العجب أنَّ الملحدين هُم الأكثرُ بؤسًا، وقسوةً، وتعصُّبًا، وعنفًا، والأكثر تعرّضًا لإدمان المخدّرات والخمور؟)[1].

الذي ذكَرَه باسكويني ليس له علاقةٌ برهان باسكال أصلًا؛ لأنَّ باسكال بنى رهانه على الشكِّ في أدلة وجود الله، ثمَّ ساق رهانَه وذكرَ فيه النتائج المترتّبة على الإيمان والكفر في الآخرة فقط، ولم يذكرِ الفوائدَ الدنيوية من الإيمان. وأمّا ما ذكره باسكويني فإنَّه يتعلَّق بفوائد الإيمان في الدنيا فقط دون الآخرة.

ولهذا نجد أنَّ بعضَ مَن استحسن رهانَ باسكال، لم يستحسنه على طريقة باسكال، بل استخدمَه لأغراض أخرى.

الاعتراضُ على رهان باسكال:

لم يقبلْ جمهور الفلاسفة رهانَ باسكال، وصار موضعَ سخرية عند بعضهم. ومن الأمثلة على ذلك ما فعله الفيلسوف الفرنسي فولتير - الذي عاش قرنًا بعد باسكال - حين سمّاه بذيئًا وطفوليًّا[2]. وقد ردَّ الملاحدة واللادينويون على هذا الرهان بعددٍ من الرُّدود؛ هذه أربعة منها:

الردُّ الأوَّل: الإيمانُ بشيء لا يستلزم حقيقةَ وجوده: وهذا مِن الردود التي ذكرها الفيلسوف فولتير في ردِّه على باسكال، فذكر أنَّ المصلحة في إيماني بشيء معيّن ليست دليلًا على وجودِ هذا الشيء[3]. وهذا الردُّ قد أعاده ريتشارد دوكينز في كتابه:

---

(1) Atheist Personality Disorder (131 - 133)

(٢) انظر: "Remarques (Premiéres) sur les Pensées de Pascal"، وهو موجود باللغة الفرنسية في:

https://web.archive.org/web/20120418162422/http://www.voltaire-integral.com/Html/22/07_Pascal.html

(٣) المصدر السابق.

«وهم الإله»[1]. وهذا الردُّ في محلِّه؛ لأنَّ هذا الرهان في الحقيقة لا يثبت وجود الله، وإنما يحثُّ الإنسانَ على الإيمان، وأنَّ الإيمان هو أحوط من عدم الإيمان.

الردُّ الثّاني: مشكلةُ إيمان المرائي: هذا الرهانُ يذكر أنه لا أدلةَ على وجود الله ولا على عدمِ وجوده. وإنما يذكر فائدةَ الالتزام بالدين في الآخرة. ولكن كيف يلتزم الإنسانُ بدينٍ وهو غيرُ موقن من قلبه بصحَّته؟ هذا يؤدِّي إلى أن يرائي الإنسان بإيمانه. فكيف يعتقد أنَّ الإله العليم بكلِّ شيء لا يعلم من عبده أنه يتراءى بهذا الإيمان من أجل المنفعة؟ وهذا النقدُ ذكره ريتشارد دوكينز في كتابه: وهم الإله[2]. وهذا النقد أيضًا صحيحٌ لأنَّ المؤمن يبني إيمانَه على أدلة وبراهين واعتقاد جازم بأن الله موجود، وأنَّ الإسلام دين الحقِّ، وإلّا مَن تراءى بالإيمان من أجل الاحتياط، فهو شاكٌّ في إيمانه غير موقن.

الردُّ الثّالث: اختلافُ الديانات: كان واضعُ هذا الرهان بليزي باسكال نصرانيًّا، وليس نصرانيًّا فحسب؛ بل كان كاثوليكيًّا، وليس كاثوليكيًّا فقط؛ بل من فرقة معيّنة من فرق الكاثوليكية، وهي فرقة الينسينية. وكان ينشط في نقدِ فرقٍ أخرى من فرق الكاثوليكية مثل: الفرقة اليسوعية[3] في كتابه: «الرسائل الإقليمية» (Lettres provinciales)[4] وقد ردّ الفيلسوف فولتير على هذه النقطة، وذكر أنَّ هذا الرهان إنما يصدُق إذًا على مَن اتَّبع هذه الفرقة الضيِّقة[5]. وقد أضافَ الفيلسوف ديدرو نقطةً في ردِّه على رهان باسكال، وهي أنه يمكن الإمام المسلم أن يستخدمَ هذه الحجَّة نفسها[6]، بل الملحد جي. أل. ماكي سرد

---

(١) انظر: The God Delusion (130)

(٢) انظر: المصدر السابق.

(٣) اليسوعية (Jesuits): واسمها: جمعية يسوع، وهي رهبانية كاثوليكية من رجال الدين أسسها القديس إغناطيوس دي لويولا في القرن السادس عشر، وتشتهر بأعمالها التربوية والتبشيرية. انظر: https: / /www.britannica.com /topic /Jesuits

(٤) انظر: Västerlandets filosofi (364)

(٥) انظر: Remarques (Premiéres) sur les Pensées de Pascal

(٦) انظر: Pensées philosophiques, LIX, (1 / 167), by: Denis Diderot.

عددًا مِن الديانات والفرق التي تدَّعي كلها أنَّها على الحق، وغيرها على الباطل، ويمكن لكلِّ ديانة وكلِّ فرقة أن تقول إنَّ الإيمان بدينها أحوط من الإيمان بدين غيره[1].

وهذا الردُّ في محلِّه إذا استخدموه في نقد رهان باسكال؛ لأنه يعتقد أنه يمكن الإيمان بدون أدلةٍ وبراهين، وإنما يستخدم هذا الرهان الفاسد. وفي الوقت نفسه، فلا يمكن أن يستخدمَ هذا النقد ضدَّ الديانات عامة كما يفعل بعض الملاحدة[2] وخصوصًا ضدَّ الإسلام؛ لأنَّ اعتقاد المسلم بصحّة الإسلام ليس مبنيًّا على المراهنة، وإنما هو مبني على حججٍ وبراهين وأدلة واضحة وبيِّنة. فالحقُّ واضح، وإن اختلف الناس فيه. ولكن استخدامَ الملاحدة هذه الحجَّة في نقد رهان باسكال صحيح.

الردُّ الرّابع: رهانُ الملحد: حاول بعضُ الملاحدة أن يقيموا رهانًا إلحاديًّا باسم: «رهان الملحد» (Atheist's wager)، بتفضيل الإلحاد على الإيمان بالمراهنة. وهذا الرهانُ سيتمُّ الردُّ عليه بالتفصيل في الباب الثالث - إن شاء الله -.

تقييمُ رهان باسكال:

يتبيَّن بالمقارنة بين مَن استحسن رهانَ باسكال ومَن انتقده أنَّ هذا الرهان ضعيف جدًّا؛ بل استخدامه يورث الشكَّ في الله. والإيمان المقرون بالشكّ ليس إيمانًا نافعًا في الآخرة؛ قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾، وقال رسولُ الله ﷺ: «أشهد أَن لَا إِلَه إِلّا الله وَأَنِّي رَسُول الله لَا يلقى الله بهما عبدٌ غير شَاك فيهمَا إِلّا دخل الْجنَّة»[3]. وقال ﷺ أيضًا: «فَمن لقِيت وَرَاء هَذَا الْحَائِط يشْهد أَن لَا إِلَه إِلّا الله مُسْتَيْقنًا بهَا قلبه فبشره بِالْجنَّةِ»[4].

---

(١) انظر: The Miracle of Theism, (203), by: Mackie, J. L. (Oxford, 1982)

(٢) سيأتي مبحثٌ خاصٌّ في نقد هذه الشبهة في الباب الثالث.

(٣) أخرجَه مسلم في صحيحه (٤٤)، كتاب الإيمان، باب الدليل على أنّ من مات على التوحيد دخل الجنّة قطعًا، (١ / ٥٥)، من حديث من أبي هريرة ﷺ.

(٤) أخرجَه مسلم في صحيحه (٥٢)، كتاب الإيمان، باب الدليل على أنّ من مات على التوحيد دخل الجنّة قطعًا (١ / ٥٩)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

ولهذا يكون ضررُ هذا الرهان أكبرَ من نفعه - إن كان فيه ثمَّة نفع أصلًا -. ولا ينبغي أن يُذكَر هذا الرهانُ في أدلة وجود الله، ولا حتَّى من ضمن المرجحّات، لأن الرهانَ مبني على أصلٍ فاسد، وهو عدمُ وجود أدلة على وجود الله. وما بُني على فساد فهو فاسد.

المبحثُ العاشر
نقدُ حججِ علماءِ الغربِ العقليَّة على وجود الله

هذا الفصلُ تناول حججَ علماء الغرب العقلية على وجود الله. وقد ذكرت فيه تسعَ حجج، وهي: حجَّة الفطرة، والحجَّة الكونية، والحجَّة الغائية، وحجَّة التوافق الدقيق للكون، وحجَّة الجمال، والحجَّة الوجودية، والحجَّة الأخلاقية، وحجَّة الوعي، والحجَّة البراغماتية.

وقد قيَّمت هذه الحجج خلالَ هذه المباحث، وذكرتُ مواطنَ القوة والضعف. والمقصودُ من هذا المبحث هو ذكرُ تقييم إجمالي لحجج علماءِ الغرب العقلية.

وهذه الحججُ متفاوتة في القوَّة والضعف. ويمكن تقسيمُ هذه الحجج إلى ثلاثة أقسام:

القسمُ الأوَّل: الحججُ القويَّة والمفيدة استقلالًا: وهي: حجَّة الفطرة، والحجَّة الكونية، والحجَّة الغائية، وحجَّة التوافق الدقيق للكون. فهذه الحجج سليمة وجيّدة، وقد ذكرَها علماءُ الإسلام أيضًا، ولكن بتعبيرات أخرى. بل لعلماء الإسلام السبق في ذكر حجَّة الفطرة لكونها وردتْ في القرآن الكريم. كما أنَّ دليلَ الخلق والإيجاد ودليل الإتقان والإحكام مذكوران في القرآن الكريم.

وقد أفاض علماءُ الغرب الكلام عن هذه الحجج وذكروها بصياغات عقلية جيّدة، كما أنهم ردّوا على اعتراضاتِ الملاحدة. ولكنَّ الإشكال في هذا القسم من الحجج أنَّهم يتوسَّعون في العبارات التي يستخدمونها في حقِّ الله سبحانه وتعالى، ويذكرون ألفاظًا مُجملة في بعض الأحيان - كما سبق ذكرُه -. وهذه الألفاظُ تشير إلى أنّهم تبنوا عقيدةَ التعطيل في باب الصفات. فيجب على المسلم أن يكونَ على حذرٍ شديدٍ عندما يستفيدُ

من كلامهم في حقِّ الله تعالى. ولا بدَّ من مراجعة كلام علماء أهل السنة المحقِّقين مثل: شيخ الإسلام ابن تيمية والإمام ابن القيم (رحمهما الله) في هذا الباب؛ حتَّى يتعلَّم المسلم كيفيةَ التعامل معَ هذه الألفاظ المجملة والمعاني المشتبهة. فيكتفي المسلمُ بالاستفادة من كلام علماء الغرب في الصياغات العقلية وردودهم على اعتراضاتِ الملاحدة، ولا يتوسَّع في الاستفادة من كلِّ ما قالوه عن هذه الحجج.

القسمُ الثّاني: الحججُ التي تكتسب قوَّتَها مع الحجج الأخرى: وهي: حجَّة الجمال، وحجَّة الوعي، والحجَّة الأخلاقية. فهذه الحججُ لا ينبغي إيرادها بمفردها بدون ذكرِ حجَّة الفطرة، ودليل الخلق والإيجاد (والحجة الكونية)، ودليل الإتقان والإحكام (والحجَّة الغائية وحجَّة التوافق الدقيق للكون) قبلها. ولكن لو بدأ بذكر الحجج القوية مِن القسم الأوَّل أوّلًا، ثمَّ هذه الحجج من القسم الثاني ثانيًا؛ فيكون في كلامه قوةٌ وإقناع. كما أنه يمكن ذكرُ هذه الحجج من القسم الثاني في نقد المذهب المادي، وبيانُ قصورِه الشديد. فكلٌّ مِن حجَّة الجمال، والحجَّة الأخلاقية، وحجَّة الوعي؛ تبطل المذهبَ المادي من أساسه. وقد تقدَّم مرارًا أنَّ المذهب المادي من أهمّ أسس الملاحدة على الإطلاق. فالخلاصةُ أنَّه يمكن أن يستفيد المسلم من هذه الحجج الثلاث من ناحيتين:

النَّاحيةُ الأولى: إيرادُ هذه الحجج بعدَ ذكر الحجج من القسم الأوّل.

النَّاحيةُ الثانية: في إبطال المذهب المادي.

ولكنْ لا ينبغي استخدامُ هذه الحجج بمفردها في إثباتِ وجود الله؛ لأنها لا ترتقي إلى القوَّة المعتبرة في الحجج من القسم الأوَّل.

القسمُ الثّالث: الحججُ الضَّعيفة: وهي: الحجَّة الوجودية والحجة البراغماتية. وقد سبقَ نقدُ هاتين الحجّتين بتفصيل، وتبيَّن أنّها حججٌ ضعيفة وواهية، وكانتا من أسباب سخريةِ الملاحدة بالنصارى. فلا يجوز للمسلم أن يتابعَ النصارى في إيراد هذه الحجج الباطلة.

وليستِ العبرةُ في الردِّ على الملاحدة: جمع أكبر قدرٍ ممكن من الحجج والبراهين. وإنَّما يجب أن يتحرَّى المسلم أقوى الحجج والبراهين والأدلة وذكرها

بأحسن صياغاتها مُحترزًا من النقد الذي يمكن أن يتوجَّه إليها. وقد أخطأ كثيرٌ من علماء الغرب في هذا الباب، واهتموا بذكرِ هذه الحجج الضعيفة، وصنَّفوا فيها مصنفات، وعقدوا من أجلها المناظرات. وكان ذلك مِن أسباب ظهورهم لعامَّة الناس في موقف الضعف والانهزام. فللمسلم في ذلك عظةٌ، ولا يجوز أن يقع فيما وقعوا فيه.

الفصلُ الثّاني

حججُهم العلميةُ على وجود الله

وفيه سبعةُ مباحث:

المبحثُ الأوّل: الحججُ المتعلقة بعلم الكون.

المبحثُ الثّاني: الحججُ المتعلقة بالفيزياء.

المبحثُ الثّالث: الحججُ المتعلقة بعلم الأحياء.

المبحثُ الرّابع: الحججُ المتعلقة بالكيمياء.

المبحثُ الخامس: الحججُ المتعلقة بعلم النفس.

المبحثُ السّادس: الحججُ المتعلقة بالرياضيات.

المبحثُ السّابع: نقدُ حجج علماء الغرب العلمية على وجود الله

تمهيد

حقيقةُ الحججِ العلمية على وجود الله:

هذا هو الفصلُ الثاني من الفصول الثّلاثة في هذا الباب، وموضوعُه: الحجج العلمية على وجود الله عندَ علماء الغرب. والمرادُ بالحجج العلمية بحاجةٍ إلى تحرير ودقّة. وذلك أنَّ العلم التجريبي في الأوساط الأكاديمية اليوم مبنيٌّ على المذهب الطبيعي المنهجي. والعلمُ التجريبي المبنيُّ على هذا المذهب يتحدَّث عن العالم المادي فقط - كما سبق بيانُه مرارًا -. وأمّا العلمُ بالله فهو علمٌ متعلِّق بما هو فوق الطبيعة، ولذلك لا يدخل ضمنَ العلم التجريبي بمفهومه المعاصر.

ولهذا لا يمكن أن يقال: إنَّ هذه الحجج العلمية حجج مباشرة، بل كلّها حججٌ بواسطة الحجج العقلية التي سبق ذكرها، ولا سيَّما الحجَّة الغائية.

وخلاصةُ الحجَّة الغائية أنها مبنيَّة على مقدّمتين ونتيجة:

المقدِّمة الأولى: وجودُ الإتقان والإحكام في المخلوقات.

المقدِّمة الثانية: الإتقانُ والإحكام يستلزم فاعلًا عليمًا حكيمًا.

النتيجة: المخلوقاتُ تستلزم فاعلًا عليمًا حكيمًا.

وقد سبق أنَّ الأدلة على المقدِّمة الأولى تنقسم إلى قسميْن أساسيين:

الدليلُ لأوَّل: الدليلُ الحسِّي المباشر.

الدليلُ الثّاني: الدليلُ العلمي التجريبي.

والأدلَّة على المقدِّمة الثانية تنقسم إلى قسمين أيضًا:

الدليلُ الأوَّل: الضرورة العقلية.

الدليلُ الثّاني: الضرورة الرياضية.

وهذا الفصلُ كلّه يتعلَّق بالدليلِ الثاني في المقدِّمة الأولى، والدليلِ الثاني في المقدّمة الثانية. وهو أنَّ علماء الغرب بيّنوا الأدلةَ العلمية على وجود الإتقان والإحكام في المخلوقات، كما أنَّهم بيَّنوا استحالةَ وجود هذا الإتقان والإحكام مصادفة عن طريق الحسابات الرياضية الدقيقة.

وقد سبق أنَّ بعضَ علماء الرياضيات - كعالم الرياضيات الفرنسي كإيميل بوريل - حَسِب أنَّ ما تجاوز ١ إلى $١٠^{٥٠}$ يعتبرُ مستحيلًا، بينما حسبَ غيره - كعالم الرياضيات الأمريكي ستيفن ماير - الرقم بأنَّ أقصاه ١ إلى $١٠^{١٥٠}$.

وسيتبيَّن خلالَ هذا الفصل أنه إذا جُمع الإتقانُ الموجود في المخلوقات كلّها من الإتقان في بداية تكوُّن الكون إلى الإتقان في تركيب أصغر المخلوقات كالذرّة، فإنّه يتجاوزُ هذه الأرقامَ بمراحل. وهذا يدلُّ قطعًا على أنَّ وجود هذه المخلوقات عن طريق الصُّدفة مستحيل استحالةً قطعية، وأنه لا بدَّ من وجود خالق عليم قدير خلق هذه المخلوقات بهذا الإتقان.

وإضافةً إلى ذلك فإنَّ الحجج العلمية على وجود الله قد تدعم حججًا عقلية أخرى مثل: حجَّة الفطرة. فالأبحاثُ العلمية في علم النفس قد دعمت هذه الحجة كثيرًا - وسيأتي بيانُ ذلك في مبحث: الحجج المتعلقة بعلم النفس.

وليسهل فهمُ هذه الأدلَّة تمَّ تقسيمُ هذه الحجّج إلى ستّة أقسام: علمي الكون الفلك، والفيزياء، وعلم الأحياء، والكيمياء، وعلم النفس، والرياضيات.

المبحثُ الأوَّل

الحججُ المتعلِّقة بعلم الكون

هذا المبحثُ يتحدَّث عن علمين من العلوم التجريبية المتعلقة بالكون، وبينهما تشابهٌ إلى حدٍّ كبير، وهما: علم الكون وعلم الفلك. وبيانُ ذلك كما يلي:

علمُ الكون: هو «علم بداية الكون وتطوّره»(١).

علمُ الفلك: هو «علمٌ يشمل دراسةَ جميع الذوات والظواهر خارج الأرض»(٢). فيدخلُ في ذلك دراسةُ الشمس، والقمر، والنجوم، والكواكب، والمذنبات، والغازات، والغبار الكوني، وغيرها من الذوات والظواهر(٣).

فموضوع كلٍّ مِن العلميْن هو هذا الكون الفسيح وما فيه، والفرقُ بينهما: أنَّ علم الكون يتعلَّق بالكون بأكمله؛ كيف بدأ وكيف تطوَّر. وأمّا علم الفلك فيتحدَّث عنْ ذوات وظواهر معيَّنة في داخل هذا الكون. ولهذا كثيرٌ من مباحث علم الكون نظرياتٌ علمية مجرَّدة يستحيل اختبارها، مثل: نظرية الانفجار العظيم، ونظرية الأكوان المتعدّدة، ونظرية الأوتار الفائقة. وأمّا علماءُ الفلك فإنّهم يدرسون كثيرًا - وليس دائمًا - الذوات والظواهر المشاهدة(٤). وقد سبق أنَّ هذه العلوم ذات وجه تاريخي أقلّ رتبة من العلوم الصلبة التي يمكن اختبارها.

---

(1) https://en.oxforddictionaries.com/definition/cosmology

(2) https://www.britannica.com/science/astronomy

(٣) انظر: https: / /www.space.com/16014 - astronomy.html

(٤) انظر: المصدر السابق.

ولهذا ينبغي أخذُ الحيطة في قبول كلِّ ما ذكره علماءُ الكون؛ لأنَّ بعض نظريات هذا العلم عليها مآخذُ كبيرة - كما سيأتي بيانُه في الباب الثالث إن شاء الله -. ولكن، معَ ذلك فإنه يجوزُ الاستدلال بما وردَ في هذا العلم من باب مخاطبة الخصم بما يؤمن به. فهؤلاء الملاحدةُ يتظاهرون بتعظيم العلم التجريبي - بما فيه علمُ الكون -، وبعض ما يذكرونَه في هذا العلم من دقَّة الإتقان والإحكام حجَّة قوّية عليهم، لأنه يستلزم الاعترافَ بوجود خالق عليم حكيم.

وفي ظلِّ هذا البيان سوف يتمُّ تقسيم هذا المبحث إلى قسمين: قسم عن علم الكون، وقسم عن علم الفلك:

القسمُ الأوَّل: الحججُ المتعلّقة بعلم الكون:

مِن أبرز الأدلَّة المؤيِّدة لحجَّة التوافق الدقيق للكون: الأدلة العلمية الكونية. ومن أبرزِ المؤلَّفات في هذه القضية كتاب: «فقط ستة أرقام: القوى العظمى التي تشكّل الكون» (Just Six Numbers: The Deep Forces That Shape the Universe) للبروفسور مارتن ريس[1]. والمؤلِّف يبيِّن أنَّ اتِّساق الكون يعتمد على ستَّة ثوابت فيزيائية أساسية للكون. وهذه الثوابتُ مضبوطةٌ بدقَّة مُتناهية، بحيث لو كان قيمها أقلَّ أو أكثر مما ينبغي لما كنّا هنا لكي نقرأ هذه الرسالة. وهي كالآتي:

الثابتُ الأوَّل: (N). ويقيس هذا الرقم: القوّة الكهرومغناطيسية (Strength of Electromagnetism) التي تربطُ الذرّات ببعضها مقسومة على قوى التجاذب (Strength of Gravity) بينَ الذرات. وهذا الرقم ساوي $١٠^{٣٦}$ ولو نقصت أصفار (N) أصفارًا قليلة، لما أمكن أن يوجد إلّا كون ضئيل قصير العمر، وما كان لكائن أن ينمو إلى حجم أكبر من الحشرة[2].

(١) الكتاب مترجَم إلى اللغة العربية بهذا العنوان من قبل مركز براهين.

(٢) سيأتي المزيدُ من البيان عن القوة الكهرومغناطيسية في المبحث القادم إن شاء الله.

الثابتُ الثاني: (E) (إيبسيلون). وقيمته (٠,٠٠٧) يحدِّد قدرَ متانة (ارتباط الأنوية) ببعضها، وكيف صُنعت جميعُ الذرَّات على الأرض. وقيمته تتحكّم[1] في القدرة الخارجة من الشمس، وتتحكَّم في كيفية تحويل النجوم للهيدروجين إلى باقي ذرّات الجدولِ الدوري. إنَّ الكربون والأوكسيجين منتشران، بينما الذهب واليورانيوم شحيحان؛ ذلك بسببِ ما يجري في النجوم. فلو كانت قيمة (E) (٠,٠٠٦) أو (٠,٠٠٨) لما كنّا نوجد اليوم.

الثابتُ الثّالث: (Ω) (أوميغا). ويقيس كمِّية المادة في كوننا، من مجرّات وغازات مُنتشرة ومادَّة مظلمة. يخبرنا (Ω) بالأهمّية النسبية للجاذبية وطاقة التمدّد في الكون، فلو كانتْ هذه النسبة أعلى مقارنةً بقيمتها (الحرجة)، لانهار الكون من زمن بعيد، ولو كانت أقلَّ لما تكوَّنت أيَّة مجرَّات أو نجوم. ولو اختلف (Ω) في الثانية الأولى من الكون في جزءٍ من المليون مليار (١ / من ١٠^١٥) فلن يظلَّ الكون إلى الآن.

الثابتُ الرّابع: (λ) (لمبدا). اكتشفَ العلماءُ عام ١٩٩٨ قوّة جديدة غير متوقّعة تتحكَّم، وهي الجاذبيةُ الكونية المضادَّة في تمدُّد كوننا. ذلك على الرغم من أنها لا تملك تأثيرًا واضحًا على مقياس أقلَّ من مليار سنة ضوئية. ولو لم تكن قيمة (λ) صغيرة جدًّا لأوقفَ تأثيرها تكوُّن المجرّات والنجوم، ولتعطَّل التطوّر الكوني قبل أن يبدأ أصلًا.

الثابتُ الخامس: (Q). يعتمد نسيجُ كوننا على هذا الرقم، الذي يمثّل (النسبة بين طاقتينِ أساسيَّتين)، وقيمته نحو ١٠٠,٠٠٠ / ١. فلو كان (Q) أصغر بقليل لأصبح الكون خاملًا وخاليًا من أيِّ بُنى، ولو كان (Q) أكبر من ذلك بكثير لأصبح الكون مكانًا مهلكًا عاصفًا، لا يمكن فيه لأيِّ نجم أو نظام شمسي أن يبقى على قيد الوجود، وستسودُ الثقوب السوداء[2] الهائلة.

---

(١) يستخدم المؤلّف مارتين ريس لفظَ (القيمة تتحّكم) لأنّه ملحد، وإلا فالمؤمن يعلم أن القيم لا تتحَّكم في شيء، وإنّما يحكم الخالقُ تعالى. ولكنّه يحكم وفق هذه القيم المضبوطة؛ فهي سننه الكونية في هذا العالم.

(٢) الثقب الأسود (Black Hole): مكان في الفضاء تسحب فيه الجاذبية كثيرًا لدرجة أن الضوء لا يستطيعُ الخروج منه. والجاذبية قوية جدًّا لأنَّ المادة قد ضغطت في مساحة صغيرة. يمكن أن يحدث هذا عندما يحتضر النجم. انظر:
https://www.nasa.gov/audience/forstudents/k-4/stories/nasa-knows/what-is-a-black-hole-k4.html

الثابتُ السادس: (D)، هو رقمُ الأبعاد الفراغية، وكان معروفًا منذ قرون، ولكن الآن يُنظَر إليه بمنظور مختلف(D) يساوي[1]٣، ولم تكن الحياة لتوجد لو كان (D) يساوي ٢ أو ٤. الزمنُ بُعد رابع، لكنَّه مختلف عن بقيّة الأبعاد من ناحية أن فيه سهمًا موجّهًا، فنحن نتحرَّك إلى الأمام فقط، تجاه المستقبل. إنَّ المكان بالقرب من الثقوب السوداء منحنٍ جدًّا، لدرجة أنَّ الضوء يتحرَّك في دوائر، ويمكن أن يتوقّف الزمان تمامًا. بجانبِ ذلك، فقد يكشف المكانُ عن أعمق البُنى الموجودة على الإطلاق، وهي اهتزازاتُ وتناغماتُ أشياء تسمَّى بـالأوتار الفائقة (Superstrings)، في حلبة ذات عشر أبعاد، ويكون ذلك كلّه عندَ الاقتراب من حدوث الكون، وأيضًا على مقاييس ميكروسكوبية[2].

ثمَّ أردف ذلك قائلًا: «لقد سلَّطت الضوء على هذه الأرقام الستة لأنّ كلّ واحدٍ منها يلعب دورًا هامًّا ومميَّزًا في كوننا، وهي كلُّها معًا تحدِّد كيف يتطوّر الكون، وما الإمكاناتُ الداخلية والقوى الكامنة فيه. إضافةً إلى ذلك، فإنَّ ثلاثة من هذه الأرقام - وهي تتعلَّق بالكون الكبير - تُقاس الآن بدقَّة. إنَّ هذه الأرقام الستّة تشكّل (وصفة) لكوْن ما. بجانب ذلك، فإنَّ الناتج حسَّاسٌ لقيم هذه الأرقام، ولو تعرَّضت إحداها لـ(إعادة ضبط) لما كانت هناك نجومٌ ولا حياة»[3].

ومعَ علمه بهذا الضَّبط الدقيق وقيام الحجَّة البالغة عليه، فإنَّ مارتن ريس ملحد، ويحاول تفسيرَ هذا الضَّبط الدقيق بنظرية الأكوان المتعدّدة. ولكنَّ علماء الغرب استدلّوا بهذه الأرقام الستَّة التي ذكرها مارتين ريس على وجودِ الخالق، أو على استحالة وقوع هذا الضَّبط الدقيق عن طريق المصادفة. فذكر البروفسور وليام لاين كرايغ - على سبيل المثال - هذه الأرقام الستَّة، ثمَّ قال: «لا يوجد أيُّ سبب معقول أن يفترض أن هذه صدفةٌ فقط من باب حُسن حظّ، وأنَّ التغييرات تعوّض بعضها عن

---

(١) الأبعاد الثلاثة هي: الطول، والعرض والارتفاع.

(٢) انظر: فقط ستّة أرقام (١٧ - ١٨).

(٣) المصدر السابق (١٩).

بعض، حتَّى تستطيع الحياة أن تبقَى حتَّى ولوْ حصل التغيير في هذه الأرقام. يبدو أن حجَّة الضبط الدقيق للكون موجودةٌ لكي تبقى»[١].

وإضافةً إلى هذه الثوابت الفيزيائية الكونية الستَّة الدالة على الضبط الدقيق في الكون، فقد ذكرَ علماءُ الغرب أدلة كونية أخرى تدلُّ على الضبط الدقيق، منها: دقّة سرعةِ التمدُّد الكوني، ودقَّة الأحداث في الدقائق الثلاث الأولى، ودقَّة مستوى إنتروبيا الكون. وبيانُ ذلك كما يلي:

- **الحجَّةُ الأولى: دقةُ سرعة التمدّد الكوني:**

أحدُ أهمِّ الأدلة العلمية على أنَّ للكون بداية هو: التمدُّد الكوني. فقد لاحظ الفلكيون أنَّ الكون يتمدَّد بسرعة هائلة، وبناءً على حساباتهم توصّلوا إلى أن الكون له بداية. كما أنَّهم توصَّلوا إلى أنَّ هذا التمدُّد الكوني كان مضبوطًا بدقّة شديدة جدًّا بعد ظهورِ الكون. وقد وصفَ دين أوفرمان هذا الضبطَ الدقيق بأنه لو كانت قوة الانفجار العظيم أكبرَ قليلًا فإنَّ الكون سوف يكون غازات فقط، ولكن لن يكوّن نجومًا ولا مجرَّات ولا كواكب، وبدونِ ذلك لن توجد حياة، وهذه المطابقةُ تقدير دقيق جدًّا يعادل ١ في ١٠^٥٥. فلو أنَّ معدَّل التمدُّد انخفضَ فقط بجزءٍ من ألف مليار ستنهار المادة في الكون إلى نقطةٍ وحيدة بعد بضعة ملايين من السنين[٢].

ثمَّ استشهد بقولِ برنارد لوفل[٣]: «حاولنا أن نصفَ المراحل المبكّرة لتمدُّد الكون، لكنَّ الوصف بالفيزياء النووية والنسبية ليس تفسيرًا، وظهرت أسئلة

---

(١) مقال: Design from Fine – Tuning
https://www.reasonablefaith.org/writings/question-answer/design-from-fine-tuning

(٢) انظر: A Case Against Accident and Self – Organization (130)

(٣) برنارد لوفل (Bernard Lovell): بروفسور الفيزياء في جامعة بريستول البريطانية، ومؤسس لإحدى المحططات الاختبارية لعلم الفلك في بريطانيا. توفي عام: ٢٠١٢م. انظر:
https://www.britannica.com/biography/Bernard-Lovell

مستعصية لا يظهر الآن كيفية البحث في الإجابة. في الواقع حتَّى الوصف العلمي لهذه التساؤلات ينتج فكرةً هامَّة، وهي أنه لا حلَّ لها بلغة العلم. لماذا تمدَّد الكون؟ والأكثر من ذلك: لماذا كان التمدُّد بالمعدَّل الحرج ليحمي الكونَ من الانهيار؟ هذه الأسئلة هامة، لأنّ أيَّ اختلاف طفيفٍ ستنعدم الحياةُ بسببه. في الثانية الأولى من تمدُّد الكون كانت الحرارة ١٠^١٠ كلفن، وكانتِ الكثافة ١جرام / سنتيمتر مكعب. هذه هي المرحلة التي يفترض أنها بالفعل يمكن حينَها وصفُ الكون بمفاهيم فيزيائية. لو انخفض معدَّل التمدُّد في هذه اللحظة بجزءٍ من ألف مليار سينهار الكونُ بعد بضعة ملايين من السنين، بالقرب من فترةِ الإشعاع أو الكرة النارية قبلَ انفصال المادة والإشعاع! هذه حقيقة مهمّة ظهرت مؤخَّرًا، على يدِ أحد أكثر علماءِ الكون تميّزًا، وهو الذي أشار إلى الأكوان المحتملة، ووجود كون واحدٍ فقط. وهو الوحيدُ الضروري من أجل نشوء حياة عاقلة»[١].

وقد بحثَ البروفسور بول ديفيز عن مسألة مدى دقَّة مطابقة قوى التمدّد بقوى الجاذبية في الثانيةِ الأولى من وجودِ الكون. واستنتج ديفيز أنَّ زمن بلانك كان مطابقًا بدقَّة ١ في ١٠^٦٠. فلو اختلف هذا المعدَّل فقط بجزء واحد من ذلك فلن توجد حياة. وضربَ مثالًا توضيحيًّا لهذه الدقّة بقوله: «ولنكوِّن تصوّرًا لهذه الأرقام، فلنفترض أنّك أردتَ أن تطلق رصاصةً على هدف بحجم بوصةٍ على الجانب الآخر من الكون، يبعد عنك ٢٠ مليار سنة ضوئية، فالدقةُ المطلوبة لهدفك ستكون ١ في ١٠^٦٠»[٢].

ولا شكَّ أنَّ إطلاق رصاصة بهذه الدقّة مستحيل، فكذلك يستحيل أن تكون سرعة التمدُّد الكوني بهذه الدقَّة العالية عن طريق المصادفة.

---

(1) In the Center of Immensities (122-123), by: Bernard Lovell, (Harper & Row, 1978)

(2) God and the New Physics (179), by: Paul Davies, (J.M. Dent and Sons, 1983)

- **الحجَّةُ الثانية: دقّةُ أحداث الدقائق الثلاثِ الأولى بعد خلق الكون:**

قد اهتمَّ علماءُ الكون القائلون بالدقائق الأولى بعدَ حدوث الكون، وذكروا أن خلالَ هذه الدقائق المعدودة حصلت أحداثٌ في غاية الإحكام والإتقان. وقد ألَّف البروفسور الملحد ستيفن وينبرغ [(١)] كتابًا خاصًّا عن هذه الدقائق بعنوان: "الدقائق الثلاث الأولى: رؤية حديثة لأصول الكون" (The First Three Minutes: A Modern View of the Origin of the Universe)[(٢)] في ٢٢٤ صفحة، ووصف ما حدث فيها من الأحداث التي أثّرت في استمرار وجود الكون.

وقد استدلَّ البروفسور جون بولكينغهورن بدقَّة أحداث هذه الدقائق الثلاث الأولى على وجودِ الله في مقاله: الكون القوي، ضمنَ كتاب: «دليل الغائية: علماء يكتشفون الخالق» (Evidence of Purpose: Scientists Discover the Creator). ومما ذكره في هذا المقال: دقَّةُ العلاقة بين القوَّة النووية القوّية[(٣)] والقوّة النووية الضعيفة[(٤)] في تلك الدقائق؛ فقال: «في الدقائقِ الثلاث الأولى من عُمر الكون كان الكون كلُّه منطقة للتفاعلات النووية. وعندما انتهتْ هذه الفترة خلالَ التبريد الناتج بسبب التمدّد لم يبق في العالم - كما هوَ اليوم في النطاق الواسع - إلَّا خليط: ربعُه من الهيليوم،

---

(١) ستيفن وينبرغ (Steven Weinberg): بروفسور الفيزياء النظرية الأمريكي وحاصل على جائزة نوبل في الفيزياء عام ١٩٧٩م. انظر:

https://www.britannica.com/biography/Steven-Weinberg

(٢) انظر: الصنع المتقن (٣٣٨ - ٣٣٩).

(٣) القوّة النووية القوّية (Strong Nuclear Force): هي إحدى القوى الأساسية الأربعة في الطبيعة، وتربط الجسيمات الأساسية للمادة معًا لتكوين جسيمات أكبر. انظر:

https://www.livescience.com/48575-strong-force.html

(٤) القوّة النووية الضعيفة (Weak Nuclear Force): قوة أساسية في الطبيعة تكمن وراء بعض أشكال النشاط الإشعاعي، وتحكم تحلل الجسيمات دون الذرية غير المستقرة مثل الميزونات، وتبدأ تفاعل الاندماج النووي الذي يغذي الشمس. انظر:

https://www.britannica.com/science/weak-force

والباقي من الهيدروجين. وأيُّ تغيُّر بسيط في التوازن بين القوى النووية الضعيفة والقوية يجعل الهيدروجين ينعدم، وبالتالي لن يوجد ماء - الذي يبدو ضروريًا جدًّا للحياة -. وزيادة قليلة (٢ ٪) في القوى النَّووية الضعيفة سيرتبطُ البروتونات معًا، ولن يوجد أيُّ هيدروجين، وبالتالي لن توجد نجوم، وإنما توجد شعلاتُ الهليوم(١)، هي ضعيفة جدًّا إلى حدٍّ أنها لا تبقى كطاقة ولا تحافظُ على الحياة الكوكبية القادمة. أمّا لو قلَّت القوى النووية القوية بنفس النسبة فلن يترابطَ الديتورون(٢)، وستكون كارثة ذات نتائج نووية»(٣).

ويلزم الملحدُ أنْ يقول: إنَّ هذا التوافق الدقيق بين القوّة النووية القوّية والقوّة النووية الضَّعيفة في هذه اللحظات القليلة حصلتْ مصادفة، بدون أيِّ نوع من أنواع التدبير، وأضفْ إلى ذلك بقيَّة الأحداث الكثيرة المتقنة التي وصفَها البروفسور وينبرغ في كتابه عنِ الدقائق الثلاث الأولى. فكيف يخطر ببالِ عاقلٍ أنَّ هذا كلّه لم يكن بتدبير خالق عليم حكيم؟!

- **الحجَّةُ الثّالثة: دقَّةُ مستوى إنتروبيا الكون:**

ينصُّ قانون الديناميكا الحرارية الثاني على أنَّ الميل الطبيعي لأيّ نظام مغلق هو: الميلُ نحوَ انحطاط في حالة غير مرتَّبة(٤). فالكون يسير نحوَ ما يسمَّى بالإنتروبيا(٥)؛

---

(١) الهليوم (Helium): عنصر غازيّ نادر، خفيف الوزن، عديم اللَّون والرَّائحة خامل في تفاعله، وغيرُ قابل للاشتعال، يُوجد مع الغاز الطّبيعيّ ومع الخامات ذات النّشاط الإشعاعي، ويستخدم في ملء المناطيد. انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة (٣/ ٢٣٦٢).

(٢) الديتورون (Deuteron): هو جسيم مستقر مكوّن من بروتون ونيوترون. كذرة، يطلق عليه الديوتيريوم. انظر:
http://hyperphysics.phy-astr.gsu.edu/hbase/Particles/deuteron.html

(3) Evidence of Purpose: Scientists Discover the Creator (111), ed. John Marks Templeton, (Templeton Foundation, 1994)

(٤) انظر:
https://www.livescience.com/50941-second-law-thermodynamics.html

(٥) الإنتروبي (Entropy): اختلال في النظام أو القدرة على التنبؤ؛ والانخفاض التدريجي في الفوضى. انظر: https: / /en.oxforddictionaries.com /definition /entropy,

فلا بدَّ أن الكون بدأ في حالةٍ من الترتيب العالي والانخفاض في الإنتروبيا لكي يبقى هذا المستوى من التَّرتيب اليوم. وقد قام البروفسور روجير بنروز[١] بحساب انخفاض الإنتروبيا ووجود الطاقة القابلة للاستعمال في لحظةِ نشوء الكون الأولى في مقابل عدم تحقّق هذا الظرف فوجدَ أنَّه واحد من ١٠ أس ١٠ أس ١٢٣، يعني: ١٠ أس ١٠^١٢٣.

وهذا الرقمُ ضخم، ليس بإمكان تصوّره؛ قال البروفسور بنروز: «حاول أن تتخيّل فضاء الطور[٢]... للكون بأكمله؛ فكلُّ نقطة من فضاء الطور هذا تمثِّل طريقة مختلفة قد يبدأ منها الكون. علينا أن نتصوَّر أنَّ خالق الكون معه دبوس - وسيضعه في نقطة ما من فضاء الطور... إن كلَّ مكان يحتمل أن يوضَع فيه الدبوس سينتج كونًا مختلفًا؛ إن الدقة المطلوبةَ لتصويب الخالق للدبوس تعتمد على إنتروبيا الكون الذي سيخلق. سيكون من السَّهل نسبيًّا إيجادُ كون عالي الإنتروبيا لأنه ستوجد مساحةٌ كبيرة من فضاء الطور يمكن للدَّبوس أن يصيبها، ولكن لنبدأ بكوْن يتمتَّع بحالة منخفضة من الإنتروبيا - بحيث يكون وجودُ القانون الثاني من الديناميكا الحرارية ممكنًا - فإنَّ على الخالق أن يستهدف وضعَ الدبوس ضمنَ حجمٍ أصغرَ من فضاء الطور، كم ستكون ضآلة هذه المنطقة من فضاء الطور لينتج كونًا مشابهًا لكوننا الذي نعيش فيه؟»[٣].

وقد قادته حساباتُه إلى أنَّ إصابة الخالق كانت دقيقة إلى حدّ ١ أس ١٠ أس ١٠^١٢٣.

وقد علَّق دين أوفرمان على هذا الرقم بأنَّ هذا رقمٌ خارق، وأنه لا يمكن لأحدنا حتَّى كتابته كاملًا، فهو واحدٌ متبوع بـ ١٢٣ صفر، فإذا فرضنا أننا كتبنا صفرًا على كلِّ بروتون مُنفصل في الكون: وكذلك على كلِّ نيوترون مُنفصل: وأن نقوم بتوزيع الأصفار على

---

(١) روجير بنروز (Roger Penrose): بروفسور الرياضيات في جامعة أكسفورد سابقًا، والحائز على جائزة نوبل في الفيزياء عام ٢٠٢٠ م. انظر:
https://www.britannica.com/biography/Roger-Penrose

(٢) فضاء الطور (Phase Space): فضاء افتراضي لوصف حالة جسيم ذي ستة أبعاد. انظر:
http://www.uobabylon.edu.iq/eprints/paper_2_28511_1681.pdf

(3) The Emperor's New Mind (344), by: Roger Penrose, (Oxford University Press, 1989)

الجسيْمات الأخرى ذات المقياس الجيّد: فسوف نفشل ونعجزُ تمامًا عن كتابة هذا العدد من الأصفار: لعدم توفُّر العدد اللازم من دقائق الكون كله من البروتونات والنترونات[1].

وهذا يتعلَّق بأمرٍ واحد فقط من الأمور الكثيرة المتعلّقة بالضبط الدقيق للكون، وهو: انخفاض الإنتروبيا في الكون. ولكن كيف إذ جُمع كلُّ ما يتعلَّق بالضبط الدقيق؟ ما إمكانية أنَّ الكون تركَّب صدفة علميًّا؟

هل يمكن أنَّ الكون تركّب صدفة علميًا؟

المسلم يعلم علمَ اليقين أنَّ الله خلق هذا الكون، وأنّه لا يمكن لهذا الكون الفسيح أنْ يظهر بهذا النظام والإتقان صدفة. وذلك بناءً على الأدلة النقلية القطعية، كما أن الفطرةَ السوية والعقلَ السليم تدلّان على ذلك. ولكن الملحد لا يعترف بالأدلة الشرعية، وقد انسلخَ عن الفطرة السوية والعقل السليم، ويزعم أنّه يعتمد على العلم التَّجريبي. فهل يمكن أنَّ الكون ظهر بهذا النظام والإتقان صدفة علميًّا؟ الجواب: لا. لنرجعَ إلى ما تقرَّر في بداية المبحث من حدود المستحيل، وأن بعض العلماء حسبوه بـ ١ إلى $١٠^{٥٠}$، وأقصى ما ذُكر هو ١ إلى $١٠^{٥٠}$. فما إمكانية تركُّب الكون بجميع خصائصِه صدفة؟ حسبه البروفسور بنروز عام ١٩٧٩ م. أن إمكانيته ١ إلى $١٠^{٣٠٠}$، وهذا قبلَ اكتشاف رقم (لمبدا) مثلًا - الذي اكتشف عام ١٩٩٨ م. كما سبق ذكرُه -. فكيف اليوم، وقد تطوَّر العلم تطوّرًا هائلًا؟

قد ذكر الدكتور هيو روس أنَّ العلماء اكتشفوا ١٥ من خصائص الضبط الدقيق في الكون لكي يكونَ متهيئًا للحياة في عام ١٩٨٨م. ولكنَّ هذا العدد ازداد إلى ٩٣ في عام ٢٠٠٥م، و١٤٠ في عام ٢٠٠٦م.[2]!

واكتشافاتُ العلماء لخصائص الضبط الدقيق في الكون في تزايدٍ مستمرٍّ مع تطوّر العلم. وكلَّما تطوُّر العلم تتبيَّن استحالة وقوع هذا الضبط الدقيق في الكون صدفة؛

---

(١) انظر: A Case Against Accident and Self - Organization (140)

(٢) انظر: Why the Universe is the Way it is? (122)

فإمكانيةُ حدوث الحياة في الكون صدفة ليس في عداد المستحيل فقط، بل يتجاوز المستحيل بمليارات المليارات المليارات المليارات من المرّات - وهلمَّ جرّا -. لا يمكن علميًّا أنَّ هذا الكون الفسيح، بهذا الضبط الدقيق قد ظهر صدفة. وهذا فيما يتعلّق بالحجج مِن علم الكون فقط، فكيف إذا جُمعت ببقية الحجج العلمية؟

القسمُ الثّاني: الحججُ المتعلّقة بعلم الفلك:

الحججُ المتعلّقة بعلم الفلك لا تعدُّ ولا تحصى، وذلك لكثرة الذوات والظواهر في الكون، وكلُّها خُلقت وفقَ ضبط دقيق للغاية. ولكيْلا يطولُ الكلام يُختصر الحديث في هذا المقام على ما يركِّز عليه علماءُ الغرب في حديثهم عن الحجج العلمية المستنبطة من علمِ الفلك، هو خصائصُ هذا النظام الشمسي، وهذه الأرض لظهور الحياة.

وقد ذكرَ الدكتور هيو روس أنَّ العلماء اكتشفوا ٤١ من هذه الخصائص في عام ١٩٩٥م، وازدادَ العددُ إلى ٦٧٦ عام ٢٠٠٦ م.[١]!

ولكنَّ هذا الأمر يتعلّق بأدنى نوعٍ من أنواع الحياة مثل: البكتيريا، وأمّا خصائص الضبطِ الدقيق المطلوبة لوجود الإنسان فعددُه ٨٢٤ عام ٢٠٠٦م. وذكر الدكتور روس أنَّ إمكانية وجود الإنسان في كوكب ما هو ١٠ - ١,٠٥٠. فإمكانية وجود الحياة مثل البشر يتطلَّب الضبطَ الدقيق أقوى بـ $١٠^{٧٠٠}$ مرّة من وجود الحياة في مثل البكتيريا! وذلك مع أنَّ عددَ البروتونات والنيوترونات لا يتجاوز عددها $١٠^{٧٩}$ في الكون المشاهد كلِّه[٢]! فكيف يظنُّ عاقلٌ أن الحياة ظهرت صدفة؟!

وقد يصعب فهمُ هذه الأرقام، ولكنْ قد ذكر سكون هوس بعضَ هذه الخصائص بطريقةٍ مختصرة سهلة، مع دلالتها على الخالق إذ قال:

«يتطلَّب وجودُ الخلق بالضرورة وجودَ الخالق، ويتطلَّب التصميم المعقّد مصمِّمًا خبيرًا ذكيًّا دقيقًا؛ الساعة تحتاج إلى صانع الساعات، هذا منطق بسيط صرف.

---

(١) انظر: المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق (١٢٣).

لنفترض أنَّ روّادَ الفضاء عندما هبطوا على القمر وجدوا نظامَ حاسوب متقدّمًا جدًّا واقعًا بين الصخور؛ فهلْ من المعقول والمنطقي أن يخلُصوا إلى أنه قد «تطوّر» بتأثير التصادمات المحظوظة للنيازك مع تشكّلات الصخور الموضعية القمرية أو عبر بعض الحوادث العَرَضية الأخرى؟ أو هل من المنطقي أكثر أن يخلُصوا إلى أنّه صُمِّم وبُني بدقّة من قبَل خالق عليم؟ يشير المنطق الشائع إلى التفسير الأخير بالطبع!...

وبالمثل، فإنَّ دليلَ تصميم النظام الشمسي / الأرضي من قِبَل الإله يفوق بكثير أية احتماليةٍ أخرى تدَّعي بأنه قد تشكّل هكذا أو أنه تجمّع مع بعضه بالصدفة البحتة. وسنعتبر خصائصَ قليلة للنظام الشمسي / الأرضي يبدو أنها صُممت بدقة وعناية شديدتين لهدف فريد يدعم الحياة»[١].

ثمَّ ذكر ١٣ مِن خصائص النظام الشمسي / الأرضي[٢] بطريقة سهلة ميسّرة مع المراجع المعتمدة، يفهمها حتَّى غير المتخصّص؛ وهي كالتالي:

الأولى: تبعدُ الأرضُ بالمسافة الصحيحة تمامًا عن الشمس بحيث تصل الكمّية المناسبة من الحرارة التي تدعم الحياة، بينما الكواكبُ الأخرى في المجموعة الشمسية إما قريبةٌ جدًّا من الشمس (ساخنة جدًّا) أو بعيدة جدًّا (باردة جدًّا) للحفاظ على الحياة[٣].

الثانية: إنَّ أيَّ تغيُّر مُدركٍ لمعدّل دوران الأرض سيجعل الحياة مستحيلة. فمثلًا، إذا دارتِ الأرض بمقدار عُشْر دورانها الحالي ستحترق كافَّة الحياة النباتية أو تتقصف أثناء اليوم أو تتجمّد في الليل[٤].

---

(1) The Collapse of Evolution (98)

(٢) هذه ١٣ من الخصائص، وقد ذكر الدكتور هيو روس أن العلماء اكتشفوا ٨٢٤ عام ٢٠٠٦! فلو أردنا ذكرها كلّها لطال البحث كثيرًا.

(٣) انظر:

Creation or Evolution (18), by: D.D. Riegle, (Zondervan Publishing House, 1971)

(٤) انظر: المصدر السابق.

الثّالثة: تبقى تغيُّرات الحرارة ضمنَ الحدود الطبيعية بسبب المدار الدائري تقريبًا للأرض حول الشمس[1].

الرّابعة: تكون أقصى درجاتِ الحرارة مُعتدلة بسبب بخار الماء وثنائي أكسيد الكربون في الجو، والتي تؤدّي إلى الاحتباس الحراري[2].

الخامسة: يدور القمرُ حولَ الأرض بمسافة تقدَّر بحوالي ٢٤٠,٠٠٠ ميلًا، ما يُعطي مدًّا وجزرًا غيرَ مؤذٍ للأرض، ولو توضع أبعد بخُمس هذه المسافة، فستندمج القارات مع بعضها تمامًا مرتين يوميًّا[3]!

السّادسة: يبدو أنَّ سماكة قشرةِ الأرض وعمق المحيطات مصمّمان بحذر، حيث ستبدّل أيّة زيادة في السماكة أو العمق ببضعةِ أقدام فقط بشكل مدمّر امتصاص الأوكسجين الحرّ وثنائي أوكسيد الكربون الذي تحتاجه النباتات والحيوانات لتعيش[4].

السّابعة: يميل محورُ الأرض بمقدار ٢٣,٥ درجة من العمودي إلى المستوى المداري. وهذا المَيلُ معَ مسار الأرض حول الشمس يسببان الفصول الضرورية بالتأكيد لنمو الموارد الغذائية[5].

الثّامنة: يشكِّل الغلافُ الجوّي للأرض (طبقة الأوزون) طبقة حامية من الإشعاع الشَّمسي فوقَ البنفسجي المميت، والذي قد يدمّر كافة أشكال الحياة[6].

---

(١) انظر:

Handy Dandy Evolution Refuter (133), by: R.E. Kofhal, (Beta Books 1977)

(٢) انظر: المصدر السابق.

(٣) انظر: (١٩ – ١٨) Creation or Evolution

(٤) انظر: المصدر السابق (١٩).

(٥) انظر: المصدر السابق (١٩ – ٢٠).

(٦) انظر المقال: Ozone layer, a shield against UV rays

https://www.lifegate.com/people/news/ozone-hole

التّاسعة: يحمي الغلافُ الجوي للأرض أيضًا من حوالي عشرين مليون نيزك تقريبًا يدخلونه كلَّ يوم بسرعات تقدّر بثلاثين ميلًا في الثانية! وستغدو الحياة بدون هذه الحماية الضرورية ضربًا من الخيال[١].

العاشرة: إنَّ الأرض بحجمٍ فيزيائي وكتلة تامّين لتدعم الحياة وتوفّر توازنًا دقيقًا بين القوى الجاذبة (الضَّرورية للحفاظ على الماء والغلاف الجوي) وبين الضغط الجوي[٢].

الحادية عشْرة: إن المكوّنَيْن الأساسيَّيْن لجو الأرض هما النتروجين (٧٨٪) والأوكسجين (٢٠٪)، وهذه النسبة الدقيقة والحدّية ضرورية لكافة أشكال الحياة[٣].

الثانية عشْرة: يقدِّم الحقل المغناطيسي الأرضي حمايةً هامَّة من الإشعاع الكوني الضار[٤].

الثالثة عشْرة: الأرضُ مباركة بوافر فيّاض من الماء، وهو المكوِّن الأساسي للحياة بسببِ خصائصه الفيزيائية الضرورية والهامة[٥].

ثمّ استخلص المؤلِّف بعدَ ذكر هذه الخصائص كلّها: «يمكن ذكر عددٍ من الأمثلة الأخرى التي تدعم فكرةَ خلق الأرض وتصميمها بدقة لهدف واضح، حيث تشير - بشكلٍ قاطع - هذه الارتباطات التامَّة المعقّدة من الظروف المتماسكة والعوامل الضرورية لأشكالِ الحياة لتصميم ذكيٍّ ذي مغزًى، وإنَّ الاعتقادَ بأنَّ نظامًا مخطّطًا معقّدًا متوازنًا بدقَّة يدعم الحياة نتيجةَ الصدفة البحتة لا معنًى له طبعًا، فبالتأكيد ليس

---

(١) انظر: Creation or Evolution (20)

(٢) انظر: المصدر السابق.

(٣) انظر: Creation or Evolution (19)

(٤) انظر المقال: Earth's magnetic field provides vital protection
http://www.esa.int/Our_Activities/Space_Science/Cluster/Earth_s_magnetic_field_provides_vital_protection

(٥) انظر المقال: Why is Water so Essential for Life
https://www.livescience.com/52332-why-is-water-needed-for-life.html

للمتفكِّر الصّادق الموضوعي ملاذٌ إلّا الاستنتاج بأنَّ النظام الشمسي / الأرضي مصمَّم بدقة وذكاء من قِبَل الإله لأجل الإنسان»[1].

وهذا كلامٌ سديد - معَ التحفُّظ على بعض العبارات المستخدمة -، يمثّل الخلاصة التي ينبغي أن يتوصَّل إليها كلُّ عاقل يتدبّر هذه الأدلة الواضحة البيّنة.

تقييمُ الحججِ المتعلّقة بعلمي الكون والفلك:

قد سبقَ أنَّ علم الكون يختلف عن علم الفلك من حيث أنَّ بعض مباحث علم الكون تتعلَّق بنظريات ظهور الكون إلى الوجود. وهذه النظريات مبنية على نظريات علمية مجرّدة، وليست على مشاهدات. وفي كثير من هذه المباحث نظرٌ - كما سيأتي بيانُه -. وأمَّا مباحث علم الكون المتعلّقة بتركيب الكون ككلّ، فهي مباحث علمية مُستندة إلى أدلةٍ علمية مشاهدة، وعليه فهو أقوى. وأمَّا علم الفلك فهو دراسة ذوات وظواهر مشاهدة، وبالتالي وعليه فهو علمٌ قويٌّ صلب.

واللهُ تعالى يرشدنا إلى تأمُّل آيات السماء والأرض والنجوم في آيات كثيرة من القرآن الكريم، مثل قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس: ١٠١]، كما أنَّ الله أنكر على الكافرين إعراضهم عن تأمّل آيات السماء والأرض بقوله: ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٥ - ١٠٦].

ومَن تأمَّل هذه الآيات يجد أنَّ الله يرشدُ إلى تأمُّل أشياء مشاهدة، وبهذا التأمّل يقيم الحجَّة على الإنسان، ولا يقيم الحجَّة على الإنسان بتدبّر أشياء لم يشاهدها في الغالب. ومِن الأمثلة على ذلك: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصّلت: ٥٣].

وقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ ﴾ [الملك: ٣ - ٤].

---

(1) The Collapse of Evolution (98-101)

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ [الرعد: ٢].

وقوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ [ق: ٦ - ٨].

وإن ذكر الله تعالى كيفيةَ خلق السماوات والأرض في بعض الآيات مع الإنكار على كفر الكافرين في بعض الأحيان، مثل قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ [فصّلت: ٩ - ١١].

فالتزامُ منهج الاستدلال بالمخلوقات المشاهدة على الخالق أقوى من الاستدلال بنظريات علمية - لا سيَّما إذا كان في بعضها نظر -. ولكن، يبقى أن الاستدلال بمباحثِ علم الكون على الملاحدة استدلالٌ جيِّد من حيث الإلزام، لأنّهم يحاولون تفسيرَ ظهور الكون بهذا العلم، وعلماء هذا العلم أنفسهم يبيّنون أن ظهور الكون بهذا الضَّبط الدقيق صدفةً مستحيل. وبذلك تقام الحجَّة عليهم من العلم الذي يستدلّون به.

المبحثُ الثّاني
الحججُ المتعلِّقة بالفيزياء

هذا المبحثُ يبيِّن الحججَ المستنبطة من الفيزياء التي يستخدمها علماء الغرب في الاستدلال على وجود الله.

وقد عرَّف قاموس أكسفورد الفيزياء بأنَّها: «فرعُ العلوم المعني بالطبيعة، وخصائصُ المادة والطاقة. وموضوعُ الفيزياء يتضمَّن الميكانيكيات، والحرارة، والضوء، وغيرَه من أنواع الإشعاع، والصوت، والكهرباء، والمغنطيسية، وبنية الذرّات»[1].

وكما هو واضحٌ من التعريف فإنَّه علمٌ واسع، يصعب حصرُه. ولكن يمكن حصرُ أكثر كلام علماء الغرب في هذا النوع من الحجج في نقطتين:

النُّقطةُ الأولى: دلالةُ القوانين الفيزيائية على الخالق من حيث العموم.

النُّقطةُ الثّانية: دلالةُ الضَّبط الدقيق لتفاعل القوى الأساسية الفيزيائية على الخالق.

وبيانُ هاتين النقطتين كالآتي:

النُّقطةُ الأولى: دلالةُ القوانين الفيزيائية على الخالق من حيث العموم:

قد اكتشفَ العلماء أنَّ الطبيعة متَّسقة وغير عشوائية؛ فهي محكومة بقوانين فزيائية مضْبوطة للغاية. والعلمُ التجريبي مبنيٌّ على فرضية اتّساق الطبيعة، وإلا ما أمكن دراستُها. وإذا كانت الطبيعةُ غير مخلوقة - كما يقوله الملاحدة - وإنَّما هي نتيجة الانفجار العظيم - وهو حدثٌ عرضي - فلماذا تكون الطبيعة محكومةً بهذه القوانين الفيزيائية المضبوطة؟ يمكن للعالم الملحد توصيف القوانين الفيزيائية بدقّة، ولكن لا يمكنه - وفق منظورِه الإلحادي - تفسيرُ وجودها في الأصل بهذه الدقة.

---

(1) https://en.oxforddictionaries.com/definition/physics

وقد بيَّن الدكتور جاسون ليزلي هذه النقطةَ فذكر أنَّ قوانين الطبيعة متّسقة، فهي لا تتغيَّر تلقائيًّا، وتعمل في الكون كلِّه. وقوانين الطبيعة تعملُ في المستقبل كما عملت في الماضي، وهذا أكثرُ الافتراضات أساسية في العلم كلِّه، ودون هذا الافتراض تصبح ممارسةُ العلم مستحيلة؛ فلو أنَّ قوانين الطبيعة تغيّرت فجأة واعتباطًا في الغد فلن تفيدنا في المستقبل نتائجُ التجارب التي أجريناها في الأمس. فتساءل الدكتور ليزلي: لماذا يمكننا الاعتمادُ على قوانين الطبيعية لتعمل باتِّساق عبر مرور الزمن؟ لا يمكن العالم العلماني تفسير هذا الفرض المهم(١).

وذكرَ الدكتور ليزلي بعد ذلك أنَّ الكون يطيع قواعد محدَّدة، وهي قوانين تلتزم بها جميعُ الأشياء. وهذه القوانين دقيقةٌ، وطبيعةُ الكثير منها رياضية. وللقوانين الطبيعية هيكلٌ هرمي بطبيعتها؛ فالقوانين الثانوية للطبيعة تُبنى على القوانين الأساسية للطبيعة، ويجبُ أن تكون هذه القوانين بالترتيب المناسب في كوننا ليصبح وجودها ممكنًا. وتسائل الدكتور: مِن أين أتتْ هذه القوانين؟ ولماذا توجد؟ إن كان الكون مجرَّد حادث عرضي للانْفجار العظيم؛ فلماذا يخضع لمبادئ ناظمة، أو لماذا يخضع لأي نوع من المبادئ على الإطلاق؟ فأجابَ بأنّ القوانين الطبيعية توجَد لأنّ الكون له خالق، وهذا الخالقُ يتَّصف بالعلم وقد فرض النظام على كونه(٢).

ولهذا لا يمكن تفسيرُ وجود هذه القوانين أصلًا إلّا بوجود الله المتّصف بصفات العلم والحكمة والإرادة؛ قال الدكتور ليزلي: «فعلمُ الله مؤثِّر في الكون، ولذلك لا نجد في الكون فوضى أو عشوائية؛ فالكونُ يخضع لقوانين الكيمياء التي اشتقت منطقيًّا من قوانينِ الفيزياء، وكثيرٌ من القوانين يمكن اشتقاقها منطقيًّا من قوانين فيزيائية أخرى أو قوانين رياضية؛ فالقوانينُ الأكثر أساسية في الطبيعة توجد لأن الله أرادها، فوجودها منطقيٌّ وأمرٌ يتَّسق مع حفظ الله وإمداده للكون الذي خلقه. ولكنّ

(١) انظر: A POCKET GUIDE TO Logic & Faith: (77)

(٢) انظر: المصدر السابق (٧٠).

الملحد لا يستطيع تبريرَ حالة الكون المنطقية والمنتظمة، فلماذا يطيع الكون القوانين إن لم يوجد واضع لهذه القوانين؟»[1].

فيمكن بناءُ هذه الحجّة بصياغة منطقية كالآتي:

المقدِّمة الأولى: الطبيعةُ محكومةٌ بقوانين فيزيائية دقيقة للغاية.

المقدِّمة الثانية: كلُّ قانون لا بدَّ له من مقنِّن.

النتيجة: إذًا، القوانين الفيزيائية لها مقنّن، وهو الله تعالى.

وهذه الحجَّة واضحةٌ وبيِّنة، ولكنَّها عامة، وأمّا تفاصيلها فبيانُها في النقطة الثانية والثّالثة.

النُّقطةُ الثّانية:
دلالةُ الضبط الدقيق لتفاعل القوى الأساسية الفيزيائية على الخالق:

قد اكتشف العلماءُ أنَّ الكون تحكمه أربعُ قوى فيزيائية مختلفة، وهي: القوّة الجاذبية (Gravitation Force)، والقوة الكهرومغناطيسية (Electromagnetic Force)، والقوة النووية القويّة (Strong Nuclear Force)، والقوة النووية الضعيفة (Weak Nuclear Force). وهذه القوى الفيزيائية الأربع تتباين فيما بينها بشكلٍ ملحوظ، وهي ذات قيم ومقادير محدّدة بعناية. وبيانُ ذلك كما يأتي:

القوَّةُ الجاذبية: هي أضعفُ القوى الأربعة، ولكنَّها قوَّة ذات مدى طويل، وتعمل على كلِّ شيء في الكون كقوَّة جذب. وهذا يعني أنَّها مؤثّرة في الأجسام الكبيرة، فإنّ القوةَ الجاذبية يمكن أن يضافَ بعضها إلى بعض بحيث تتغلّب على كلّ القوى الأخرى.

القوَّة الكهرومغناطيسية: قوَّة ذات مدًى طويل، وأقوى بكثير من الجاذبية، ولكنّها تعملُ فقط في الجسيْمات المشحونة كهربائيًّا، وتكون متنافرة بين الشحنات المتشابهة، ومُتجاذبة بين الشُّحنات المضادة. وهذا يعني أنَّ القوى الكهربائية بين الأجسام الكبيرة يلغي بعضُها البعض، ولكنَّها سائدة على المستوى الذرّي والجزيئي.

---

(١) المصدر السابق (٧١ - ٧٢)

تُبقي القوّة الكهرومغناطيسية على الإلكترونات في مداراتها حولَ نواة الذرّة، ومن ثمّ فهي المسئولة عنْ تماسك كلِّ أشكال المادة المألوفة لدينا. ومن ثَمَّ، فالقوى الكهرومغناطيسية هي المسئولة عن كلِّ الكيمياء والبيولوجيا.

القوَّة النووية القويَّة: تمسك أيضًا البروتونات والنيوترونات نفسها، وهي ضرورية لكوْن تلك الجسيمات مكوَّنة من جسيمات أدقّ، كالكوركات [١]. إن القوَّة القوية هي مصدرُ طاقة الشمس والطاقة النووية.

القوَّة النووية الضعيفة: تسبِّب النشاط الإشعاعي، وتؤثّر تأثيرًا حيويًّا في تكوين العناصرِ في النجوم، وفي الكون المبكّر؛ حيث يعتمد معدَّل الاحتراق على شدّة القوّة الضَّعيفة، التي تحوِّل البروتون إلى نيوترون في تحويل بيتا العكسي [٢]. إنّ القوّة الضعيفة تدينُ بضعفها هذا (على الأقلِّ على مستوى الطاقات المألوفة على الأرض والشمس) إلى الكتلة الكبيرة للبورزون [٣] W وما يرتبط بها من مدى محدود. إذًا، ما يتحكَّم في بدء الاحتراق الشمسي هو «ضعف» القوَّة النووية الضعيفة، والذي بدوره محكوم بالكتلة الضخمة للبوزون [٤] W.

وقد استدلَّ علماءُ الغرب بالضبط الدقيق لهذه القوى الفيزيائية الأربع على وجود خالقٍ عليم حكيم ضبطَها بهذه الطريقة. وبيانُ ذلك كما يأتي:

---

(١) كوارك (Quark): هو أحد المكونين الأساسيين للمادة في نظرية النموذج القياسي لفيزياء الجسيمات. انظر:
https://www.marefa.org/%D9%83%D9%88%D8%A7%D8%B1%D9%83

(٢) تحويل بيتا (Inverse Beta Decay): الاضمحلال الإشعاعي الذي ينبعث منه الإلكترون، انظر: https: / /en.oxforddictionaries.com /definition /beta_decay,

(٣) بوزون (Boson): تصنف جميع الجسيمات الأولية باعتبارها بوزونات أو فرميونات... البوزونات القياسيةgauge bosons)) هي جسيمات أولية تعمل كجسيم حامل للقوى الأساسية مثل: بوزون الشعاع W بالنسبة للقوة الضعيفة. انظر:
https://www.marefa.org/%D8%A8%D9%88%D8%B2%D9%88%D9%86

(٤) انظر: الصنع المتقن (٢٧٥ - ٢٨٠).

الضَّبطُ الدقيق لقوّة الجاذبية:

قد أثبتتِ الحسابات التي قامَ بها براندون كارتر - عالم الفيزياء النظرية الأسترالي - أنَّه لو تغيَّر «ثابت نيوتن للجاذبية» (Newton's Gravitational Constant) بمقدار صغير جدًّا لا يتعدَّى 10^{72} لما كانت الشمسُ موجودة، ولما أصبحت الحياة على كوكب الأرض ممكنة[1].

وقد علَّق الدكتور جاسون ليزلي على الضبط الدقيق لهذا القانون بقوله: «اعتبر الآن قانون الجذب $F=GMm/r^2$. هنا؛ قوة التجاذب (F) المطبقة على جسم كتلته(m) من طرف كتلة مجاورة (M) على مسافة (ﷺ) يعبّر عنها بهذه المعادلة البسيطة. المعلم (G) هو ثابت الجاذبية الكوني، ويضبط قوة الجاذبية التي يطبق على كل شيء في الكون. و(G) هو عددٌ ضئيل جدًّا؛ لذلك، فقوَّةُ الجاذبية أضعف من القوى الثلاث الأساسية الأخرى (القوة الكهرومغناطيسية، القوة النووية الضعيفة والقوة النووية القوية). وإذا كان القول بالخلقِ غيرَ صحيح (أي أنَّ الكون ليس له مصمّم)، فلماذا إذن يجب أن تخضع الجاذبيةُ إلى صيغة منطقيَّة بسيطة كهذه؟ ولذاتِ الأمر، لم لا يجب أن تخضع الجاذبية لأيَّة صيغة مطلقًا؟ قانونُ الجاذبية يقتضي إذًا وجودَ معطٍ لهذا القانون، وهذا متماشٍ مع حقيقة الخلق»[2].

الضَّبطُ الدقيق للقوّة الكهرومغناطيسية:

وقد بيَّن دين أوفرمان عنِ الضَّبط الدقيق للقوّة الكهرومغناطيسية بأنّ القوَّة الكهرومغناطيسية هي التي تربطُ بين البروتونات والإلكترونات في الذرة. ومسارُ الإلكترون حولَ النواة يمكِّن الذرة من الترابط معَ ذرة أخرى لتكوّنا الجزيء. فلو كانتِ القوة الكهرومغناطيسية أقلَّ قليلًا فلن يبقى الإلكترون في مساره حول النواة،

---

(١) انظر:
Superforce: The Search for a Grand Unified Theory of Nature, by: Paul Davies, (Simon and Schutster, 1984)

(2) Taking Back Astronomy (36)

وبالتالي فأيُّ تغيُّر في هذه القوة سيحول دونَ تكوُّن الحياة. فيجب أن توزن هذه القوة بشكلٍ دقيق جدًّا بينَ عدد الإلكترونات والبروتونات؛ فلو اختلف العددُ لن توجد روابطُ كيميائية، وبالتالي لن توجَد حياة. وإنَّ البروتينات أثقل ١,٨٣٦ مرة من الإلكترونات، وهذا رقمٌ أساسي في الطبيعة، وهو مضبوطٌ بشكل بالغ الدقة من أجل تكوّن الجزيئات(١).

ثمَّ ذكر تعليق ستيفن هوكينج - الفيزيائي الملحد المشهور - على هذا الضبط الدقيق بقولِه: «قوانينُ العلوم التي نعرفها الآن تحتوي على الكثير من الثوابت الأساسية، مثل مقدارِ الشحنة الكهربائية للإلكترون، ومعدَّل كتلة البروتون والإلكترون... الحقيقة الواضحة أنَّ هذه القيم مضبوطة بشكل دقيق جدًّا من أجل ظهور الحياة. فمثلًا، لو كانتْ شحنةُ الإلكترون مختلفة قليلًا فلنْ تستطيع النجوم أن تحرق الهيدروجين والهيليوم أو ستنفجر»(٢).

ثمَّ واصل أوفرمان شرحَ هذا الضبط الدقيق بذكره أنه يوجد معدَّل حرج بين كتلة النيترون وكتلة البروتون لظهور الحياة، لو كانت كلتاهما ليست ضعف كتلة الإلكترون تقريبًا لن توجد نواة مستقرَّة، ولا شكَّ أنَّ الأنوية تشكِّل العناصر اللازمة للتفاعلات الكيميائية اللازمة للحياة. ورغمَ ذلك فإنَّ الاختلاف المضبوط بين كتلة البروتونات والنيترونات(٣) يسمحُ للكون بتوازنٍ غايةً في الإحكام بين كلِّ نيوترون وسبعة بروتونات. فالنيترون أضخم ككتلة من البروتون بحوالي جزءٍ من الألف.

---

(١) انظر: A Case Against Accident and Self – Organization (136 - 137)

(2) A Brief History of Time: From the Big Bang to Black Holes (125)

(٣) نيوتريون (Neutrino) غير نيوترون (Neutron)، يشتركان بأن كلاهما جسيم دون الذرّي بدون شحنة كهربائية، ولكنّ النيوتريون جسيم أوّلي ولا يتكوّن من شيء آخر، أما النيوترون فهو متكوّن من كواركات. النيوتريون أصغر حجمًا من النيوترون. كتلة النيوتريون ١٠ – ٣٧ كجم بينما كتلة النيوترون ٧, ١× ١٠ – ٢٧ كجم.

انظر المقال: Difference between Neutrons and Neutrinos, على الرابط:

http://pediaa.com/difference-between-neutrons-and-neutrinos

ويمتلك البروتون طاقة أقلّ، لو زادت هذه الطاقةُ سينشطرُ النيترون إلى بروتون، وستنفجر القوة الكهرومغناطيسية بعيدًا عن النواة. كلُّ هذا سينتج كونًا لا يحتوي إلّا على بروتونات، ولن يوجد به إلّا عنصرٌ وحيد وهو الهيدروجين.

فالنيتروناتُ ضروريةٌ لأنها مكمنُ القوة النووية القوية التي تمسك بالنواة دون انفجارات التي تحطم كلَّ النظام. لو كانت النيترونات أصغر قليلًا في الكتلة لن تنحل إلى بروتونات، ولن يوجد هيدروجين. فظهورُ الحياة يعتمد على قيمٍ لهذه الكتل الثلاثة؛ كتلة البروتون ٢٨, ٩٣٨ إلكترون فولت، والإلكترون ٥١, ٠ إلكترون فولت (المجموع: ٧٩, ٩٣٨)، وكتلة النيترون: ٥٧, ٩٣٩ إلكترون فولت[١].

ولكنَّ القوَّة الكهرومغناطيسية ليست مضبوطة بدقَّة لحالها فقط، بل هي مضبوطة بدقَّة في توافقها مع قوَّة الجاذبية. وقد بيَّن العلماءُ أنّه لو نقص هذا التوافق بـ١ في ١٠^٤٠ فلا يمكن أن يتكوَّن إلّا نجومًا صغيرة، وإذا زاد بهذا العدد فلا يمكن أن يتكوّن إلّا نجومًا كبيرة. ولا بدَّ أن توجد نجوم صغيرة وكبيرة في الكون لوجود الحياة[٢].

وليسَ هذا فحسب، بل لكي يكون هناك حياة يجب أن يكون هناك توازن بشكل دقيق جدًّا يعادل ١ في ١٠^٣٧ بين عددِ الإلكترونات وعدد البروتونات. بدونه ستقهر الكهرومغناطيسيةُ الجاذبية، والأخيرة لازمةٌ لتكوين النجوم والكواكب. وقد أوضح هيو روس أنَّ هذه الدقة لا يمكن تصورُها، فذكر أنه لو تمَّ تغطية قارة أمريكا الشمالية بدايمات (Dimes)[٣] بعضها فوق بعض إلى أن تصل القمر، وهو ارتفاع ٢٣٩٠٠٠ ميل[٤]... ثمَّ كدَّسنا المال من هنا للقمر على مليار قارة أخرى بنفس مساحة أمريكا الشمالية. الآن لوِّن قطعة مالية باللون الأحمر واخلطْها داخل أموال المليار قارة. ثمَّ نطلبُ من صديق معصوب العينين أنْ يلتقط القطعة الحمراء. إن المصاعب التي

---

(١) انظر: A Case Against Accident and Self - Organization (137 - 138)

(٢) انظر: God’s Undertaker (70)

(٣) عملة أمريكية بقيمة عشر سنتات.

(٤) ويعادل: ٣٨٠,٠٠٠ كيلو.

سيواجهُها هي معنى ١ من ١٠^٣٧. وهذا جزءٌ واحد من المعايير التي يجب أن يتمَّ ضبطُها ليحدث اتزان من أجل نشوء الحياة[١].

فهل يمكن أن يعتقدَ العاقل أنَّ هذا التوازن الدقيق قد حدث صدفة؟ الأمر واضحٌ وضوحَ الشمس، لو كان الملاحدة يعقلون.

الضَّبطُ الدقيق في القوة النووية القوية:

توجَد في النواة بروتونات ذاتُ شحنة موجبة، والقوّة النووية القويَّة تحملها على الاستقرار داخلَ النواة، وتمنعها من التناثر. هذا الأمرُ شبيهٌ بمحاولة قسر قطعتي مغناطيس للالتقاء من ذاتِ القطب، فهذا الالتقاء سيولِّد حالة من التنافر بينهما، لكن إذا كانتْ هذه القوَّة التي تحملها على الالتقاء أكبرَ؛ فبالإمكان التغلُّب على قوّة التنافر. ولكن، لا بدَّ أن تكون هذه القوّة معايرة بشكل دقيق جدًّا[٢]. وقد بيّن ذلك دين أوفرمان هذا الضبط بأنَّه لو كانت القوة النووية أضعف مما هي عليه فلن تربط بين جسيماتِ الذرة معًا، وسيصبح الكونُ عنصرًا واحدًا وهو الهيدروجين، ولن يتكوَّن الديتيريوم[٣]. وأيُّ انخفاض في القوى النووية سوف يُذيب الترابط بين البروتون والنيترون في الديتيريوم؛ فالديتيريوم مكوِّن حرجٌ في التفاعل النووي، حيث يحافظ على بقاء النجوم كالشمس، وبالتالي هو ضروري من أجل الحياة.

فلوْ زادت القوة النووية بنسبة ٢ ٪ فقط سترتبطُ البروتونات معًا رغم التنافر بينهما بسببِ الشحنة نفسها، ولن يكون الهيدروجين عنصرًا معتادًا في الكون. وسيتكوّن الكونُ بالأساس من الهيليوم وكميَّة ضئيلة جدًّا من الهيدروجين. بالطبع،

---

(١) انظر: The Creator and the Cosmos (115)

(٢) انظر: شموع النهار (١٨٠).

(٣) ديوتيريوم (Deuterium): الذرة التي تحتوي نواتها على بروتونون واحد ونيوترون واحد. انظر:
https://www.marefa.org/%D8%AF%D9%8A%D9%88%D8%AA%D8%B1%D9%8A%D9%88%D9%85

فالهيدروجين ضروريٌّ لتكوين الشمس والماء السائل، وكلاهما ضروريٌّ من أجل الحياة. ارتباط البروتونات سيتسبَّب أيضًا في جعل الهيدروجين متفجِّرًا بشكل كارثي. ليس هذا فقط بل سيتسبَّب في فقدان عناصر ثقيلة ضرورية للحياة، وسيمنع الكواركات من تكوين البروتونات.

أمّا لو قلَّت القوة النووية بنسبة ٢ ٪ فقط فإنّه سيولِّد عناصر معينة أساسية للحياة غير مستقرَّة. تتحكَّم القوى الضعيفة في الإحراق الهيدروجيني للشمس بطريقة بطيئة ومستمرَّة. البروتونات المترابطة تنتج الديتيريوم، وباستطاعته أن يتسبَّب في عملية الإحراق الهيدروجيني بتحكُّم القوى النووية القوية. وهذا التحكّم أسرع بمعدل ١٠ [١٨] من الإحراق بتحكّم القوَّة النووية الضعيفة. ولو كان كذلك لتسبّب في انهيار استهلاك الهيدروجين، وبالتالي لاستهلك جميع الهيدروجين أو أكثره في المرحلة البدائية الحارّة، ويبقى الهيليوم العنصرَ الوحيد في الكون[١].

الضَّبطُ الدقيق للقوة النووية الضعيفة:

القوَّة النووية تسبِّب النشاط الإشعاعي، وتعمل عملًا حيويًّا في تكوين العناصر في النُّجوم، كما أنَّها تؤثّر في اللبتونات (كالفوتونات والإلكترونات والنيترونات). وذكر دين أوفرمان أنه لو كانتْ هذه القوة أكبرَ قليلًا ستتحلَّل النيترونات بسرعة، ولن تستطيع تكوينَ هيليوم. إنَّ الهيليوم ضروريٌّ من أجل تكوين عناصر أثقل لازمة للحياة. لو زادت هذه القوةُ بشكل أكبرَ وملحوظٍ سيحترقُ الهيدروجين بسرعة إلى هيليوم، ولن يبقى سوى الهيليوم الذي سيكوِّن النجوم. بدون الهيدروجين لن يوجد ماء، وهو عنصر هامٌّ للحياة. بالمثل لوْ ضعفت هذه القوى قليلًا فلن يوجَد هيدروجين لأنه سيتحوَّل إلى هيليوم، ولن يوجد حياة ممكنة.

وذكر القوة النووية الضعيفة تؤثّر في تفاعلات التحلّل بيتا (Beta decay reaction) التي بها تصبح النيترونات بروتونات وإلكترونات ونيتريونات. تعتبر النيتريونات أكثر العناصر

---

(١) انظر: A Case Against Accident and Self – Organization (132 - 133)

انتشارًا في الكون، فهناك ما يقارب ١٠٩ نيوتريون لكل بروتون وإلكترون. وتوجد في ثلاثة أشكال، وتعمل عملًا مهمًّا في القوة النووية الضعيفة. تتفاعل النيتريونات بشكل ضعيف جدًّا مع المكوّنات الأخرى، وليست لها شحنة وتنتقل بسرعة الضوء. أوضحت التجاربُ أنَّ كتلة النيتريون حوالي ٥ × ١٠-١٨ كجم، أو حوالي ٥ × ١٠-٥ من كتلة الإلكترون. ولأنَّ كثافة النيترونات هائلة بحوالي ١٠٩ م-٣ في الكون، فيمكن أن تتجاوز الكثافة المتراكمة للنيترونات كتلةَ جميع النجوم. وبالتالي لو أنَّ هناك زيادة قليلة في كتلتها ولنقلْ مثلًا ٥ × ١٠-٣٤ بدلًا من ٥ × ١٠-٣٥ كجم، فسينكمش الكون بدلًا من أن يتمدَّد. فمِن الواضح جدًّا أنَّ كتلة النيتريونات مضبوطة بشكل دقيق جدًّا[١].

فالقوَّة النووية الضعيفة تؤثِّر في الجسيمات دون الذرِّي بشكل دقيق للغاية. وهذا الضَّبط الدقيق لم يعرفه الناسُ من قبْل، ولكن مع تطوُّر العلوم التجريبية علم الناس بحقائق كانت مجهولة من قبل.

والقوَّة النووية الضعيفة لا تؤثِّر بنفسها في الجسيمات دون الذرّي بشكل مضبوط للغاية فحسب، بل علاقة هذه القوَّة ببقية القوى الفيزيائية الأربع مضبوطة بضبط دقيق للغاية؛ قال دين أوفيرمان: «تربط القوةُ النووية الجسيمات في الذرة، وهي أقوى القوى، تقريبًا أقوى مائة مرَّة من القوة الكهرومغناطيسية، وهي أقوى بعشرة آلاف مرة من القوة النووية الضعيفة. إنَّ القوة النووية الضَّعيفة أقوى بـ ١٠ آلاف مليار مليار مليار مرة من قوةِ الجاذبية. بالنظر لهذا التَّفاوت الشديد، يمكن المرء أن يقيِّم الضبط المطلوب لحصول توازنٍ بين هذه القوى بمستوى دقّة ١ من ١٠٦٠...»[٢].

وقد مضى ذكرُ مثال البروفسور بول ديفيز أنَّ حصول مستوى دقة ١ من ١٠٦٠ بالصُّدفة مثل رمي رصاصةٍ من طرف الكون إلى الطرف الآخر وإصابة الهدف. ولا شكَّ أنَّ هذا الأمر في عداد المستحيل، وأنه يلزم وجودُ خالق عليم حكيم ضبطَ التوازنَ بينَ هذه القوى الفيزيائية الأربع بهذا الضبط الدقيق.

---

(١) انظر: A Case Against Accident and Self – Organization (132 - 133)

(٢) المصدر السابق (١٣٢).

تقييمُ الحججِ المتعلّقة بالفيزياء:

حججُ علماءِ الغرب المتعلّقة بالفيزياء من حيث العموم حججٌ قويَّة وصالحة للاستدلال، وهي تدلُّ دلالةً قطعية على استحالة وجود قوانين الفيزياء والقوى الفيزيائية بهذا الضَّبط الدقيق مصادفة؛ فلا بدَّ من وجود خالق خلق الكون وفْق هذه القوانين، وجعلَ هذه القوى الفيزيائية مضبوطة بدقّة.

وقد ذكر اللهُ تعالى في كتابه العزيز في آياتٍ كثيرة أنه خلقَ هذا الكون وكلَّ ما فيه بنظامٍ مُتقَن، وأنَّه هو الذي يمسك السماواتِ والأرض، وأنه يرفع السماء بغير عَمد. وأنَّه سخَّر الشمسَ والقمر وفقَ أجل محدّد، وأن كلَّ ما في الكون يجري وفق سننِه الإلهية. وقد أرشدَ عبادَه إلى تأمّل هذه الآيات الباهرة. ومن تلك الآيات:

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴾ [فاطر: ٤١].

وقوله تعالى: ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦ وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴾ [الحج: ٦٦].

وقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ ﴾ [الرعد: ٢].

وقوله تعالى: ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ بِأَمۡرِهِۦۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمۡ دَعۡوَةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ إِذَآ أَنتُمۡ تَخۡرُجُونَ ﴾ [الروم: ٢٥].

وقوله تعالى: ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ كُلّٞ يَجۡرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴾ [لقمان: ٢٩].

وقوله تعالى: ﴿ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗى ﴾ [فاطر: ١٣].

وهذه الآيات «تدلُّ على الخالق من جهةِ الخضوع الكوني العام لسيطرة قاهرة تامّة، لا تملك الخروجَ عليها ذرَّة واحدة، وتتمثَّل هذه السيطرة في السنن والنواميس الكونية الدقيقة التي تسير عليها العوالم دونما تخلُّف»[1].

وهذا يتوافقُ مع ما دلَّ عليه العلمُ التجريبي أن هذا الكون محكومٌ بقوانين فيزيائية دقيقة للغاية. وبهذا تكون هذه الحجَّة حجة قويَّة على وجود الله.

---

(١) الأدلة العقلية النقلية على أصول الاعتقاد (٢٣٧).

المبحثُ الثّالث

الحججُ المتعلِّقة بعلم الأحياء

هذا المبحث يتناول الحججَ المستنبطة من علم الأحياء التي يستخدمها علماءُ الغربِ في الاستدلال على وجود الله.

وقد عرَّف قاموس مريام ويبستر علمَ الأحياء بأنه: «فرعُ العلوم المعني بالكائنات الحيَّة والعمليات الحيوية»[١]. فموضوعُ علم الأحياء هو الكائنات الحيّة، وهو موضوعٌ واسع وكبير، ويتفرَّع عنه فروعٌ كثيرة جدًّا. ولكنَّ أكثر ما يستدلُّ علماءُ الغرب بعلم الأحياء على وجود الخالق يرجعُ إلى الاستدلال بالإحكام والإتقان في المخلوقات الحيّة.

وعلماءُ الملاحدة يعرفون جيِّدًا مدى الإتقان والإحكام في الكائنات، حتَّى تجرّأ ريتشارد دوكينز بتعريفِ علم الأحياء بقوله: «دراسة الأشياء المعقدة التي تعطي انطباعًا بأنَّها صُمِّمت من أجل هدف»[٢]. وقال أيضًا: «الكائناتُ الحية تبدو مصمَّمة، إنها تبْدو بشكلٍ غامر كما لو أنها مصمَّمة»[٣]. فالتصميم واضح عندهم، بل أوصى كبيرُهم فرانسيس كريك أتباعَه أن يبقوا هذه القضية في أذهانهم دائمًا؛ إذْ قال: «يجب على علماءِ الأحياء أن يبقوا في أذهانهم دائمًا أنَّ ما يروْنه لم يتمّ تصميمُه، ولكنه تطوَّر»[٤].

---

(١) قاموس مريام ويبستر:

https://www.merriam-webster.com/dictionary/biology

(2) The Blind Watchmaker (1)

(3) Royal Institution Christmas Lectures, 1991

(4) Lessons from Biology, Natural History, 1988 (Vol. 97, p. 36)

ولكنَّ الملاحدة يردُّون هذا التصميم والإتقان والإحكام إلى طفرات عشوائية والانتخاب الطبيعي وفقَ نظرية التطوّر، ولا يعترفون بالخالق.

ويردُّ عليهم علماءُ الغرب أنَّ الكائنات الحيّة لا تبدو مخلوقة فحسب، بل هي مخلوقة حقًّا. وذلك بذكْر الأدلةِ والبراهين القاطعة على أنه لا يمكن ردّ هذا الإتقان والإحكام إلى طفراتٍ عشوائية والانتخاب الطبيعي، بل لا بدَّ من وجود خالقٍ عليم حكيم، خلقَ هذه الكائنات وفقَ هذا الإتقان والإحكام.

وحيث أنَّ الكلام عن الإحكام والإتقان في الكائنات الحيّة وأجزائها كثيرٌ جدًّا، لا يمكنُ حصرُه حتَّى في مجلَّدات كثيرة، فسوف يتمُّ التركيز على ثلاث قضايا رئيسة - وهي مِن أكثر ما يتكلّم عنها علماءُ الغرب -، وهي ثلاثة أمثلة:

المثالُ الأوَّل: الإتقانُ والإحكام في الخلية.

المثالُ الثّاني: الإحكامُ والإتقان في المخ.

المثالُ الثّالث: دلالةُ العين على وجود الله.

وبيانَ ذلك كما يلي:

المثالُ الأوَّل: الإتقانُ والإحكام في الخلية:

الإنسان مركَّبٌ من أعضاء، والأعضاءُ مركَّبة من أنسجة، والأنسجةُ من خلايا. يوجَد في الإنسان - كما سبق ذكرُه - حوالي مائة ترليون خلية. والإحكام والإتقان في داخلِ الخلايا أمرٌ عجيب للغاية، ومِن أكبر الأدلة على أنها مخلوقة من قبَل خالق عليم قدير. وقد ذكرَ الدكتور مايكل دينتون تحدِّيات الإحكام في الخلية لنظرية التطوّر إذ قال: «في ندوةٍ داخلَ معهد ويستار عام ١٩٦٦م، التي جمعت مختصّين في الرياضيات والبيولوجيا ذوي مؤهِّلات أكاديمية ممتازة، اعترفَ السير بيتر ميدوار في خطابه الاستهلالي بوجودِ شعورٍ واسعِ الانتشار للتشكيك في دور الصدفة في التطوّر...»[١].

---

(١) التطور: نظرية في أزمة (٤٠٠)، للدكتور مايكل دينتون، (مركز براهين لدراسة الإلحاد ومعالجة النوازل العقدية، الطبعة الأولى، ٢٠١٧ م. مجموعة من المترجمين).

وهذا الأمرُ لم يكن معروفًا في زمن داروين بسبب ضعف المجاهر؛ قال الدكتور دينتون: «إذا عُرضتِ الخلية الحيَّة تحتَ مجْهر ضوئيٍّ بتكبيرٍ إلى نحو عدَّة مئات المرّات - كما كانت الإمكانات في زمن داروين - فستظهر بمشهد مُحبط نسبيًّا، فلا تبدو سوى قالبٍ دائم التغيُّر مضطربٍ ظاهريًّا من النقاط والجسيمات التي ترميها قوى عنيفة غير مرئية جزافًا في جميع الجهات»[1].

وأمَّا في هذا الزمان، مع تطوُّر المجاهر، فيختلف الأمرُ تمامًا، وتُظهر المجاهر مدى الدقَّة والإتقان في الخلية. وقد تحدَّث الدكتور دينتون عن هذا الأمر بشيء من الطول، ولكنَّ الكلام في غاية النفاسة؛ فقدْ قال: «ولكن لنُدرك حقيقة الحياة كما أظهرتها البيولوجيا الجزيئية يجبُ علينا أن نكبِّر الخليَّةَ ألف مليون ضعف، حتَّى يصل قطرها إلى عشرينَ كيلومترًا، وتشابه منطادًا ضخمًا لدرجةٍ تكفي أن يغطّي مدينة ضخمة، مثل لندن أو نيويورك، وما سنراه عندئذ سيكون شيئًا فريدًا من التعقيد والتصميم التكيّفي، سنرى على سطحِ الخلية ملايين الفجوات التي تشبه كوّات سفينة فضائية ضخمة تفتح وتغلَق لتسمح لتيارٍ مستمرٍّ من المواد أن يتدفَّق داخلًا وخارجًا. لو أردنا أن ندخل إحدى هذه الفجوات، فسنجدُ أنفسنا في عالم من التكنولوجيا العالية والتعقيد المذهل؛ حيث سنرى أروقةً لا تحصى عددًا، وقد نُظِّمت إلى حدٍّ كبير، ونجد أقنية متشعّبة في كلِّ جهة، متَّجهة إلى خارج حدود الخلية، بعضها يصل إلى بنك الذاكرة المركزي في النَّواة، وبعضها الآخر إلى مصانع التجميع ووحدات المعالجة، وستكون النواة بمفردها على شكلِ حجرة كرويَّة واسعة، بقطْر طولُه أكثر من كيلومتر مثل قبة جيوديسية، نرى في داخلها أميالًا من السَّلاسل الملتفَّة من جزيئات الحمض النووي[2] تتكدّس جميعها معًا في مصفوفاتٍ مرتَّبة، وسيمرُّ نطاقٌ ضخم من المنتجات والمواد الخام عبر الأقنية

---

(١) المصدر السابق.

(٢) الحمض النووي (DNA): مجموعات من مركَّبات معقّدة توجد في الخلايا الحيَّة والفيروسات، تتألَّف من البورين والبيرميدين والكربوهيدرات وحمض الفوسفوريك. انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة (١ / ٥٦٠).

المتشعِّبة بشكل منظَّم تنظيمًا عاليًا، مِن وإلى جميعِ مصانع التجميع المختلفة في المناطق الخارجية من الخلية.

وستعْجَب من مستوى التحكُّم الكامن في حركة كثير من الأشياء على طول ما يبْدو أنه أقنية لا نهاية لها، تتحرَّك بانسجام تامّ، وسنرى حولنا وكيفما قلبنا النظر جميعَ أنواعِ الآلات التي تشبه الروبوبات الآلية. سنلحظُ ونذهل من أنَّ أبسط المكوّنات الوظيفية لخليةٍ بالجزيئيات البروتينية هي آلياتٌ جزيئية معقَّدة، كلٌّ منها يتكوّن من ثلاثة نشاطاتِ هذه الآلات الجزيئية العجيبة - التي نستغرب أنها نشاطات هادفة، لا سيَّما عندما ندرك أنه رغمَ كلِّ معرفتنا التراكمية في الفيزياء والكيمياء تبقى مهمّة تصميم آلة جزيئية واحدة كهذه - أي جزيء بروتيني وظيفي واحد فقط - خارج نطاق قدراتنا تمامًا في الحاضر، ومن المحتمل أنه لن يتمَّ ذلك حتَّى في بداية القرن القادم على الأقلّ، فكيف إذن تعتمدُ حياة الخلية على النشاطات المتكاملة لآلاف الجزيئات البروتينية - بالتأكيد عشرات الآلاف - وربمّا مئات الآلاف.

سنرى أنَّ كلَّ ميزة تقريبًا من ميْزات آلاتنا المتقدّمة لها نظير في الخلية؛ كاللغات الاصطناعية وأنظمة تشفيرها، وبنوك الذاكرة المخصَّصة لتخزين المعلومات واستردادها، وأنظمة التحكُّم الراقية التي تنظّم التجميع الذاتي للقطع والمكوّنات، وأجهزة الوقاية من الأعطال (error fail – safe)، وأجهزة الدقيق اللغوي المستخدمة في التحكّم بالجودة، وعمليات التجميع التي تتضمَّن مبدأ التصنيع المسبق والبناء الجزيئي. في الحقيقة، سنعيش شعورَ (لقد رأينا هذا من قبْل) - الديجافو deja – vu بشكل عميق جدًّا، وسيكون التشابهُ مقنعًا جدًّا لدرجةِ أننا سنقتبس الكثيرَ من مصطلحات عالم تكنولوجيا في أواخر القرن العشرين لوصف هذا الواقع الجزيئي الساحر»[١].

---

(١) التطور: نظرية في أزمة (٤٠٠ - ٤٠٢)، وينبغي التنبيه على أن هذا الكتاب طُبع عام ١٩٨٥، ولهذا يذكر المؤلّف كلمات مثل: «بداية القرن القادم»، و«في أواخر القرن العشرين». ولكن هذا الكلام يصدق اليوم، بل تطوّر العلم أكثر بكثير في هذا المجال.

وخلاصةُ كلامه عنِ الخلية أنها: «ما يناهض فكرة الصدفة هو محض عموم الكمال؛ فحيثما نظرنا، وإلى أيِّ عمق نظرنا؛ نجد رقيًّا وبراعةً ذات جودة فائقة تمامًا. فهلْ من المعقول أنَّ عمليات عشوائية يمكن أن تكون قد أنشأت واقعًا يكون التعقيد أصغرَ عنصر فيه - أي البوتين الوظيفي أو المورثة الوظيفية - يفوق قدراتنا الإبداعية، واقعًا يناقض الصدفةَ تمامًا، يفوق بكلِّ معنى الكلمة أيَّ شيء أنتجه ذكاء الإنسان؟ حتَّى أكثر منتجاتنا الصنعية تقدُّمًا تبدو أمامَ مستوى البراعة والتعقيد الذي تبديه الآلية الجزيئية في الحياة خرقاء، ونشعرُ بالتواضع كما يشعر إنسانُ العصر الحجري أمام تكنولوجيا القرن العشرين»[1].

فهذه شهادةٌ لأحدِ علماء البيولوجيا الجزيئية الكبار، وهو متخصِّص في دراسة الخلية، ويصفُ هذه الأوصاف، رغمَ أنه ليس بمتدين، بل يصنِّف نفسه لاأدريًّا - كما سبق ذكرُه -.

والمذهلُ في الخلية أنها تشتملُ على هذا التعقيد العجيب رغمَ صغرها الشديد؛ قال البروفسور جون لينوكس: «من الصَّعب علينا أن نحصل على أي نوع من الصور لهذا النَّشاط المعقّد الذي يصيبنا بالاضطراب والتشويش، والذي يحصل داخل الخلايا الحية، والتي تحتوي ضمنَ أغشيتها الدسمة فقط على أكثر من ١٠٠ مليون بروتين من ٢٠ ألفِ نوعٍ مختلف. ومع ذلك فإنَّ كلَّ هذه الخلية صغيرة إلى درجة أن عدة مئات منها يمكن أنْ توضَع فوق النقطة التي تعلو حرف «i»[2].

فالخليةُ أشبه ما تكون بمصنع متكامل، والبروتينات تعمل بما يشبه الآلات التي يخترعُها البشر؛ قال البروفسور بروس آلبرتس[3]: «لطالما قللنا من شأن الخلايا،

---

(١) المصدر السابق (٤١٨).

(2) God's Undertaker: (123)

(٣) بروس آلبرتس (Bruce Alberts): بروفسور الكيمياء الحيوية الأمريكي، ورئيس الأكاديمية الوطنية للعلوم في الولايات المتحدة بين ١٩٩٣ - ٢٠٠٥ م. انظر:
https://www.britannica.com/biography/Bruce-Alberts

يمكن عرضُ الخلية بمجملها على أنها مصنعٌ يحتوي شبكة دقيقة مكونة من تشابك أجهزة متراكبة، كلٌّ واحدٍ منها مكوَّن من مجموعة من الآليات البروتينية الكبيرة... لكن لماذا ندْعو تجمُّعات البروتين الكبيرة الكامنة وراء الوظيفة الخلوية بالآلات البروتينية؟ الجواب الدَّقيق هو لأنها تشابه الآلات التي اخترعها البشرُ للتعامل بكفاءة مع العالم المحيط، هذه التجمعاتُ البروتينية تحتوي على أجزاء متحركة على درجة عالية من التنسيق»[1].

ومِن المعلوم أنَّ المصنع لا بدَّ له من صانع، فكيف بمصنع الخلية الذي يفوق أيَّ مصنع بناه الإنسان؟ وكيف إذا قدَّر العلماء أنَّ عدد الخلايا في جسم إنسان واحد قد يصلُ إلى ١٠٠ ترليون خلية - كما سبق ذكرُه - ؟

ولكن، مِن أعقد الأمور في داخل الخلية هو الحمضُ النووي الذي وصفه بيل غيتس بقوله: «إنَّ الحمض النووي كبرنامج حاسوبي، لكنه أكثر تقدّمًا بالكثير الكثير عن أيِّ برنامج قمْنا بإعداده»[2]. وحتى أصغر أنواع الخلية يحتوي على معلومات هائلة؛ قال البروفسور جون لينوكس: «يبلغ طولُ الحمض النووي لبكتيريا الإشريكية القولونية[3] حوالي أربعة ملايين حرف، وسيملأ ١٠٠٠ صفحة في كتاب، بينما الجين البشري يبلغ حوالي ٣,٥ مليار حرف طولًا، وسيملأ مكتبة بأكملها»[4].

وهذه المعلوماتُ تنشأ من ترتيب دقيقٍ جدًّا للنيوكليوتيد[5] في سلسلة الحمض النووي، وإذا تغيَّر الترتيبُ الصحيح فإنَّ السلسلة سوف تكون عديمة الفائدة. ويمكن أن

---

(1) The Cell as a Collection of Protein Machines, the Cell, (92, p. 291)

(2) The Road Ahead (228), by: Bill Gates, (Penguin, 1996)

(٣) الإشريكية القولونية (Escherichia coli): أنواع البكتيريا التي تعيش عادة في المعدة والأمعاء. انظر: https: / /www.britannica.com /science /E – coli

(٤) God's Undertaker (١٣٧)

(٥) النيكلوتيد (Nucleotide): جزيء عضوي يمثل لبنة بناء الحمض النووي الصبغي والحمض النووي الريبي. انظر: https: / /biologydictionary.net /nucleotide/

تكونَ هذه السلسلة على أشكال كثيرةٍ جدًّا بشكل لا يوصف؛ فقد ذكر البروفسور فرانك سالزبيري[1] أنَّ البروتين قد يضمُّ متوسّط الحجم نحو ٣٠٠ حمض أميني. وستحتوي سلسلةُ جينات الحمض النووي المتحكّمة في هذه الأحماض نحو ١٠٠٠ نيوكليوتيدة. وحيث إنَّه يوجد أربعةُ أنواع من النيوكليوتيدات في سلسلة الحمض النووي الصبغي فيمكنُ لواحدة منها مكوّنة من ١٠٠٠ حلقة أنْ تتواجد في عدد من الأشكال يساوي $٤^{١٠٠٠}$ شكل. وباستخدام قليلٍ من الجبر ذكر البروفسور سالزبيري أننا نجدُ أن $٤^{١٠٠٠} = ١٠^{٦٠٠}$، وهذا الرقم هو الرقم ١٠ مضروبًا في نفسه ٦٠٠ مرّة، أو هو ما يساوي الرقم ١ متبوعًا بستمائة صفر! وهذا الرقم يقع خارج نطاق إدراكنا تمامًا[2].

رغمَ ذلك فإنَّنا نجد بالفعل أنَّ الترتيب في الحمض النووي على الشكل الصحيح. وحسبَ قول الملاحدة التطوّريين فإنَّ النيوكليوتيد ترتّب بالطريقة الصحيحة بطفرات عشوائيةٍ والانتخاب الطبيعي. وهذا في الحقيقة إساءةٌ للعقل كما قال الدكتور مايكل دينتون: «يرى المتشكّك أنَّه من الإهارنة للعقل افتراض تشكيل العملية العشوائية للبرامج الجينية لدى الكائنات الراقية، تلك التي تتألَّف مما يقارب ألف مليون معلومة - أيْ ما يساوي تسلسل حروف في مكتبة صغيرة ذات ألف مجلّد -، وتحتوي آلافًا لا تحصَى من الخوارزميات المعقَّدة بشكل مرمَّز، والتي تتحكّم بنموٍّ ونماء مليارات ومليارات الخلايا لترتَّب على شكل كائنٍ معقَّد. لكنَّ الداروينيي يرى أن الفكرة مقبولة دون أدنى شكٍّ!»[3].

---

(١) فرانك سالزبيري (Frank Salisbury): بروفسور فيزيلوجيا النبات في جامعة يوتا بالولايات المتَّحدة. وكان يتبنّى القول بنظرية الخلق وصنّف في ذلك بعض الكتب. توفي عام: ٢٠١٥م. انظر:
https://www.legacy.com/obituaries/hjnews/obituary.aspx?page=lifestory&pid=177071825

(٢) انظر:
"Doubts about the Modern Synthetic Theory of Evolution", American Biology Teacher 1971, (336)

(٣) التطوّر - نظرية في أزمة (٤٣٠).

ولا شكَّ أنَّ هذه المعلومات بحاجةٍ إلى خالق عليم حكيم أودعها في الحمض النَّووي بهذا الترتيب المتْقَن. ولا يمكن ألبتَّة أنْ تكون الطفرات العشوائية والانتخاب الطبيعي مسئولتيْن عن ذلك.

الخلايا ليست آياتٍ دالةً على الخالق بحدِّ ذاتها فحسب، ولكنّ هذه الخلايا تكوّن أنسجة، وهذه الأنسجة تكوِّن أعضاءً في الجسد. وكلُّ عضو من أعضاء الكائنات الحيّة آيةٌ على الخالق أيضًا. والحديثُ عن هذه دلالة الأعضاء في الكائنات الحيّة على الخالق لا يمكن حصرُه إلّا في الموسوعات الكبار. ولهذا يكتفى في هذا المقام بذكر آية المخّ وآية العين.

المثالُ الثّاني: الإحكامُ والإتقان في المخ:

قدْ ذكر البروفسور كريستوفير كوخ أن مخَّ الإنسان أكثر الأشياء تعقيدًا في الكون كلِّه[١]. فهذا التعقيدُ والإتقان والإحكام والتصميم يصعب وصفُها بكلمات قصيرة. ولكنْ قد ذكر دين أوفرمان وجهَ دلالة تعقيد الدماغ على أنه لا يمكن أنه تكوّن مصادفةً، فبيَّن أنَّ التعقيد الموجود في خليةٍ واحدة يتضاءل أمام تعقيد مخّ الإنسان، والذي يتكوَّن من أكثر من عشرة آلاف مليون خلية عصبية تربط بين خلايا المخّ، لذلك فعددُ خلايا المخ إجمالًا هو 10^{15} خلية (ألف مليون مليون خلية). وهذا رقم كبيرٌ للغاية، خاصَّة عندما نضع في اعتبارنا أنَّ كلَّ خلية عصبية لها وظيفة معينة داخل النِّظام المترابط في المخّ. وهذا بلغةِ الاتِّصالات يماثل ١٠٠ ضعف كلِّ شبكات الاتصال على كوكب الأرض! فاحتمالية تجمُّع مثل هذا النظام حتَّى بفعل إنسان ذكي صغير جدًّا، أمّا فكرة ظهورها مصادفة فهي ساذجة[٢].

وقد ضربَ الدكتور مايكل دينتون مثالًا لعددِ هذه الاتّصالات في الدماغ إذ قال: «بالتأكيد تفوق الأرقامُ التي من رتبة 10^{15} أيَّ إدراك بكلّ معنى الكلمة؛ تخيّل منطقة بنصفِ

---

(١) انظر المقابلة مع البروفسور كوخ:
Decoding 'the Most Complex Object in the Universe'

(٢) انظر: A Case against Accident and Self – Organization (66)

حجم الولايات المتَّحدة الأمريكية تقريبًا - مليون ميل مربَّع - مغطّاة بغابة من الأشجار، في كلِّ ميل مربَّع فيها عشرة آلاف شجرة، فإذا كان لكلِّ شجرة مائة ألف ورقة، سيكون إجمالي عددِ الأوراق في الغابة 10^{15}، وهو يساوي عدد الاتّصالات في الدماغ»[1].

ثمَّ ذكر الدكتور دينتون مدَى التنظيم بين شبكة الاتّصالات في دماغ الإنسان بقوله: «رغمَ ضخامة عدد الاتّصالات، إلّا أنَّ الغابة المتشعّبة من الألياف ليست حبيكة - تشابك عصبي (tangle) - عشوائية فوضوية، بل شبكة منظَّمة إلى حدٍّ بعيد، تشكّل نسبة عالية من الألياف أقنية اتِّصالات فريدة متكيّفة، تتبع مساراتها المرسومة خصيصًا لها عبرَ الدماغ، حتَّى لو كان جزءٌ واحد من مائة جزء من الاتّصالات في الدِّماغ منظَّمًا بشكلٍ خاص، سيبقى يمثِّل نظامًا يحوي عددًا من الاتّصالات الدقيقة، أكبرُ بكثير من كامل شبكة الاتِّصالات على وجه المعمورة. وبسبب العدد الكبير من الاتِّصالات التكيُّفية الفريدة، سيستغرق تجميع شيء يشبهُ الدماغ إلى حدّ بعيد، حتَّى إنْ طبَّقنا أكثر التقنيات الهندسية تطوّرًا، زمنًا يطول إلى الأزل.

ممّا لا شكَّ فيه أنَّ تعقيد الأجهزة البيولوجية المتعلّق بالعدد للمكوّنات الفريدة؛ أمرٌ مثير للإعجاب جدًّا، ويطرح هذا التعقيدُ السؤال الجلي: هل كان لأيٍّ نوع من العمليات العشوائية على الإطلاق أن تركّب أجهزة كتلك في حدود الوقت المتاح؟»[2].

ولا شكَّ أنَّ الجواب عن هذا السؤال: لا! فلا يمكن أن يتطوَّر هذا الدماغ المعقّد للغاية عن طريق طفراتٍ عشوائية والانتخاب الطبيعي؛ بل لا بدَّ أن يكون خالقٌ خلق هذا الدماغ المتقن المحكم.

المثالُ الثّالث: دلالةُ العين على وجود الله:

العينان من أعجبِ خلق الله تعالى على الإطلاق، ولما امتنَّ اللهُ على خلقه ببعض النِّعم في جسده بدأ بذكْر العينين؛ قال تعالى: ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴾[البلد: ٨ - ٩]. وقد تحدَّث سكوت هيوس عن وجه دلالة العين

---

(١) التطوّر - نظرية في أزمة (٤٠٣).

(٢) المصدر السابق (٤٠٣ - ٤٠٤).

على إبطال قول الملاحدة أنها تطوّرت بالصدفة؛ فذكر أنَّ العين تتمتَّع بتعقيد مميّز ومُذْهل، فهي مُجهَّزة بنظام تصويبٍ تلقائي، وتركيز للصورة تلقائيًّا، وضبط الفتحة تلقائيًّا، وهي مجهَّزة لانتقال الرؤية من الظلام الحالك إلى نور الشمس، ورصد جسْمٍ بسُمك الشعرة الرفيعة، والقيام بـ ١٠٠,٠٠٠ حركة منفصلة وسطيًّا في اليوم. وتقدِّمُ لنا العين سلسلةً متّصلة من الصور الملوّنة، وكل ذلك تقدِّمه بغير شكوى، ثمَّ عندما ننام، تقوم بأعمال الصيانة لنفسها.

فالعينُ البشرية معقَّدة جدًّا ومتطوّرة لدرجةِ أنَّ العلماء لم يفهموا كيفية عملها بالكامل إلى الآن؛ فمِن الصعب فهمُ كيف يعتقد التطوّريون بصدقٍ أنَّ العين تكوّنت بخطواتٍ تدريجية، بعملية التجربة والخطأ التطوّرية، عندَ النظر إلى البناء المدهش والوجود المتزامن المعقَّد جدًّا للبنى والآلياتِ المعقّدة التي تعمل معًا لإتمام بصر الإنسان. يُفهم الأمرُ أكثر عندَ معرفتنا أنَّ العين لا فائدة منها إلّا إذا اكتملت جميع مكوّناتها معًا، فإمّا أنْ تعمل وظائفها معًا أو لنْ تحصل على شيء، وعلى هذا، ففرضيةُ تطوّر العين البشرية غريبة وغير منطقية(١).

وعلمَ داروين عنْ تعقيد العين، وأنَّ ذلك يمثِّل تحديًا كبيرًا لنظريته؛ فقد قال: «افتراض تَكَوُّن العين عن طريقِ الانتقاء الطبيعي، بكل ما فيها من أجهزة فذّة من أجل ضبط الطول البؤري للمسافات المختلفة، والسماح بدخول كميّات مختلفة من الضوء، وتعديل الزيغ الكروي واللوني، فإن ذلك يبدو، وأنا أعترف بذلك، أمرًا منافيًا للعقل... الاعتقادُ بتكوُّن عضوٍ كامل مثل كمال العين بالانتقاء الطبيعي أمرٌ كافٍ جدًّا لإرباك أي أحد»(٢).

وذكرَ سكوت هيوس هذا الكلام، ثمَّ علَّق عليه قائلًا: «لكن استمرّ داروين، وبسذاجةٍ مُذهلة، في المجادلةِ في كتاباته بصحة تطوّر العين التدريجي. إلّا أنه ليس هناك مفرٌّ من وجوبِ توفُّر عددٍ من العوامل المواتية، والمتكاملة، في وقت واحد

---

(١) انظر: The Collapse of Evolution (24 - 26)

(2) On the Origins of Species (140)

للطفرات لضبط وإنتاج جهازٍ مثل العين. وقد حسب [راندي] ويسونغ[1] الاحتمالية الرياضية النظرية لتشكيل العين صدفة، فبلغ ١ في ١٠^٢٦٦، رغمَ تساهله المفرط مع التطوّريين. يزدادُ تعقيدُ مشاكل التطوّر في أنه لا يواجه فرصة تكون العين مرةً واحدة ولكنّها تكرّر أكثرَ من مرَّة. ويُعلّق فرانك سالزبيري على هذا الاحتمال المشكوك فيه قائلًا: «يتركّز شكّي الأخير على ما يُعرَف بالتطوّر المتوازي... والذي يزعم أنَّ شيئًا هائلًا مثلًا في الحبار، والفقاريات، والمفصليات، حيث كان من السيِّئ حسابُ كيفية ظهورها مرة واحدة. أمّا التفكير في إنتاجها عدة مرّات فيصيبني بالدوار».

إذًا، باتَ الاستنتاج الذي لا مفرَّ منه الآن واضحًا تمامًا. فلم يحدث تطوّر للعين؛ وإنَّما خلقها اللهُ منذ البداية في شكل كامل ورائع»[2].

فهذا يدلُّ دلالةً واضحة على عجز الملاحدة في تفسير ظهور العين مصادفة، وأنه لا بدَّ من وجود خالقٍ خلقَ العين بهذا الإتقان والإحكام والدقّة.

تقييمُ الحجج المتعلّقة بعلم الأحياء:

الحججُ المتعلّقة بعلم الأحياء من أقوى الحجج والأدلة والبراهين الدالة على وجود الخالق. وقد أرشدَنا اللهُ تعالى في آيات كثيرة إلى تدبّر خلق الإنسان. ومن هذه الآيات:

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [غافر:٦٧]. بل أوّل الآيات نزلتْ في القرآن ذكرت خلق الإنسان؛ قال تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾ [العلق:١ – ٢].

---

(١) راندي ويسونغ (Randy Wysong): عالم الكيمياء والأحياء الأمريكي، وحامل شهادة الدكتوراه. قد ألّف ١٣ كتابًا، منها كتب في نقد نظرية التطوّر. انظر:
www.asifthinkingmatters.com/about.html

(2) The Collapse of Evolution (26-27)

والآياتُ في ذلك كثيرة جدًّا. والاستدلال بخلق الإنسان مِن أفضل الأدلَّة العقلية؛ قال شيخ الإسلام (رحمه الله): «الاستدلالُ على الخالق بخلقِ الإنسان طريق عقلي صحيح؛ فالاستدلالُ على الخالق بخلق الإنسان في غايةِ الحسن والاستقامة، وهي طريقةٌ عقليّة صحيحة. وهي شرعيّة؛ دلّ القرآن عليها، وهدَى النّاس إليها، وبيَّنها وأرشد إليها. وهي عقليَّة؛ فإنَّ نفس كون الإنسان حادثًا بعد أنْ لم يكن، ومولودًا ومخلوقًا من نطفة، ثمَّ من علقة؛ هذا لم يُعلم بمجرّد خبر الرسول، بل هذا يعلمُه النّاس كلُّهم بعقولهم؛ سواء أخبر به الرسول، أو لم يُخبر. لكنّ الرسول أمر أنْ يُستدَلَّ به، ودلَّ به، وبيَّنه، واحتجَّ به؛ فهو دليلٌ شرعيّ؛ لأنَّ الشارع استدلّ به، وأمرَ أن يُستدلَّ به؛ وهو عقليّ؛ لأنّه بالعقل تُعلم صحته»[1].

كما أنَّ الله أرشدنا إلى تدبُّر الإتقان والإحكام في خلق الإنسان؛ كما قال تعالى: وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]، وذكر أنّ فيها آيات للموقنين؛ قال تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَـٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٠ - ٢١].

بل أرشدنا اللهُ إلى تدبُّر خلق الحيوانات وعجائب صنعها في آيات عديدة - وهذا يدخُل في الحجج المتعلّقة بعلم الأحياء أيضًا -. ومن هذه الآيات: قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النور: ٤٥]، وذكر أنه من آياته في خلقه: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٩]. وأرشد إلى تدبّر حيوانات معيّنة مثل الإبل؛ قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية: ١٧]، وكذلك الطيور؛ قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَـٰٓفَّـٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَـٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ﴾ [الملك: ١٩]، وكذلك النحل؛ قال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٦٨ - ٦٩].

---

(١) النبوات (١ / ٢٩٢ - ٢٩٣).

والاستدلالُ بخلق الكائنات الحيّة، والإحكام والإتقان فيها؛ لا يعدُّ ولا يحصى، وهو من أفضلِ أنواع الأدلة على وجود الخالق على الإطلاق. وقد اعتنى علماءُ الغرب بهذه الحججِ أكثرَ من غيرها لوضوح دلالتِها على الخالق، وكذلك للردِّ على مزاعم التطوّريين. فكلامُهم جيِّد، وحريٌّ للاستفادة منه في هذا الباب.

المبحثُ الرّابع
الحججُ المتعلِّقة بالكيمياء

هذا المبحثُ يبيِّن الحججَ المتعلِّقة بالكيمياء التي يستخدمها علماء الغرب في الاستدلال على وجود الله.

وقد عرَّف قاموس أكسفورد الكيمياء بأنها: «فرعُ العلوم المعني بالمواد التي تتكوّن منها المادة، والبحثُ عن خصائصها وتفاعلاتها، واستعمالُ هذه التفاعلات لصناعة مواد جديدة»[1].

وكلامُ علماء الغرب في هذه المسألة كثير، ولكي يسهل فهمُه تمَّ تقسيم هذا المبحث إلى خمسةِ أقسام:

القسمُ الأوَّل: دلالةُ الكيمياء على وجود الخالق عمومًا.

القسمُ الثاني: ملاءمةُ العناصر الكيميائية لوجود الحياة.

القسمُ الثّالث: أهميّةُ الكربون لوجود الحياة.

القسمُ الرّابع: وفرةُ الماء السائل.

القسمُ الخامس: التركيبُ الكيميائي للغلاف الجوّي.

القسمُ الأوَّل: دلالةُ قوانين الكيمياء على وجود الخالق:

كما أنَّ الطبيعةَ محكومةٌ بقوانين الفيزياء فإنَّ المواد وتفاعلاتها محكومة بقوانين الكيمياء. وهذه القوانينُ واضحة ودقيقة، وتدلُّ على أنَّ هذه المواد لم توجد صدفة، لأنَّها لو وُجدت صدفةً ما كانت تتبع قوانين، بل كانتْ عشوائية وفوضوية. ولو اختلفت هذه القوانينُ على ما هي عليه اليوم ما كانت الحياة ممكنة.

---

(1) https://en.oxforddictionaries.com/definition/chemistry

وقد استدلَّ الدكتور جاسون ليزلي بوجودِ هذه القوانين على وجود الخالق تعالى إذْ قال: «تحتاج الحياةُ إلى كيمياء محدَّدة، فأجسامُنا تحصل على طاقتها من التفاعلات الكيميائية، وتعتمدُ على قوانين الكيمياء التي تعمل وفقَ نمطٍ موحَّد، حتى إنَّ المعلومات المسئولة عنْ تركيب أيِّ كائن حي تختزن في جزيء ضخمٍ يسمى الحمض النووي، فالحياةُ كما نعرفها لا يمكن أن توجَد في ظلِّ قوانين كيميائية مغايرة، فاللهُ قد خلق قوانين الكيمياء بما يلائم وجودَ الحياة»[1].

كما أنَّ الدكتور ليزلي استدلَّ بتناسب قوانين الفيزياء لقوانين الكيمياء على وجود الخالق إذْ قال: «إنَّ خصائص العناصر والمركّبات ليست اعتباطية، ويمكن في الواقع ترتيبُ العناصر منطقيًّا ضمنَ جدول دوري بناءً على خصائصها الفيزيائية؛ فالعناصر التي توجَد في عمودٍ واحد من الجدول الدوري تميل إلى امتلاك خصائص متشابهة، ويحدثُ هذا لأنَّ العناصر في العمود لها نفسُ بنية الإلكترونات السطحية. وهذه الإلكتروناتُ السطحية تحدِّد الخصائص الفيزيائية للذرة؛ فالجدول الدوري لم يحدث صدفةً، إذْ تملك الذرات والجزيئات خصائصها المتنوّعة بسبب إلكتروناتها المرتبطة بقوانين الفيزياء الكمومية. ولو كانت قوانينُ الفيزياء الكمومية مختلفة قليلًا، فقد يصبح وجود الذَّرات غير ممكن؛ فقد صمَّم اللهُ قوانين الفيزياء مناسبة تمامًا لتكون قوانين الكيمياء بصيغتِها الحالية التي أرادها الله أن تكون»[2].

وهذا الاستدلالُ استدلالٌ واضح وجيِّد، فلا يمكن أنَّ الفوضى والعشوائية والصدفة تحدثُ النظام والإتقان والإحكام، بل لا بدَّ من وجود خالق عليم حكيم وضع كلَّ شيء في موضعه؛ ومِن ذلك: قوانين الكيمياء وتناسبها مع قوانين الفيزياء.

---

(1) A POCKET GUIDE TO Logic & Faith: (72-73)

(٢) المصدر السابق (٧٣).

القسمُ الثّاني: ملاءمةُ العناصر الكيميائية لوجود الحياة:

العناصرُ الكيميائية (Chemical Elements): مجموعة جزئية من المواد في الطبيعة، تتكوَّن من ذرات من مادَّة واحدة[١]. وهذه العناصرُ الكيميائية «تشكِّل بتجمُّعها مع بعضها وفقَ قوانين الكيمياء كلَّ المواد واسعة التنوّعُ التي نألفها، من الغرانيت والخشب والبلاستيك والعقيق والملح والبروتينات والشعر والبنزين والبنسلين.. وهكذا»[٢].

و«أوفرُ الذرَّات في الكون هما الهيدروجين (H) والهليوم (He)، يشكّلان المادة الرئيسة للنجوم، وأقلُّ العناصر وفرةً يوجد بنسبة أقل من ١٠^١٢ (ترليون) مرّة من الهيدروجين.

نجد أنَّ كلَّ العناصر الأربعة والعشرين الأوفر إمّا أساسية للحياة أو تستعملها بعض الكائنات للقيام ببعض العمليات الحيويَّة... أمّا العناصر الخمسة الأوفر وهي الهيدروجين (H) والهليون (He) والأكسجين (O) والكربون (C) والنيتروجين (N) فجميعها باستثناء الهليوم تشكِّل كتلة الجزيئات الكبيرة المستخدمة في الكائنات الحيَّة...

ومِن الاثنين وتسعين ذرَّة التي تتوفَّر طبيعيًّا، يعتبر وجود خمس وعشرين منها جوهريًّا للحياة. ومن الذرَّات الخمس والعشرين توجد إحدى عشرة في جميع الكائنات الحيّة، وبالنِّسب نفسها تقريبًا... وتشكِّل هذه الذرَّات بمجموعها ٩٩,٩٪ من جسد الإنسان...»[٣].

---

(١) انظر:
https://www.marefa.org/%D8%B9%D9%86%D8%B5%D8%B1_%D9%83%D9%8A%D9%85%D9%8A%D8%A7%D8%A6%D9%8A

(٢) قدر الطبيعة – قوانين الحياة تفصح عن وجود الغاية في الكون – (١٣٣)، للدكتور مايكل دينتون، (مركز براهين لدراسة الإلحاد والنوازل العقدية، الطبعة الأولى، ٢٠١٦ هـ، ت. مجموعة من المترجمين).

(٣) المصدر السابق (١٣٤ – ١٣٧).

وقدِ استخلص الدكتور دينتون الخلاصةَ الآتية من ذلك: «والواقع أن الذرّات في النِّصف الأوَّل من الجدول الدوري هي الأوفر أيضًا، **وهذا يتَّسق مع المفهوم القائل بأنَّ نظامَ بناء الذرَّات مصمّم خصيصًا لينتج عناصرَ الحياة**، ونلاحظ أن الذرّات من الكربون (C) إلى الحديد (Fe)، هي أهمُّ العناصر المستخدمة في الكائنات الحيّة، وجميعُها وافرة نسبيًّا»[١].

وحسبَ القائلين بنظرية الانفجار العظيم، فإنَّ هذا الانفجار أنتج الهيدروجين والهليوم، وآثارًا مِن اثنين من العناصر الأخرى. وأمَّا بقية العناصر فتصنع عن طريق تفاعلاتٍ نووية في داخل النجوم، أو عند انفجارات نجمية مثل: المستعر الأعظم (Supernova)[٢]. والملحدُ يعتقد أنَّ الانفجار العظيم، والتفاعلات النووية في النجوم، والانفجارات النجمية كلّها تحدُث بدون تدبيرِ خالقٍ عليم حكيم، بل هي أحداث عرضيَّة عشوائية. ورغمَ ذلك فقد وفَّرت هذه الأحداث العشوائية هذه العناصر الكيميائية بكميَّات مضبوطة للغاية لكي تظهرَ الحياة على كوكب الأرض. ولا شكّ أنَّ هذا من أغربِ المعتقدات، ودليلٌ على تهافت الفكر الإلحادي المنحرف.

القسمُ الثّالث: أهميَّةُ الكربون لوجود الحياة:

سبق أنَّ جميعَ الأشياء المخلوقة مبنيَّة على هذه العناصر الكيميائية، ولكن أهمَّها على الإطلاق لوجودِ الحياة هو عنصرُ الكربون. فالحياة على كوكب الأرض مبنية على هذا العنصر؛ قال الدكتور دينتون: «يُبنى المنزلُ من مكوِّنات، من الخشب والطوب والحجر والمعدن، ويُبنى الجزءُ الأكبر من محرِّك السيّارة من مكوّنات معدنية، وتصنع العديد من الأدوات المنزلية من موادّ بلاستيكية، وتتكوّن الحواسيب من مكوّنات متنوّعة كالبلاستيك والمعادن ورقائق السيليكون. وفي حالة الكائنات الحيّة، تكون وحدات البناء الكيميائية الأساسية المستخدمة في بنائها هي المركّبات

---

(١) المصدر السابق (١٣٧).

(٢) انظر المقال: How Elements are Formed?

https://www.sciencelearn.org.nz/resources/1727-how-elements-are-formed

العضوية، وهي جزيئيات تتكوَّن من ذرّة الكربون (C) التي تشترك مع عدد قليل من ذرّات أخرى تشمل الهيدروجين (H) والأكسيجين(O) والنيتروجين (N).

عالمُ الحياة هو إلى حدٍّ كبير نتاج لمركَّبات الكربون؛ فكلُّ الآيات في الخليّة، وكلُّ البنى الحيوية عندَ الكائنات الحية من المستوى الجزيئي إلى المستوى المورفولوجي - الشكلي - تتشكَّل من مركَّبات الكربون. والبنى المتنوِّعة كـ(الغشاء الخلوي، وقرني الظبي، وجذع الشجر الأحمر، وعدسات العين، وسمّ العنكبوت، وبتلات الزهرة، ولولب الحمض النووي وصباغ الدم - الهيموغلوبين -) جميعها مكوَّنة بأكملها تقريبًا من توليفاتٍ من ذرَّة الكربون مع الهيدروجين والأكسيجين والنيتروجين»[١].

فعنصرُ الكربون أهمُّ عنصر كيميائي لوجود الحياة، وهناك العديد من الأشياء المتعلِّقة بهذا العنصر تدلُّ على أنَّه مخلوق من قبَل خالقٍ عليم حكيم، أكتفي بذكر ثلاثةٍ منها، وهي: صنعه، وتنوّعُ المركّبات التي يمكن أن يشكّلها، ووفرته. وبيانُ ذلك كالآتي:

أوَّلًا: صنع الكربون:

يعتقد العلماءُ أنَّ الكربون يصنع مثلَ أغلب العناصر الكيميائية بالتفاعلات النووية في داخل النجوم، ولكنَّ صنعَ الكربون بالذات يتطلّب ضبطًا دقيقًا للغاية؛ قال البروفسور جون لينوكس: «مِن لوازم الحياةِ على الأرض وجودُ كمٍّ وافر من الكربون. ويُصنَع الكربون من اندماجِ ثلاثة نوى هيليوم، أو اندماجِ نواتي الهليوم والبيريليوم. اكتشف عالمُ الرياضيات والفلكي الشهير فريد هويل أنَّ حدوث هذا التصنيع يقتضي ضبطًا دقيقًا لمستوياتِ الطاقة الأساسية لكلِّ نواة مقابل الأخرى، وتعرف هذه الظاهرة بالطَّنين. فلو زاد التفاوتُ عن ١٪ أكثر أو أقلّ عن هذه المستويات فلا يمكن للكون تأمينُ وجود الحياة»[٢].

---

(١) قدر الطبيعة - قوانين الحياة تفصح عن وجود الغاية في الكون - (١٧٣ - ١٧٤).

(2) God’s Undertaker (70)

ورغم أنَّ هويل كان ملحدًا متعنتًا فقد أقرَّ فيما بعد بأنَّ هذا الاكتشاف قد هزَّ إلحادَه، بل إنَّ هذه الدرجة من الضَّبط الدقيق كانت كافية لإقناعه، وكأنَّ «عقلًا خارقًا قد صمَّم الفيزياء مع الكيمياء والبيولوجيا»، وأنه «لا توجد قوى عمياء في الطبيعة تستحقُّ الذكر قادرة على عمل ذلك»(١). فصنعُ الكربون آية في حدِّ ذاته.

ثانيًا: تنوُّع المركَّبات التي يمكن أن يشكّلها الكربون:

العناصرُ الكيميائية تتفاوتُ كثيرًا في تنوُّع المركَّبات التي يمكن أن يشكّلها. فالعلماءُ يعرفون أكثرَ من عشرة ملايين مركّبًا من العناصر الكيميائية في هذا العصر(٢). ويمكن الكربون وحدَه أن يشكِّل مليونًا من هذه المركّبات(٣). وبذلك يتفرَّد الكربون عن العناصر الأخرى لكثرةِ المركّبات التي يمكن أن يشكِّلها. وهذا الأمرُ مهمٌّ جدًّا ليكون الكربون العنصرَ المناسب لتشكيل الحياة؛ قال البروفسور نيويل سيدجويك(٤): «يتفرّد الكربون مِن بين العناصر بعددِ وتنوُّع المركَّبات التي يمكن أن يشكّلها... ولكن ذلك وحده لا يُعطي سوى صورةٍ منقوصة عن إمكانياته، فهو أيضًا أساسُ كلِّ أشكال المادة الحيّة، وفوقَ ذلك هو العنصرُ الوحيد الذي يمكن أن يشغل موقعًا كهذا. والآن صرْنا نعرف ما يكفي لنتيقّنَ استحالة وجودِ عالم يحلُّ فيه السيليكون محلَّ الكربون كأساس للحياة»(٥).

---

(١) انظر: Annual Reviews of Astronomy and Astrophysics (20 / 16) (1982)

(٢) انظر المقال: Carbon – Why Carbon is Special?
http://science.jrank.org/pages/1202/Carbon-Why-carbon-special.html

(٣) انظر: https: / /www.britannica.com /science /carbon – chemical – element /Compounds

(٤) نيويل سيدجويك (Nevil Sidgwick): بروفسور الكيمياء في جامعة أكسفورد سابقًا، وقد ساهمت أبحاثه كثيرًا في فهم الرابطة الكيميائية. توفي عام: ١٩٥٢م. انظر:
https://www.britannica.com/biography/Nevil-Vincent-Sidgwick

(5) The Chemical Elements and their Compounds (1/490), by: N.V. Sidgwick, (Oxford University Press, 1950)

وأهمُّ العناصر التي تشكِّل المركَّبات الأساسية للحياة مع الكربون هي: النيتروجين والأكسيجين والهيدروجين؛ قال الدكتور مايكل دينتون: «يؤدّي ارتباط الكربون بالنيتروجين والأكسيجين والهيدروجين إلى مزيدٍ من المركَّبات المتعدّدة، التي تشكل - من بينِ ما تشمله - الوحداتِ البنائية للبروتينات، ألا وهي الحموض الأمينية. ومن ضمن هذه المجموعة أيضًا هناك عددٌ من المركَّبات الخلقية تعرف باسم الأسس النيتروجينية، وبعضُها وحدات بنائيَّة مهمَّة للحمض النووي... إنَّ إجمالي عدد البنى الكيميائية المحتملة وتنوُّعها، والتي يمكن تركيبُها من الكربون والأكسجين والهيدروجين والنيتروجين يكاد يكون غيرَ محدود؛ إذ يمكن اشتقاقُ أيِّ شكل كيميائي، وأيِّ خاصية كيميائية يمكن تخيُّلهما تقريبًا»[1].

ثمَّ ذكرُ الدكتور دينتون خلاصة مهمَّة عن تنوّع المركّبات التي يمكن أن يشكّلها الكربون معَ هذه العناصر الثلاثة بقوله: «وتشكِّل هذه العناصر بعضها مع بعض **ما هو في الواقع عُدَّة كيميائية شاملة جُهّزت تجهيزًا مثاليًّا لبناء آلات كيميائية معقّدة** تحوي تشكيلة ضخمة من الأجهزة الكيميائية، وتتطلّب عددًا ضخمًا من المركّبات الكيميائية المختلفة ذات الخصائص الفيزيائية والكيميائية المختلفة»[2].

والسؤالُ للمَلاحدة: أنتم تزعمونَ أنَّ الكربون وبقيّة العناصر تُصنع في داخل النجوم بدون تدبيرٍ وقصد، بل لمجرَّد الصدفة؛ فكيف يمكن لصدفة عمياء أن تجهّز هذا التجهيزَ المثالي لبناء آلات كيميائية معقّدة؟!

ثالثًا: وفرةُ الكربون:

معَ هذه الخصائص المعيَّنة للكربون والهيدروجين، والأكسيجين، والنيتروجين، فإنّها متوفِّرة بكثرةٍ في الكون؛ قال الدكتور دينتون: «لهذه الوفرة الجزيئية العظيمة جانب مذهلٌ تمامًا؛ هو أنَّ الذرّات التي تؤلّفها - أي الكربون والهيدروجين والأكسجين

(١) قدر الطبيعة (١٨٠).

(٢) المصدر السابق.

والنيتروجين - هي مِن بين العناصر الأولى القليلة التي تشكَّلت في النجوم، **وهي أيضًا مِن بين العناصر الأكثر وفرةً على امتداد الكون.** ومما يلفتُ النَّظر، أنَّ ذرّتين منها (الهيدروجين والأكسيجين) تشكِّلان الماء، وهو وسط الحياة المعتمدة على الكربون»[1].

وخلصَ الدكتور دينتون من هذا كلِّه إلى الآتي: «ويبدو الأمرُ كما لو أنّه منذ اللحظةِ الأولى للخلق حين كانت الذرَّات تتشكَّل كان القدر قد أودعَ في كيمياء الحياة الحيوية نزعة نحو هذه الغاية»[2].

تعبيرُ الدكتور دينتون بـ«كان القدر قد أودع» مبني على كونه لاأدريًّا، ولكن خلاصته العلمية صحيحة، وهي أنَّ وجودَ هذه العناصر التي تعتمد عليها الحياة بهذه الوفْرة دليلٌ على وجود غايةٍ في الكون. ولكن كيف توجَد غاية من غير إرادة وحكمة وتدبير؟ وكيف توجَد إرادةٌ وحكمة وتدبير مِن غير مُريد وحكيم ومدبِّر؟ لا بدَّ أن يقوم أحدٌ بهذه الغاية، ويريدها وفقَ حكمة وتدبير، وإلا كان كلامه عبثًا فحسب.

فالخلاصةُ الصَّحيحة أنَّ الكربون يصنع في داخل النجوم وفقَ ضبط دقيق للغاية، وبخصائص فريدة، مثل: تنوُّع المركَّبات التي يمكن أن يشكّلها، ومعَ ذلك فالكربون موجودٌ بوفرة في الكون. وكلُّ ذلك دليلٌ على وجود خالق عليم حكيم، خلق كلَّ شيء فأحسنَ خلقَه، وهو الله سبحانه وتعالى.

القسمُ الرّابع: وفرةُ الماء السائل:

قد ألمحَ الدكتور دينتون إلى قضيةٍ مهمَّة في كلامه السابق، وهي: «ومما يلفت النظرَ أنَّ ذرَّتين منها (الهيدروجين والأكسيجين) تشكِّلان الماء، وهو وسط الحياة المعتمدة على الكربون». فالماءُ ضروريٌّ للغاية لوجود الحياة، بل الماء يشكِّل نسبة كبيرة من بدن الإنسان كلِّه. قد كتب عددٌ من العلماء بحثًا علميًّا في: «دورية الكيمياء الحيوية» (Journal of Biological Chemistry) - وهي دوريةٌ علمية أمريكية مرموقة - عن

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق (١٨٠ - ١٨١).

المكوّنات الكيميائية في جسدِ الإنسان، وتوصَّلوا إلى النتائج الآتية بخصوص نسبة الماء في الأعضاء:

١) **الجلد:** ٦٤,٦٨٪. ٢) **الهيكل العظمي:** ٣١,٣٨٪.

٣) **العضلاتُ المخطّطة** (مثل: الدماغ، والحبل الشوكي، وجذوع الأعصاب): ٧٩,٥٢٪.

٤) **الكبد:** ٧١,٤٦٪. ٥) **القلب:** ٧٣,٦٩٪.

٦) **الرئة:** ٨٣,٧٤٪. ٧) **الطحال:** ٧٨,٦٩٪.

٨) **الكلاوي:** ٧٩,٤٧٪[١].

أي أنَّ أعضاء جسد الإنسان مكوَّنة إلى حدٍّ كبير جدًّا من الماء. ولا حياة للإنسان إلّا بالماء السائل. والإنسانُ يتكوَّن من الماء بنسبة تصلُ إلى حوالي ٧٠٪، ومعظمُ الكائنات الحيَّة يتكوّن من أكثر من ٥٠٪ من الماء[٢].

وذكرَ الموقعُ الرسمي لوكالة ناسا الأمريكية أن العلماء لا يعرفون عن وجود أيِّ كائن حيٍّ (حتى أصغر الكائنات الحيَّة على الإطلاق) يمكن أن تعيشَ بدون ماء سائل. كما أنَّ الموقع ذكر أنَّ العلماء لا يعرفون عن أيِّ كوكب في الكون يوجد فيه ماء سائل إلا كوكب الأرض[٣].

---

(١) انظر:
Journal of Biological Chemistry (158/628), 1 May, 1945, by: H.H. Mitche

(٢) قدر الطبيعة (٦١).

(٣) انظر: /https: / /spaceplace.nasa.gov /i – see – ice /en
ذكر الموقع أن بعض العلماء يظنّون أنه قد يوجد ماء سائل في اثنين من أقمار كوكب المشتري تحتَ قشرة السطح من الجليد، وسواء وُجد الماء في هذه الأقمار أو لم يوجد، فإنَّ كوكب الأرض يتفرَّد عن جميع الكواكب المعروفة بوجود وفرة عظيمة من الماء على سطح الأرض وفي باطنه.

وقد ذكرَ الدكتور جونثان سارفارتي أنَّ درجات الحرارة في الكون تتراوح بين -٢٧٠ مئويَّة إلى ملايين الدرجات المئوية. وأمّا الماء السائل فلا يوجد إلى بين درجة ٠ إلى ١٠٠ مئوية. فما كان أبردَ من ٠ فإنَّه يتجمّد، وما كان أكثر من مائة، فإنه يتبخّر. وهذا يتطلَّب نجمًا بضبطٍ دقيق في الكبر مثل: الشمس، وإلّا ما أمكن وجود الماء السائل[1].

وكوكبُ الأرض مغطًّى بالماء نسبة ٧١ ٪. وهي نسبة عالية جدًّا وهي كذلك ملائمة تمامًا للحياة[2].

ولا يمكن ردُّ هذا كلّه إلى الصدفة، بل هو أمرٌ مقصود بلا شكّ؛ قال الدكتور مايكل دينتون: «لم يكنْ تأسيس الحياة في الوسط السائل مجرّد صدفة، إذ من الصعب تصوُّر وجودِ أيِّ نوعٍ من النظام الكيميائي المعقّد القادر على تركيب ونسخ ذاتي، والتّعامل مع الذرَّات والجزيئات المكوّنة له، وتحصيل المغذّيات والمكوّنات الحيوية من بيئته - أي يكون نظامًا يُبدي الخصائص التي نصفُ بها الحياة - إلا في وسط سائل»[3].

فالخلاصةُ أنَّ وجود الماء السائل ضروري لوجود الحياة، ووجود الماء السائل يتطلّب ضبطًا دقيقًا للغاية، ولا يمكن ردُّه إلى مجرَّد الصدفة. وبذلك يكون دليلًا على وجود الخالق عزَّ وجلّ.

وقد نبَّه اللهُ تعالى على ضرورة الماء السائل للحياة في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠]. وقد فسَّر الإمام قتادة (رحمه الله) هذه الآية بقوله: (كلُّ شيء حيٍّ خُلق من الماء)[4]. ففي ذلك تنبيهٌ إعجازي على ما اكتشفَه العلم التجريبي لاحقًا مِن ضرورة الماء السائل لجميع الكائنات الحيّة.

---

(١) انظر المقال: The Wonders of Water
https://creation.com/the-wonders-of-water

(٢) المصدر السابق.

(٣) انظر: قدر الطبيعة (٦١).

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره (١٨ / ٤٣٤).

القسمُ الخامس: التركيبُ الكيميائي للغلاف الجوّي:

مِن أهمِّ المتطلّبات لوجودِ الحياة على أيِّ كوكب كان، هو وجود غلاف جوّي مناسب. وأنْ يكون التركيبُ الكيميائي للغلاف الجوّي تركيبًا دقيقًا للغاية. وهذا ما نجدُه على كوكب الأرض. فيتكوَّن غلاف الأرض الجوّي (Atmosphere of Earth) من تركيبةٍ دقيقة من الغازات، وهي: ٧٨,٠٨ ٪ نيتروجين، ٢٠,٩٤ ٪ أكسيجين، ٠,٩٣ ٪ أرغون[١]، و٠,٠٣٣ ٪ من ثنائي أكسيد كربون، مع بعض الغازات الأخرى[٢]. ولكلٍّ من هذه الغازات خاصيات مهمَّة. وبذلك يختلف كوكبُ الأرض عن غيره من الكواكب. فإذا نظرْنا إلى أقرب الكواكب إلينا، وهما: المريخ والزهرة نجد الآتي وفقَ موقف كالة ناسا:

غلافُ المريخ الجوّي: ٩٥,٣٢ ٪ من ثنائي أكسيد كربون، و٢,٧ ٪ من نيتروجين، و١,٩ ٪ من أرغون، ٠,١٣ ٪ من أكسيجين فقط![٣].

غلافُ الزهرة الجوّي: ٩٦,٥ ٪ من ثنائي أكسيد كربون، ٣,٥ ٪ من نيتروجين[٤]. فلا يوجد أكسجين على هذا الكوكب أصلًا.

أهمِّية الأكسجين في الغلاف الجوّي:

جميعُ هذه الغازات في الغلاف الجوِّي مهمَّة، ولكن أهمَّها لوجود الحيوانات والإنسان هو الأكسجين. ولا يمكن لأيِّ حيوان فضلًا عن الإنسان أن يعيش بدون

---

(١) أرغون (Argon): عنصر كيميائي ينتمي إلى طائفة العناصر النبيلة رمزه الكيميائي Ar عدده الذري ١٨ وكتلته الذرية ٣٩,٩. وهو ثالث أكثر الغازات انتشارًا في الغلاف الجوي. انظر: https://www.chemistrysources.com/tag/argon/

(٢) انظر المقال: Air – Composition and Molecular Weight https://www.engineeringtoolbox.com/air-composition-d_212.html

(٣) انظر: https: / /nssdc.gsfc.nasa.gov /planetary /factsheet /marsfact.html

(٤) انظر: https: / /nssdc.gsfc.nasa.gov /planetary /factsheet /venusfact.html

أكسجين[١]. فالأكسجين غازٌ ضروري للحياة. ولكنَّ وجود الأكسجين وحده لا يكفي، بل لا بدَّ أن تكون نسبة الأكسجين معتدلة، كما هي على الأرض. فلو زادت أو نقصتِ النِّسبة الحالية قليلًا لما أمكن وجودُ الحياة على الأرض. وبيانُ ذلك كما يلي:

أوَّلًا: زيادةُ نسبة الأكسجين:

كلَّما زادتِ نسبة الأكسجين في الغلاف الجوّي كلَّما زاد احتمال نشوب حرائق الغابات بسببِ البرق. وتزدادُ الإمكانية بـ٧٠ ٪ لكلّ زيادة بـ١ ٪ من نسبة الأكسجين[٢]. فلو زادتْ نسبة الأكسجين إلى ٢٥ ٪، فلن تبقى عامة الحياة النباتية؛ قال الدكتور جيمس لوفلوك[٣] عن ذلك: «إنَّ نسبة فوق الـ٢٥ ٪ لن تُبقي إلا القليل مِن الحياة النباتية الموجودة حاليًا على الأرض، وذلك بسبب الحرائق العنيفة التي ستدمّر الغاباتِ الاستوائية المطيرة والتندرا القطبية على حدٍّ سواء... **إنَّ مستوى الأكسجين الحالي يصلُ لنقطة يتوازن فيها الخطر والمنفعة بشكل دقيق**»[٤].

ثانيًا: نقصانُ نسبة الأكسجين:

كما أنَّ زيادة النسبة مشكلة، فإنَّ النقصان مشكلة كذلك؛ فلو نقصت النسبة قليلًا فإنَّ وجود كائنات حيَّة معقَّدة غيرُ ممكن. وقد شرح الدكتور دينتون هذا الأمر بشيء من الطول، ولكنْ ينبغي نقلُه لنفاسته؛ وهو قوله: «يحتوي غلاف الأرض الجوّي

---

(١) بل لم يجدِ العلماءُ سوى حيوان بحري واحد يستطيع أن يعيش بدون أكسجين، وهو حيوان مجهري من نوع حاملات الدروع المصفحات (Loricifera) في أعماق البحر الأبيض المتوسّط.
انظر المقال: There is One Animal that Seems to Survive Without Oxygen
http://www.bbc.com/earth/story/20170125-there-is-one-animal-that-seems-to-survive-without-oxygen

(٢) انظر: قدر الطبيعة (٢٠٠).

(٣) جيمس لوفلوك (James Lovlelock): عالم بريطاني متخصّص في البيئة وحامل شهادة الدكتوراه في الطبّ، وقد عمل فترة في وكالة ناسا. انظر:
https://www.britannica.com/biography/James-Lovelock

(4) Gaia (71), by: J.E. Lovelock (Oxford University Press, 1987)

على ٢١ ٪ أكسجين، ونتيجةً لذلك فإنَّ الضغط الجزئي للأكسجين هو ١٥٠ لم زئبقي (٢١ ٪ من الضَّغط الجوّي عند مستوى البحر)، كما أن لكل ١٠٠ مليلتر من الماءِ الملامس للهواء تحوي ٠,٤٥ مليلتر من الأكسجين عند مستوى البحر.

ويظهرُ أنَّ قابلية ذوبان الأكسجين كافية تمامًا للسماح للكائنات - خاصَّة تلك التي عندَها معدَّل استقلاب عالٍ - باستخدام الأكسدة لتوليد الطاقة. لو كانت النسبة أقلَّ من ذلك - ولو بقليل - لما استطاعتِ الكائنات أن تستخلص الأكسجين من المحلول المائي بمعدَّل كافٍ لتلبيةِ حاجاتها الاستقلابية، حتى في حالتها الحالية فإنَّ كلَّ الكائنات النشطة استقلابيًّا تعتمد على تكيّفات فيزيولوجية معقَّدة لاستخلاص ونقل الكمِّيات الكافية من الأكسجين، لتأمين متطلِّباتها من الطاقة. إنّ إيصال الأكسجين الكافي لتلبية المتطلِّبات الاستقلابية في الجسم البشري، يعتمدُ بشكل حاسم على العمل المتكامل للجهازين الدوراني، والتنفُّسي، وعلى الصباغ الخاص الحامل للأكسجين في الدَّم وهو الهيموغلوبين.

إحدى تقييدات التصميم هي أنَّ من الصعب رؤية كيفية زيادة قدرة الدم على حمل الأكسجين، ولكنْ حتى لو أمكن مضاعفتُها باستخدام هيموغلوبين خارق خيالي مثلًا، فإنَّ ذرَّات الأكسجين ستظلُّ مضطرَّة للانتشار عبر طبقة مائية قبل أن يلتقطها ذلك الحامل في الرئتين. ثمَّ عليها أن تنتشر عبرَ طبقة مائية أخرى عندما تترك الحامل ذاك في الأنسجة، وطالما أنَّ معدَّل انتشار الأكسجين في الماء متعلّق بشكل مباشر بقابليته للذَّوبان، فإنَّ تلك القابلية للذوبان تفرض حدًّا على المعدَّل الذي يستطيع أيّ حامل افتراضي نقل الأكسجين أو تفريغه. وبالتالي حدًّا على معدّل إيصال الأكسجين إلى الأنسجة. نتيجةً لذلك فإنَّ أيَّ مادة مهما بلغت سعتها كحامل في جهاز الدوران، ستظلُّ كمِّية الأكسجين التي يمكن لسوائل الأنسجة أن تحملها محدودة؛ بسبب ثابت انحلال الأكسجين. وإذا كان أحدُ الغازات غيرَ منحلٍّ بالماء، فإنّ لن يستطيع الانتشارَ عبرَ الوسط المائي مهما كانت فعالية الجزيء الذي يحمل هذا الغاز»[١].

---

(١) قدر الطبيعة (٢٠٣ - ٢٠٤).

وخلاصةُ الدكتور دينتون من هذا الكلام التأصيلي كان ما يأتي: «واضح أن قابلية ذوبان الأكسجين أو معدَّل انتشاره في الماء إنْ كانت أقلَّ مما هي عليه بشكل معتبر، فلنْ يوجد أيُّ جهاز دوراني أو تنفُّسي قادر على إيصال الأكسجين الكافي لتلبية النشاطات الاستقلابية للكائنات النشطة ذاتِ الدم الحار، والتي تتنفّس الهواء من غلافٍ جوِّي يكون فيه الضغط الجزئي للأكسجين ١٥٠ ملم زئبقي»[١].

فكوْن الأكسجين موجودًا على كوكب الأرض معجزة بحدِّ ذاته، ولكن وجوده بهذه الكمِّية والضبط الدقيق معجزة علاوة على تلك المعجزة.

الضَّبطُ الدقيق لثنائي أكسيد كربون:

ليس الضبط الدقيق مختصًّا بغاز الأكسجين فحسب، بل حتى الغازات القليلة الانتشار، مثل: ثنائي أكسيد كربون، مضبوط بدقّة. ومما يبيِّن ذلك ما تزايد فيه الجدل عنه الدوائر العلمية والسياسية والإعلامية في الأزمان المتأخّرة، وهو: الاحتباس الحراري في الأرض (Global Warming) أو تأثير البيت الزجاجي (Greenhouse effect). والمراد به ارتفاعُ درجات حرارة الأرض عن معدَّلها الطبيعي نتيجة سيلان الطاقة الحرارية من البيئة وإليها. ومِن أكبر أسبابه ارتفاعُ درجات المعدَّل هي زيادة ثنائي أكسيد كربون في الغلاف الجوِّي نتيجة استخدام السيّارات، وعمل المصانع وغير ذلك[٢].

والكلامُ عن هذه المسألة طويل، وليس هذا محلَّ بسطه، ولكن الملفت للنظر، هو التَّأثيرات السلبية لتغيُّرات طفيفة. فقد ذكر موقع وكالة ناسا أن في العصور الجليدية (Ice ages) كانت نسبة ثنائي أكسيد كربون في الغلاف الجوّي ٢٠٠ جزء من مليون، ثمَّ ارتفعتِ الحرارة وذابَ الجليد في كثيرٍ من المناطق حين ارتفع المعدَّل إلى ٢٨٠ جزء من مليون. وأمَّا عام ٢٠١٣م، فقد قاسَ العلماء أنَّ النسبة ارتفعت إلى أكثر من ٤٠٠ جزءٍ من مليون لأوَّل مرَّة في التاريخ المعروف. وذكر الموقع أنّه لو استمرّ الوضع على ما هوَ عليه اليوم، فإنَّ النسبة سوف تصل إلى ١٥٠٠ جزء من مليون.

---

(١) المصدر السابق (٢٠٤).

(٢) انظر المقال: الاحتباس الحراري - مخطّط يبيّن تأثير الاحتباس الحراري -.
http://www.uobabylon.edu.iq/uobcoleges/lecture.aspx?fid=10&lcid=38189

وبعد ذلك فلا يمكنُ أن يعود الغلافُ الجوّي إلى ما كان عليه قبل زمن المصانع إلا بعد عشرات الآلاف من السنين[1].

ومِن آثار الاحتباس الحراري السيِّئة التي يذكرها العلماء: القحط، والإعصارات الشديدة، وذوبان الجليد في القطبين الجنوبي والشمالي مما يسبِّب في وقوع الطوفان. وغير ذلك من الأسباب[2].

وإنْ كان علماءُ البيئة بين أخذٍ وردٍّ في مدى تأثير الاحتباس الحراري للجوّ، إلا أنَّ ١٩٧ مؤسَّسة علمية عالمية اتَّفقت على أنَّ الاحتباس الحراري حقيقي، وأنَّه قد حصل بسببِ سوء تعامل الإنسان مع البيئة[3].

وإنْ كان للإنسان تأثيرٌ سلبي على الغلاف الجوّي، فإنَّه يعني بطبيعة الحال أن الغلافَ الجوّي كان أفضلَ في السابق. وهو وضعُه الطبيعي الذي خلقه الله عليه. فكان ذلك دليلًا على الضَّبط الدقيق للغازات في الغلاف الجوّي.

خلاصةُ المبحث:

ما ذُكر في هذا المبحث غيضٌ من فيض عن الحجج المستنبطة من الكيمياء على وجودِ الخالق. وإلّا، فالحجج كثيرة جدًّا. وكلامُ علماء الغرب في هذه المسألة بمجمله جيِّد وقوي، وينبغي للمسلمين الاستفادةُ من هذا الكلام في الدلالة على وجود الخالق العليم الحكيم الذي خلق كلَّ شيء فأحسنَ خلقه، سبحانَه وتعالى عمّا يقول الملاحدةُ الظالمون علوًّا كبيرًا.

---

(١) انظر المقال: Graphic: The Relentless Rise of Carbon Dioxide
https://climate.nasa.gov/climate_resources/24/graphic-the-relentless-rise-of-carbon-dioxide/

(٢) انظر المقال: Consequences of Greenhouse – effect Temperature Rises
https://www.bgs.ac.uk/discoveringGeology/climateChange/CCS/consequencesOfTemperatureIncrease.html

(٣) انظر المقال: Effects of Global Warming
https://www.livescience.com/37057-global-warming-effects.html

المبحثُ الخامس
الحججُ المتعلِّقة بعلم النفس

هذا المبحثُ يبيِّن الحججَ المستنبطة من علم النفس التي يستخدمها علماءُ الغرب في الاستدلال على وجود الله ونقد الفكر الإلحادي.

وقد عرَّف قاموس أكسفورد علمَ النفس بأنه: «الدراسة العلمية للعقل البشري ووظائفه، لا سيَّما المؤثِّرة في السلوك في سياق معيّن»[1].

فعلمُ النَّفس يتعلَّق بوظائف العقل البشري المؤثّرة في السلوك، وليس بتركيب العقل البشري، فهذا هو ما يسمَّى بعلم الأعصاب (Neurobiology). ولذلك يختلف هذا المبحثُ عن المباحث السابقة، إذِ المباحث السابقة كانت تتعلّق بالإتقان والإحكام في المخلوقات، وأمَّا هذا المبحث فإنَّه يتعلَّق بسلوكيات الإنسان.

وقد سبقَ في بداية الفصل أنَّ الحجج العلمية على وجود الخالق تؤيّد الحججَ العقلية على وجودِه، وبينما كانت المباحثُ السابقة تؤيِّد حجة الإتقان والإحكام، فإنَّ هذا المبحث يؤيِّد حجة الفطرة.

وينقسمُ هذا المبحث إلى ثلاثة أقسام:

القسمُ الأوَّل: الأدلةُ من علم النفس على وجود مبادئ فطرية.

القسمُ الثّاني: الأدلةُ من علم النفس على أنَّ الإنسان مفطورٌ على الإيمان بالخالق.

القسمُ الثّالث: الأدلةُ من علم النفس أنَّ الإلحاد في الأصل مشكلة نفسية وانحراف سلوكي عن الفطرة السوية.

وبيانُ ذلك كما يلي:

---

(١) قاموس أكسفورد على الرابط: https: / /www.lexico.com /definition /psychology

القسمُ الأوّل: الأدلةُ من علم النفس على وجود مبادئ فطرية:

قد سبقَ الكلام عن أنَّ المذهب الحسِّي كان من ممهِّدات الإلحاد في أوروبا؛ فقد أنكرَ فلاسفةُ المذهب التجريبي وجودَ المبادئ الفطرية في الإنسان، وقالوا إن الإنسانَ يولَد كصفحة بيضاء (Tabula Rasa) بدون أيّ مبادئ عقلية أو فطرية. وهذا القول خلاف ما يقرِّره الإسلام، كما أنَّه خلاف ما قرّره المذهب العقلاني - وعلى رأسه الفيلسوف ديكارت - من أنَّ الإنسان يولَد بهذه المبادئ الفطرية، وأنّه على الإنسان أنْ يبني تفكيرَه المنطقي عليها.

وقد اهتمَّ علماءُ النفس في هذا الزمان بدارسة هذه المبادئ الفطرية لدى الأطفال، وتوصَّلوا إلى أنَّ هذه المبادئ موجودة لدى الطفل منذ نعومة أظفاره. ومن أهمِّ هذه المبادئ الفطرية لدى الأطفال: مبدأ السببية والشعور بالغائية[1]. وبيانُ ذلك كما يلي:

- **المبدأ الأوَّل: مبدأ السببية:**

سبقَ الحديث مرارًا عن أهمِّية مبدأ السببية في أدلَّة وجود الله، وأن المقدّمة الثانية في كلٍّ مِن دليل الخلق والإيجاد، ودليلِ الإتقان والإحكام مبنيٌّ على مبدأ السببية. وقد قام علماءُ النفس بإجراء دراساتٍ عن وجود مبدأ السببية لدى الأطفال، وأدركوا أنَّ هذا المبدأ موجود منذُ الأشهر الأولى بعدَ ولادة الطفل. مِن الأمثلة على هذه الدراسات ما قامَ به بعضُ الباحثين بدراسةِ أطفالٍ أعمارُهم شهران ونصف خلال اطِّلاعهم على مشهدٍ لأسطوانة تتدحرج هبوطًا على منحدر، ومِن ثَمَّ تتوقّف حين تصطدم ببعض الأجسام الصغيرة المثبتة كمعوِّقات للحركة. ولقد لاحظَ المختبرون مدى حدق الأطفال بأبصارهم خلالَ التجربة، وخرجوا بنتيجةٍ أنَّ الأطفال يفكّرون بما يفكّر به البالغون في أنَّ الجسم يمكن له أن يتحرَّك إذا ما اصطدمَ به جسمٌ آخر، أي أنَّ الأطفال في هذا السنِّ يدركون أنَّ التلامس الفيزيائي بين الأجسام يحرّكها كما أنَّ

---

(١) المصدر الرئيس لهذا المبحث هو كتاب: Born Believers: The Science of Children's Religious Belief للدكتور جستون باريت. وهو مترجم من مركز دلائل إلى اللغة العربية باسْم: فطرية الإيمان: كيف أثبتت التجارب أن الأطفال يولدون مؤمنين بالله؟

اختبارات أخرى بيّنت أنَّ الأطفال في هذا السنِّ يدركون أنَّ الأشياء العادية (وليس العوامل الفاعلة) لا تتحرّك من تلقاءِ نفسها[1].

كما أنَّ دراسات أخرى أقنعتْ علماءَ نفس النُّمو أنَّ الأطفال في عمر خمسة أشهر (بل ربَّما أصغر) يدركون أنَّ المكعَّبات والكرات والأحذية والألعاب يجب لمسها حتى تتحرَّك، وأنه عندما يمسُّها جسم متحرِّك تنزع إلى أن تتحرّك[2].

فقد دلَّت التجاربُ العلمية على أنَّ الأطفال يدركون مبدأ السببية في حال صغرهم. وهذا الأمرُ كان معلومًا عندَ علماء المسلمين في السابق أيضًا؛ فمِن لطيف ما يُذكر في هذا الباب أنَّ شيخَ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) ذكر هذه القضية عند الأطفال قبل ثمانيةِ قرون تقريبًا، وهو قوله: «ومعلومٌ بالفطرة التي فطر الله عليها عباده بصريح العقل أنَّ الحادث لا يحدث إلّا بمحدث أحدثه. وإنَّ حدوث الحادث بلا محدث أحدثه معلوم البطلان بضرورةِ العقل، وهذا أمرٌ مركوز في بني آدم حتَّى الصبيان، لو ضرب الصبي ضربةً فقال: مَن ضربني؟ فقيل: ما ضربَك أحد، لم يصدق عقله أنَّ الضربة حدثت من غيرِ فاعل»[3]. ثمَّ واصل شيخُ الإسلام بعدَ ذلك، وذكر وجهَ الاستدلال من هذه المعلومات الفطرية بقوله: «ولهذا لو جوَّز مجوّز أن يحدثَ كتابة أو بناء أو غراس ونحو ذلكَ من غير محدث لذلك، لكان عندَ العقلاء إمّا مجنونًا وإمّا مسفسطًا كالمنكر للعلوم البديهية والمعارف الضرورية، وكذلك معلومٌ أنه لم يُحدث نفسه، فإنْ كان معدومًا قبل حدوثِه لم يكن شيئًا، فيمتنع أن يُحدث غيرَه فضلًا عن أن يحدث نفسه»[4].

وهذا هو محلُّ الشاهد من بيان وجودِ المعارف الفطرية مثل: مبدأ السببية في الأطفال. فلا يمكن لعاقلٍ أن ينكرَ هذا المبدأ. ومَن أنكره كان إمّا مجنونًا أو مسفسطًا،

---

(١) انظر: فطرية الإيمان: كيف أثبتت التجارب أن الأطفال يولدون مؤمنين بالله؟ (٣٥ - ٣٦).

(٢) المصدر السابق (٣٦).

(٣) الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح (٣/ ٢٠٢).

(٤) المصدر السابق.

وأقلَّ علمًا من الأطفال. فلا ينبغي أن تقعَ مناظرة في المقدّمة الثانية من دليل الخلق والإيجاد ودليل الإتقان والإحكام.

- **المبدأ الثّاني: الشعورُ بالغائية:**

هذا كذلك من المعارفِ الفطرية المغروزة في الإنسان؛ فالإنسانُ يبحث عن الغاية مِن وجود أشياء. وهذا الشعورُ الفطري مهمٌّ في الحجّة الغائية - التي سبق ذكرُها -. فكلُّ شيء في الوجودِ له هدفٌ وغاية، والإنسان بطبيعته يبحث عن هذه الغايات. وأمّا الملحدُ الذي يعتقد أنَّ الكون وكلَّ ما فيه نتيجة الصدفة والعشوائية فإنّه ينكر هذا الشُّعور الفطري - كما سبق ذكره مرارًا -.

وقد أجرى العلماءُ تجاربَ علمية في وجود هذا الشعور الفطري حتى في الأطفال. ومِن أشهر هذه الدراسات:

الدِّراسةُ الأولى: شملتْ هذه الدراسة أطفالًا يتراوح أعمارُهم بين أربع إلى خمس سنوات. وخلاصةُ التجربة أنَّ الباحثين قاموا بتعريض الأطفال إلى مشاهدة خلافٍ بين شخصيَّتين خياليتين، حيث يصرُّ أحدهما على أنَّ وجود أحد الأشياء له سبب، وتخالف الشخصية الثانية ذلك. ثمَّ يطلب من الأطفال أن يقرِّروا مَن هو المصيب ومن المخطئ. وكانتِ الأشياء المعروضة التي تمَّ النقاشُ عنها من أنواع مختلفة: أشياء حيَّة وطبيعية وصناعية، وأجزاء هذه الأنواع.

وكانت نتيجةُ التجربة أنَّ الأطفال اتّفقوا على أنَّ الأشياء الطبيعية والكائنات الحيّة موجودةٌ لهدف مثل الأشياء التي يصنعها الإنسان[1].

الدِّراسةُ الثّانية: شملتِ الدراسةُ أطفالًا يتراوح أعمارهم بين سبع وثماني سنوات. وسئلَ هؤلاء الأطفال عن موقفِهم من التَّفسير الغائي لخصائص حيوانات

---

(١) انظر:

The Scope of Teleological Thinking in Preschool Children, Gram (70), (241-273)

متنوّعة وأشياء طبيعيَّة غير حيّة. ومِن الأمثلة على الأسئلة: عندما شاهدوا صورةً لصخرة مدبَّبة، وسئلوا (لماذا تظنُّون أنَّ الصخور مدبَّبة للغاية؟) قدَّموا تفاسير وظيفية وهدفية مثل: (هي مدبَّبة كي لا تجلس الحيوانات عليها وتحطِّمها) وفضَّلوها على تفاسير فيزيائية مثل (هي مدبَّبة لأنَّ أجزاء من المواد قد تكدَّست فوق بعضها البعض لفترة طويلة من الزمن). فظهرت النتائجُ أنَّ الأطفال في هذا العمر فضَّلوا التفاسير الغائية، رغم أنّهم لم يتعلّموا ذلك في البيت ولا المدرسة[١].

الدِّراسةُ الثّالثة: شملتْ هذه الدراسة أطفالًا يتراوح أعمارهم بين ستّ إلى عشر سنوات من بريطانيا. وكانتِ الأسئلة الموجَّهة إليهم تتعلّق بتفسير الأشياء والظواهر الطبيعيَّة والصناعية. ومن الأمثلة على الأسئلة: (لماذا حدث الفيضان الأوّل؟) و(لماذا وُجدَ الطير الأوَّل؟). وكانت النتيجة أنَّ الأولاد فضّلوا التفاسيرَ الغائية على التفاسير الفيزيائية[٢].

فاتَّفقت هذه الدراسات الثلاث على أنَّ التفسير الغائي مغروز في الأطفال من نعومةِ أظفارهم. واستخلص الباحثون منها أنَّ الأطفال ينحازون لتفضيل التفاسير المبنية على الغاية[٣].

واستخلصَ البروفسور جاستن باريت من هذه الدراسات الآتي: «تقرَّر هذه البديهة الراسخة التي نشأتْ مبكّرًا أنَّ هناك تصميمًا وهدفًا وراء كلِّ شيء نراه

---

(١) انظر:

Why Are Rocks Pointy? Children's Preference for Teleological Explanations of the Natural World. Development Psychological 35 (1999): (1440-1453)

(٢) انظر:

Intuitions about Origins: Purpose and Intelligent Design in Children's Reasoning about Nature; Journal of Cognition and Development 6 (2005): (3-31)

(٣) انظر:

The Human Function Compunction: Teleological Explanation in Adults. Cognition 111 (2009) (138-143)

في الطبيعة، وقد تدفع بقوَّة لترك فكرةِ حدوث التطوُّر فقط عبر الانتقاء الطبيعي الأعمى لا غير. وقد نعتقدُ حدسًا أنَّ التطوُّر يحتاج مساعدة متقطِّعة من مصمِّم ذكي ليجعل تعليل حدوث التطوُّر مقبولًا[1]؛ لأنَّه على المستوى الأساسي يبدو أنَّ افتراض وجود مصمّم وضعَ التَّصميم أمرٌ صحيح، وهذا ما تشجِّعنا عقولنا منذ الطفولة الباكرة على التفكير به؛ **بل نجدُ أنَّ استعمال لغة التصميم والغاية أمرٌ حتمي حتَّى عند أشدِّ التطوّريين صلابة ممَّن يحاربون ضدَّ التصميم**. تُجبرنا الطريقةُ التي نمت بها عقولنا طبيعيًّا على التساؤل مِن أو ماذا وراء التصميم الواضح، أو الغاية في الطبيعة. من هو المصمِّم الأكبر؟ هل هي الطبيعة ذاتها؟ أم التطوُّر؟ أم الانتقاء الطبيعي؟ أو إله؟»[2].

وهذان المبدآن مغروزان في كلِّ إنسان، وهمَا يساعدانه في قبول أدلّة وجود الله بكلِّ سهولة. فحجَّة الإتقان والإحكام مبنيَّة على مقدِّمتين ونتيجة:

المقدِّمة الأولى: وجودُ الإحكام والإتقان في مخلوقات الله.

المقدِّمة الثانية: كلُّ شيء مُحكم ومُتقن فلا بدَّ له من مُحكِم ومُتقِن خلقه.

النتيجة: وجودُ خالق عليم حكيمٍ خلق المخلوقات بهذا الإحكام والإتقان.

فالشعورُ بالغائية يجعل الإنسانَ يبحث عن الإحكام والإتقان في المخلوقات، ويشعر بأنَّها وُجدت لغاية. وأمَّا مبدأ السببية فهو الأصل للمقدّمة الثانية. وهذا يلزم الإنسانَ بقبول النتيجة الواضحة البيِّنة. وإضافةً إلى ذلك فإنَّ الإنسان مفطور على الإيمان بالخالق نفسه كما سيأتي بيانُه في القسم الثاني.

---

(١) يبدو أنّ هذا الاستنتاج من البروفسور باريت مبنيٌّ على موقفه تجاه مذهب التصميم الذكي والتطوّر الموجَّه، وإلّا فالدراساتُ لا تشير إلى هذا الاستنتاج بوضوح، بل تشير إلى وجود الشعور الفطري بالغائية في الكائنات الحيّة وغير الحيّة.

(٢) انظر: فطرية الإيمان: كيف أثبتت التجارب أن الأطفال يولدون مؤمنين بالله؟ (٧٧).

القسمُ الثّاني:
الأدلةُ من علم النفس على أنَّ الإنسان مفطور على الإيمان بالخالق:

قد تقدَّم أنَّ الدراساتِ الحديثة في علم النفس تشيرُ إلى أنَّ الإنسان مفطور على مبدأ السَّببية والشعور بالغائية. وهناك دراساتٌ علمية تشير إلى أنَّ الإنسان ليس مفطورًا على هذيْن المبدئين فحسب، بل هو مفطورٌ على الإيمان بالخالق. وقد تقدّم في الحديث عن حجَّة الفطرة بعض الكلام عن هذه الدراسات، وأنَّ أكبر دراسة في هذا المجال هو ما قامَ به البروفسور جاستن باريت مع زميله البروفسور روجير تريغ بتعاون مع ٥٧ باحثًا مِن ٢٠ دولة عن فطريةِ الإيمان. وكانت خلاصةُ البحث ما ذكره البروفسور تريغ: «لقد جمعنا أدلةً كثيرة تثبتُ أنَّ التديُّن حقيقة مشتركة في طبيعة الإنسان في المجتمعات المختلفة»[١].

وذكرَ البروفسور باريت خلاصتَه عن فطرية الإيمان عند الأطفال: «لو ألقينا مجموعة منْهم على جزيرة وتربَّوا فيها بأنفسهم فإنّي أعتقدُ أنهم سوف يؤمنون بالله»[٢].

وقد دوَّن البروفسور باريت خلاصةَ أبحاثه خلال عشرين سنة فيما يعتقد أنّه دين الفِطرة التي فُطِر عليه كلُّ مولود في كتابه: «فطرية الإيمان» (Born Believers)، وبيَّن في هذا الكتاب أنَّ المعتقدات اللاهوتية المعقَّدة - مثل: التثليث - ليست من دين الفطرة؛ فقال - مع أنّه نصراني - : «فلو أخذْنا عقيدة التثليث كمثال، فسنجد كيف تؤكِّد المسيحية التقليدية على الفكرةِ القائلة بأنَّ هناك إلهًا واحدًا، وهذا الإله مكوّن من ثلاثة (أشخاص): الإله الأب، والإله الابن، والإله الروح القدس. إنَّ الصياغة الدقيقة لهذه

---

(١) مقال Belief in God is part of human nature – Oxford study
: https://www.telegraph.co.uk/news/politics/8510711/Belief-in-God-is-part-of-human-nature-Oxford-study.html

(٢) انظر المقال: Children are born believers in God, academic says
https://www.telegraph.co.uk/news/religion/3512686/Children-are-born-believers-in-God-academic-claims.html

العقيدة وما لا تعْنيه وما لا تعْنيه كانت موضوعًا للعديد من المجالس الكنسية والكتابات اللاهوتية التي امتدَّت لما يزيد على ألف عام. وأظنُّ أنَّ هذه العقيدة ستبقى ملغزة وصعبةً على الفهم... وقد خرج الكثيرُ من نقّاد المسيحية لخلاصة (أظنّها متسرّعة قليلًا) أنَّ هذه العقيدة غيرُ قابلة للفهم، وبالتالي فهي هراء. وما أودُّ الإشارة إليه ليس صوابَ أو خطأ المفاهيم اللاهوتية ذات الطبيعة الإدراكية غير الفطرية وغامضة التصوّر للديانة، وإنّما فقط الإشارة إلى حاجتها اكتسابها إلى مزيدٍ من الوقت والجهد، **وبالتالي فهي خارج مجال ميولِ الإدراك الفطري للتديُّن عند الأطفال. ويجب توفُّر عوامل مجتمعيَّة خاصَّة للانتشار الناجح لهذا النوع من الأفكار**»[(١)].

ومِن هنا، اقتربَ البروفسور باريت كثيرًا من مدلول الحديث: «كلُّ مولودٍ يولَد على الفطرة **فأبواه يهوِّدانه أو ينصِّرانه** أو يمجِّسانه»[(٢)].

ولعلَّ ذلك من أسباب مراسلة بعضِ المسلمين للبروفسور باريت كما ذكره في كتابه، وذكروا له حديثَ الفطرة، فأجابَهم بقوله: «إنني أقدِّر هذا التأكيد، لكن ما وصلنا إليه مِن الدليل حتَّى الآن يدعم فطريةَ الإيمان بربٍّ خالق قدير، ولا يؤكّد بأنّ الأطفال يولَدون مؤمنين بدين مسلمين سنّة، أو يهود أو مسيحيين - أو أيِّ دين آخر من هذا القبيل، بل قد ينحازون بالعموم لإحدى الديانات دون غيرها -، ولعلَّ هذا أحدُ أسباب الانتشار الواسع لبعضِ الديانات دون غيرها - لكنَّني لا أعلم أيّ تقاليد معيّنة تنطبق عليها تمامًا الأفكارُ الفطرية التي يميل الأطفال للإيمان بها»[(٣)].

وهذا دليلٌ على أنَّ البروفسور باريت لم يفهمْ حقيقة مدلول الحديث. فليس المرادُ بالحديث أنَّ الطفل يولَد بمعرفة تامَّة بعقيدة الإسلام أو أحكامه. وهذا ما

---

(١) فطرية الإيمان (١٧٣ - ١٧٤).

(٢) متّفق عليه. أخرجه البخاري في صحيحه (١٣١٩)، كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين (١ / ٤٦٥). وأخرجه مسلم في صحيحه (٢٦٥٨)، كتاب القدر، باب ما معنى كلّ مولود يولَد على الفطرة، وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين (٤ / ٢٠٤٧).

(٣) المصدر السابق (١٨٧).

ذكره شيخُ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) إذْ قال: «إذا ثبتَ أنَّ نفس الفطرة مقتضية لمعرفته ومحبته، حصلَ المقصود بذلك، **وإن لم تكنْ فطرة كلِّ أحدٍ مستقلة بتحصيل ذلك، بل يحتاج كثيرٌ منهم في حصول ذلك إلى سببٍ معيَّن للفطرة: كالتعليم والتخصيص.**

فإنَّ الله قد بعثَ الرسل، وأنزل الكتب، ودعوا الناسَ إلى موجب الفطرة: من معرفة الله وتوحيده، فإذا لم يحصلْ مانع يمنع الفطرة، وإلّا استجابت لله ورسله، لما فيها من المقْتضى لذلك. ومعلوم **أنَّ قوله: كلُّ مولودٍ يولَد على الفطرة، ليس المراد به أنه حينَ ولدته أمُّه يكون عارفًا بالله موحدًا له، بحيث يعقل ذلك.** فإنَّ الله يقول: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [سورة النحل:٧٨]. **ونحن نعلم بالاضطرار أن الطفل ليس عنده معرفةٌ بهذا الأمر، ولكنَّ ولادته على الفطرة تقتضي أن الفطرة تقتضي ذلك، وتستوجبه بحسبها.**

فكلَّما حصل فيه قوة العلم والإرادة، حصلَ من معرفتها بربها، ومحبتها له، ما يناسبُ ذلك كما أنَّه ولد على أنه يحبُّ جلبَ المنافع ودفْع المضار بحسبه، وحينئذ فحصولُ موجب الفطرة، سواء توقَّف على سبب، وذلك السبب موجود من خارج، أو لم يتوقَّف، على التقديرين يحصل المقصود. ولكن قد يتَّفق لبعضها فوات الشرط أو وجود مانع، فلا يحصل مقصود الفطرة»[1].

وهذا الكلامُ الذي ذكره شيخُ الإسلام في الحقيقة قريب مما توصّل إليه البروفسور باريت خلالَ دراساته وأبحاثه، إلا أنَّ استنتاجات البروفسور باريت ليست مأخوذة من مشكاة النبوَّة، وإنما هي استنتاجاتٌ قادَه عقله إليها بناءً على ما قام به من الدراسات، وما لديه من مواقفَ فلسفية مُسبقة قبل الدراسات. ولا بدَّ أن يحصل خلل في شيء من كلامه، وإن كان في جملته كلامًا سليمًا.

---

(١) درء تعارض العقل والنقل (٨/ ٤٦٠ - ٤٦١).

القسمُ الثّالث:

الأدلةُ من علمِ النَّفس أنَّ الإلحاد في الأصل مشكلة نفسية وانحراف سلوكي عن الفطرة السوية:

قد تقدَّم أنَّ الفيلسوف الألماني لودفيغ فيورباخ كان من أشهر الملاحدة في القرن التاسع عشر. وكان فيورباخ يرى أن الإله إفرازٌ لتخيُّل الإنسان (Imagination)؛ فهو إسقاط (Projection) لما يريده الإنسان لنفسه، ثمّ يجسِّد (Objectification) هذا المراد، فيكون مرادُه هو الإلهَ في تخيُّلاته. ولما كان الإنسان يستطيع أن يفكّر في المجرّدات بخلافِ الكائنات الأخرى نشأتِ الأديانُ نتيجة لذلك. فالدين عند فيورباخ لا يعدو كوْنه إسقاطًا نفسيًّا وأوهامًا[١].

وقد قرأ سيغموند فرويد نظرياتِ فيورباخ عنِ الدين، وتأثَّر بها في أيام شبابه، فكان يعتبر أنَّ الإله وهمٌ مبنيٌّ على حاجةٍ صبيانية لأب قوي، ورأى أنَّ الدين كان ضروريًّا لمساعدتنا لكبْح دوافع عنيفة في وقتٍ سابق مع تطوُّر المجتمعات، ولكنّه لا حاجة إليه في هذا العصر بسببِ انتشار العقلانية والعلم التجريبي[٢].

وسيغموند فرويد من أشهر علماءِ النفس على الإطلاق حتى يلقَّب بأبي علم النَّفس المعاصر[٣]. وبسبب مكانة فرويد المرموقة بين علماء النفس الماديين انتشرت نظرياتُه المعادية للإيمانِ والدين بينهم، وتدرَّس هذه النظريات في الجامعات الغربية[٤].

---

(١) انظر: الإلحاد مشكلة نفسية (٧٠)، للدكتور عمرو شريف، (نيو بوك للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٤٣٧ هـ).

(٢) انظر تلخيص موقف فرويد من الإيمان والدين في:

A History of God (357), by: Karen Armstrong, (Ballantine Books, 1993)

(٣) انظر المقال: Sigmund Freud: The Father of Modern Psychology

http://www.academia.edu/5517174/Sigmund_Freud_The_Father_of_Modern_Psychology

(٤) انظر: نفسية الإلحاد - إيمان فاقد الأب - (٢٤)، لبول فيتز، (مركز دلائل، الطبعة الأولى، ١٤٣٧ هـ، ترجمة: مركز دلائل).

وسيأتي الردُّ التفصيلي على هذه الشُّبهات في الفصل الثاني من الباب الثالث - إن شاء الله -. ولكنَّ المقصود هنا أنَّ بعض العلماء قد قلّبوا حجة الملاحدة، واستخدموا هذه النَّظريات في تفسيرِ ظهور الإلحاد، بأنَّه في الحقيقة مشكلة نفسية منحرفة عن الفطرة السويَّة. وهذا ما قامَ به البروفسور بول فيتز[1]. وهو من كبار علماء النفس الأمريكان، وقد نشأ نصرانيًّا، ثمَّ أصبح ملحدًا أثناءَ دراسته لعلم النفس، ثمّ عاد إلى النَّصرانية بعد ذلك[2]. وقد بحثَ قضية علم النفس الإلحادي بعمق، وألّف كتابه المشهور: «إيمان فاقد الأب - نفسية الإلحاد» (Faith of the Fatherless - The Psychology of Atheism). وأصَّل في هذا الكتاب أنَّ الأبوّة الناقصة - سواء كان الأب ميّتًا أو غير حاضرٍ أو غير جدير بالاحترام - هي مِن أسباب النزوع إلى الإلحاد واللادينية[3]. وقد تتبَّع البروفسور فيتز سيرَ حياة أشهر الملحدين واللّادينيّين الغربيين فوجد أنَّ هذه العلاقة واضحةٌ وظاهرة. فأغلبُ الملاحدة واللادينيّين المشهورين كانت لهم علاقات مستشكلة معَ آبائهم، وقد أثَّرت هذه العلاقة في تبنِّيهم الإلحاد أو رفض الدين.

ولكوْن هذه الدراسة مُفيدة يستحسن عرضُ بعض النماذج منها، ولا سيَّما الملاحدة واللادينيّين المذكورون في هذه الرسالة. وهُم ثلاثة أقسام: ملاحدة ولادينيُّو عصر التنوير، والقرن التاسع عشر، والقرن العشرين.

أوّلًا: عصرُ التنوير:

أشهرُ دعاة الإلحاد واللادينية في هذا العصر هُم: فولتير، وهيوم وبارون دي هولباخ. وبيانُ ذلك كما يلي:

الأوَّل: فولتير (١٦٩٤ - ١٧٧٨). اسم فولتير الحقيقي هو فرانسيس ماري آروت، ولكنَّه غيَّره لفولتير بعد أنْ رفض والده، بل ادَّعى أنه ولد غير شرعي. ووقعت

---

(١) بول فيتز (Paul Vitz): بروفسور علم النفس في جامعة نيو يورك سابقًا. وقد تخصّص في مسائل علم النفس المتعلّقة بالدين والإلحاد. انظر: https://divinemercy.edu/psy - d - in - clinical - psychology/faculty - 2/paul - c - vitz/

(٢) انظر: الإلحاد مشكلة نفسية (١٩١ - ١٩٢).

(٣) ويدخل كذلك بعض الربوبيين الذين اشتهروا بنقد لادغ للدين.

مشاجراتٌ كبيرة بينه وبينَ والده فتسبَّب في إرسال فولتير إلى السجن. وعلاوة على ذلك توفِّيت أمُّ فولتير وعُمره ١٠ سنوات، فصارتْ له مشاكل نفسية. وأصبح فولتير ربوبيًّا لادينيًّا شديدَ النقد للدين، ولكنَّه لم يكن ملحدًا. وكان من أسباب تقلّص الدين في فرنسا، وفلسفته أثَّرت في علمنة الدولة بعد الثورة الفرنسية(١).

الثّاني: ديفيد هيوم (١٧١١ - ١٧٧٦): وقد توفِّي والد هيوم، وعُمره سنتان فقط، ولا تذكر سيرتُه أنَّ أحد الأقرباء أو الأصدقاء قام بمهمَّة الأب في تربيته. وأصبح هيوم متشكِّكًا، ومِن أشهر المنتقدين لأدلةِ وجود الله والمعتقدات الدينية، وقد ساهم مساهمةً واضحة في بروز الإلحاد(٢).

الثّالث: بارون دي هولباخ (١٧٢٣ - ١٧٨٩): وُلد باسم باول هنري ثياري في عائلةٍ من أصحاب الأراضي المتواضعة. ولم يتربَّ مع والده، بل أرسلَه والده ليعيش مع خالِه في صغره، وقد جمع خاله ثروةً حتى اشترى أراضي ولقبًا أرستقراطيًّا، وهو هولباخ. وأخذَ بول هنري هذا اللقب وسمَّى نفسه: بارون دي هولباخ، متنكّرًا لعائلته من الفقراء ورافضًا لوالده. وأصبح دي هولباخ مِن أوائل الدُّعاة إلى الإلحاد في فرنسا، ومن أكثر الفلاسفة تعنّتًا ضدَّ الدين(٣).

ثانيًا: القرن التاسع عشر:

أشهرُ دعاةِ الإلحاد في القرن التاسع عشر هُم الملحدون الفلاسفة الألمانيون، وهُم: آرثر شوبينهاور، ولودفيغ فيورباخ، فريدريك نيتشه. وبيانُ ذلك بما يأتي:

الأوَّل: آرثر شوبينهاور (١٧٨٨ - ١٨٦٠): كانت علاقةُ شوبينهاور بوالده في البداية جيّدة، ولكنَّه توفِّي وشوبينهاور صغيرٌ على ما يبدو نتيجةً للانتحار. وكانت علاقةُ شوبينهاور بوالدته سيئة جدًّا، ولم يتلقَّ منها الحبَّ الأمومي. وحمَّل والدته

(١) انظر: نفسية الإلحاد (٦٥ - ٦٧).

(٢) انظر: المصدر السابق (٥٠ - ٥١).

(٣) انظر: المصدر السابق (٦٩ - ٧٠).

مسئولية وفاةِ والده. وكان يشعر بالوحدةِ والخوف في أيَّام شبابه، ونظرته سوداوية للعالم. وهذا أثَّر - كما ذكرَه بنفسه - في رفضه للوجود الإلهي، ولقِّب بالمتشائم الأكبر، وأصبح فيما بعدُ من كبار دعاة الإلحاد في القرن التاسع عشر[1].

الثّاني: لودفيغ فيورباخ (١٨٠٤ - ١٨٧٢): وُلِد فيورباخ في عائلة ألمانية متميّزة، وكان والدُه من رجالِ القانون البارزين، ولكنَّه ترك عائلته ليعيش مع عشيقته، وكان هذا الأمرُ يعتبر فضيحةً أخلاقية كبيرة في ذلك الزمان، كما أنَّ والد فيورباخ كان معروفًا بأنه مندفعٌ في أخلاقه. وقد أثَّر هذا الأمرُ في فيورباخ، الذي أصبح فيما بعدُ من كبار دعاة الإلحاد في ألمانيا، وهو الذي صاغَ نظرية الإسقاط، التي تمّت الإشارة إليها[2].

الثّالث: فريدريك نيتشه (١٨٤٤ - ١٩٠٠): وُلِد نيتشه في قرية ألمانية صغيرة، وكان نجلَ قسيس، كما أنَّ كثيرًا من أفراد أسرته كانوا قساوسة. كان نيتشه متعلّقًا بقوّة بوالدِه، ولكنَّه توفِّي وعمرُ نيتشه أربعُ سنوات فقط، فكانت صدمةً قويَّة في حياته. تربّى نيتشه معَ والدته وأختِه، وكان يحتقرهما، بل أدَّى ذلك إلى احتقاره للنساء كلّهن، ويقول: «أنت ذاهب لرؤية امرأة؟ لا تنسَ أنْ تأخذ سوطك!». ولم يستطعْ نيتشه أن يقيمَ علاقات طبيعية معَ أولاد آخرين في أيام دراساته، كما أنَّه عانى من أمراض شديدة في حياته. وهذه الاضطراباتُ أدَّت به إلى الإلحاد، وفلسفة متناقضة غريبة، وأصبح من كبارِ دعاة الإلحاد في زمانه[3].

ثالثًا: القرن العشرون:

هذا القرنُ اختلف عنِ القرون السابقة، حيث أنَّه وُجد منظِّرون للفكر الإلحادي واللّاديني، إضافةً إلى سياسيِّين كبار نشروا الإلحادَ واللادينية بحدِّ السيف. ومن أشهر المنظِّرين: سيغموند فرويد، وبرتراند راسل، وجان بول سارتر. وأمَّا أشهرُ زعماء الإلحاد واللادينية فهُم: جوزيف ستالين، أدولف هتلر، وماو تسي تونغ. وبيانُ ذلك كما يلي:

---

(١) انظر: المصدر السابق (٥٨ - ٦٠).

(٢) انظر: المصدر السابق (٧٠ - ٧١).

(٣) انظر: المصدر السابق (٤٥ - ٥٠).

المنظِّرون الملاحدة في القرن العشرين:

الأوَّل: سيغموند فرويد (١٨٥٦ - ١٩٣٩): اتَّفق كتَّاب سيرةِ فرويد الذاتية بشكلٍ عام على أنَّ يعقوب - والد سيغموند - كان خيبةَ أمل بالنسبة لابنه، فكان ضعيفًا وغيرَ قادرٍ على إعالة أسرته، وكانت النفقةُ التي عاش عليها سيغموند وهو صغير مِن عائلة أمِّه وآخرين. وإضافةً إلى ذلك كان والده منحرفًا جنسيًّا، وقد عانى أطفاله بسببِه. كما أنَّ والده كان يهوديًّا، وأهينَ بسبب يهوديتِه بدون أن يدافع عن نفسه، وهذا سبَّب عقدة نفسية لدى فرويد، وأدَّى به نحو الإلحاد، كما أنَّه أثّر في نظرياته النَّفسية في تحليل ظاهرة الإيمان[1].

الثاني: برتراند راسل (١٨٧٢ - ١٩٧٠): توفِّيت والدة برتراند وعمره سنتان، وتوفِّي والدُه وعمرُه أربع سنوات، فتولّى جدُّه تربيته، ولكنَّه توفّي وعمره ستُّ سنوات. وهكذا كانت أيام طفولة برتراند متَّسمة بوفيات الأقرباء. تربَّى برتراند في بيت جدّته وكانت امرأةً نصرانية متديِّنة، ولكنَّه وقعت له ردَّة فعلٍ مما رأى من تديّنها فألحد، وبدأ ينعزل مِن الناس، ولم يكن عنده أيُّ صديق مقرَّب. وقد عاش حياة مليئة بالتناقضات، وقد ظهرتْ هذه التناقضات جليًّا في فلسفته. وكان برتراند راسل أشهر فيلسوف ملحد بريطاني في القرن العشرين[2].

الثالث: جان بول سارتر (١٩٠٥ - ١٩٨٠): توفِّي والد سارتر بعد ولادته بخمسة عشَر شهرًا، فتربَّى مع أمه، وكان يحبّها كثيرًا، ولكنّها تزوَّجت مرّة أخرى وعمرُه ١٢ سنة، وانتقلت إلى بيتٍ آخر، وتركت ابنَها يعيش مع جدَّيْه. وأثّر هذا الأمر في سارتر تأثيرًا كبيرًا، ولم يتعافَ منها بعدَ ذلك في حياته. وبعدَ زواج أمِّه بسنة قرّر سارتر أن يكونَ ملحدًا، ويرفض إيمانَه بالإله. وأصبح فيلسوفًا ذا صيتٍ واسع، ومن أشهر ملاحدة أوروبا في القرن العشرين[3].

---

(١) انظر: المصدر السابق (٧٥ - ٧٦).

(٢) انظر: المصدر السابق (٥١ - ٥٤).

(٣) انظر: المصدر السابق (٥٤ - ٥٧).

- **الزُّعماء الملاحدةُ واللادينيون:**

ستالين وهتلر وماو كانوا أكبرَ القتلة في التاريخ، وكانوا معًا مسئولين عن قتل ما يقاربُ مائة مليون شخص. وكانوا إضافةً إلى ذلك ملاحدة ولادينيين شرسين، وحاربوا الأديانَ الموجودة في بلدانهم بشتَّى الوسائل. وكلُّ هؤلاء الثلاثة كانت لديهم علاقات سيِّئة مع والديهم. وبيانُ ذلك كما يلي:

الأوَّل: جوزيف ستالين (١٨٧٩ - ١٩٥٣): كان والدُ ستالين عديمَ القلب، وقاسيًا جدًّا في ضربِ زوجته وابنه. وإضافةً إلى ذلك كان يغيب عن البيت طويلًا، ويشربُ الخمر بكثرةٍ حتى يسكر. وقد تأثَّر ستالين بهذا الأمر تأثّرًا كبيرًا حتى كان يشعر بالانتقام ضدَّ كلِّ ذي سلطة. أرسلتْه أمُّه لدراسة الكهنوتية واستمرَّ في دراسة القداسة عدَّة سنوات إلى أنْ رفض الدراسة بقوَّة، وأصبح ملحدًا متعنِّتًا، بل رفض اسمَ عائلته وتسمَّى بستالين بمعنى: الفولاذ. ولما تولَّى الحكمَ اضطهدَ القساوسة وجميع المتديّنين من دياناتٍ مختلفة، ونشرَ الإلحاد بقوّة السيف[١].

الثاني: أدولف هتلر (١٨٨٩ - ١٩٤٥): كان هتلر يصف والدَه بأنه مستبدّ أناني، ويظهر القليلَ من الاهتمامِ بمشاعر زوجته الأصغر منه بكثير، وفهمًا قليلًا لأولاده. وكان والدُ هتلر يضربه ضربًا مُبرحًا بدون أيِّ رحمة يوميًّا. وقد أدَّى ذلك إلى أنَّ أخا هتلر غير الشقيق هربَ من البيت وهو صغير، بينما بقيَ هتلر يتلقّى التعذيب القاسي، ولكنّ والدَه توفِّي وعمرُه ١٤ سنة. دفعته أمُّه نحو الدراسة في الكنيسة، ولكنّه أصبح ثوريًّا ومُعاديًا للكنيسة بعد ذلك، ومعاديًا - بشكل أكبر - لليهودية. وقد تأثَّر هتلر بكبار فلاسفةِ ألمانيا الملاحدة كشوبينهار ونيتشه، وتبنَّى المذهب النازي العلماني، وأصبح قائد ألمانيا ١٢ سنة، واضطهدَ المتديِّنين من اليهود والنصارى بشكل واسع[٢].

الثّالث: ماو تسي تونغ (١٨٩٣ - ١٩٧٦): يوصَف والدُ ماو بأنه مستبدّ أسري، وكان ماو يكرهُه بشدَّة، ويحاول أن يثورَ عليه، فكسبَ فكره الثوري من طفولته في علاقتِه مع والده[٣].

---

(١) انظر: المصدر السابق (١٣٩ - ١٤٠).

(٢) انظر: المصدر السابق (١٤٠ - ١٤١).

(٣) انظر: المصدر السابق (١٤١ - ١٤٢).

وأصبح ماو ملحدًا شرسًا، وثوريًّا عنيفًا، فقام بثورة حتى استولى على الحكم، ثمَّ طبَّق حكمَه الإلحادي المستبدّ الشديد على سكان الصين، وتوفّي بسببه عشراتِ الملايين من البشر.

فهذه خلاصةُ سيرِ أعتى الملاحدة منذُ ثلاثمائة سنة، وتبيَّن من دراسة البروفسور فيتز أنَّه كانت لهم علاقاتٌ أسرية سيئة، ولا سيَّما مع والديهم. ومِن هذه الناحية قدّمت دراسات البروفسور فيتز معلومات مهمَّة لفهْم طبيعة الإلحاد. ولكن ما مدى الصواب في استنتاجِه للعلاقة بين هذه العلاقات الأسرية المضطربة بالإلحاد؟

تقييمُ استنتاجات البروفسور فيتز:

قدَّم البروفسور فيتز فرضية: الأب المعيب لتفسير ارتباطِ الإلحاد بالعلاقة السيئة بين الأبِ والابن. وكان يستندُ في ذلك إلى فرضيَّة فرويد نفسها؛ فقد نقل كلام فرويد في كتابِه أنَّه قال: «التحليلُ النفسي الذي تعلَّمنا من خلاله الرابط الوثيق ما بين عقدة الأبِ والإيمان بالله، أظهرَ لنا أنَّ الإله المتمثِّل بشخصية، هو منطقيًّا ليس إلا أبًا ممجدًا، ويتَّضح لنا يوميًّا كيف يفقد الشبابُ إيمانهم الديني بمجرَّد أن تنهار سلطة الأب».

ثمَّ علَّق البروفسور فيتز على كلام فرويد بقوله: «وهذه الملاحظاتُ المثيرة للاهتمام لا تتطلَّب أيَّ افتراضات حول الرغبات الجنسية وغير الواعية تجاه الأم، ولا حتَّى حول الكراهية التَّنافسية العامَّة المفترضة التي تركِّز على الأب[1]. بل قام فرويد بدلًا من ذلك بافتراض الادِّعاء الأبسط والأسهل فهمًا بأنَّه كلّما أصيبَ الطفل أو الشاب بخيبة أمل بوالدِه الدنيوي أو فقدَ احترامه، أصبح مستحيلًا عليه الإيمانُ

---

(١) يشير البروفسور فيتز إلى نظرية فرويد (عقدة أوبيد) من أنّ الطفل يطوّر رغبة جنسية قوّية تجاه أمه، وفي الوقت نفسه يطوّر بغضًا شديدًا وخوفًا من الأب ورغبة في أن يحلّ محله توقٌ إلى السلطة. وأنّ هذا الأمر يدخل في اللاوعي عند الطفل، ولا تشفى هذه العقدة النفسية حتى بعد البلوغ، بل تبقى في داخل الإنسان. ورأى فرويد أنّ هذه العقدة قد تؤثّر في موقف الإنسان من الإله والدين.
انظر: نفسية الإلحاد (٣١ - ٣٧).
ويشير البروفسور فيتز في هذا التعليق إلى أنه لا يضمِّن هذه النظرية في نظريته، وإنما يكتفي بكلام فرويد عن العلاقة بين موقف الإنسان من والده وموقفه من الإله.

بالأب السماوي[1]. وقد افترضَ فرويد فكرةَ التمثيل النفسي عند الطفل تجاهَ والده، وهي الفكرة التي ترتبط ارتباطًا وثيقًا بفهمِهِ لوجود الله تعالى، ثمَّ قام بذلك عددٌ من علماء النفس لا سيَّما أخصائيُّو التحليل النفسي. ويمكنُنا القول إنَّ خيبة أمل الملحد من والده واستياءه منه تبرِّران رفضه لوجود الله»[2].

وهذه الفرضية فيها عددٌ من الإشكاليات، مِن أبرزها أنها وردت في سياق عقيدة النَّصارى في الإله، حيث إنَّ النصارى يؤمنون بالتثليث، وأنَّ الأب هو الأقنوم الأوّل من الأقانيم الثلاثة. ويرسمون الإلهَ في كنائسهم بأنه أبٌ سماوي ذو لحية بيضاء كبيرة. وهذا التصوُّر مُنحصر في المفهوم النصراني، ولا يصدُق على ديانات أخرى كالإسلام واليهودية. فغايةُ ما يمكن قولُه من فرضيته أنَّ النصرانية حرَّفت التصوّر الصحيح عن الإله، وربطتْ بينَ الأب الدنيوي والإيمان بالأب السماوي، وأنَّ هذا المفهوم المحرّف أثّر في بعض النصارى لترْك دينهم إذا اختلَّت العلاقة بينهم وبين آبائهم.

والأقربُ أنه يمكن تفسيرُ الإلحاد بأنه انحرافٌ نفسي عن الفطرة السوية، وأنه يعود في كثيرٍ من الأحيان إلى مشاكلَ أسرية لدى الملحد في طفولته، وسوء علاقته مع والديه أو أحدهما.

«وعلى ذلك فالنتيجةُ الحاسمة من دراسة بول فيتز هي أنَّ الإلحاد حالة نفسية في الغالب، وهذه الحقيقة لا يدركها الملاحدةُ بسهولة، فهُم لا يستطيعون غالبًا الخروج عن حالتِهم النفسية - التي يسمّيها القرآن «الهوى» - ولا يدركون أنّهم بعيدون عن العقل والمنطق إلّا إذا استطاعوا الخروج من المشاعر والركون إلى العقل»[3].

وقد ألمحَ البروفسور فيتز إلى هذا الأمر ضمنًا في كتابه إذ قال: «أفترض أنَّ العوائق الرئيسة للإيمان بالإله ليستْ عقلانية، ولكنْ يمكن أن يطلق عليها بالمعنى العام أنَّها نفسية، ولديَّ قناعةٌ تامَّة بأنه يوجد مقابل كلِّ شخص يحمله النقاش العقلاني بشكلٍ

---

(١) سيتمّ التعليق على مثل هذا اللفظ النصراني بعد الانتهاء من كلامه.

(٢) نفسية الإلحاد (٣٨ - ٣٩).

(٣) تأملات في البواعث النفسية للإلحاد (٥٥).

قويّ على تغيير رأيه ما لا يعدُّ ولا يحصى من المتأثِّرين بشكل أكبر بعوامل نفسية غير عقلانية»[1].

وقد ذهبَ جون باسكويني إلى أبعدَ من ذلك فألّف كتابه المتميّز: «اضطراب شخصية الملحد» (Atheist Personality Disorder) وذكر كثيرًا من الشواهد على الاضطرابات النَّفسية لدى الملاحدة مثل: فلسفاتهم المتناقضة، والسلوكيات المنحرفة المنتشرة بين الملاحدةِ إلى غير ذلك. وقد سبقتِ الإشارةُ إلى بعض النقاط التي ذكر باسكويني عند الحديث عن الآثار السلبية المترتبة على الإلحاد.

تقييمُ الحجج المتعلّقة بعلم النفس:

الحججُ المتعلِّقة بعلم النفس التي يذكرها علماءُ الغرب حجج جيِّدة ومفيدة، لا سيَّما الحجج التي تؤيِّد كونَ الإنسان مفطورًا على الإيمان بالله. فإذا انضمّت هذه الدراساتُ مع الاستدلال العقلي الذي سبق ذكرُه عند الحديث عن حجة الفطرة فإنها تعدُّ حجَّة قوية وأصيلة للاستدلال على وجود الله.

وأمّا الحديث عن كوْن الإلحاد مشكلةً نفسية، فليس دليلًا مباشرًا على وجود الله؛ لأنَّ مجرّد بيانِ كون الشيء مشكلةً نفسية لا يدلُّ على نقيضه مباشرة، أي: أن الله موجود. ولكنْ يُستحسن ذكرُ هذه الدراسات تبعًا للحديث عن الفطرة. فالدراسات العلمية تبيِّن أنَّ الإنسان مفطور على الإيمان بالخالق - وهذا هو المطلوب -، ودراسات أخرى تبيِّن أنَّ الإلحاد مشكلة نفسية وانحرافٌ عن الفطرية سوية، فتكون حجة اعتضادية وليست أصلية.

وكلامُ علماء الغرب عن هذه المسألة جيِّد من حيث ذكر الأدلة والشواهد والدراسات، وأمّا استنتاجاتهم من هذه الدراسات فإنَّها في الغالب لا تخلو من مواقف فلسفيةٍ أو لاهوتية مُسبقة. وهذه المواقفُ الفلسفية واللاهوتية فيها ما فيها من الأخطاء كما سبقتِ الإشارة إليه. ولكنْ يمكن للمسلم أن يستفيدَ من دراساتهم العلمية ويعرض عنِ استنتاجاتهم. وبهذا القدْر يتحقّق المطلوب.

---

(١) نفسية الإلحاد (٢٥).

المبحثُ السّادس
الحججُ المتعلِّقة بالرياضيات

هذا المبحثُ يبيِّن الحججَ المستنبطة من الرياضيات التي يستخدمها علماءُ الغرب في الاستدلال على وجود الله. وقد عرَّف قاموسُ أكسفورد الرياضيات بأنها: «العلم المجرّد للرقم، والمقدار، والمسافة، إمَّا كمفاهيم مجرَّدة (الرياضيات البحتة)، وإمَّا كما هو مطبَّق على تخصُّصات أخرى كالفيزياء والهندسة (الرياضيات التطبيقية)»(١).

ومِن هذا التعريف يتبيَّن أنَّ الرياضيات علمٌ مجرَّد في الأصل، وأنه قد يطبّق على مفاهيم مجرَّدة، أو على التخصُّصات الأخرى المعْتنية بالأشياء الحقيقية كالفيزياء. ولهذا تختلفُ الرياضيات عنْ علم الكون، والفيزياء، والكيمياء، والأحياء التي سبق الحديث عنها؛ لأنَّها علومٌ تعتني بدراسة المخلوقات مباشرة. وأمّا في الرياضيات فلا تدرس المخلوقات بشكلٍ مباشر، وإنَّما يستعمل هذا العلم كوسيلةٍ في فهْم العلوم الأخرى.

ولهذا تختلف طبيعةُ الحجج المستنبَطة من الرياضيات التي يستخدمها علماءُ الغرب في الاستدلالِ على وجود الله عن الحججِ المستنبطة من تلك العلوم الأخرى. وتتلخّص أهمُّ الحجج المستنبَطة من الرياضيات في الاستدلالٍ على وجود الله في أمرين:

الأمرُ الأوَّل: دلالةُ التناسق بين الرياضيات والعالم الطبيعي على وجود الخالق.

الأمرُ الثّاني: دلالةُ الأنماط الرياضية في الطبيعة على وجود الخالق.

وبيانُ ذلك كما يلي:

---

(1) https://en.oxforddictionaries.com/definition/mathematics

الأمرُ الأوَّل: دلالةُ التناسق بين الرياضيات والعالم الطبيعي على وجود الخالق:

قد تقدَّم في المباحث السابقة أنَّ المخلوقات كلّها تتَّسم بالإحكام والإتقان، وأن ذلك يدلُّ على وجود الخالق. ولكنْ هذا ليس الشيء العجيب الوحيد، بل هناك أمرٌ آخرُ في غاية العجب. وهو أنَّ العقل الإنسان يستطيع أن يدرك ويفهم حقيقة ألغاز الكون. ومِن الأقوال المشهورة للفيزيائي ألبرت أينشتاين أنه قال: «الشيء الأكثر استعصاءً على الفهْم في الكون هو أنه كوْن يمكن فهمُه»[1]. فالكون قابل للفهم عمومًا، ولكنَّه يمكن شرحُ النظريات العلمية في علم الكون، والفيزياء والكيمياء والأحياء عنْ طريق الرياضيات. وذلك مع أنَّ الرياضيات علم مجرّد.

فتطابقُ هذا العلم المجرَّد بالعلوم المفسِّرة للكون أمرٌ عجيب جدًّا؛ قال الدكتور جاسون ليزلي: «لاحِظ أنَّ قوانين الفيزياء ذات طبيعة رياضية غالبًا، ولن تعمل إن لم توجَد قوانين رياضية، وتتضمَّن قوانين ومبادئ الرياضيات قواعد الجمع وخاصية التعدّي وخصائص الاستبدال للجمع والضرب، ثنائية الحدّ، وكثير غيرها. ومثل قوانين الفيزياء يمكن اشتقاقُ بعض قوانين وخصائص الرياضيات من مبادئ رياضية أخرى، ولكن بخلافِ قوانين الفيزياء، تمتازُ قوانين الرياضيات بأنها مجرَّدة؛ فهي لا ترتبط بأي جزء محدّد مِن الكون، ويمكننا أن نتخيَّل كونًا فيه قوانينُ فيزياء مختلفة، ولكن من الصعب أن نتخيَّل كونًا (متَّسقًا) فيه قوانين رياضيات مختلفة. قوانين الرياضيات مثال عن «حقيقة مطلقة "(Transcendent truth) إذ يجب أن تكون صحيحةً بغضِّ النظر عن نوع الكون الذي خلقه الله»[2].

فالعقلُ الإنساني يستطيع أن يكتشفَ قوانينَ الرياضيات، ولكنه لم يخترعها من نفسِه. فحتَّى لو لم يكتشف الإنسانُ هذه الرياضيات، فإنَّ المخلوقات تتبع سننًا محدّدة وفقَ قوانين الرياضيات. ولهذا سمَّى بعضُ علماء الغرب الرياضيات بـ«لغة الخلق»؛ قال الدكتور ليزلي: «يفترض بعضُ الناس أنَّ الرياضيات اختراع بشري،

---

(1) God's Undertaker (59)

(2) A POCKET GUIDE TO Logic & Faith: (75-76)

ويقال بأنه لو اختلفَ التاريخ البشري فسينشأ علمُ رياضيات مختلف تمامًا، والذي سيكون له بدائل من القوانين والنظريات والمسلَّمات، إلى آخره. ولكن هذا التفكير غير متَّزن؛ فهل نظنُّ بأنَّ الكون سيطيع القوانينَ الرياضية لأن الناس اكتشفوها؟ وهل كانت الكواكبُ تدور في أفلاكِها بطريقة مختلفة قبلَ أن يكتشف كبلر أن (a٣=p٢)؟ لا ريب أن القوانين الرياضية شيء اكتشفَه البشر ولم يخترعوه. والشيء الوحيدُ الذي قد يختلف لو أن التاريخ البشري اتَّخذ مسارًا آخر هو الترميز (notation) أي: طريقة التعبير التي نختارها للحقائق الرياضية عبرَ الرموز (symbols)، لكن هذه الحقائق توجد بغض النظر عن كيفية تعبيرنا عنها، يمكن أن تسمَّى في الرياضيات بحق "لغة الخلق"»(١).

وهذا التطابقُ لا يمكن أن يكون مردُّه إلى الصدفة العمياء، لأن التطابق دقيق للغاية، فيفوقُ ما يمكن تفسيرُه بالصدفة؛ قال دين أوفرمان: «فالرياضيات لغة ممتازة تناسبُ العالم الفيزيائي جدًّا، وقد افترضَ أينشتاين نظريته العامة من مفاهيم رياضية مجرَّدة للغاية لسنواتٍ قبل أن يشرحها فعليًّا كتطبيق في عالمنا. التوافق بين نسبيته العامة والعالم الفيزيائي كان بدقَّةٍ تفوق جزءًا من التريليون في المائة. هذا التوافق الشديد لا يمكن تفسيرُه بالصدفة وحدها»(٢).

وأمّا الملحدُ المعاصر فإنَّه يحاول تفسير كلِّ ما يتعلَّق بعقل الإنسان وفق نظرية التطوُّر. وشعارُ هذه النظرية: «الصراعُ من أجل البقاء». ولهذا يحاولون جاهدين تفسيرَ كلِّ ظاهرة في الكائنات الحيَّة بهذا الهدف. وهذا دليلٌ على قصور التفسير الدارويني؛ لأنَّ إمكانيةَ فهم العقل لعلمٍ مجرَّد كالرياضيات لا يخدم هذا الأمر إطلاقًا. وقد ذكر البروفسور بول ديفيز هذا الأمرَ قائلًا: «لو كانت القدرةُ على فهم الرياضيات تطوّرت بالصُّدفة أو بالأحرى تحتَ ضغوط بيئية؛ فمِن المدهش حقًّا أنْ نجدها قابلة للتطبيق في الكون المادي. على الجانبِ الآخر لو كانتِ الرياضيات نشأت بشكل مبهم من أجل البقاء بالانتقاءِ الطبيعي

---

(١) المصدر السابق (٧٦).

(2) A Case Against ACCIDENT and Self-Organization (143)

فسنبقَى على مواجهة مع لغزِ مطابقة الطبيعة للرياضيات. بعد كلِّ هذا أقول إنَّ الصراع من أجل البقاء «في غابة» لا يتطلَّب معرفة بقوانين الطبيعة من خلال تجليها فقط»[1].

وإنْ كان الملاحدة يحاولون تفسيرَ ذلك في فهم الطبيعة حولنا، فلا يمكن تفسيرُ قدرة فهمِنا للعالم دون الذرِّي[2] وإمكانية تفسيره بلغةِ الرياضيات تفسيرًا دقيقًا. وذلك أنَّ العالم دون الذرِّي لم يكنْ معروفًا لدى أيِّ سلف الإنسان المزعوم لدى التطوّريين، بل لم يكنْ هذا العالم معروفًا إلّا في القرون المتأخّرة. ومع ذلك أمكن عقل الإنسان فهم هذا العالم المليء بالألغاز فهمًا دقيقًا، كما أنَّه أمكن الإنسان وصف العالم دون الذرِّي بلغة الرياضيات المجرّدة.

وقد أشارَ البروفسور جون بولكينغهور إلى هذا الأمر، وأنه في الحقيقة ينقض الأساسَ الذي بُنيت عليه نظريةُ التطوُّر - يعني: الصراع لبقاء الأصلح - بقوله: «قدرتنا على فهْم العالم يتجاوز أيَّ شيء مطلوب من أجل البقاء، فكّر في غرابة معارضة الحدْس الموجودة في النظرية الكمية. فلو عرفت موضعَ إلكترون ما فلن تعرف ماذا يفعل... إنَّ عالم الكم لا يمكن توقُّعه أصلًا، لكنه ليس مستحيلَ الفهم تمامًا. لا أعتقد أنَّ قدرتنا على فهْم خصائصه الغريبة كان نتيجةَ فضول أحد أجدادنا لتفادي أحدِ النمور مثلًا. وهذا يتَّضح أكثرَ لو أدركنا أنَّ الرياضيات تعطينا مفتاح فهم الطبيعة... جمالُ الرياضيات أمر مسلَّم به... فقد وجدنا مرارًا وتكرارًا أن المعادلات التي تصف الطبيعةَ جميلة في الأساس. عليك أن تتأمَّل في الأمر، فهو جديرٌ بالاكتشاف. أقول بعد كلِّ ذلك: إنَّ الرياضيات ظهرتْ بسبب الاستكشافات العقلانية الحرّة للإنسان. ومع ذلك، فمِن الواضح أنَّ عقولنا مضبوطة للغاية لفهم الكون، ولتتمكن من كشف ألغازه»[3].

---

(1) The Unreasonable Effectiveness of Science (554), through: A Case Against Accident and Selforganization (144-145)

(٢) دون الذرّي (Subatomic): ما هو أصغر من الذرّة أو في داخل الذرّة. انظر: https://en.oxforddictionaries.com/definition/subatomic

(3) Beyond Science: The Wider Human Context (79-80)

يقصدُ البروفسور بولكينغهور من هذا الكلام الردَّ على الملاحدة التطوّريين. إذ أنهم يزعمونَ أنَّ عقل الإنسان تطوَّر من أجل أمرٍ واحد فقط، وهو البقاء من أجل الأصلح، ولا فائدة أخرى للعقل. فكيف يمكن العقل إذًا إدراك الأمور الدقيقة جدًّا وصياغتها بلغةِ الرياضيات المجرّدة؟ هذه القدراتُ تتنافى مع نظرية التطوّر. فكما أنّ الكون مخلوق ومضبوط بدقَّة عالية - كما سبق بيانُه - فإنَّ العقل الإنساني مضبوط بدقة عالية لفهم هذه الألغاز.

وهذا النوعُ من الاستدلال قويٌّ وجيّد، فإنَّه يشير إلى أنَّ العقل الإنساني مخلوق من قبَل خالقٍ عليم قدير مكَّنه من التفكُّر والتدبّر وفهْم العالم وصياغة قوانينه بلغة الرياضيات، كما أنّه يدلُّ على بطلان نظرية التطوُّر. فهذا الاستدلال يضرب عصفورين بحجرٍ واحد.

الأمرُ الثّاني: دلالةُ الأنماط الرياضية في الطبيعة على وجود الخالق:

قدْ تقدّم مرارًا وتكرارًا أنَّ هذا الكون وكلَّ ما فيه مضبوطٌ بدقّة متناهية، وأنَّ المخلوقات باختلافِ صغرها وكبرها - من الذرَّة إلى المجرَّة - تؤيّد دليلَ الإحكام والإتقان. ولكن إضافةً إلى ذلك، فقدِ اكتشف العلماءُ أمرًا زائدًا على الإتقان المجرّد في المخلوقات، وهو وجودُ أنماطٍ رياضية دقيقة تتكرَّر في الكون وفي المخلوقات الحيّة بطريقةٍ مُذهلة. ومِن أشهر هذه الأنماط هي ما يسمَّى بالنسبة الذهبية (Golden ratio).

وهذه النسبةُ الذَّهبية بحاجةٍ إلى شيء من الشَّرح والتفصيل، وبيانُ ذلك في الإجابة عنْ ثلاثة أسئلة: ما هي النِّسبة الذهبية؟ أين تظهر النسبةُ الذهبية في المخلوقات؟ كيف تدلُّ النسبية الذهبية على وجود الخالق؟

السؤالُ الأوَّل: ما هي النِّسبة الذهبية؟

في الرِّياضيات يكون رقمان في النِّسبة الذهبية (ϕ)إذا كانت نسبةُ مجموع الكميتين إلى الكمية الكبرى هي تساوي نسبةَ الكمية الكبرى إلى الكمية الصغرى. ويُعبَّر عنها جبريًّا كالتالي:

$$\frac{a+b}{a} = \frac{a}{b} \equiv \varphi,$$

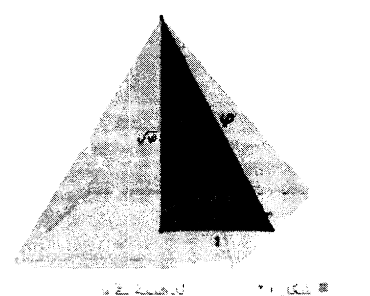
حيث يمثِّل الحرف اليوناني فاي (ϕ) النسبة الذهبية. وقيمتها هي:[١]

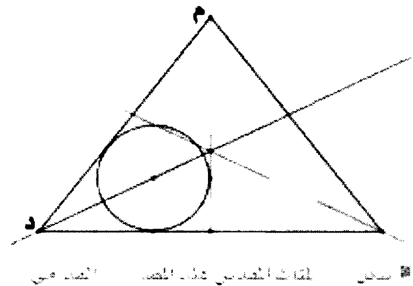
$$ϕ = \frac{1+\sqrt{5}}{2} = 1.61803\,39887\ldots.$$

أو أنَّه يظهر بهذا الشكل[٢]:

$$2x = -1 \pm \sqrt{5}$$
$$x = 0.61803\ldots$$

وهذه النِّسبة الذهبية قد استخدَمها المهندسون والفنَّانون منذ آلاف السنين. وقد اكتشفَ علماءُ الآثار أنَّ الظاهر أنَّ بنّائي الأهرامات كانوا يصمِّمونها وفق هذه النسبة.





ولكنَّ أشهرَ عالم تكلَّم عن هذه النسبة بالتفصيل هو ليوناردو فيبوناشي[٣] حيث كتبَ عنها بالتفصيل، وقد اكتشف ما عُرف بعدَ ذلك بـ«متتالية فيبوناشي» ولها علاقةٌ

---

(١) انظر قاموس المعرفة (النسبة الذهبية):
https://www.marefa.org/%D8%A7%D9%84%D9%86%D8%B3%D8%A8%D8%A9_%D8%A7%D9%84%D8%B0%D9%87%D8%A8%D9%8A%D8%A9

(٢) انظر:
Chemistry by Number Theory (2), by: Jan C.A. Boeyens and Peter Comba
وهو بحث علمي موجود على الرابط:
https://pdfs.semanticscholar.org/ba19/b33b3b9a01dd96ac551c72d2df-3cdc7c2806.pdf

(٣) ليوناردو فيبوناشي (Leonardo Fibonacci): عالم الرياضيات الإيطالي في القرون الوسطى، وكان أحد أشهر علماء الرياضيات في القرون الوسطى. توفي عام: ١٢٥٠ م.
https://www.britannica.com/biography/Fibonacci

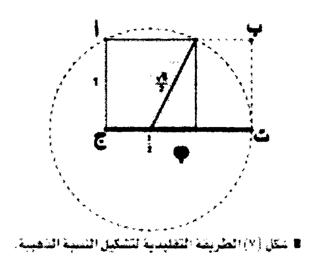
وطيدة بالنِّسبة الذهبية. هذه المتتالية أنْ يكون كلُّ عدد نتاجَ مجموع العددين السابقين له. فتكون المتتالية كالآتي:

F_{20}	F_{19}	F_{18}	F_{17}	F_{16}	F_{15}	F_{14}	F_{13}	F_{12}	F_{11}	F_{10}	F_9	F_8	F_7	F_6	F_5	F_4	F_3	F_2	F_1	F_0
6765	4181	2584	1597	987	610	377	233	144	89	55	34	21	13	8	5	3	2	1	1	0

ووجدَ العلماء أنَّ هذه المتتالية لها علاقة بالرقم الذهبي، لأنّ ٥ ÷٣ = ١,٦٦٦٦، و٨ ÷ ٥ = ١,٦، و١٣ ÷ ٨ = ١,٦٢٥، و٢١ ÷ ١٣ = ١,٦١٥٣٨، وكلّ ما تزداد الأرقام في المتتالية فإنها تقربُ من النسبة الذهبية، ولا سيَّما بعدَ ٤٠ محاولة، فإنه قريب جدًّا من هذه النسبة[١].

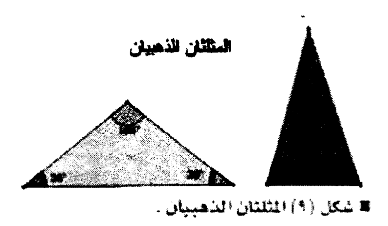
ويمكن ملاحظةُ هذه المتتالية التي تقترب من النسبة الذهبية بأشكال هندسية مُختلفة، ومن الأمثلة على ذلك:

المستطيلُ الذهبي:



شكل (٧) الطريقة التقليدية لتشكيل النسبة الذهبية.

المثلّثُ الذهبي:

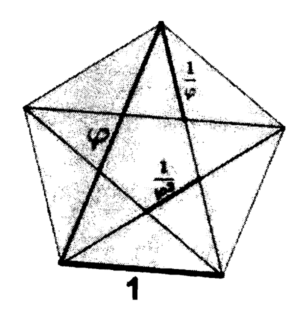


شكل (٩) المثلثان الذهبيان.

---

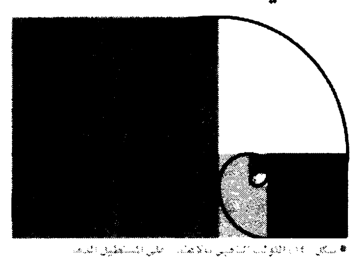
(١) انظر قاموس المعرفة (متتالية فيبوناشي):
https://www.marefa.org/%D9%85%D8%AA%D8%AA%D8%A7%D9%84%D9%8A%D8%A9_%D9%81%D9%8A%D8%A8%D9%88%D9%86%D8%A7%D8%AA%D8%B4%D9%8A

الخماسيةُ الذهبية:

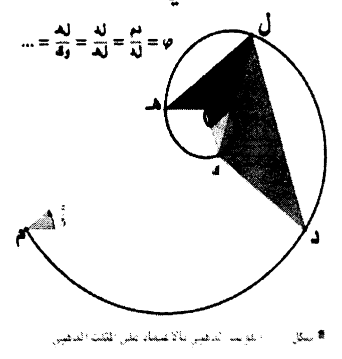


اللوب الذهبي:

يمكن أن يكونَ اللوب الذهبي معتمدًا على المستطيل الذهبي:



أو أنْ يكون معتمدًا على المثلث الذهبي:



ويمكن استخدامُ متتالية فيبوناشي في جميعِ هذه الأشكال كما فعله المهندسون والفنّانون عبر القرون[1].

---

(١) انظر البحث المشار إليه سابقًا: النسبة الذهبية.. منبع الإلهام ومصدر جمال.

السؤالُ الثّاني: أين تظهر النِّسبة الذهبية في المخلوقات؟

الغريبُ في الأمر ليس أنَّ متتالية فيبوناشي والنسبة الذهبية لا يستخدمها المهندسون والفنَّانون فحسب، بل تظهر في الطبيعة بشكلٍ متكرِّر في أشياء كثيرة جدًّا. والأغرب أنَّها تظهر في بعض أكبرِ المخلوقات في الكون إلى أصغر المخلوقات في عالم الأحياء. وحيث أنَّ هذا الأمر مِن أغرب الأمور في الكون، يستحسن التوسُّع فيه مع إيراد الصور المبيِّنة، والإحالة إلى مصادر علمية موثوقة.

- **أوَّلًا: علمُ الكون:**

قدَّم عددٌ من الباحثين - كلٌّ منهم بروفسور في الفيزياء - بحثًا علميًّا في: «الدورية العالمية للبحث العلمي» (Global Journal of Science Research)[١] بعنوان: «هل الزمكان[٢] كسوري ومتماسك في الكوانتم بالمعنى الذهبي» (Is Spacetime Fractal and Quantum Coherent in the Golden Mean?). وبيّنوا في هذا البحث أن الظاهر أن الزمكان كسوريٌّ ومتماسكٌ في الكوانتم بالمعنى الذهبي[٣].

---

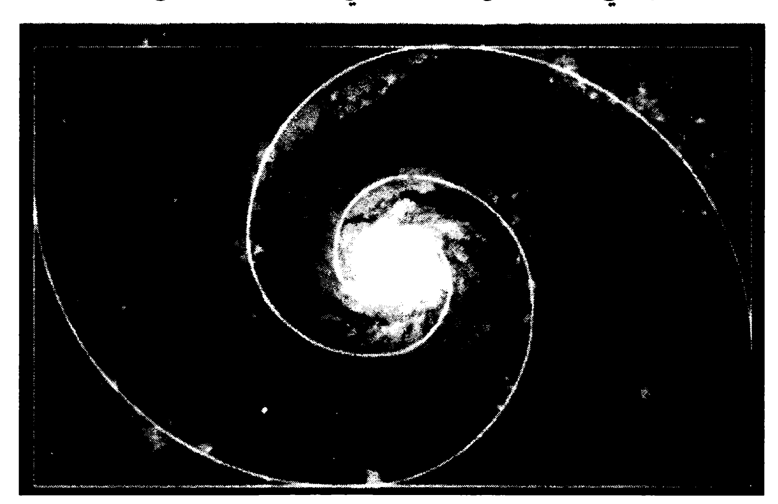
(١) وهي دورية علمية أمريكية محكّمة، نشرت أكثر من عشرة آلاف بحث علمي.
انظر: https: / /journalofscience.org /index.php /GJSFR

(٢) الزمكان: في العلوم الفيزيائية، مفهوم يعترف باتحاد المكان والزمان كمفهوم واحد.
انظر المقال: Space – time في موسوعة بريتانيكا على الرابط:
https://www.britannica.com/science/space-time

(٣) انظر:
https://www.researchgate.net/profile/Mae-Wan_Ho/publication/272498624_Is_Spacetime_Fractal_and_Quantum_Coherent_in_the_Golden_Mean/links/54e7 23d90cf277664ff79bc0/Is-Spacetime-Fractal-and-Quantum-Coherent-in-the-Golden-Mean.pdf

- **ثانيًا: علمُ الفلك:**

قدَّم البروفسور جان بوجينس[1] بحثًا بعنوان: «التناسب في النظام الشمسي» (Com-mensurability in the Solar System) في دورية: «المقالات الفيزيائية» (Physics Essays)[2]، وبيَّن فيه أنَّ النسبة الذهبية تظهر في شكل بعض المجرّات اللولبية مثل: (M٥١)، كما أظهرَه في البحث من الصورة التي التقطها ناسا على هذه المجرَّة:



كما أنّه ذكر أنَّ النسبة الذهبية تظهر في نظامنا الشمسي أيضًا[3].

---

(١) جان بوجينس (Jan Boeyens): بروفسور الكيمياء من جنوب أفريقيا، قدّم وشارك في تقديم أكثر من ٦٠٠ بحث علمي. توفي عام ٢٠١٥م. انظر:
https://www.up.ac.za/media/shared/Legacy/sitefiles/file/publications/2013/cas/cvprof_jan_boeyens.pdf

(٢) وهي دورية علمية عالمية محكّمة تنشر أبحاث علمية في الفيزياء.
انظر: https: / /physicsessays.org /about.html

(٣) انظر:
Commensurability in the Solar System, Physics Essays, 22, 4, (2009), (493-499)
وهو موجود على الرابط:
https://www.researchgate.net/publication/258365619_Commensurability_in_the_solar_system

- ### ثالثًا: علمُ الكيمياء:

كتبَ البروفسور جان بوجينس نفسُه بمشاركةٍ مع عالمٍ آخر كتابًا بعنوان: «نظرية الأرقام ودورية المادة » (Number Theory and Periodicity of Matter) في ٣٧٤ صفحة عن ظهورِ النسبة الذهبية وغيرها من الأنماط الرياضية في عالم الكيمياء.

كما أنَّ البروفسور جان بوجينس كتبَ بحثًا علميًّا مع زميل آخر بعنوان: «الكيمياء عن طريق نظرية الأرقام» (Chemistry by Number Theory) في دورية: «هيكل وعلاقة» (Structure and Bonding)[١]. وقد بيَّن في هذا الكتاب - وهذا البحث - أنَّ النسبة الذهبية واللوب الذَّهبي تظهران في كثير من الظواهر الكيميائية، مثل: بنية الذرّات، والكهرسلبية (Electronegativity)[٢]، ورتبة الروابط (Bond order)[٣]، ونظرية الرابطة التساهمية (Covalent bond)[٤] وغير ذلك من الأمور في الكيمياء. وعلمُ

---

(١) وهي دورية علمية تنشر مراجعات نقدية عن أبحاث علمية متعلّقة بالهيكلة الكيميائية وعلاقاتها. انظر:

https://www.researchgate.net/journal/0081-5993_Structure_and_Bonding

والبحث منشور في إنترنت على رابط:

https://pdfs.semanticscholar.org/ba19/b33b3b9a01dd96ac551c72d2df-3cdc7c2806.pdf

(٢) الكهرسلبية: هي مقياس لمقدرة الذرة أو الجزيء على جذب الإلكترونات في الروابط الكيميائية. انظر:

https://www.marefa.org/%D9%83%D9%87%D8%B1%D8%B3%D9%84%D8%A8%D9%8A%D8%A9

(٣) رتبة الرابطة هو عدد الروابط بين زوج من الذرات.

انظر:

https://www.marefa.org/%D8%B1%D8%AA%D8%A8%D8%A9_%D8%B1%D8%A7%D8%A8%D8%B7%D8%A9

(٤) الرابطة التساهمية: هي أحد أشكال الترابط الكيميائي وتتميز بمساهمة زوج أو أكثر من الإلكترونات بين الذرات.

انظر:

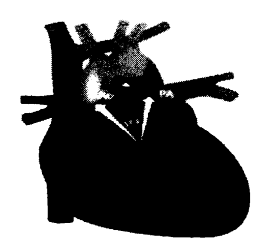
https://www.marefa.org/%D8%B1%D8%A7%D8%A8%D8%B7%D8%A9_%D8%AA%D8%B3%D8%A7%D9%87%D9%85%D9%8A%D8%A9

الكيمياء يتعلّق بأصغر أنواع المخلوقات كالذرّات وما تكوِّنه من الجزيئات. ومن العجب أنَّ النسبة الذهبية تظهر حتَّى في هذه المخلوقات المتناهية الصغر.

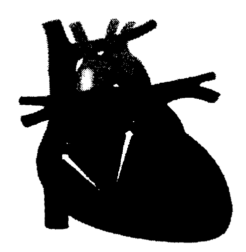
- **رابعًا: قلبُ الإنسان:**

قُدِّمت رسالةٌ علمية لنيْل درجة الماجستير في قسم الأحياء بجامعة ديوك - الجامعة الأمريكية العريقة والمشهورة - بعنوان: «العلاقات الذهبية: «اكتشاف لأرقام فيبوناشي وفي» (The Golden Relationships: An Exploration of Fibonacci Numbers and Phi)، وبيّن الباحث ظهورَ النسبة الذهبية في مخلوقات متنوّعة، وبعضها في جسم الإنسان. ومن أبرز ما ذكرَه ونقله عن علماء آخرين هو وجودُ النسبة الذهبية لبطيني القلب. وقد أجريت دراساتٌ على ٣٠ سويديًّا و٣٠ صينيًّا عن العلاقة الرياضية بين القياس العمودي والقياس المستعرض للبُطين الأيسر. وبيَّنت الدراسة أنَّ النسبة قريبة من: ١,٦١٨. وبيَّنت الدراسة أنَّ الأبعاد المطلقة في القلب السليم أقلُّ أهمية من النسبة بين هذه الأبعاد.

كما أنَّ الباحث ذكر أنَّ الدراسات العلمية قد أثبتت وجودَ الزاوية الذهبية في هيكلِ المضخَّة المثلى بين الأبهر الصاعد (Ascending Aorta) والشريان الرئوي (Pulmonary trunk).



كما أنَّ هذه العلاقة الزاوية نفسها موجودة بين المدخل والتدفّق لمحاور مسالك البطين الأيمن للقلب.

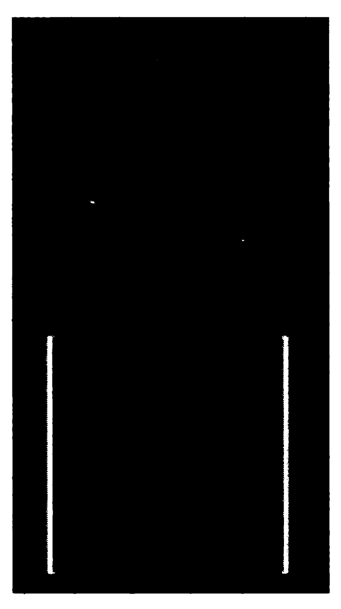


فهذه بعضُ المظاهر للنسبة الذهبية في قلب الإنسان التي ذكرها واتسون في رسالته للماجستير[1].

- **خامسًا: الحمضُ النووي[2]:**

ذكرَ الباحثُ في رسالته ظهور النسبة الذهبية في الحمض النووي أيضًا، وذلك في هيكله اللولب المزدوج (Double helix structure).

فحجمُ جزيء الحمض النووي ٢١ أنغستروم (Ångström)[3] عرضًا و٣٤ أنغستروم طولًا. و٢١ و٣٤ من أرقام متتالية فيبوناشي، ويساوي ٣٤ ÷ ٢١ = ١,٦١٩. وهو موضَّح في هذه الصورة:



---

(١) انظر:

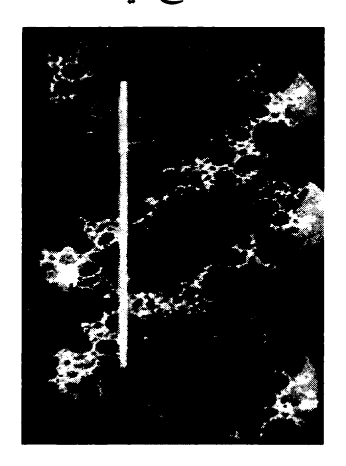
The Golden Relationships: An Exploration of Fibonacci Numbers and Phi, by: Anthony Rayvon Watson, Duke University Biology Department, Master Thesis, 2017, (32-33)

(٢) انظر: المصدر السابق (٣٥).

(٣) وحدة أنغستروم تساوي ١٠ – ١٠ من متر.

انظر موسوعة بريتانيكا: https: / /www.britannica.com /science /angstrom

كما أنَّ اللولب المزدوّج يكوِّن بطنَ الموجتين (Two wave troughs). وحجم الأولى: ١٣ أنغستروم وحجم الثانية ٢١ أنغستروم. و١٣ و٢١ من أرقام متتالية فيبوناشي، و٢١ ÷ ١٣ = ١,٦١٥. وهو موضَّح في هذه الصورة:



فدلَّ ذلك على ظهور النسبة الذهبية حتى في الحمض النووي المتناهي في الصغر، كما بيَّنه واتسون في بحثه[١].

- **سادسًا: عالمُ النبات:**

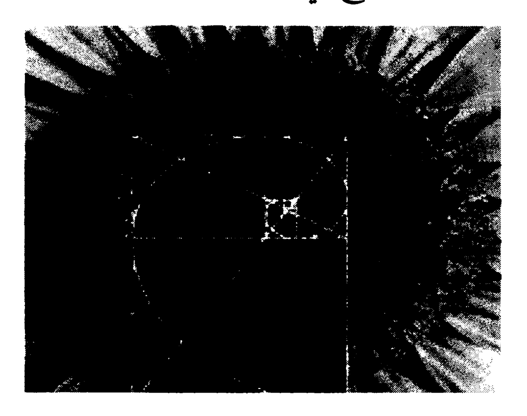
تظهر النسبةُ الذهبية في عالم النبات بكثرة. وقد ألَّف عددٌ من علماء الرياضيات بحثًا علميًّا في الدورية الدولية للاتّجاهات في الرياضيات والتكنولوجيا (International Journal of Mathematics Trends and Technology)[٢]. وبيّنوا في هذا البحث العلمي ظهورَ النسبة الذهبية في أشكال عددٍ من النباتات. ومن هذه النباتات: دوّار الشمس، والألوّة فيرا، والصنبور المخروط. وبيانُ ذلك كما يلي:

---

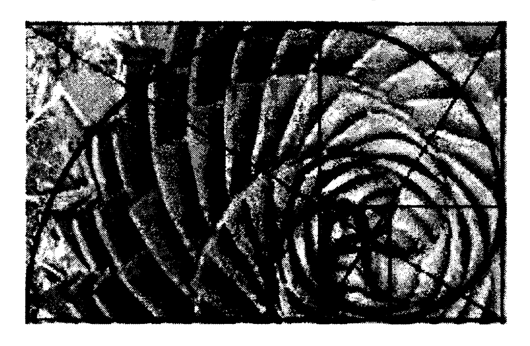
(١) انظر:
The Golden Relationships: An Exploration of Fibonacci Numbers and Phi, by: Anthony Rayvon Watson, Duke University Biology Department, Master Thesis, 2017, (34-35)

(٢) وهي دورية دولية تنشر أبحاث محكّمة في الرياضيات والتكنولوجيا. انظر:
http://www.ijmttjournal.org/

دوَّار الشمس: البناءُ لأفراد الزهيرات في رأس دوَّار الشمس يكوِّن لوالبَ مبنية على متتالية فيبوناشي، كما هو موضَّح في الصورة(١):



الألوّة فيرا: بعضُ أنواع الصبّار مثل الألوّة فيرا تكمنُ في لوالب محدّدة بشكل جيِّد. وقد ظهر أنَّ أرقام اللوالب تتبع متتالية فيبوناشي، كما هو موضَّح في الصورة(٢):



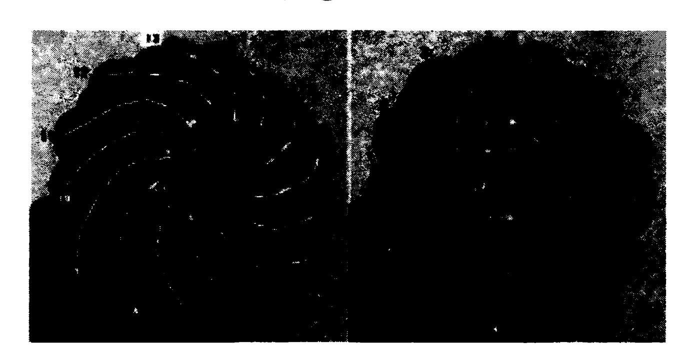
الصُّنبور المخروط: تنمو جميعُ مخاريط الصنبور بشكل حلزوني من الأساس إلى الأعلى، وقد تمَّت ملاحظةُ ذلك باتِّجاه عقارب الساعة، وعكس ذلك في شجرة الصنبور. والصنبورُ المخروط من أوْضح الأمثلة على اللولب الذهبي حيث يمكن

---

(1) Fibonacci Number, Golden Ratio and their Connection to Different Floras, International Journal of Mathematics Trends and Technology (IJMTT) (September 2018)-Volume 61 Number 2-(96-97)

(٢) المصدر السابق (٩٧ – ٩٨).

التوقُّع بسهولةٍ بوجود ثمانية لوالب باتّجاه عقاربِ الساعة، وثلاثة عشر لولب عكس اتّجاهها. وعندَ عدِّ اللوالب إلى الاتّجاهين فإننا نصل إلى اثنين من أرقام فيبوناشي (٠، ١، ١، ٢، ٣، ٥، ٨، ١٣ ...)، كما هو موضَّح في الصورة[١]:



- **سابعًا: عالمُ الكمّ:**

قدِ اكتشف العلماءُ النسبةَ الذهبية في عالم الكمِّ أيضًا؛ فقد اكتشفَ علماءُ ألمانيون بالتعاون معَ جامعات بريطانية مثل جامعة أكسفورد؛ وجودَ تناسق على مستوى النانو في حالةِ المادة الصلبة (Solid state matter) يُظهر النسبةَ الذهبية. ونشروا دراستهم في دوريةِ ساينس (Science) المرموقة عام ٢٠١٠. وقد علَّق البروفسور آلان تينانت[٢] - وكان أحدَ المشاركين في الدراسة - على هذا الاكتشاف بقوله: «مثل هذه الاكتشافات تقودُ الفيزيائيين إلى التوقُّع أنه قد يكون للعالم على مستوى الكم الذرِّي نظامٌ خاص به. وقد تنتظرُ مفاجآت مماثلة للباحثين في دارسة موادّ أخرى في الحالة الحرجة الكمومية»[٣]. فهذه الدراسة لم تثبتْ وجودَ النظام

---

(١) المصدر السابق (٩٨).

(٢) آلان تينانت (Alan Tennant): بروفسور الكهرومغناطيسية التطبيقية في جاعة شيفيلد ببريطانيا. انظر:
https://www.sheffield.ac.uk/eee/people/academic-staff/alan-tennant

(٣) المقال: Golden Ratio Discovered in a Quantum World على الرابط:
https://www.eurekalert.org/pub_releases/2010-01/haog-grd010510.php

في عالم الكمّ فحسب، بل وجود النِّظام وفقَ النسبة الذهبية، وهذا أمرٌ في غاية العجب. وبذلك يتبيَّن أنَّ النسبة الذهبية تظهرُ في مخلوقات مختلفة ومتفاوتة في الحجم، من مستوى المجرَّة إلى مستوى الذرَّة. وهذا أمرٌ اكتشفه العلماء خلالَ دراساتهم العلمية المتكرِّرة. ولكن ما أفضل تفسير لوجود هذا النظام: هل هي العشوائيةُ أو الخلق؟

السُّؤالُ الثّالث: كيف تدلُّ النِّسبيةُ الذهبيةُ على وجود الخالق؟

قد استدلَّ علماءُ الغرب بوجودِ النِّسبة الذهبية في الطبيعةِ على وجود الخالق. ومن الأمثلةِ على ذلك: مقال كتبه فريد ويلسون[1] بعنوان: «أشكال، أرقام، أنماط والنسبة الإلهية في خلق الله: (Shapes, Numbers, Patterns and the Divine Proportion in God's Creation)، وذكر عددًا من الأنماط الرياضية، ثمَّ ختم المقالَ بقوله: «هذه الأشكال، والأرقام، واللوالب، والنسبةُ الذهبية واسعةُ الانتشار في المخلوقات. فإنه تمّ اكتشافُها في ظواهر حيَّة وغير حيَّة على سواء. تناسقها، وجمالها، ودقّتها الرياضية واضحة في كلِّ جانبٍ من جوانب الطبيعة... الاستنتاج العقلاني الوحيد هو أنَّ خالق الكون كائن شخصاني ذكي، وخلقَ هذه الأشياء على أنَّها بصمةٌ لوجوده غير المرئي، ولكنَّه شخصاني»[2]. وهذا الاستنتاجُ جيِّد وصحيح، إلا أنَّه استخدم ألفاظًا شائعة في اللاهوت النصراني مثل: كائن شخصاني ذكي. ومقصودُهم بذلك هو كائن ذو إرادة وعلمٍ وحكمة.

---

(١) فريد ويلسون (Fred Willson): باحث في معهد الأبحاث المختصة بالخلق حامل شهادة الماجستير في العلوم.

(٢) المقال: Shapes, Numbers, Patterns, And The Divine Proportion In God's Creation, وهو منشور على الرابط:

https://www.icr.org/article/shapes-numbers-patterns-divine-proportion-gods-cre

وكتبَ الدكتور كارل فيلاند[١] وراسل م. غريغ[٢] مقالًا بعنوان: «أرقام ذهبية» (Golden Numbers) وختمَا المقال ببيانِ عدم التفاتِ بعض الناس إلى دلائل النسبة الذهبية على وجود الخالق بقولهما: «إنَّ شبابنا - مع الأسف - قد تمَّ غسلُ أدمغتهم بمغالطات إنسانوية / تطوُّرية التي تنفي الخلاصةَ المنطقية المؤيّدة للتصميم الذكي. ومن الأمثلةِ على ذلك، زعمُهم أنَّ الطبيعة (العشوائية) أنتجت عقلَ الإنسان، وهذا العقلُ هو الذي أنتجَ الرياضيات. ولكن كيف نجدُ الأنماط الرياضية ذاتها التي تجذب أحاسيسنا إلى الشُّعور بالجمال؟ لا شكَّ أنه أكثر منطقيًّا أنَّ هذا الترابط موجود لأنّه يوجد رابط بينَ الطبيعة، والرياضيات، والعقل الإنساني بشعوره الخفي بالجمال. وهذا الرابط هو كوْن هذه الأشياء كلَّها مخلوقة من قبل الإله...»[٣].

وخلاصةُ هذه الحجة أنَّ النسبة الذهبية تظهر في الطبيعة بشكل متكرّر، وهو أمرٌ لا يمكن ردُّه إلى العشوائية والصُّدفة إطلاقًا، بل لا بدَّ أن يكون ذلك نتيجة خلق عن إرادةٍ وعلم وحكمة. وهذه الحجَّة في غاية القوة والوضوح. وينبغي للمسلمين أن يتدرّبوا على استخدامِها في الاستدلال على وجودِ الله في هذا الزمان الذي يعظّم فيه العلم التجريبي وعلمُ الرياضيات، فهي حجَّة قوية ومقنعة للغاية، ولا يمكن الملحد التهرُّب منها بردِّ هذه الأمور كلّها إلى العشوائية.

وأغلبُ كلام علماءِ الغرب في هذه المسألة في مسائلَ علمية بحتة، ويمكن الاستفادة منه؛ لأنَّهم أهلُ الاختصاص. وأمّا استنتاجاتهم العقدية من هذه المسائل العلمية فهي صحيحةٌ في الأصل، إلّا أنهم يخلطونَ كلامهم بألفاظٍ مجملة ومحتملة. فعلى المسلم الذي يستفيدُ من كلامهم أن يتجنَّب استخدامَ هذه الألفاظ، وأنْ يلتزم بالألفاظ الشرعية.

---

(١) كارل فيلاند (Carl Wieland): طبيب أسترالي ومدير جمعية العلوم الخلقية سابقًا. انظر: https://creation.com/dr-carl-wieland-cv

(٢) راسل م. غريغ (Russel M. Grigg): عالم الكيمياء الأسترالي، والباحث المتخصّص في نظرية الخلق. انظر: https: / /creation.com /russell – grigg

(٣) مقال: Golden Numberوهو موجود على الرابط: https://creation.com/golden-numbers

المبحثُ السّابع
نقدُ حججِ علماءِ الغرب العلميَّة على وجود الله

قد تناول هذا الفصلُ حججَ علماء الغرب العلمية على وجود الله. والحجج التي ذكرتُها تتعلَّق بعلوم الكون، والفيزياء، والأحياء، والكيمياء، وعلم النفس والرياضيات. وبالتَّتبع والاستقراء فإنَّ كلامهم في هذا الفصل من الرسالة مِن أكثر ما يستفاد من كلامِ علماء الغرب. والسبب هو أنَّ أغلب كلامهم في هذا الفصل علمي محض، ولا يوجَد فيه كثيرٌ من التداخل مع عقائدهم الفاسدة.

ومعَ ذلك، فيمكن أن يلاحَظ على كلامهم في هذا الفصل الملاحظاتُ الآتية:

الملاحظةُ الأولى: الحججُ في هذا الفصل داعمةٌ لدليل الإتقان والإحكام أو ما يسمَّى بالحجَّة الغائية في الفضاء الديني الغربي. ودليل الإتقان والإحكام في القرآن مبنيٌّ على الأمور المشاهَدة والمدرَكة بالحواس، مثل: النظر والتأمل في السماء، والأرض، والنجوم، والإنسان، والحيوانات. وأمّا طريقة علماء الغرب في هذا الفصل فإنّها في الغالبِ مبنيَّة على أمورٍ غيرِ مدرَكة بالحواس مثل: الضبط الدقيق لقوانين الفيزياء والكيمياء. والطريقةُ المذكورة في القرآن يمكن أن يشاهدَها كلُّ أحد، سواء كان متعلّمًا أو غيرَ متعلّم. وأمّا طريقةُ علماء الغرب فلا يدركُها إلّا المتخصّص في العلوم التجريبية، وعلى غيرِ المتخصّص قبولُ كلامهم في هذا الباب. ولا شكَّ أنَّ ما يدركه الإنسان العادي بنفسِه أقوى مما يسمعُه من المتخصِّص، لا سيَّما وبعض هذه العلوم فيها صعوبة. فقد يقبلُ غيرُ المتخصّص كلامَ المتخصّص بسبب ثقته في كلامه، ولكنْ لا يدرك المرادَ في الحقيقة. وأمّا مشاهدة الإتقان والإحكام في المخلوقات فلا تحتاج إلى دراسةٍ وتعلّم. فمجرَّد النظرِ إلى السماء أو الأرض أو أعضاء الجسم يدرك

الإنسان أنَّها مخلوقة بإتقانٍ وإحكام وعناية. فدليلُ القرآن أقربُ إلى عامَّة الناس من الحجج التي أوردَها علماءُ الغرب. ومعَ ذلك، فإنَّ الحجج التي أوردها علماءُ الغرب في هذا الباب مُفيدة في إقناع المتخصِّص في هذه العلوم. فقد تبيَّن في هذا الفصل أنَّ قولَ الملاحدة بأنَّ هذا الكون، وكلَّ ما فيه وُجد صدفةً مستحيل استحالةً قطعية من الناحية العلمية. وحيث إنَّهم يتظاهرون بتعْظيم العلم التجريبي، فإنَّ استخدامَ هذه الحجج في مناقشتهم يكون قويًّا.

المَلاحظةُ الثّانية: أنَّ بعضَ علماء الغرب أحسنوا في ذكْر الأمثلة على الضبط الدَّقيق للكون وقوانين الفيزياء والكيمياء، ولكنهم لم يربطوا بينها وبين الإيمان بالله. ومن الأمثلةِ على ذلك أنَّ البروفسور مارتن ريس كتبَ عن الأرقام الستة في الكون ومدى دقَّة ضبطها، ثمَّ فسَّر هذا الضبط بنظرية الأكوان المتعددة. وكذلك الدكتور مايكل دينتون له كلام قوي جدًّا عن الضبط الدقيق للكيمياء على كوكب الأرض، ولكنّه سمَّى كتابه: قدر الطبيعة، وذكر أنَّ القدر قد أودع هذا الضبط. فلم يوفّقوا في الربط بين هذه الحجج العلمية ودلالتها على وجودِ الخالق. فلا بدَّ من ذكر الحجج العقلية أوّلًا، مثل: الحجَّة الغائية أو حجج التوافق الدقيق للكون، ثمَّ تذكر هذه الحجج العلمية بعد ذلك.

الملاحظةُ الثّالثة: عندما حاول بعضُ علماء الغرب الربطَ بين هذه الحجج العلمية وبينَ الإيمان بالخالق استخدموا بعضَ الألفاظ المجملة مثل: المصمّم الذكي. والله - تبارك وتعالى - لا يوصَف بأنّه مصمِّم ذكي، وإنما يقال إنه خالق عليم حكيمٌ ذو إرادة وقدْرة. وقد سبق التنبيهُ على هذا الأمر. فلا بدَّ أن يكون المسلم على حذر عندما يستفاد من كلام علماء الغرب في هذا الباب حتَّى لا يتابعهم في استخدام هذه الألفاظ التي لم تردْ في الكتاب والسنة، بل ولم تردْ في كتابهم المقدّس كذلك.

الملاحظةُ الرّابعة: قد أجادَ البروفسور بول فيتز في بيانه أنَّ الإلحاد انحرافٌ نفسي، وشذوذٌ عن الفطرة السوية. وقد قام بعمل مشكورٍ حين استخرج الأمثلة على ذلكَ من سِيَر أعلام الإلحاد، ولكنَّه أخطأ حين تكلَّم عن الأبوة الناقصة،

وحاول الربطَ بينَها وبين الإيمان بالأبِ السماوي. فاستنتاجُه هذا مبنيٌّ على عقيدة النصارى الفاسدة في الإيمان بالله كأَنَّه أبٌ في السماء، والبشَرَ أبناؤه. ولهذا لا تجوزُ متابعته في هذا الاستنتاج، وإنَّما يكتفي المسلم بالاستفادة مما استخرجَه من سِيَر الملاحدة، ويستنبط من ذلك أنَّ المشاكل في التربية مؤثّرة في اعتناق بعض الناس للإلحاد.

الفصلُ الثّالث

حججُهم الحسيَّة على وجود الله

وفيه تمهيدٌ، وأربعةُ مباحث:

المبحثُ الأوَّل: حجَّةُ إجابة الدعاء.

المبحثُ الثّاني: حجَّةُ المعجزات والكرامات.

المبحثُ الثّالث: حجَّةُ ثبوت الحقائق الدينية.

المبحثُ الرّابع: نقدُ حججِ علماء الغرب الحسية على وجود الله.

تمهيد

هذا هو الفصلُ الثّالث من البابِ الثاني في بيانِ علماء الغرب لأدلة وجود الله. وهذا الفصل يتعلَّق بالحجج الحسِّية على وجود الله. والعنوانُ قد يبدو غريبًا بما أنه من المعلومِ أنَّه لا يمكن للإنسان العادي إدراكُ الإله بالحواس الخمس في هذه الحياة الدنيا. قدْ سمع بعضُ الأنبياء كموسى عليه السلام ومحمد ﷺ كلامَ الله مباشرة في هذه الحياة، وإن كان ذلكَ من خصائصهما. كما أنَّ المؤمنين يروْن ربَّهم في الآخرة، ولكنَّ رؤية الله غير واقعية في هذه الحياة الدنيا. فليس المرادُ بالحجج الحسِّية في هذا الفصل إدراكَ الإله إدراكًا مباشرًا بالحواسِّ الخمس، وإنَّما المرادُ إدراك آثاره الحسِّية في خلقه، أو ما يسمَّى بالعناية الإلهية (Divine providence). فالمؤلهة (اليهود والنصارى والمسلمون) يؤمنون أنَّ الله لم يخلقِ الخلقَ ثمَّ تركه - كما يقوله الربوبيون - ؛ بل يعتقدون أنَّ الله يدبّر خلقه ويجيب الدَّعوات، ويجري المعجزات على أيدي أنبيائه، والكرامات على أيدي أوليائه. كما أنّه تحصل حقائقُ وتجارب دينية واقعية للناس يمكن الإحساسُ بها. والاستدلال بذلك هو المرادُ بالحجج الحسّية في هذا الفصل.

وقد يشبه هذا الفصلُ ما تقدَّم في الفصل الثاني من الحجج العلمية على وجود الخالق؛ لأنَّه استدلال بالمخلوقات على الخالق. ولكن هناك فرقان رئيسان بين الفصلين:

الفرقُ الأوَّل: الفصلُ الماضي تحدَّث عن الحجج المستنبطة من العلم التجريبي. ومن سماتِ العلم التجريبي أنَّه موضوعي (Objective)[1]، وإذا كان في مبحث يقيني الثبوت فإنَّ زيدًا يتوصَّل إلى نتيجة عمْرو نفسها والعكس. ولهذا نجد أنَّ العلماء يتّفقون على كثيرٍ من قضايا العلم رغمَ تنوُّع ثقافاتهم وخلفيّاتهم. كما أنَّ العلم التجريبي المعاصر يخضعُ لمعايير معيَّنة مثل: اتِّباعه للمنهج الطبيعي - كما

(١) سبق الحديث عن أنه لا يمكن أن يكون العلم التجريبي موضوعيًّا بالكلّية.

سبقَ الحديث عنه -. وهذا المنهج يستبعدُ الحديثَ عن الوجود الإلهي. ولهذا لا يمكن الاستدلالُ بالحجج العلمية استدلالًا مُباشرًا على الخالق، وإنَّما يكون بواسطةِ الحجج العقلية بالدليل الكوني أو دليل الإتقان.

وأمَّا الحججُ الحسِّية مثل: إجابةُ الدعاء والمعجزات، فإنّ هذه الحجج ذاتية (Subjective) وليستْ موضوعية، فلا يمكن إخضاعُ هذه الحجج للعلم التجريبي المبني على المنهج الطبيعي.

الفرقُ الثّاني: الحججُ الحسيَّة أقوى دلالةً على المذهب الألوهي من بعض الحجج العلمية التي يمكن أن يستدلَّ بها أتباعُ المذهب الألوهي والمذهب الربوبي على حدٍّ سواء. فهذه الحججُ الحسِّية مثل: إجابةُ الدعاء والمعجزات تدلُّ على أن الإله الخالق يدبّر شئونَ الناس بطريقة مباشرة. وهذا ما دلَّ عليه القرآن والكتاب والمقدّس لدى اليهود والنَّصارى. وأمَّا بعضُ الحجج العلمية مثل: الحجة الكونية، فغاية ما يدلُّ عليه هو وجود سببٍ أوَّل للكون. وهذا ما يؤمن به كلّ من الألوهيين والربوبيين.

وبذلك يتبيَّن أنَّ الاستدلال بالحجج العلمية أقوى من جهة اتِّفاق كلٍّ من الملحد والمؤمن بحجِّية هذا العلم، ولكنَّ دلالة الحجج الحسّية على المذهب الألوهي أقوى من بعض الحجج العلمية.

والحججُ الحسِّية التي سيتمُّ تناولها في هذا الفصل هي: إجابة الدعاء، والمعجزات، وثبوت الحقائق الدينية.

المبحثُ الأوَّل
حجَّةُ إجابة الدعاء

حجَّة إجابة الدعاء من الحججِ الحسية على وجودِ الخالق ووحدانيته وربوبيته.

وقد لخَّص العلامةُ عبد الرحمن بن ناصر السعدي هذه الحجةَ أو البرهان بقوله: «ومن براهين ربوبيته ووحدانيته: إجابتُه للدَّعوات في كلِّ الأوقات، فلا يحصي الخلق ما يعطيه السائلين، وما يجيبُ به أدعية الداعين، من بَرٍّ وفاجر، ومسلمٍ وكافر. **تحصل للعباد المطالب الكثيرة، ولا يعرفون لها شيئًا من الأسباب سوى الدعاء والطمع في فضلِ الله** والرجاء لرحمته. هذا **برهانٌ مشاهَد** في كلِّ الأوقات، لا ينكره إلا مباهتٌ جاحد»[1].

هذه الحجَّة تخاطب الوجدانَ كما أنَّها تخاطب العقل. فكم من إنسان عبر التاريخ رفعَ يديْه إلى السماء، ودعَا الله فأجابَ اللهُ دعاءه؟ هذا يشمل المسلمَ وغير المسلم، بل الملاحدة؛ فمِن المقولات المشهورة في الغرب: «لا يوجد ملاحدةٌ في الخنادق»[2]. وهذه المقولةُ لا تقتضي الإيمانَ بالله في وقتِ الشدائد فقط، بل أنَّهم يلجئون إلى الله في وقت الحربِ والشدَّة، ويدعونه ويستغيثون به.

ورغمَ وضوح هذه الحجَّة وكثرةِ الأمثلة على حصول إجابة دعاء الداعين، فإنّنا لا نجدُ أنَّها حجَّة مُنتشرة عند علماء الغرب، بل يبدو أنَّ اعتناءهم بنقد شبهة: عدم استجابة الدعاء أكثرُ من احتجاجهم بحجة إجابة الدعاء.

---

(١) البراهين العقلية على وحدانية الربّ ووجوه كماله (٢٥).

(٢) لا يُعرف أوّل من قال هذه المقولة، ولكنّها تنسب إلى عدد من الأشخاص وقد أصبحت متداولة إلى اليوم في الدول الغربية.

انظر المقال: There Are No Atheists in Foxholes:

https://quoteinvestigator.com/2016/11/02/foxhole/

قد نجدُ بعضَ الإشارات إلى هذه الحجَّة في كتابات بعضهم مثل: ستانلي شوبيرغ[١]. فقد ذكرَ فوائدَ الدعاء، وأمثلةً على استجابة الإله لدعاء الداعين، ثمّ حثَّ الملاحدة على أن يجرِّبوا القيامَ بالدعاء لشهرٍ كامل لكي يروا النتيجة بأنفسهم[٢]. وبذلك رأى أنَّه يمكن دعوةُ الملحد إلى الإيمان عن طريق تجربة الدعاء، وأنّ الإله يفتح عليه بعدَ ذلك بالإيمان به. وهذه ليست طريقةً علمية في استخدام حجة إجابة الدعاء، بل هي أقربُ ما يكون إلى طريقة عاطفية.

وقد ذكرَ البروفسور جون بولكنغهورن بعضَ المسائل المهمَّة المتعلِّقة بهذه الحجّة. وذلك عندما أفردَ بابًا عن الدعاء في كتابه: «العلم التجريبي والعناية الإلهية - تفاعل الإله بالعالم -» (Science and Providence – God's Interaction with the World). ويمكن تلخيصُ أهمَّ كلامه في ثلاث نقاط:

النُّقطةُ الأولى: أنَّه لا يتصوَّر أنَّ أحدًا يدعو إله الربوبيين، ويطلب منه شيئًا. الربوبيون قد يعظِّمون الخالقَ لعجائب مخلوقاته، ولكن لا يمكن أنهم يلجئون إليه بالدعاء[٣]. وبهذا الأمر تتميَّز حجَّة الدعاء عن بعض الحجج العقلية والعلمية التي قد يستدلُّ بها الربوبيون والمؤلّهة على حدٍّ سواء. وكلامُه صحيح؛ لأنَّه لا يتصوّر أنّ أحدًا يدْعو مَن لا يعتقد أنّه يتصرَّف في الكون ويجيب الدعاء. ومع ذلك، فإنّ اللجوء إلى الخالق أمرٌ فطري كما سبق، فدلَّ ذلك ضمنيًّا على مخالفة المذهب الربوبي للفطرة.

النُّقطةُ الثّانية: أنَّه لا يتصوَّر أنَّ الإله يجيب الدعاءَ إلّا إذا كان الداعي في كون له

---

(١) ستانلي شوبيرغ (Stanley Sjöberg): القسيس والمنصّر السويدي المشهور. انظر:
https://www.imdb.com/title/tt11041086/

(٢) انظر:
Tro och Vetskap (14), av: Stanley Sjöberg, (Gospel Media, 2010)

(٣) انظر:
Science and Providence-God's Interaction with the World (80), by: John Polkinghorne, (Templeton Foundation Press, 2005)

خصائص معيَّنة؛ فلا يتصوَّر أنَّ الدعاء نافع في العالم الميكانيكي الذي يعمل كلّ شيء في ظلِّ ظروف محتَّمة[١]. وكانت هذه هي العقيدة العلمية السائدة في عصر التنوير حين انتشرَ فيه المذهب الربوبي. ولكن نبَّه المؤلّف أنَّ العلم التجريبي الحديث قد دلَّ على عكسِ ذلك، ولهذا كان هذا العالم ملائمًا لإجابة الدعاء.

النُّقطةُ الثَّالثة: حذَّر البروفسور بولكنغهورن من إجراء تجارب علمية على منفعة الدعاء. وذلك أنَّ الدعاء ليس عمليةً ميكانيكية معلومةَ العاقبة، بل هو علاقة خاصَّة بينَ الداعي والإله، فلا يعلم حقيقة كيف أجيبَ الدعاء إلّا الداعي. وكذلك أنَّ الدعاء خبرةٌ شخصية تخضع لتفسيرٍ شخصي، فلهذا يصعب إجراءُ دراسات علمية عامة عن الدعاء[٢].

وكلامُ البروفسور بولكنهورن جيِّد في الجملة. فحجَّة الدعاء لا تدلُّ على وجود خالقٍ فقط، بل تدلُّ على وجود خالق متَّصف بصفات العظمة خلق كونًا معيّنًا، وهو الخالقُ الذي يؤمن به المؤلّهة الذي خلقَ الكون الذي يتصّف بهذه الصفات. وأمّا النقطة الثّالثة فسيأتي الكلامُ عنها في نقدِ شبهة عدم استجابة الدعاء لاحقًا في هذا المبحث.

صياغةُ حجَّة إجابة الدعاء عقليًا:

يمكن إيرادُ حجَّة إجابة الدعاء على الصياغة العقلية الآتية:

المقدِّمة الأولى: أنَّ العبدَ يدعو ربّه فيستجيب دعوته.

المقدِّمة الثانية: إجابةُ الدعاء تقتضي وجودَ مجيب.

النتيجة: إنَّ الله تعالى موجودٌ ويجيبُ دعوة عباده المؤمنين.

ودليلُ المقدِّمة الأولى: الحسُّ والأخبار المتواتر. وبيانُ ذلك كما يأتي:

الحسُّ: فقد يحسُّ الإنسان بأنَّ دعاءه قد استجيب، كما أنه قد يشاهد استجابة دعاءِ غيره. وهذا الأمرُ يقع كثيرًا حتَّى قال العلامة عبد الرحمن السعدي - كما سبق

---

(١) انظر: المصدر السابق (٨٤).

(٢) انظر: المصدر السابق (٨٥)، و(٨٧).

ذكرُه - : «**هذا برهانٌ مشاهَد في كلِّ الأوقات، لا ينكره إلا مباهتٌ جاحد**»[1]. فهو أمرٌ مشاهَد في كلِّ الأوقات. وقد شاهد عددٌ لا يحصى من الخلائق لأنفسهم ولغيرهم.

الأخبارُ المتواترة: لو قُدِّر أنَّ شخصًا ما لم يدعُ، أو دعَا ولكنْ لم يستجَب دعاؤه، ولم يشاهدْ أحدًا قطّ استجيب دعاؤه، يبقى أمرُ الأخبار المتواترة المفيدة لليقين بحصولِ إجابة الدعاء. ومِن الأمثلة على ذلك مِن زمن الرسول ﷺ حديثُ أنس بن مالك t أنَّه قال: «أصابتِ الناسَ سنةٌ على عهد النبي ﷺ، فبيْنَا النبي ﷺ يخطب في يوم جمعةٍ قامَ أعرابي، فقال يا رسولَ الله: هلك المالُ وجاع العيال، فادعُ الله لنا، فرفع يديه وما نرَى في السماء قزعة، فوالذي نفسي بيدِه، ما وضعها حتَّى ثار السحاب أمثال الجبال، ثمَّ لم ينزل عن منبرِه حتَّى رأيت المطرَ يتحادر على لحيته ﷺ، فمطرنا يومنا ذلك، ومِن الغد وبعدَ الغد، والذي يليه، حتَّى الجمعة الأخرى، وقام ذلك الأعرابي - أو قال: غيره - فقال: يا رسولَ الله، تهدَّم البناء وغرق المال، فادعُ الله لنا، فرفع يديه فقال: «**اللهمَّ حوالينا ولا علينا**» فما يشير بيدِه إلى ناحية من السحاب إلا انفرجت، وصارتِ المدينة مثل الجوبة، وسالَ الوادي قناة شهرًا، ولم يجئ أحدٌ من ناحية إلا حدَّث بالجود)[2].

ويمكن تلخيصُ وقائع هذا الحديث في النقاط الآتية:

١) كان الناس في قحطٍ وشدَّة والسماءُ لا تمطر.

٢) طلبَ الأعرابي الدعاءَ فدعا الرسول ﷺ ونزل المطر مباشرة.

٣) استمرَّ المطر أسبوعًا كاملًا بعد ذلك، وهو أمرٌ قليل الحدوث في المدينة.

٤) جاءَ ذاك الأعرابي أو غيره الأسبوعَ الذي بعد، وطلب الدعاء لكثرة المطر، فدعا الرسول ﷺ، فتوقَّف نزول المطر على المدينة.

٥) وقعتِ الحادثتان في خطبة الجمعة أمامَ مئات أو آلاف المشاهدين.

---

(١) البراهين العقلية على وحدانية الربّ ووجوه كماله (٢٥).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٩٣٣)، كتاب الجمعة، باب الاستسقاء في الخطبة يوم الجمعة، (٢ / ١٢). وأخرجه مسلم في صحيحه (٨٩٧)، كتاب صلاة الاستسقاء، الدعاء في الاستسقاء، (٢ / ٦١٢).

فهاتان الحادثتان لا يمكن ردُّهما إلى الصدفة، ولا إلى أمورٍ طبيعية، لأنّها أمور خارقة للعادة. ولكن قد يعترضُ المعترض بأنَّ هذه واقعة آحاد في حياة الرسول ﷺ، فيبقى احتمال، ولو ضعيف، أنَّه وقعَ عن طريق المصادفة. فالجواب أنّ هذه ليست الواقعة الوحيدة في حياةِ الرسول ﷺ، بل هي وقائع كثيرة جدًّا. فقد أورد أحدُ الباحثين في دلائل النُّبوة ١٢٧ مثالًا لدعاءِ الرسول ﷺ المستجاب[1]؛ فلا شكَّ أنَّ الأحاديث التي فيها إجابةُ دعاء الرسول ﷺ بلغت حدَّ التواتر المفيد للعلم الضروري بوقوعها.

وقد قال شيخُ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) عن آيات الرسول ﷺ - التي تشمل الدُّعاء المستجاب وغيرها - : «وهذه الأخبارُ منها ما هو في القرآن، ومنها ما هو متواتر يعلمُه العامَّة والخاصة، كنبعِ الماء من بين أصابعه، وتكثير الطعام، وحنين الجذع، ونحو ذلك، فإنَّ كلًّا من ذلك تواترتْ به الأخبار واستفاضت، ونقلتْه الأمةُ جيلًا بعد جيل، وخلفًا عن سلف، فما من طبقةٍ من طبقات الأمَّة إلّا وهذه الآياتُ منقولة مشهورة مُستفيضة فيها، ينقلها أكثرُ ممَّن ينقل كثيرًا من القرآن، وقد نقلها وسمعها من الأمة أكثرُ ممَّن سمع ونقل كثيرًا من آيات القرآن، وأكثر ممَّن سمع ونقل أنَّه كان يسجد في الصلاة سجدتي السهو، وممَّن سمع ونقل نصبَ الزكاة وفرائضها، بل مواقيت الصلاة وأعدادها، إنَّما شاع نقلها للعملِ الدائم بها. وأمّا هذه الآيات فنقلها أكثرُ ممَّن نقل مواقيت الصلاة مِن جهة الأخبار المعينة... وهو مشهورٌ ينقله بعضُ مَن شاهده إلى من غاب عنه، فكان استفاضة آياته وشهرتها وتواترها في الأمَّة أعظم من تواتر سجود السهو في الصَّلاة، فإنَّ هذا إنما كان مراتٍ قليلة، ولم يحضرْه إلّا المصلون خلفه لتلك الصلاة، وكذلك نقلهم لنصبِ الزكاة وفرائضها، فإنَّ هذا إنما سمعه منه طائفة قليلة، ونقلوه»[2]. ومَن أنكر ما تواترَ به العلمُ من الحوادث التاريخية لزمه تكذيبُ جلِّ ما وقع في تاريخ البشرية؛ لأنَّ أكثرَ الأخبار لا تبلغ حدَّ التواتر. وبذلك تنقطع صلة الحاضر بالماضي.

---

(١) دلائل النبوّة (١/ ٣٥٥ - ٤٨٠)، لسعيد بن عبد القادر باشنفر، (دار ابن حزم، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ).

(٢) الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح (٦/ ٣٢٤ - ٣٢٦).

وهذا فيما يتعلّق بدعاء الرسول ﷺ فقط، فكيف إذا انضمَّ إليه دعاء غيره منذ آدم عليه السلام إلى هذا الزمان. ولهذا علّق الشيخُ ابن عثيمين (رحمه الله) على حديث الاستسقاء في الجمعة قائلًا: «ومازالت إجابةُ الداعين أمرًا مشهودًا إلى يومنا هذا لمن صدَقَ اللجوء إلى الله، وأتى بشرائط الإجابة»[1].

والأمرُ لا يقتصر على المسلمين فحسب، بل يشمل الكفّار كذلك كما سبق من كلام السعدي: «ومِن براهين ربوبيته ووحدانيته: إجابتُه للدعوات في كلّ الأوقات، فلا يحصي الخلقُ ما يعطيه السائلين، **وما يجيب به أدعيةَ الداعين، من برٍّ وفاجر، ومسلم وكافر**»[2].

وذكرَ صاحبُ مقال: «هل هناك دليلٌ على إجابة الدعاء؟ هل يجيب الإلهُ الدعاء؟» (Is there evidence for answered prayer? Does God answer prayer?) أنّه توجد شهاداتٌ تعدُّ بالملايين من نصارى أجيبت دعواتهم عبر التاريخ[3].

فالإنسانُ لا يستطيع أن يُنكرَ المقدِّمة الأولى إلّا إذا أنكر دلالةَ الحسِّ أو الأخبار المتواترة.

ودليلُ المقدِّمة الثّانية: الضرورةُ العقلية. فلا يمكن أن تحصل إجابةُ الدعاء بدون مُجيب. ولذلك تكون النتيجةُ الحتمية كما قال اللهُ تعالى: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النمل: ٦٢]. قال شيخُ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله): «فكوْن هذه المطالبُ العظيمة لا يستجيب فيها إلّا هو سبحانه؛ دلَّ على توحيده، وقطع شبهة مَن أشرك به، وعُلم بذلك أنَّ ما دون هذا أيضًا من الإجابات إنما فعلها هو سبحانه وحدَه لا شريك له»[4].

---

(١) شرح أصول الإيمان (١٨)، لمحمد بن صالح العثيمين، (دار الوطن للنشر، الطبعة الأولى، ١٤١٠ هـ).

(٢) البراهين العقلية على وحدانية الربّ ووجوه كماله (٢٥).

(٣) انظر: https://www.compellingtruth.org/evidence-answered-prayer.html

(٤) اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم (٢ / ٢٢٥)، لأحمد بن عبد الحليم ابن تيمية (دار عالم الكتاب، الطبعة السابعة، ١٤١٩ هـ، ت. الدكتور ناصر العقل).

شبهةُ عدم إجابة الدعاء:

كلامُ علماء الغرب في حجَّة إجابة الدعاء قليل جدًّا، ولكن لديهم كلام جيِّد في نقدِ شبهة: عدم إجابة الدعاء. وهذه شبهةٌ قديمة حتَّى ذكرها الفيلسوف دياغروس من ميلوس قبل ٢٥٠٠ سنة. فذكرَ أنه دعا الآلهة المزعومة في اليونان حين فقد مخطوطة له، فلم يستجبْ دعاؤه فوقعَ في الشكِّ في وجودهم بسبب ذلك[1]. ولا غرابةَ في عدم إجابةِ هذه الآلهة المزعومة للدعاء، فالأمرُ كما قال تعالى: ﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ﴾ [فاطر: ١٤].

ولكنَّ المشكلة تكمُن في تشكيكِ الملاحدة في عدم إجابة الربِّ للدعاء. وقد فعله ريتشارد دوكينز في كتابه: وهْم الإله، حيث خصَّص فصلًا بعنوان: «تجربة الصلاة العظمى» (The Great Prayer Experiment)، وكتب ستَّ صفحات عن تجربة منفعة الصَّلاة التي قام بها مجموعةٌ من الباحثين بدعم من مؤسسة تيمبلتون (Tempelton foundation) يقدَّر بـ٢,٤ مليون دولار. أجرى الباحثون هذه التجربة بقيام مجموعة من المصلِّين مِن كنائس مختلفةٍ بدعاء لشفاء المرضى، ثمَّ اختبر الباحثون مدى منفعة الدعاء، وذكرَ دوكينز - بطريقته الاستهزائية - أنَّ هذه الدراسة بيَّنت أنَّه لا منفعة للدعاء، وأنَّ هذه الأموالَ ذهبت هدرًا فيما لا خير فيه[2].

الردُّ على شبهةِ دوكينز: تجربةُ الصلاة العظمى:

بهذه الطريقة أرادَ دوكينز أنْ يبرهن أنَّه قد ثبت علميًّا أنَّه لا فائدة من الدعاء، لأنَّه لا إلهَ يجيب الداعين. وقد أجاب علماءُ الغرب على شبهةِ عدم إجابة الدعاء من وجوه:

الوجهُ الأوَّل: وهو الجوابُ بالمنع، وأنَّه لا ينبغي القيامُ بهذه الدراسات العلمية في اختبارِ منفعة الدعاء. فقد نبَّه البروفسور بولكنغهورن في النقطة الثالثة - من

---

(١) انظر: Western Atheism: A Short Story (32)
James Thrower, (Amherst, NY: Prometheus, 2000)

(٢) انظر: The God Delusion (85 - 90)

كلامه المشار إليه سابقًا – أنَّه لا ينبغي أن يخضعَ الدعاء لهذه التجارب والدراسات العلمية. وذلك أنَّ الدعاء ليس عمليةً ميكانيكية معلومةَ العاقبة، بل هو علاقة خاصة بين الدّاعي والإله، فلا يعلم حقيقة كيف أجيبَ الدعاءُ إلّا الداعي. وكذلك أنّ الدعاء خبرةٌ شخصية تخضع لتفسيرٍ شخصي، فلهذا يصعب إجراءُ دراسات علمية عامة عن الدعاء.

وذكرَ صاحبُ مقال: «هل هناك دليلٌ على إجابة الدعاء؟ هل يجيب الإلهُ الدُّعاء؟» أنَّه لا يمكن التحقُّق من كوْن الناس الخاضعين لهذه الدراسات قد دعوا الله فعلًا، ولا عنْ كيفية دعائهم. ولهذا لا يكون عدمُ إجابة الدعاء في بعض الحالات دليلًا على أنَّ الدعاء غير مستجاب[1].

الوجهُ الثّاني: وهو الجوابُ بجواز استخدام هذه الدراسات، وأنَّها بيَّنت منفعة الدُّعاء. فدوكينز اقتصرَ على ذكر دراسة علمية واحدة، بينما الدراسات العلمية أكثر مِن ذلك بكثير، ومجموعُ هذه الدراسات بيَّن منفعة الدعاء؛ قال ريشارد ديم[2] عن هذه الدراسات بقوله: «أحدثُ دراسة عن الدعاءِ هي تحليل يأخذ في الاعتبار المجموعة كلّها من البحوث التجريبية عن الدعاء للآخرين (Intercessory prayer) (المجموع: ١٧ دراسة). والدراسةُ الجديدة تبيِّن وفقَ وحدة معيار ١٢ بجمعية علم النفس الأمريكية أنَّ الشفاعةَ بالدعاء عن آخرين تصنَّف على أنها تدخل تجريبي، وبشكل عام يُظهر تأثيرًا إيجابيًّا صغيرًا وإن كان هامًّا»[3].

---

(١) انظر المقال

Is there evidence for answered prayer? Does God answer prayer?: https://www.compellingtruth.org/evidence-answered-prayer.html

(٢) ريشارد ديم (Richard Deem) عالم علم الأحياء الدقيقة الطبّي الأمريكي، والمنصّر المهتم بنقد الإلحاد. انظر:

http://www.godandscience.org/apologetics/work.html

(٣) Scientific Evidence for Answered Prayer and the Existence of God والرابط:

http://www.godandscience.org/apologetics/prayer.html

الوجهُ الثّالث: أنَّ دوكينز توصَّل إلى نتيجة من الدراسة: هي أنَّ الله غيرُ موجود بناءً على عدم فهمِه للفرق بين العلاقة السببية اللازمة (Necessary casual link) والعلاقة السببية الشخصية (Personal causal link)؛ قال البروفسور سكوت هان والبروفسور بنيامين ويكر في ردِّهما على دوكينز: «يوجد نوعان مُرتبطان من الأخطاء في هذا النمط مِن المنطق، يعود السببُ وراءَ النظر فيهما ببعضِ التفصيل إلى ما هو أبعدُ من تجربة الصلاة. أوّلًا أنّه يخلط بينَ العلاقة السببية اللازمة والعلاقة السببية الشخصية. إذا كانت العلاقةُ بينَ ضغط الغاز ودرجةِ حرارته متناسبة، بالتّالي عندما نزيد الضغط، ستزداد الحرارةُ كذلك. وهذه هي العلاقةُ السَّببية اللازمة. أمَّا العلاقة السببية الشخصية فهي تختلفُ قليلًا، ولكنَّها ليست أقلَّ رتبة من كونها حقيقية. إنَّ وجود متبرع والحصول على منحةٍ من مُتبرع لكتابة كتابٍ هما أمران مرتبطان سببيًّا، ولكنّنا لا نقيس وجودَ أو عدم وجودِ المتبرِّعين أنفسهم على أنَّ أكثر أو أقل من ٥٠٪ من المتطلّبات المالية قد مُنحت. وفهمُ الاختلاف بينهما سهل. فالغاز ليس حُرًّا في رفض التغيُّر في الحرارة أو قبوله، أمّا بالنسبة للمتبرِّع يمكنه أن يقبلَ أو يرفض طلبَ المستفيد لعددٍ لا يحصى من الأسباب.

يكمُن الخطأ في تجربة الصلاة مزدوجة التعمية أنَّها تعامل الله باعتباره نوعًا من السَّبب الطبيعي، عوضًا عن كونه كائنًا ذا ذكاء[١]. وبفعل ذلك يعامَل اللهُ بطريقة ظالمة[٢] بمحاولة حقيرة عن طريق التجربة. بالاختصار، فإنَّ هذه التجربة هي إهانة، وسيتعامَل أيُّ كائن ذي ذكاء معها على هذا الأساس، سواءًا أكان فائقًا للإنسان أم لا. وهذا لا يعني بالطبع اعتبارَ الصلاة من أجل الشفاء بحد ذاتها إهانة؛ نحن نتكلَّم فقط عن تأطيرِ مثلِ هذه الصلاة في إطار تجربة للتلاعب»[٣].

---

(١) بمعنى أن الله متّصف بالعلم والحكمة والإرادة.

(٢) يصحّ وصف الطريقة بظالمة، أمّا الله تبارك وتعالى فلا يناله ظلم من عباده - تعالى الله عن ذلك -، فهو القائل: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ [البقرة: ٥٧].

(3) Answering the New Atheism (57)

وهذا الكلامُ جيِّد في الجملة، ويدلُّ على أنَّه لا تلازم بين عدم إجابة الدعاء في هذه التجارب، وبينَ نفي وجود الإله. بل الأمرُ بالعكس، فإجابةُ الدعاء دليل على وجودِ الربِّ المجيب، وأمَّا عدمُ إجابة الدعاء فقد يرجع إلى عدد من الأسباب.

موانعُ إجابة الدعاء:

وقد حاولَ علماءُ الغرب ذكر بعضِ أسباب عدم إجابة الدعاء، ومن هذه المحاولات ما ذكرَه البروفسور وليام لاين كرايغ في كتابه: «أسئلة صعبة وأجوبة حقيقية» (Hard Questions, Real Answers). فذكر خمسة أسباب لعدم إجابة الإله للدعاء، وهي:

١) أنَّ الداعي غارق في الذنوب؛ لأنَّه من موانع إجابة الدعاء.

٢) أنَّ النوايا في الدعاء غير صالحة؛ بتحقيق رغبات دنيئة في الدعاء.

٣) أنَّ إيمانَ الداعي ضعيف. فالإيمان بالله والتوكّل عليه ورجاء إجابة دعائه كلها من العوامل المهمَّة.

٤) أنَّ صدق الداعي ضعيف. وذلك أنَّ بعضَ مَن يدعو الله لا يبالي في الحقيقة إن أجيبت أم لا، وإنَّما يدعو بقلب غافل.

٥) أنَّ صبرَ الداعي ضعيف، فينقطعُ عن الاستمرار بالدعاء إذا لم يرَ الإجابة مباشرة[١].

والكلامُ عن هذه الشروط صحيح، وقد دلَّت نصوصُ الكتاب والسنة على هذه الأسباب أيضًا، إضافةً إلى أسباب أخرى. ولكنَّ كلام البروفسور كرايغ عن إجابة الدعاء فاسدٌ في أساسه، وهو أنَّه ذكر في أوَّل كلامه[٢] أنَّ المسيح ﵇ قال - حسب نصوصهم المحرَّفة في كتابهم المقدَّس - : (وَمَهْمَا سَأَلْتُمْ بِاسْمِي فَذَلِكَ أَفْعَلُهُ

---

(١) انظر: (50 - 47) Hard Questions Real Answers

(٢) انظر: المصدر السابق (٤٣).

لِيَتَمَجَّدَ الأَبُ بِالِابْنِ)[1]، وأنه قال: (لَيْسَ أَنْتُمُ اخْتَرْتُمُونِي بَلْ أَنَا اخْتَرْتُكُمْ وَأَقَمْتُكُمْ لِتَذْهَبُوا وَتَأْتُوا بِثَمَرٍ وَيَدُومَ ثَمَرُكُمْ لِكَيْ يُعْطِيَكُمُ الآبُ كُلَّ مَا طَلَبْتُمْ بِاسْمِي)[2]، وأنه قال: (اَلْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ كُلَّ مَا طَلَبْتُمْ مِنَ الآبِ بِاسْمِي يُعْطِيكُمْ)[3]. فالشرط الأساس لإجابة الدعاء عندَ النصارى: الشركُ بالله تعالى. وقد أخبر اللهُ تعالى أنَّ الشركَ من موانع إجابة الدعاء إذ قال: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴾ [الأحقاف:٥].

فلا غرابةَ من عدم إجابة الدعاء عندَ النصارى إذ هُم من أعظم الناس شركًا به. وهذا موجودُ عندَ عامَّة النصارى، وأمّا النصارى الكاثوليك فحدِّث ولا حرج. بل استهزأ ريتشارد دوكينز من تسميةِ الكاثوليك أنفسهم بموحِّدين رغم اعتقادهم بالتثليث، وزعمهم أنَّ مريم والدة الإله، وتقديسهم لـ٥١٢٠ قديسًا يدْعونهم لقضاء جميع أنواع الحاجات[4].

وذلك لا يمنع أنَّ الله يجيب دعوة النصراني المضطرِّ كما قال تعالى: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ ﴾ [النمل: ٦٢]، كما أنّ الله قد يجيب دعاءَ العاصي استدراجًا له، كما قال رسولُ الله ﷺ: «إذا رأيت الله تعالى يُعطي العباد ما يسألون على مَعاصيهم إياه، فإنما ذلك استدراجهم»[5].

خلاصةُ حجَّة إجابة الدعاء أنّها حجَّة حسِّية قوية على وجودِ الله غفل عنها أغلبُ علماء الغرب، وإنْ كان عندهم بعضُ الكلام الجيّد في نقدِ شبهة: عدم إجابة الدعاء. ولكنْ حتَّى هذا الكلام مختلطٌ بعقائدهم الوثنية الشركية مما يقلّل من قيمته.

---

(١) إنجيل يوحنا (١٤: ١٣).

(٢) المصدر السابق (١٥: ١٦).

(٣) المصدر السابق (١٦: ٢٣).

(٤) انظر: The God Delusion (55 - 56)

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٣١١)، (٢٨ / ٥٤٧)، من حديث عقبة بن عامر t. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٤١٣).

المبحثُ الثّاني

حجَّةُ المعجزات

المعجزات (Miracles)[1] لها مكانةٌ أساسية في الديانة النصرانية، ولهذا اعتنى علماءُ الغرب بها أكثرَ من اعتنائهم بحجَّة إجابة الدعاء. ولعظم مكانة المعجزات عندهم يتطلَّب البحثُ مزيدًا من التفصيل في بيانها. وقد مرَّ علماءُ النصرانية بمراحل عديدة في موقفِهم من المعجزات، ولديهم اتِّجاهات مختلفة في تعريفها وبيانِ دلالتها على وجود الخالق. ولهذا سوف يتمُّ سردُ تاريخ موقف النصرانية من المعجزات ودمج التعريفات المختلفة حسبَ المراحل التاريخية والاتّجاهات.

---

(١) تستخدم كلمة المعجزات في هذا المبحث حسب العرف النصراني. وهذا العرف يشمل معجزاتِ الأنبياء، وكرامات الأولياء. فليس لديهم تفريقٌ بين المعجزات والكرامات كما هو موجودٌ في الإسلام. وهذا الاصطلاح استعمله بعض السلف أيضًا؛ قال شيخ الإسلام: ((... ولهذا كان كثيرٌ من أهل الكلام لا يسمّي معجزًا إلا ما كان للأنبياء فقط، وما كان للأولياء إن أثبت لهم خرق عادة سمّاها كرامة. والسلف - كأحمد وغيره - كانوا يسمّون هذا وهذا مُعجزًا، ويقولون لخوارق الأولياء: إنها معجزات، إذا لم يكن في اللفظ ما يقتضي اختصاص الأنبياء بذلك، بخلاف ما كان آية وبرهانًا على نبوة النبي، فإنّ هذا يجب اختصاصه)). (الجواب الصحيح (٥/ ٤١٩).
وإنَّ الأولى أن يعبّر عن المعجزات بالألفاظ القرآنية، وهي الآيات، والبيّنات، والبراهين. (انظر: الجواب الصحيح (٥ / ٤١٢). ولكن، هذه الرسالة تبرز ردود علماء الغرب، وهم يستخدمون لفظ المعجزات، وبالتالي نستخدم هذا الاصطلاح لديهم في هذا المبحث.

تاريخُ المعجزات

المعجزاتُ في كتاب النصارى المقدَّس:

النَّصارى يقسِّمون كتابهم المقدَّس إلى قسمين: العهد القديم والعهد الجديد، وفي كلا العهدين ذُكرت معجزات. ومِن الأمثلة على المعجزات في العهد القديم: الآيات العشر التي جاءَ بها موسى إلى فرعون[1]، وانفلاق البحر أمام بني إسرائيل حين تبعهم فرعون وجنوده[2]، ومعجزات موسى في التِّيه[3]، وانهيار الأسوار في غزوة بني إسرائيل للكنعانيين[4]، وغيرها من المعجزات الكثيرة[5].

وأمّا في العهد الجديد ففيه تركيزٌ كبير جدًّا على المعجزات حيث ظهر عددٌ منها على يدِ المسيح، مثل: إحياء بعض الأموات[6]، وشفاء المرضى[7]، والمشي على الماء[8]، وغير ذلك من المعجزات[9]. ثمَّ المعجزات على أيدي الرسل بعده المذكورة في سفر أعمال الرسل[10].

---

(١) انظر: سفر الخروج: (الفصل السابع إلى الفصل الثاني عشر).

(٢) انظر: المصدر السابق (١٤: ٦).

(٣) انظر: المصدر السابق (١٥: ٢٣ - ٢٥)، و(١٦: ١٤ - ٣٥).

(٤) انظر: سفر يشوع (٦: ٦ - ٢٥).

(٥) انظر: https: / /www.bible - history.com /old - testament /miracles.html

(٦) انظر: إنجيل يوحنا (١١: ٣٨ - ٤٤)، وإنجيل لوقا (٧: ١١ - ١٨).

(٧) انظر: إنجيل لوقا (١٧: ١١ - ١٩)، وإنجيل متى (٩: ٢٧ - ٣١).

(٨) انظر: إنجيل متى(١٤: ٢٤ - ٢٧)، وإنجيل مرقس(٦: ٤٧ - ٥٠)، وإنجيل يوحنا(٦: ١٨ - ٢١).

(٩) انظر المقال: New Testament Miracles
الرابط:
http://www.biblestudy.org/bible-study-by-topic/new-testament-miracles.html

(١٠) انظر: سفر أعمال الرسل (٣: ٢ - ١١)، (٥: ١ - ١٠)، (٩: ٣٤)، (٩: ٣٦ - ٤٢).

الكلامُ عن المعجزاتِ في النصرانية المبكِّرة والقرون الوسطى:

وكانت المعجزاتُ مهمَّة جدًّا في نشر النصرانية في تاريخها المبكّر، واستدلَّ دعاة النَّصارى بها على صحّة ديانتهم - بزعمهم -[١].

وقرَّر آباءُ الكنيسة الأوائل مثل: أوريجين[٢] في القرن الثالث أنَّ هذه المعجزات مستمرَّة حتَّى بعد زمن المسيح ورسله[٣]. وهذا هو الرأي الذي تبنَّته الكنيسة الكاثوليكية بعدَ ذلك، حيث نسبت معجزات كثيرة إلى القديسيين (Saints)[٤].

وكان أغسطين مِن أكثر مَن تكلَّم في تقرير العقائد اللاهوتية النصرانية في القرون المبكِّرة، واهتمَّ اهتمامًا كبيرًا بالمعجزات. وقد عرَّفها بالتعريف الآتي: «كلُّ ما يبدو أنه صعبٌ وغير عادي فوقَ أمل وقدرة من تأمَّلها». كما أنَّه قعَّد لقضية المعجزات، وأصَّل لها ببيانٍ عدم معارضة المعجزات لانتظام الطبيعة. فأغسطين كان يرى أنَّ الإنسان أطلق اسمَ الطبيعة على ما نشاهدُ أنه مُعتاد فيها، وما يفعله اللهُ مخالفًا للمعتاد نطلق عليه كلمةَ المعجزات. ولكن هذا لا يعني أنَّ الله يعمل مخالفًا للقانون الأعظم للطبيعة الذي هوَ فوق ما يتخيَّله الإنسان بعقله الضعيف. وبالتالي تكون المعجزات

---

(١) انظر:

Miracles and the Critical Mind (4), by: Colin Brown, (Fully Seminary Press, 2006)

هذا الكتاب من أفضل الكتب في بيان مواقف المؤيّدين والمخالفين للمعجزات. والمؤلّف كولن بروان بروفسور في علم اللاهوت النظامي، ومتخصّص في المعجزات. ولذلك سيكون كثير من الإحالات إلى هذا الكتاب في هذا المبحث.

(٢) أوريجين (Origen): لاهوتي نصراني من مصر، ويعتبر من أهمِّ اللاهوتيين في النصرانية المبكّرة. توفي عام: ٢٥٤ م. انظر:

https://www.britannica.com/biography/Origen

(٣) انظر

Origen: Contra Celsum (63), by: H. Chadwick, (Cambridge University Press, 1953)

(٤) انظر المقال: Do Miracles Still Occur? على الرابط:

https: / /www.catholic.com /tract /do – miracles – still – occur

جزءًا من خلق الله. والفرقُ بين المعتاد في الطبيعة والمعجزات: أنَّ المعجزات أقلُّ وقوعًا فقط. وإن كان كلُّ شيء من عند الله[1].

وكان توما الأكويني ثاني أكبرِ علماء اللاهوت النصراني بعد أغسطين، وقد تحدّث كثيرًا عنِ المعجزات أيضًا. ووافقَ على تعريف أوغسطين لها، إلّا أنَّه خالفه في قضايا جزئيَّة. ولكن سادَ هذا الرأي عندَ النصارى في القرون الوسطى، وتبوأت المعجزات منزلةً عليًا في ديانتهم[2].

الكلامُ عن المعجزات في زمن الإصلاح البروتستانتي:

في زمنِ الإصلاح البروتستانتي عارضَ مارتن لوثر وجون كالفن كثيرًا من معتقدات وطقوسِ الكنيسة الكاثوليكية. ومِن ضمن ما عارضاه: غلوُّهم في تقديس القديسيين. وعليه، فإنَّهما قلَّلا من شأن المعجزات، وزعمَا أنَّها انقطعت بعدَ زمن رسل المسيح، وأنَّ المعجزات لم تؤثِّر في إيمان أحد. فلم ينكرَا حدوث معجزات الأنبياء، ولكنّهما قلَّلا من قيمتها[3].

اعتراضُ سبينوزا على المعجزات:

وفي عصر النهضة، بدأت المعارضاتُ الحقيقية ضدَّ المعجزات، وكان أوَّل مَن اشتهر بمعارضتها: الفيلسوف اليهودي باروخ سبينوزا عندما أصدر كتابه: «في اللاهوت والسياسة» (Tractatus Theologico – Politicus) عام ١٦٧٠ م. وانتقدَ حدوث المعجزات ودلالتها على الخالقِ بقوَّة. وكان وجهُ معارضته الأبرز أنَّ قوانين الطبيعة الثابتة من أقوى الأدلة على وجودِ الله. فلو حدثتْ معجزة خارقةٌ لهذه القوانين، لانتقدت دلالتها على الخالق؛ لأنَّ خرقَها دليلٌ على عدم ثبوتها. ولهذا رأى أنَّه ينبغي أن يفسّر ما ورد في كتاب النصارى المقدَّس من نسبةِ هذه الأمور الخارقة

(١) انظر: Miracles and the Critical Mind (7 - 9)

(٢) انظر: المصدر السابق (١٢).

(٣) انظر: المصدر السابق (١٣ – ١٧).

إلى الخالق بأنَّها ليست حقيقية، وأن هذه الأخبار مبنيَّة على سذاجةِ الفكر اليهودي القديم، وأنَّه يمكن تأويلُ هذه الخوارق إلى أمور طبيعية. فالآياتُ العشر التي جاءَ بها موسى إلى فرعون كانت كوارث طبيعية، وليست مُعجزات. وقد ذُكر عندَ حادثة انفلاق البحر أنَّه قد هبَّت ريح شديدة الليلة كلّها. واستخلص مِن ذلك أنَّ المعجزات لم تحصل، وبالتالي لم تكنْ دليلًا على وجود الله[1].

وقد أعادَ كريستوفير هيتشن نشرَ شبهات سبينوزا في كتابه: «المتنقّل الإلحادي» (The Portable Atheist)، مما يدلُّ على تأثير كلام سبينوزا إلى هذا العصر[2].

وعندما أصدرَ إسحاق نيوتن كتابه: «الأصول الرياضية للفلسفة الطبيعية» (Philosophiæ Naturalis Principia Mathematica) عام ١٦٨٧م، أكَّد مفهوم ثبات قوانين الطبيعة، وقدَّم نظرية أنَّنا نعيش في كون ميكانيكي له قوانين ثابتة لا تتغيّر. وأصبحت هذه النظريةُ سائدةً بعد ذلك، وأثَّرت في انتشار المذهب الربوبي في القرن الثامن عشر.

وكان الربوبيون ينكرونَ وجودَ المعجزات، حيث رأوا أنَّ الله خلق الكون، ثمّ تركه يسيرُ بنفسه كساعة دونَ أن يتدخَّل فيه. فلقي الإيمانُ بالمعجزات ضربة قويَّة جديدة[3].

اعتراضُ ديفيد هيوم على المعجزات:

ورغمَ الضربات المتتالية ضدَّ الإيمان بالمعجزات في العالم الغربي، فإنَّه لم تتلقَّ ضربة أقوى من ضربةِ الفيلسوف الشكوكي ديفيد هيوم. ففي عام ١٧٤٨م، أصدر كتابه: «بحث في الفهم الإنساني» (An Enquiry Concerning Human Understanding) عن نظرية المعرفة. وجعلَ الفصلَ العاشر من الكتاب عن المعجزات، وطُبع استقلالًا

---

(١) انظر: المصدر السابق (٣٣).

(٢) انظر:

Theological-Political Treatise by Spinoza in the portable atheist (21-25)

(٣) انظر: Miracles and the Critical Mind (47 - 55)

بعد ذلك بعنوان: «في المعجزات» (Of Mircales). ورغم أنّه لم يكتب سوى عشرات الصفحات عنِ الموضوع أصبح كلامُه أشهرَ نقد للمعجزات على الإطلاق[١].

ويمكن تلخيصُ كلام ديفيد هيوم عن المعجزات في النقاط الآتية:

- رأى أنَّ المعجزات خرق لقوانين الطبيعة.
- بيَّن أنَّ القوانين مطَّردة، وقد شهدَ بثباتها عددٌ لا يحصي من الخلق. وأمّا المعجزات فهي شذوذٌ عن الأصل، ولم يشهدْ بها إلّا أفراد قلائل، فينبغي أن نصدِّق المطرّد، ونترك الشذوذ.
- رأى أنَّ الأحداث فوقَ الطبيعية تحتاج إلى برهانٍ فوق طبيعي لإثباتها؛ ونظرًا لغياب مثل هذا البرهان؛ لزم البقاءُ على الأصل: وهو القول بأنَّ قوانين الطبيعة ثابتة لا تتغيّر. ثمَّ أضافَ إلى ذلك سببيْن رئيسين في عدم تصديق المعجزات، وهما:

السببُ الأوَّل: أنَّ أمرَ قصص المعجزات مستشرٍ في الأمم المتخلِّفة، وأقلّ في الأمم المتحضِّرة، فدلَّ على ارتباط الشهادات بوقوع هذه المعجزات بسذاجة العقول.

السَّببُ الثّاني: أنَّه إذا كانت المعجزاتُ دليلًا على صحّة دين معيّن؛ فلا يمكن وقوعُها في أكثر مِن دين. وحيث أنَّ الشهادات بوجود المعجزات موجودة في أكثر من ديانةٍ، فإنَّ الشهادات كلّها تسقط[٢].

وقدِ اعتنى البروفسور أنطوني فلو بكلامِ هيوم عن المعجزات، وقدّم لرسالته بمقدِّمة[٣]، كما أنَّ كريستوفر هيتشن رسالة هيوم في كتابه: «المحمول الإلحادي»[٤]،

---

(١) انظر: المصدر السابق (٧٩ – ٨٠).

(٢) انظر: Of Miracles وهو موجود على الرابط: https: / /davidhume.org /texts /e/10

(٣) انظر: Of Miracles, Introduction by Antony Flew, (Open Court Classic (1985)

(٤) انظر: Of Miracles by Hume in the portable atheist (32 - 45)

واستشهدَ به دوكينز في كتابه: «وهم الإله»[١]. مما يدلُّ على ثقل كلامه عند الملاحدة إلى هذا العصر.

تقريراتُ علماء الغرب المُعاصرين للمعجزات:

قامَ عددٌ من الفلاسفة النصارى بدفاعٍ قويٍّ عن المعجزات في القرن العشرين وأصَّلوا وقعَّدوا لها تأصيلاتٍ وقواعد مهمَّة في فهمهما بطريقة صحيحة، ولكي لا يوجّه إليها انتقاد المنكرين[٢].

ويمكن تلخيصُ أهمِّ ما ذكروه في كتبهم وأبحاثهم في خمس نقاط:

النُّقطةُ الأولى: أنَّ مفهوم المعجزات أوسع من خوارق الطبيعة كما ادّعى ديفيد هيوم. فقد قسَّم البروفسور روي هولاند[٣] المعجزات إلى قسمين: حوادث غير متوقَّعة وحوادثُ خارقة للقانون الطبيعي. فالحوادثُ غير المتوقَّعة مثل: سلامة الإنسان مما يظنُّ أنه موتٌ أكيد لا يخرق قوانين الطبيعة؛ لأنَّه يمكن تفسيرها طبيعيًّا، ولكن المتديّن ينظر إلى هذه الحادثة أنَّها معجزة. وذكر هولاند أنَّ بعضَ ما ورد من المعجزات في كتابهم المقدَّس من هذا القبيل[٤].

وهذا الكلامُ صحيح، ويصدُق على ما اعتبره العلماءُ من آيات النبي ﷺ أيضًا. فمفهومُ آيات الأنبياء أوسعُ من خرق قوانين الطبيعة؛ قال شيخ الإسلام: «وسيرة الرسول ﷺ وأخلاقُه وأقواله وأفعاله وشيعته من آياته، وأمَّته من آياته، وعلم أمته ودينهم مِن آياته، وكرامات صالح أمته من آياته»[٥]. وهذه الأمورُ التي ذكرها ابن تيمية ليست خارقةً لقوانين

---

(١) انظر: God Delusion (116 - 117)

(٢) انظر: Miracles and the Critical Mind (174)

(٣) روي هولاند (Roy Holland): بروفسور الفلسفة في جامعة ليدز ببريطانيا. وقد تخصّص في فلسفة الدين، ولا سيَّما المعجزات. توفي عام ٢٠١٣ م. انظر:
https://www.leeds.ac.uk/secretariat/obituaries/2013/holland_roy.html

(٤) انظر: Miracles and the Critical Mind (174 - 175)

(٥) الجواب الصحيح (٥/ ٤٣٧).

الطبيعة، ومعَ ذلك فإنَّها من آيات الأنبياء. فمفهومُ ديفيد هيوم - ومَن كان على شاكلته - أنَّ المعجزات خرقٌ لقوانين الطبيعة ليس مفهومًا شاملًا لجميع المعجزات.

النُّقطةُ الثّانية: قرَّر البروفسور هولاند أنه يشترط شرطيْن للمعجزات الخارقة لقوانين الطبيعة:

الشَّرطُ الأوَّل: أنَّها مستحيلة الوقوع في العادة.

والشَّرطُ الثّاني: أنّها قد وقعتْ فعلًا. فالمعجزات ليست مستحيلة عقليًّا كاجتماع المتناقضين، ولكنَّها مستحيلةٌ في العادة، ولا يمكن تفسيرها تفسيرًا طبيعيًّا. ومعَ ذلك فإنَّها قد وقعت، فدلَّ على أنَّ كائنًا فوق الطبيعة قد أحدثها في الطبيعة(١).

وهذا التقريرُ موافقٌ لما جاء به الإسلام أيضًا، فالمعجزات الخارقة لقوانين الطبيعة ليستْ مستحيلة عقليًّا، وإنَّما هي مستحيلة عادة. فالرسلُ يأتون بمحارات العقول، ولا يأتونَ بمحالات العقول(٢).

النُّقطةُ الثّالثة: بيَّن البروفسور نينيان سمارت(٣) أنَّ الأصل في قوانين الطبيعة أنّها ثابتةٌ ولا تتغيَّر، والمعجزات حوادثُ آحاد وغير متكرِّرة؛ فليس هناك تضاد بين الإقرار بوجودِ وثبات قوانين الطبيعة والإيمان بحدوث المعجزات في بعض الأحيان(٤). فما يذكره الملاحدةُ من أنَّ الإيمان بالمعجزات يبطل العلم الطبيعي؛ لأنَّ هذا العلم مبني على الإقرار بوجود وثبات قوانين الطبيعة غير صحيح.

---

(١) انظر: Miracles and the Critical Mind (175)

(٢) انظر: درء تعارض العقل والنقل (١ / ٨٣).

(٣) نينيان سمارت (Ninian Smart): بروفسور علم اللاهوت ومقارنة الأديان الإسكتلندي. عمل في عدة جامعات مرموقة، ويعتبر أحد أهمّ علماء الأديان في القرن العشرين. توفي عام: ٢٠٠١ م. انظر:
https://senate.universityofcalifornia.edu/_files/inmemoriam/html/roderickniniansmart.htm

(٤) انظر: Miracles and the Critical Mind (176 - 177)

وهذا صحيحٌ وموافق للإسلام أيضًا. فالمسلمُ يعتقد أنَّ الله قد أجرى سننًا في خلقه[1] كما قال تعالى عنِ الشمس والقمر مثلاً: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ فِى فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴾[الأنبياء:٣٣]. ولا تناقض بين أنَّ مَن خلق الطبيعة بهذه السنن والقوانين، وبيَّن أنه قادرٌ على أنْ يجري معجزات وكرامات على أيدي رسله وأوليائه إذا أراد. فالأمرُ لله من قبْل ومِن بعْد.

وعندما يدَّعي الملاحدة أنَّ الإنسان مخيّر بين تصديق وجود قوانين ثابتة في الطبيعة وبينَ الإيمان بالمعجزات؛ فإنَّهم يرتكبون مغالطة القسمة الثنائية الزائفة كما نبَّه عليه الدكتور جاسون ليزلي؛ لأنَّه يوجد إمكانية ثالثة وهي: أنَّ الطبيعة محكومة بقوانين، وأنَّ الله يجري معجزاتٍ خارقةً لهذه القوانين في بعض الأحيان[2].

فالادِّعاء أنَّ المعجزات مستحيلة لأنَّها تخالف قوانينَ الطبيعة ليس ادِّعاءً علميًّا، وإنّما هو ادِّعاء فلسفي مبنيٌّ على الاعتماد على المذهب الطبيعي المادي. فالمادي يعتقد أنَّ العالمَ المادي نظامٌ مغلق محكوم بقوانين ثابتة لا تتغيَّر. وأمَّا إن كان الإنسان يؤمن بوجود الخالق، فما المانعُ من إحداث هذا الخالق بعض المعجزات الخارقة للقوانين؟ قال البروفسور جون لينوكس: «إنِ اعترف المرءُ بوجود الخالق يفتح الباب تلقائيًّا لإمكانية حدوثِ المعجزة التي يتدخَّل بها نفس الخالق في مسار الطبيعة. ولا يوجد شيء اسمه: الخالق المجبر، الذي لا يمكنه أو يجبُ عليه ألا يجرأ على التدخُّل في كون قد خلقه هو من قبْل؛ وبالتالي، فإنَّ المعجزات ممكنة الوقوع... فأستنتج بناءً على ذلك، أنه لا يوجد اعتراضٌ علمي مبدئي على إمكانية حدوث المعجزات. لا شكَّ أنَّ الموقف المنفتح الذي يتطلَّبه العقل أن نبحثَ عن الأدلة، ونقيم الحقائق، ونتَّبعها حيثما تقودنا، وإن كانت تقودُنا إلى تغيير مواقفنا المبدئية»[3].

---

(١) انظر: النبوّات: (٢ / ٩٥٨ – ٩٧٨)، لأحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، (أضواء السلف، الطبعة الأولى، ١٤٢٠ هـ، ت. عبد العزيز بن صالح الطويان).

(٢) انظر: A POCKET GUIDE TO Logic & Faith: 35

(3) God's Undertaker (206)

فوجودُ قوانين الطبيعة الدقيقة الثابتة دليلٌ على وجود خالق عليم حكيمٍ قنَّن هذه القوانين. فالإتقانُ والإحكام دليلٌ على وجود الخالق. ومَن آمن بوجود الخالق، فإنّه لا إشكالَ لديه بوجودِ معجزات. وإنما الأمرُ في اتِّباع الدليل، فإن دلَّ الدليلُ على وجود المعجزات فإنَّها قد وقعت، وإن لم يدلّ الدليلُ على وقوعها فالأصلُ أنها لم يقع. ولكن ما طبيعة الأدلةِ الدالَّة على حدوث معجزات معيَّنة، هل هي أدلةٌ من العلم التجريبي أو أدلةٌ من علم التاريخ؟ الجوابُ عن ذلك في النقطة الرابعة.

النُّقطةُ الرّابعة: قرَّر البروفسور إيان رامسي[١] أنه لا يمكن خضوعُ المعجزات للعلم التجريبي؛ لأنَّ العلم التجريبي يتحدَّث عن مفاهيم مجرّدة وعمومية تعمل الطبيعة وفقها. فشأنُ قوانين الطبيعة أنها عامَّة. وأمَّا المعجزات فهي من باب التاريخ، والتاريخ يتحدَّث عنْ قضايا معيَّنة، ومحدَّدة وشخصية[٢]. فمَن أراد أن يتحدَّث عن المعجزات، فإنّه يستخدم المنهجَ التاريخي، وليس المنهج العلمي. وبين المنهجين فروق عديدة.

وهذا الكلام دقيقٌ وجيِّد؛ لأنَّ الملاحدة لتعظيمهم غير المتّزن للعلم التجريبي حاولوا إخضاعَ جميع الحوادث لهذا العلم، مع أنه لا يمكن استخدامُ منهج العلم التجريبي في جميعِ القضايا، ومِن ذلك علم التاريخ. والمعجزات المنسوبة إلى الأنبياء والرسل أمورٌ تاريخية وليست أمورًا علمية. فمَن اعتقد إمكانية حدوث المعجزات عقليًّا وعلميًّا - كما سبقَ في النقطة الرابعة -، فمجالُ تصديقه يرجع إلى المنهج التاريخي، وليس إلى المنهج العلمي.

ولكنْ ما أنواعُ الأدلة التاريخية؟ الجوابُ عن ذلك في النقطة الخامسة:

النُّقطةُ الخامسة: قسَّم البروفسور ريتشارد سوينبورن أنواعَ الأدلة التاريخية إلى أربعة أقسام:

---

(١) إيان رامسي (Ian Ramsey): أسقف أنجليكاني بريطاني وبروفسور فلسفة الدين في جامعة أكسفورد. توفي عام:١٩٧٢م. انظر:
https://www.darlingtonandstocktontimes.co.uk/weekend/features/8849280.print/

(٢) انظر: Miracles and the Critical Mind (186 - 187)

القسمُ الأوّل: ذكرياتُنا الخاصة.

القسمُ الثّاني: شهاداتُ غيرنا.

القسمُ الثّالث: الآثارُ الحسّية.

القسمُ الرّابع: مفهومُنا لما يعتبر ممكنًا.

وبيَّن أنَّ كلام ديفيد هيوم إنّما تناول القسمَ الثاني والرابع. وذلك أنَّ مفهومه لما هو ممكنٌ هو موافقةُ الحادث لقوانين الطبيعة. وإذا تعارضتِ الشهاداتُ التاريخية لهذا المفهوم فإنَّنا نكذِّب الشهادات التاريخية. ولكن البروفسور سوينبورن ذكر أنّه لو شاهدنا نحن - وهو القسم الأوَّل - أمورًا خارقة للطبيعة، فإنّه سوف يؤثّر في مفهومنا لما هو ممكن - وهو القسم الرابع -، وبالتالي يؤثِّر في موقفنا من الشهادات التاريخية. وأضفْ إلى ذلك أنه قد تبقى بعضُ الآثار الحسّية من بعض المعجزات - وهو القسمُ الثالث - التي تؤيِّد وقوعَ المعجزات[١].

فكوْن هيوم لم يشاهد أمرًا خارقًا للطبيعة، وبالتالي اتّخذ موقفًا من كلّ خارق للطبيعة؛ لا يقتضي ذلك أنّه الموقفُ الصحيح. وسيأتي المزيدُ من البيان عن هذه الأدلة عندَ الحديث عن الاستدلال بالمعجزات على وجود الله.

وهذه النقاطُ الخمس جيِّدة ومهمَّة في فهم حقيقة المعجزات، وأنّ اعتراضات الملاحدةِ في الغالب من باب مغالطة رجل القشّ[٢]. فهُم ينسبون إلى المتديّنين ما لم يقولوه أو يعتقدوه. وهذا يساعدُ في الاستدلال بالمعجزات على وجود الله.

استدلالُ سي أس لويس بحدوث المعجزات:

وكان البروفسور سي أس لويس مِن أكثر مَن استطاع أن يعيد الحديث عن المعجزاتِ إلى الساحة الشعبية. فكان لويس مِن أشهر أدباء بريطانيا عبر التاريخ حيث

---

(١) انظر: Miracles and the Critical Mind (181 - 182)

(٢) انظر تعريف هذه المغالطة في المبحث المخصّص بنقد مغالطات الملاحدة المنطقية.

بيعَ من كتبه الأدبية أكثر من ١٠٠ مليون نسخة(١). ولكنَّه كان إضافة إلى ذلك مدافعًا شرسًا عنِ النصرانية عمومًا، وعن المعجزات خصوصًا، وذلك في كتابه: «معجزات» (Miracles) الذي طبعه عام ١٩٤٧م، فاستطاع أن يصل به إلى عامَّة الناس بخطابه السَّهل بعيدًا عن العبارات الفلسفية واللاهوتية المتعمّقة. كما أنّه أصّل لإمكانية حدوث المعجزات بطريقة ذكيَّة؛ ولذلك ينبغي الوقوف على كلامه أكثر.

استفتح لويس كتابَه ببيان أنَّه لا فائدة من الحديث عن وقوع معجزات معيّنة إلا بعدَ أن يقرِّر إمكانيةَ حدوث المعجزات أصلًا، لأنَّ مَن اعتقد أنَّ حدوث المعجزات مستحيلٌ كمبدأ، فلن يصدِّق أنَّ أمرًا خارقًا للعادة وقعَ أمام عينيه معجزة، بل سيحاول جاهدًا إيجادَ تفسير طبيعي للحادث. وإذا كان هذا موقفه مما يحصل أمام عينيه، فكيف يقتنعُ بحدوث معجزاتٍ في الماضي بناءً على أدلة تاريخية؟ فمن أراد أن يقنع غيره بحدوثِ معجزة معيّنة، فلا بدَّ أن يقنعه أوّلًا بإمكانية حدوثها عمومًا، ثمَّ ينتقل إلى الأدلة على حدوث معجزة معيّنة(٢).

وهذا الكلام صحيحٌ ووجيه، ويشبه ما ذكر اللهُ تعالى عن المكذّبين للرسل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجر: ١٠ - ١٥]، وكذلك موقف المشركين من حادثةِ انشقاق القمر؛ قال تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾﴾ [القمر: ١ - ٢].

ثمَّ بيَّن لويس أنَّ شبهة منكري المعجزات أنّها تخالف قوانين الطبيعة الثابتة، فيحتاج المتديِّن أن يبيِّن ما هي حقيقةُ المعجزات، وما هي الطبيعةُ وقوانينها، فبيّن

---

(١) انظر المقال: About C.S. Lewis, على الرابط:

http://www.cslewis.com/us/about-cs-lewis/

(٢) انظر: Miracles (1 - 4)

ذلك في كتابِه، ثمَّ ذكر أنَّ الناس من حيث العموم ينقسمون إلى قسمين: القسم الأوّل يتبنّى المذهبَ الطبيعي (Naturalism)، وهو الاعتقاد بأنّه لا يوجد شيء سوى الطبيعة، وأنَّ الطبيعة نظامٌ مغلق. والقسمُ الثاني يتبنَّى المذهب فوق الطبيعي (Supernaturalism)، وهو الاعتقاد أنَّ الطبيعة ليست نظامًا مغلقًا، وأنَّ الوجود منحصر فيها، بل يوجد موجودات ليست من هذه الطبيعة أيضًا[١].

ثمَّ أوجد لويس طريقة جيِّدة في التعامل مع هذه القضية، وهو بتشكيك مَن يتبنّى المذهبَ الطبيعي في مذهبه ببيانِ أنَّه يجب عليه أن يقرَّ بأنّ هذا المذهب قاصر ولا يفسِّر كلَّ شيء. وضربَ مثالين على ذلك، وهما:

المثالُ الأوّل: أنَّه لا يمكن تفسير الوعي وفق المذهب الطبيعي.

المثالُ الثّاني: أنَّ تفسير وجود أخلاق موضوعية تتعالى على العالم المادي[٢].

وبذلك اجتنبَ الحديثَ عن الخالق في بداية الأمر، وأرادَ أن يلزم الملحد بوجود أشياء غيرِ مادية. ولو التزمَ الملحد بذلك فإنه يفتحُ عليه الباب في الحديث عن المعجزات، لأنَّ مصدر المعجزات ليس من العالم المادي. ثمّ ذكر الأدلة على وجود المعجزات، وأنَّها تدلُّ على وجود الخالق، إلخ.

وهذه الطريقةُ تنفع الملحدَ المنفتح، لأنَّه قد يقتنع بوجودِ أشياء غير مادية، ثمَّ ينتقل إلى التَّصديق بالمعجزات. وذلك أنَّ كثيرًا من الملاحدة يعترفون أنّ الوعي والأخلاق الموضوعية غيرُ مادية. وأمَّا الملحد المتعنِّت، فإنه لن يقتنعَ بهذين المثالين، لأنه يفسّر الوعي تفسيرًا ماديًّا، وأنَّه نتاج عمليات كيميائية في الدماغ فقط، ولديهم تفسيرات مختلفة للأخلاق الموضوعية كما سبق ذكره[٣].

---

(١) انظر: المصدر السابق (٥ – ٩).

(٢) انظر: المصدر السابق (١٧ – ٦٠).

(٣) راجع المباحث السابقة عن: المذهب المادي، وحجّة الوعي، وحجّة الأخلاق، لبيان اضطراب الملاحدة في مواقفهم من أشياء غير مادية، وظاهرة الوعي، والأخلاق الموضوعية.

دلالةُ المعجزات على وجود الله:

ذكر البروفسور وليام لاين كرايغ أنَّ أغلب علماء اللاهوت المسيحي لا يستدلّون بالمعجزات على وجود الله، بل يستدلّون بأدلةٍ عقلية على وجوده، ثمَّ يستدلّون بالمعجزاتِ على صحَّة اللاهوت النصراني[١]. فالمعجزات كانت حجّة في العهد القديم على صدقِ الأنبياء والرسل، ثمَّ يروْن أنَّ معجزات المسيح كانت حجّة على ألوهيته. ويروْن أنَّ قيامة المسيح بعد الموتِ أهمُّ معجزة على الإطلاق، وأنّ ديانتهم مبنية على حدوثِ هذه المعجزة، بل كتب بولس في رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس: (**وَإِنْ لَمْ يَكُنِ الْمَسِيحُ قَدْ قَامَ فَبَاطِلَةٌ كِرَازَتُنَا وَبَاطِلٌ أَيْضاً إِيمَانُكُمْ**)[٢]. فالمعجزات لها مكانة مهمّة عند أغلبِ النصارى، لا لأنَّها حجةٌ على وجود الله، وإنَّما لكونها تدلُّ على صدق الرسل في السابق، وعلى ألوهية المسيح بعد ذلك.

ولكن، معَ ذلك فقد استدلَّ عددٌ من علماء الغرب بالمعجزات على وجود الله، ومنهم: البروفسور دانيال بونيواك[٣]، والبروفسور بيتر كريفت.

فقد ألَّف البروفسور بونيواك مقالًا علميًّا بعنوان: «الحجة من المعجزات» (The Argument from Miracles) واستدلَّ في هذا المقال على وجود الله بالمعجزات حسب الصياغة المنطقية الآتية:

---

(١) انظر محاضرة:

Doctrine of Creation Part 16: Rebutting Spinoza’s Objections to Miracles

على الرابط:

https://www.youtube.com/watch?v=Zn3Uv8hOkns

(٢) الرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس (١٥ / ١٤).

(٣) دانيال بونيواك (Daniel Bonevac): بروفسور الفلسفة في جامعة تكساس بالولايات المتّحدة. وهو متخصّص في الميتافيزيقيا، والمنطق والأدب. انظر:

http://philosophical.space/Daniel_Bonevac/Welcome.html

المقدِّمة الأولى: المعجزات، بحكم تعريفها، هي الأحداثُ التي يكون أحسن تفسيرها وجود قوّة خارقة للطبيعة.

المقدِّمة الثانية: بعضُ أنواع الأحداث الممكنة هي معجزات.

المقدِّمة الثالثة: الأحداثُ من هذا النوع قد وقعت بالفعل.

النتيبجة: إذن، توجد قوَّة خارقة للطبيعة[١].

وقد ذكرَ البروفسور كريفت حجّة المعجزات ضمن حججه العشرين على وجود الله بصياغةٍ مشابهة مع فروق بسيطة، وهي:

المقدِّمة الأولى: المعجزةُ هي حدثٌ يكون تفسيرُها الكافي الوحيد تدخّل الإله الاستثنائي والمباشر.

المقدِّمة الثّانية: هناك عددٌ من المعجزات المشهود لها.

المقدِّمة الثالثة: لذلك، فهناك عددٌ من الأحداث يكون التفسير الوحيد الكافي هو تدخُّل الإله الاستشنائي المباشر.

النتيجة: إذًا، الإلهُ موجود[٢].

ولا شكَّ أنَّ هذا الاستدلال أجود من الأوّل، وذلك لسببين:

السببُ الأوَّل: أنَّه ذكر كلمة: الإله، بخلاف البروفسور بونيواك الذي ذكر كلمة: «قوَّة خارقة للطبيعة». ولا شكَّ أنَّ ذكْر كلمة الإله أدلُّ على المقصود من كلمة: «قوة خارقة للطبيعة»؛ لأنَّ «قوة خارقة للطبيعة» تشمل الإله وغيره.

---

(١) انظر: The Argument from Miracles (5), by: Daniel Bonevac,

وهو موجود على الرابط:

https://www.researchgate.net/publication/242293594_The_Argument_from_Miracles

(٢) انظر المقال: Arguments for God's Existence ٢٠ على الرابط:

https://strangenotions.com/god-exists/#9

السَّببُ الثّاني: أنَّه قال: التفسيرُ الوحيد الكافي، بخلاف البروفسور بونيواك الذي ذكر: أحْسَن تفسير. فذكر التفسير الوحيد الكافي يوحي باليقين أكثر من تعبير البروفسور بونيواك الذي يفتح البابَ أمام تفسيرات أخرى.

فصياغةُ البروفسور كريك أحسنُ من صياغة البروفسور بونيواك، ولكن الإشكال في كلٍّ مِن صياغة البروفسور كريك والبروفسور بونيواك أنَّهما جعلاها مكوّنة من ثلاث مقدِّمات ونتيجة، وكذلك التَّطويل بشرْح المعجزات في داخل الحجَّة. وهذا التطويلُ غير جيِّد في صياغة الحجّج.

الصياغةُ الإسلامية لحجّة المعجزات:

المعجزاتُ أو دلائلُ النبوَّة وآيات الأنبياء تدلُّ في الأصل على نبوّة الأنبياء، ولكنّها تدلُّ أيضًا على وجود الخالق وبعض صفاته، بل هي مِن أقوى الأدلة على ذلك؛ قال الإمامُ ابن القيّم (رحمه الله) عنْ هذا النوع من الاستدلال: «وهذه الطريقُ من أقوى الطرق، وأصحِّها، وأدلها على الصانع وصفاته، وأفعاله. وارتباطُ أدلة هذه الطريق بمدلولاتها أقوى من ارتباطِ الأدلة العقلية الصريحة بمدلولاتها، فإنها جمعت بين دلالة الحسِّ والعقل ودلالتها ضرورية بنفسها؛ ولهذا يسمِّيها الله سبحانه آيات بينات»[1].

وكما سبقَ ذكره فإنَّ آياتِ الأنبياء أوسعُ من خوارق العادات، بل تشمل كلَّ ما دلَّ على نبوَّة نبيٍّ من الأنبياء. ولذلك يمكن أن نقسّمها إلى قسمين:

القسمُ الأوَّل: خوارقُ العادات وقوانين الطبيعة.

القسمُ الثّاني: ما سوَى الخوارق من الآيات والدلائل.

«ومع أنَّ دلائل النبوَّة موجَّهة أصلًا لإثبات دعوى النبوّة والرسالة، إلا أن لها دلالة - دون شكٍّ - على وجود مُحدثِها وموجِدِها، وذلك من جهتين:

أولاهما: أنَّ منها ما هو خارق للعادة، لا يقدر عليه إلّا خالقُ السماوات والأرض، ومسيِّرُ نظام العالم على تلك العادة المخروقة، فدلَّ اقتران خرق تلك العادة - معَ

---

(١) الصواعق المرسلة (٣ / ١١٩٧)، لمحمد بن أبي بكر، المعروف بابن قيّم الجوزية، (دار العاصمة، الطبعة الأولى، ١٤٠٨ هـ. ت. علي بن محمد الدخيل الله).

دعوى الرسالة - على وجود ربٍّ قادر على كلِّ شيء، هو الذي أرسل هذا الرسول، وصدَّقه بهذه الآيات، هذا فضلًا عن دلالتها على صدق الرسول نفسه...

ثانيهما: أنَّ ما سوى الخوارق من دلائل النبوّة، قد ثبت به صدق الرسول، الذي قدْ أخبر عن الربِّ الخالق العظيم، وعنْ صفات جلاله وكماله، بما لا يدع مجالًا للشكِّ في كمال ربوبيته وعظمته، فضلًا عن وجوده أصلًا»[1].

ولا ينبغي الخلطُ بينهما في إقامةِ الحجّة على وجود الله، لأنَّ بينهما بعض الفروق في الدلالة.

صياغةُ القسم الأوَّل:

يمكن أن نصيغَ القسمَ الأوَّل من دلالة المعجزات على وجود الله بالصياغة الآتية[2]:

المقدِّمة الأولى: المعجزاتُ قد وقعت حقًّا.

المقدِّمة الثانية: إن وقعتِ المعجزات، فإنَّها دليل على وجود خالق أحدثها.

النتيجة: إذًا، الخالقُ موجود.

وبذلك تكون الحجَّةُ مختصرة وسهلةً بدون تعقيدات وعبارات مبهمة. والأدلّة على المقدّمتين كالآتي:

الأدلةُ على المقدِّمة الأولى: الحسُّ والأخبار المتواترة؛ قال شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله): «فإنَّ هذه العجائب والآيات التي للأنبياء، **تارة تعلم بمجرد الأخبار المتواترة، وإن لم نشاهد شيئًا من آثارها، وتارة نشاهد بالعيان آثارها الدالة على ما حدَث.** كما قال تعالى: ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ﴾ [العنكبوت:٣٨]، وقال تعالى: ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [النمل: ٥٢]»[3].

---

(١) الأدلة العقلية النقلية على أصول الاعتقاد: (٢٨١ - ٢٨٢).

(٢) هذه الصياغة مفيدة، ولكنها ليست على طريقة المناطقة.

(٣) النبوّات (١ / ٥١٤).

ونستنبطُ من هذا الكلام أنَّ دلالةَ الحسِّ تنقسم إلى قسمين:

القسمُ الأوَّل: مشاهدةُ هذه الخوارق نفسها. وهذا يحصل لمن حضرها في زمن الرسل، أو مَن شاهد وقوعَ كرامات الأولياء. فكرامات أيضًا من آيات الأنبياء؛ قال شيخُ الإسلام (رحمه الله): «وأمّا كرامات الأولياء: فهي أيضًا من آيات الأنبياء؛ فإنها إنَّما تكون لمن يشهد لهم بالرسالة، فهي دليلٌ على صدق الشاهد لهم بالنبوة»[١].

القسمُ الثّاني: مشاهدةُ آثار هذه المعجزات. وهذا ما تقدَّم من كلام البروفسور ريتشارد سوينبورن من تقريرِه للأدلة التاريخية الأربعة. واستدلَّ شيخُ الإسلام في كلامه على ذلك مِن مشاهدة آثارِ عاد وثمود. وسيأتي في المبحث القادم المزيدُ من الكلام عن الأدلة التاريخية - إن شاء الله -.

ومَن لم تتأتّ له مشاهدةُ خوارق العادات، ولا مشاهدة آثارها، فلا يمكنه إنكارُ دليل التواتر؛ لأنَّه علمٌ ضروري يجب قبوله. وكان كثيرٌ من أخبار معجزات الرسول ﷺ مِن قبيل المتواتر؛ قال شيخُ الإسلام (رحمه الله) عن كثرة من شاهد معجزات النبي ﷺ: «وظهورُ هذه الآيات التي هي دلائلُ النبوة وأعلامها مشهورة بين الأمة عامتها وخاصَّتها في كلِّ زمان؛ أعظمُ من ظهور هذه الأخبار المتواترة، فهي أحقُّ أن تجعل متواترة من هذه، ونقلة هذه الآيات من الخاصة: أهل العلم، وكتب الحديث والتفسير والمغازي والسيَر وكتب الأصول والفقه التي توجَد فيها هذه الأخبارُ؛ أصحَّ نقلًا باتفاق أهل العقل والعلم»[٢].

قال عنْ كثرة مَن شاهد معجزات النبي ﷺ: «هذه الآيات التي ذكرنا بعضها كانت تكون بمحضرٍ من الخلق الكثير، كتكثيرِ الطعام يومَ الخندق فإنَّه كان أهل الخندق رجالهم ونساؤهم ألوفًا»[٣].

---

(١) المصدر السابق (٢ / ٨٠١ - ٨٠٢).

(٢) الجواب الصحيح (٦ / ٣٣٤).

(٣) المصدر السابق (٦ / ٣٥٥).

وهذا الأمرُ لا يقتصر على الأمَّة الإسلامية فحسب، بل الأخبار متواترة بحصول خوارقِ العادات في الأمم الأخرى أيضًا. وذكر البروفسور وليام لاين كرايغ أنَّ من أفضل الكتب في بيانِ ذلك هو كتاب: «معجزات: مصداقية روايات العهد الجديد» (Miracles: The Credibility of the New Testament Accounts). وهذا الكتاب مكوّن من مجلّدين، وركَّز على بيانِ الأخبار المشاهَدة والمتواترة على حدوث معجزات وخوارق العادات في أنحاء العالم[1].

ومِن الغريب في الأمر أنَّ ديفيد هيوم نفسَه اعترف بذلك، من أنَّ الشهادات بوقوع المعجزات موجودةٌ في جميع الديانات والأمم. ومِن هنا نشأ أحد اعتراضاته، لأنَّ هذه الديانات تتناقضُ بينها، فلا يمكن تصديقُ جميع الشهادات، وبالتالي تسقط الشهادات كلُّها. ولكنَّ هذا الاعتراض غيرُ صحيح؛ لأنَّ أخبار هذه المعجزات بين أمرين:

الأمرُ الأوَّل: الأخبارُ المنسوبة إلى أنبياء ورسل في الكتب السابقة؛ فلا إشكال بإثباتها، فالقرآنُ الكريم قد حكى عن كثيرٍ من معجزات الأنبياء السابقين.

الأمرُ الثّاني: الأخبارُ المنسوبة إلى مَن بعد الأنبياء والرسل كخوارق العادات التي قدْ ظهرت على يدِ بعض القديسيين. فإذا كانت مشاهدة أو قد تواترَ النقل بها، فيمكن تفسيرُها بأنَّها من الأحوال الشيطانية. فالمسلمون لا ينكرون وقوعَ أحداث مخالفة لقوانين الطبيعة على يدِ غير المسلمين، ولكنَّ هذه الخوارق لا تخرج عن كونها من مقدور الجنِّ أو الإنس؛ قال شيخُ الإسلام (رحمه الله): «وما تأتي به السحرة والكهّان والمشركون وأهلُ البدع من أهل الملل لا يخرج عن كونه مقدورًا للإنس والجنّ، وآيات الأنبياء لا يقدرُ على مثلها لا الإنسُ ولا الجنّ»[2]. فقد يطير أحدُ رجال الدين

---

(١) انظر: محاضرة:

Doctrine of Creation Part 16: Rebutting Spinoza’s Objections to Miracles

على الرابط:

https://www.youtube.com/watch?v=Zn3Uv8hOkns

(٢) النبوّات (٢ / ١٠٨١).

من ديانة أخرى في الهواء باستعانةٍ من الجنِّ على سبيل المثال، وهذا أمرٌ مخالف لقانون الجاذبية، ولكنَّه فعله استعانة بالجنّ.

فوجودُ أخبارٍ بهذه الخوارق في دياناتٍ مختلفة ليس دليلًا على سقوط هذه الأخبار كلِّها، بل هو دليلٌ على فسادِ المذهب الطبيعي. فالمذهبُ الطبيعي لا يسمح بوجود أيِّ شيء خارقٍ للعادة، ويدَّعي ديفيد هيوم - ومَن على شاكلته - أنّ الخبرة الإنسانية المتَّسقة تدلُّ على عدم خرق قوانين الطبيعة. ثمَّ هو نفسه يقرُّ بشهادات في ديانات وأممٍ مختلفة بخرقها. فأيُّ تناقض بعد هذا التناقض!؟

الأدلةُ على المقدِّمة الثّانية: هي الضرورةُ العقلية من دلالة الخلق على الخالق، بل دلالةُ المعجزات على الخالق أقوَى من دلالة المخلوقات على خالقها؛ قال شيخ الإسلام (رحمه الله): «**المعجزة - التي هي فعلٌ خارق للعادة - تدلُّ بنفسها على ثبوت الصَّانع كسائرِ الحوادث، بل هي أخصُّ من ذلك**؛ لأنَّ الحوادث المعتادة ليست في الدلالةِ كالحوادث الغريبة؛ ولهذا يسبّح الربّ عندها ويمجَّد ويعظَّم ما لا يكون عند المعتاد، ويحصل في النفوس ذلة مِن ذكر عظمته ما لا يحصلُ للمعتاد، إذ هي آيات جديدةٌ فتعطى حقّها، وتدلُّ بظهورها على الرسول، وإذا تبيَّن أنها تدعو إلى الإقرار بأنه رسولُ الله، فتتقرَّر بها الربوبيةُ والرسالة»[1]. وقال أيضًا: «الآياتُ التي يستدلُّ بها على ثبوتِ الصانع تدلُّ المعجزة كدلالتها وأعظم. وإذا كانتْ دلالتها على صدق الرسول معلومةً بالاضطرار... فكذلك مَن نازع في إثباتِ صانع يقلب العادات، ويغيِّر العالم عنْ نظامه، فأظهرَ المدعي للرسالة المعجز الدَّال على ذلك؛ علم بالضرورة ثبوت الصَّانع الذي يخرق العادات، ويغيِّر العالم عنْ نظامه المعتاد. وبالجملة فانقلابُ العصا حيَّة أمرٌ يدلُّ على ثبوت صانعٍ قدير عليم حكيم، أعظمُ من دلالة ما أعيد من خلق الإنسان مِن نطفة، فإذا كان ذاك يدلُّ بنفسه على إثبات الصانع، فهذا أولى»[2].

فتكونُ النتيجة الناتجة عن المقدِّمتين: وجود الخالق جلَّ وعلا.

---

(١) مجموع الفتاوى (١١ / ٣٧٩).

(٢) درء تعارض العقل والنقل (٩ / ٤٣ - ٤٤).

صياغةُ القسم الثاني:

صياغة هذا القسم بالطريقة كالآتي:

المقدِّمة الأولى: وجودُ دليل على صدق الرسول ﷺ.

المقدِّمة الثانية: الصادقُ المصدوق؛ يقول إنّ الذي أرسله هو الله.

النَّتيجة: قولُه بأنّه رسولُ الله صدقٌ وحقّ، فهذا دليلٌ على وجود الله[1].

وهذه أيضًا طريقةٌ جيِّدة ومفيدة، ويمكن استخدامُها في كثير من آيات الأنبياء غير الخارقة لقوانين الطبيعة. وهذه المقدّمات ليست بحاجةٍ إلى استدلال، وإنّما هي بحاجة إلى إيرادِ أمثلة على أدلَّة صدق الرسول ﷺ، ثمَّ على أنَّه قد ادَّعى النبوّة. وكتبُ دلائل النبوَّة التي صنَّفها علماءُ الإسلام مليئةٌ بهذه الأمثلة. و«النبوّة إنما يدَّعيها أصدق الصادقين، أو أكذبُ الكاذبين، ولا يلتبس هذا بهذا إلّا على أجهل الجاهلين، بل قرائن أحوالهما تُعرب عنهما، وتعرف بهما... وما من أحدٍ ادَّعى النبوّة من الكاذبين إلا وقد ظهرَ عليه من الجهل والفجور واستحواذِ الشياطين عليه ما ظهرَ لمن له أدنى تمييز، فإنّ الرسولَ لا بدَّ أن يخبر الناسَ بأمور ويأمرهم بأمور، ولا بدَّ أن يفعل أمورًا يبيّن صدقه. والكاذبُ يظهر في نفس ما يأمر به ويخبرُ عنه وما يفعله ما يبيِّن به كذبه من وجوه كثيرة»[2]. ومَن قرأ عن سيرة الرسول ﷺ ودلائلِ صدقه بقلبٍ منفتح للحقّ، فإنّه يلزمه الإقرارُ بصدقه. ومَن أقرَّ بصدقه يجب تصديقُه فيما أخبر به مِن أنه مرسَل من عند الله. وبالتالي يقوم الدليلُ على وجودِ الربّ الخالق؛ قال شيخُ الإسلام: «وهذه طريقةُ السلف مِن أئمَّة المسلمين في الاستدلالِ على معرفة الصانع، وحدوث العالم، لأنه إذا ثبتتْ نبوَّته بقيام المعجز وجبَ تصديقُه على ما أنبأهم عنه من الغيوب، ودعاهم إليه من أمرِ وحدانيةِ الله تعالى وصفاته وكلامه»[3].

---

(١) دلائل الربوبية (٦٥).

(٢) شرح العقيدة الطحاوية (١٤٠ - ١٤١)، لابن أبي العزّ الحنفي.

(٣) درء تعارض العقل والنقل (٨/ ٣٥٢).

خلاصةُ حجَّة المعجزات:

حجَّةُ المعجزات مِن أقوى الحجج على وجود الله كما ذكره علماءُ الإسلام. ولعلماءِ الغرب كلامٌ كثير عن المعجزات. وقد اختلطَ هذا الكلام بين تقعيدات وتأصيلاتٍ وقويَّة وردود نافعة على المنْكرين معَ انحرافاتهم العقدية. فالخير في كلامهم ناتجٌ في الغالب عنْ صراعهم الطويل مع مُنكري المعجزات، فاكتسبوا خبرة في بعض التأصيلات، وفي نقدِ اعتراضاتهم. ولكنَّ كلامَهم الباطل في هذا الباب كثير جدًّا، لا سيَّما وأنَّ كثيرًا من النصارى يروْن أنَّ معجزات المسيح u – وهي أكثرُ المعجزات التي يعْتنون بها – لا تدلُّ على وجودِ خالق لهذا الكون، وإنّما تدلُّ على ألوهية المسيح. والذين يعتمدونَ على المعجزات في الاستدلال على وجود الله يستخدمون حججًا مبنية على مقدِّمات كثيرة، وعبارات غامضة. فالمسلمُ يستطيع أن يستفيدَ من خبرتهم، ولكن ينبغي أن يكون على حذرٍ شديد في الاستفادة من كلامهم في هذا الباب.

المبحثُ الثّالث

حجَّةُ ثبوت الحقائق الدينية

حجَّةُ ثبوت الحقائق الدينية أو حجَّة الخبرة الدينية (Argument from Religious Experience) من الحجج على وجودِ الله. وهي ليست حجةً عقلية ولا علمية، وأقرب ما يمكن وصفُها أنَّها حجَّة حسيَّة. وهذا سببٌ جعلها ضمنَ الحجج الحسية في هذا الباب.

وبالتتبُّع والاستقراء، فإنَّ هذه الحجة لم تحظَ باهتمامٍ كبير في الجدل الديني - الإلحادي في الغرب. فقلَّ ما يذكرها علماءُ الغرب في مناظراتهم مع الملاحدة أو في الكتب المتخصِّصة في نقد الإلحاد الجديد. ومعَ ذلك فثمَّة قلَّةٌ من الفلاسفة واللاهوتيين الغربيين يدافعون عنْ هذه الحجة، ويذكرونَها في كتب فلسفية ولاهوتية.

وسيتمُّ تقسيمُ هذا المبحث إلى ثلاث فقرات:

الفقرةُ الأولى: التعريفُ بحجَّة ثبوت الحقائق الدينية.

الفقرةُ الثانية: الاعتراضاتُ على حجَّة ثبوت الحقائق الدينية والجواب عنها.

الفقرةُ الثالثة: تقييمُ حجَّة ثبوت الحقائق الدينية.

الفقرةُ الأولى: التعريفُ بحجَّة ثبوت الحقائق الدينية:

ذكرَ البروفسور كاي مان كوان[1] أنَّ المراد بالحقيقة أو الخبرة الدينية: أن تكون لدى الإنسان خبرةٌ شعورية بوجودِ الإله أو كائن متعالٍ على الطبيعة[2].

---

(١) كاي مان كوان (Kai – man Kwan): بروفسور فلسفة الدين في جامعة هونغ كونغ التعميدي. انظر:

https://artsbu.hkbu.edu.hk/about-us/our-community-of-teachers-and-researchers/prof-kai-man-kwan

(٢) انظر:

The Argument from Religious Experience, in The Blackwell Companion of Natural Theology (449)

وليس المرادُ بذلك مجرَّد شعورٍ ديني في داخل الإنسان، ولكنهم يقصدون وقائع وخبراتٍ وحقائق وقعت للبشرِ تُثبت أنَّ الإله موجود. ويدخلون في ذلك ما وقع للأنبياء والرُّسل، مثل: سماع الوحي من الله، والمكاشفة التي تحصل لبعض الناس، واليقين الذي يتبعُه أنَّ الإله موجود[1].

والخبراتُ الدينية وُجِدت في البشرية منذُ القدم، ولكنْ بدأ الجدلُ الديني في هذه الخبرات عندما أصدرَ وليام جيمس[2] كتابه: «أنواع الخبرات الدينية» (The Varieties of Religious Experience) عام ١٩٠٢م، ولكنَّه لم يذكر أنَّ هذه الخبرات حجة على وجود الله. ورأى بعضُ اللاهوتيين والفلاسفة أنَّ هذه الخبرات والحقائق حجة على وجود الله. وذلك أنَّ هذه الخبرات مصدَّقة ذاتيًّا (Self – authenticating)، لأنّ الذي حصلت له هذه الخبرات قد أدرك وجودَ الإله حسّيًّا، فتكون حجَّة على وجود الله[3].

تبنَّى كثيرٌ من الفلاسفة في بداية القرن العشرين مبدأ البرهنة (Verificationism)، وهذا المبدأ ينصُّ على أن أيَّ فكرةٍ لا يمكن البرهنةُ عليها بالأدلة الحسية تعتبر فكرة بلا معنى. وبسببِ انتشار هذا المبدأ قلَّ استعمالُ حجَّة ثبوت الحقائق الدينية في تلك الفترة؛ حيث إنَّه لا يمكن البرهنةُ على هذه الخبرات بأدلةٍ حسيَّة خارجة عن الشعور الذاتي للإنسان[4].

---

(١) انظر: Religious Experience, in Stanford Encyclopedia of Philosophy
وهوموجود على الرابط:
https://plato.stanford.edu/entries/religious-experience

(٢) وليام جيمس (William James): بروفسور علم النفس الأمريكي، وكان له تأثير بالغ علماء النفس بعده. توفي عام: ١٩١٠م. انظر:
https://www.britannica.com/biography/William-James

(٣) انظر:
Can Religious Experience Provide Justification for the Belief in God? The Debate in Contemporary Analytic Philosophy, in Philosophy Compass 1/6 (2006) (640-641), by: Kai Man Kwan.

(٤) انظر:
The Argument from Religious Experience, in The Blackwell Companion of Natural Theology (501-502)

ولكنْ في السبعينيّات من القرن المنصرم، أعاد البروفسور ريتشارد سوينبورن هذه الحجةَ إلى الجدل الديني الإلحادي، ودافعَ عنها في كتابه: «الوجود الإلهي» (The Existence of God)[1]. وبنَى ذلك على إعادةِ النَّظر في مبادئ نظرية المعرفة بعيدًا عن مبدأ البرهنة. قرّر البروفسور سوينبورن أنَّه إذا وقعتْ للإنسان خبرات دينية تثبت أن الإلهَ موجود، فالأصلُ أنَّ هذه الخبرات صحيحة، إلّا إذا ثبت العكس؛ فالدليل على مَن أنكرَ هذه الخبرات، وليس على مَن أثبتها. وتابعَه على هذا الرأي عددٌ من علماء الغرب، منهم البروفسور وليام ألستون، وألَّف كتابه: «إدراك الإله: إيبستمولوجية[2] الخبرات الدينية» (Perceiving God: The Epistemology of Religious Experience).

صاغَ علماءُ الغرب حجَّة ثبوت الحقائق الدينية بما يأتي:

المقدِّمة الأولى: يظهر إيبستموليجيًّا أنَّ الإله موجود.

المقدِّمة الثانية: لا يوجد سببٌ جيد للاعتقاد أنَّ الإله غير موجود، كما أنه لا يوجَد سببٌ جيِّد للاعتقاد أن هذه الخبرة غير صحيحة.

النتيجة: إذن، يبدو أنَّ الإله موجود[3].

وعزّزوا هذه الحجةَ بثلاثة مبادئ في نظرية المعرفة:

المبدأ الأوَّل: مبدأ السذاجة (The Principle of Credulity)، وخلاصته: أنه يجب علينا التعاملُ مع خبراتنا ببراءةٍ إلّا إذا ثبتَ أنَّ العكس صحيح[4]. يعني، إذا رأينا أو سمعنا شيئًا، فالأصل أنَّ الأمرَ كما رأيناه أو سمعناه، إلّا إذا جاء دليلٌ يدلُّ على أنه وهم مثلًا.

---

(١) انظر: The Existence of God (293 - 327)

(٢) إيبستمولوجية: الدراسة الفلسفية لطبيعة المعرفة البشرية وأصولها وحدودها.
انظر: https: / /www.britannica.com /topic /epistemology

(٣) لخّص البروفسور كواي من كان كلام البروفسور سوينبورن في هاتين المقدّمتين والنتيجة في: The Argument from Religious Experience, in The Blackwell Companion of Natural Theology (٥٠٨)، وإن لم يصرّح البروفسور سوينبورن بهذه الصياغة في كتابه: The Existence of God (295).

(٤) انظر: المصدر السابق (٥٠٢)

المبدأ الثاني: مبدأ الشهادة (The Principle of Testimony)، وخلاصته: أنه ينبغي للإنسان تصديقُ الآخرين فيما يذكرون أنه حصلَ لهم من الوقائع[1].

المبدأ الثالث: مبدأ البساطة (The Principle of Simplicity)، وخلاصته: أنه ينبغي قبولُ أبسط نظرية بين النظريات المختلفة[2].

وتلخّص هذه الحجَّة معَ هذه المبادئ بأنَّ البشر لديهم عددٌ من الخبرات الدينية. وهذه الخبراتُ تثبت أنَّ الإله موجود. والأصل أنَّ مَن حصلت له خبرة معينة أنّها صحيحة، إلّا إذا ثبتَ العكس، ولا دليلَ على أنَّ هذه الخبرات غير صحيحة. كما أنه ينبغي لمن لم تحصلْ له هذه الخبرات أن يصدِّق شهادة مَن وقعت له. وأيسر نظرية في شرحِ هذه الخبرات أنها قد وقعتْ بالفعل، وأنَّها حقيقية. وأما محاولة شرح هذه الخبرات بنظرياتٍ أخرى مثل: أنَّها أوهامٌ أو تخيلات، فهي لجوءٌ إلى نظريات أكثر تعقيدًا. وهذا مما لا ينبغي في نظرية المعرفة.

هذا هو الأساسُ في صياغة الحجة، والمبادئ المعزّزة لها في نظرية المعرفة. وينطلق علماءُ الغرب في ذكرِ شهادات عديدة لمن حصلت له هذه الخبرات[3].

والخبراتُ الروحية مازالت منتشرةً حتى في الدول الغربية العلمانية، بل هي في ازدياد في بعض هذه الدول؛ فحسبَ إحصاء عام ١٩٨٧ م. أجاب ٤٨ ٪ من البريطانيين بأنَّهم قد حصلتْ لهم هذه الخبرات، بينما كانت النسبة ٧٦ ٪ في عام ٢٠٠٠ م[4].

---

(١) انظر:

The Evolution of the Soul (13), by: Richard Swinburne, (Clarendon Press, 1997)

(٢) انظر: المصدر السابق.

(٣) انظر:

Argument from Religious Experience, in The Blackwell Companion of Natural Theology (499-501)

(٤) انظر المقال: Spiritual Experiences: Eight Major Types, وهو موجود على الرابط: https://www.psychologytoday.com/ie/blog/spiritual-wisdom-secular-times/201401/spiritual-experiences-eight-major-types

وحاول علماءُ الغرب تقسيمَ الخبرات الدينية التي وقعت للناس؛ فقد ذكر البروفسور سوينبورن خمسةَ أقسام[1]، وذكر البروفسور كاي مان كوان أنها أحد عشر قسمًا[2]. وبعضُ هذه الأقسام هي خبرات الألوهيين (المسلمين واليهود والنصارى) مع الخالق، بينما بعضُ الخبرات الأخرى هي خبراتُ المشركين مع آلهتهم، أو خبرات بعض الناس معَ الجنّ.

ثمَّ خصَّص البروفسور كاي مان كوان الخبراتِ الدينيةً لدى الألوهيين بالحديث، وذكر أنَّ هذه الخبرات تتوافَق مع معتقدهم في الخالق. فالمتوقّع أنه لو وُجد خالق خلق البشرَ أنَّه سوف تقع هذه الخبرات الدينية مع هذا الخالق[3]. وعلى العكس، ففي عالم الإلحاد المادي، فإنَّ المتوقع أنَّ الإنسان لن تحصل له هذه الخبرات في حياته؛ لأنَّ الحياة مجرَّد مادة.

يرى علماءُ الغرب الذين يستخدمون هذه الحجّة أنّها قوية من هذه الناحية، حيث إنها تردُّ على الملاحدة. ولكن من الواضح أنَّ كلَّ مَن يؤمن بوجود إله واحد أو آلهة متعدِّدة، أو يؤمن بوجودِ الروح أو الجن، يمكن أن يستخدم هذه الحجة. وسيأتي التفصيلُ في تقييم هذه الحجة في آخر المبحث.

الفقرةُ الثّانية: الاعتراضاتُ على حجّة ثبوت الحقائق الدينية، والجواب عنها:

انتقدَ المشكِّكون حجةَ ثبوت الحقائق الدينية من ثلاثة أوجه رئيسة، وهي:

الوجهُ الأوَّل: اعتراضُ الفجوة المنطقية (The logical gap objection).

هذا الاعتراض يتلخَّص في أنه توجَد فجوةٌ منطقية بينَ الشعور الذاتي للإنسان وبين الواقع الموضوعي؛ فقد يحلم الإنسانُ بشيء ويشعرُ في داخله بأنه حقيقي، ولكنه لم يقع في الحقيقة. كما أنَّ الإنسان قد يخيَّل إليه أن يفعل شيئًا، ولم يفعله[4].

---

(١) انظر: (303 - 298) The Existence of God.

(٢) انظر:

Argument from Religious Experience, in The Blackwell Companion of Natural Theology (513)

(٣) انظر: المصدر السابق (٥١٨).

(٤) انظر:

God and Philosophy (129), by: Anthony Flew, (Hutchinson and Co, 1966)

وأجابَ اللاهوتيون عنْ هذا الاعتراض بأنّه مبنيٌّ على مذهب الشكّ، وأنه سوف يؤدِّي إلى التشكيك في الحواس. وذلك لأنَّ الإنسان يحسّ بوجود محسوسات - وهذا الحسُّ شعور ذاتي - ولكن التحقُّق الموضوعي من هذا الشعور غير ممكن. وإذا كان المشكِّكون يعترضون بهذا الاعتراض على الخبرات والوقائع الدينية دون غيرها من الخبرات والوقائع؛ فيكون هذا الاعتراض انتقائيًّا ومتناقضًا[١].

فالخلاصةُ أنّ مَن يعترض بهذا الاعتراض بينَ أمرين: إمّا أنه يطرد هذا الاعتراض في التَّشكيك في الحواس كلها، ولا شكَّ أنَّ ذلك سفسطة، وغيرُ مقبول لدى عامة العقلاء. وإمّا أنه يعترضُ بهذا الاعتراض على الخبرات والوقائع الدينية دون بقية الخبرات والوقائع، فيقعُ في تناقض وانتقاء غير موضوعي.

الوجهُ الثّاني: اعتراضُ النظرية المثقلة (The theory - ladenness objection). والمراد بهذا الاعتراض: أنَّ الخبراتِ الدينيةَ تحصل داخل الإطار المعرفي لمن وقعت له. فالنصراني لديه خبراتٌ مع المسيح، والمشركون معَ آلهتهم، إلخ. وعليه فلا يمكنُ أن تكون هذه الخبرات أدلةً على وقائع حقيقية[٢].

ردَّ علماءُ الغرب على هذا الاعتراض بأنَّ هذه مشكلة عامَّة في نظرية المعرفة؛ فالإدراكُ العادي لدى الإنسان كذلك أسيرٌ لإطاره المعرفي. ويدخل في ذلك أيضًا العلمُ التجريبي؛ فالعالِم يفسِّر العلومَ التجريبية وفقَ المذهب الفلسفي الذي يتبنّاه.

---

(١) انظر:

Religious Belief and Religious Skepticism (147), by: Gary Gutting, (University of Notre Dame Press, 1982),

وكذلك:

Perceiving God: The Epistemology of Religious Experience (249-250, 255), by: William P. Alston, (Cornell University Press, 1991)

(٢) انظر:

Interpreting Religious Experience (Chap. 5), by: Peter Donovan (Sheldon Press, 1979)

وفلاسفةُ العلوم الكبار يعترفون أنَّ جميع الملاحظات تدخل في النظرية المثقلة (Theory - ladenness). ومع أنَّ الحواس والملاحظات التجريبية مشوَّشة إلى حدٍّ ما بالإطار المعرفي لدى الإنسان؛ فإنَّ ذلك لا يمنعه من تصديق حواسِّه أو نتائج العلم التجريبي، وإلّا فما أمكنَ الإنسان أن يحصِّل أيَّ علم. ولكي يتجنَّب المنتقد أنْ يكيل بمكيالين، فلا بدَّ أن يعترفَ بذلك(١).

فالخلاصةُ أنَّ الذي يوجِّه هذا الانتقاد بين ثلاثِ حالات:

الحالةُ الأولى: أنه يطردُ هذه القاعدة بأنَّه لا يمكن أن نحصل على أي علم؛ لأن الإنسانَ أسيرُ إطاره المعرفي. ويدخُل في ذلك الحواس والعلمُ التجريبي. وهذا لا يقوله إلا المسفسط.

الحالةُ الثّانية: أن يقول إنَّ اعتراض النظرية المثقلة خاصٌّ بالتجارب الدينية دون الحواس والعلمِ التجريبي، فإنه يخالفُ الواقع. وبذلك يكون انتقائيًّا في ردّه.

الحالةُ الثّالثة: أنه يعترف أنَّ اعتراض النظرية المثقلة عامٌّ في التجارب الدينية والحواس والعلم التجريبي، ولكنَّه معَ ذلك لا يمنع مِن تصديقها مع أخذ الاحترازات. وهذا هو المطلوب.

فلا شكَّ أنَّ الإنسان يفسِّر الوقائع في إطاره المعرفي، ويجب أن يحترز في هذا الأمر ويكون متنبِّهًا، ولكنْ لا يعني ذلك عدمَ الاعتماد على الحواس أو العلم التجريبي أو الخبرات الدينية بكلية.

الوجهُ الثّالث: اعتراضُ الخصوصية (The privacy objection). يقصد المنتقدون بهذا الاعتراض أنَّ هذه الخبرات خاصَّة بمَن وقعت له؛ فلا يمكن أن يطّلع عليها غيرهم فيقيِّم مدى صحَّتها، وبذلك تشبه هذه التجارب التخيّلات والمنامات

---

(١) انظر:
Argument from Religious Experience, in The Blackwell Companion of Natural Theology (504-506)

التي لا يمكن التحقُّق منها[1]. ردَّ علماءُ الغرب على هذا الاعتراض بأنَّ الحواس نفسها فيها خصوصية كذلك؛ فخبرةُ الإنسان معَ كرسي من الكراسي - برؤيته أو لمسه مثلًا - هي خبرة خاصَّة في ذهنه. وهذه الخبرات تختلفُ من شخص إلى شخص. والذي يجعل الحواس عامَّة هي أنَّه يمكن أن يتحدَّث الناس عن خبراتهم معَ غيرهم ويقارنون بينها. ولكنّ هذا الأمرَ يصدق على الخبراتِ الدينية أيضًا. ومِن الأمثلة على ذلك أنّ الخبرة بوجود الله يكادُ يكون موجودًا بينَ جميع الناس في جميع الأمكنة وجميع الثقافات. وهذه الخبرات متوافقةٌ إلى حدٍّ كبير. وبالتالي، فإنَّ التجارب الدينية عامة كذلك[2].

الفقرةُ الثّالثة: تقييمُ حجَّة ثبوت الحقائق الدينية:

هذه الحجَّة يستعملها بعضُ علماء الغرب، وإن لم تكنْ مشهورة بينهم. وأما بين المسلمين، فلا نكاد نرى أحدًا يستعملها. ولعلَّ من أسباب ذلك ما في هذه الحجة من الضَّعف والوهن. وقد سبقَ ذكرُ بعض الاعتراضات الموجهة إلى هذه الحجة، كما سبق إيرادُ إجابة علماءِ الغرب عن هذه الاعتراضات. ولكنّ الاعتراضات فيها قوّة، والإجاباتُ عنها ليست مُقنعة تمامًا؛ لأنَّ هذه الخبرات قد تكون أوهامًا وتخيّلات ووساوس؛ فقد يظنُّ الإنسان أنه يحسُّ بشيء من الأمور الدينية، ولكن الواقع أنّه مريض نفسيًّا، أو مصابٌ بوساوس مِن الشيطان وغير ذلك. ونتيجة لذلك، نرى أنّ أتباع الأديانِ لديهم خبراتٌ دينية مختلفة؛ فالبوذي قد يظنُّ أنَّه يرى بوذا، والهندوسي يظنّ أنه قابل أحدَ الآلهة، إلخ. ولا شكَّ أنَّ هذه الخبرات باطلة وغير صحيحة، ولا يُبنى عليها شيء.

---

(١) انظر:

Reason and Religion: An Introduction to the Philosophy of Religion (318), by: Rem Edwards, (Harcourt Brace Jovanovich, (1072), (Wipf and Stock, 2016).

(٢) انظر:

Argument from Religious Experience, in The Blackwell Companion of Natural Theology (506-507)

ومَن احتجَّ بهذه الحجة بهذا العموم هو بين ثلاث حالات:

الحالةُ الأولى: أن يستعملَ هذه الحجَّة في جميع الخبرات الدينية. فتكون هذه الحجةُ دليلًا على وجودِ الإله الخالق، كما أنها دليلٌ على وجود الآلهة المزعومة. وهذا باطل.

الحالةُ الثّانية: أن يستعملَ هذه الحجَّة في الخبرات الدينية الخاصَّة بإثبات وجود الخالق، دونَ سائر الآلهة. وبذلك يقعُ في التناقض؛ لأنَّ هذه الخبرات متعدّدة، ولا يمكن استعمالُ هذه الحجة في خبرة دون خبرة.

الحالةُ الثّالثة: أن يترك استعمال هذه الحجَّة بالكلية للمخاطر الموجودة في استعمالها. وهذا هو الصواب.

ولكنْ يبقى استعمالُ هذه الحجة في أمريْن خاصَّين، وهما:

الأمرُ الأوَّل: استعمالُ هذه الحجة مع خبرات الأنبياء. فالأنبياء سمعوا الوحي المنزَّل مِن الله بواسطة جبريل، والنَّبي موسى ونبينا محمدr سمعا كلام الله مباشرة. وهذا يعتبر خبرةً دينية - حسبَ اصطلاح علماء الغرب المعاصر -. وتصديقُ هؤلاء الأنبياء في أخبارهم الصادقة دليلٌ على وجود الله. فكلُّ مَن آمن بأنَّ نبيًّا من الأنبياء نزل عليه الوحي؛ فقد اعترفَ ضمنيًّا بأنَّ الخالق الذي أوحى إليه هذا الوحي موجود. وبذلك يكون الوحي - خبرة أو حقيقة دينية - دليلًا على وجود الخالق[1].

ولكنَّ المسلم يصدِّق الأنبياء بذلك بناءً على ما نصب الله لهم من الدلائل والبراهين الدالَّة على صدْقهم فيما يقولون. ولا يجوز أن يصدّق كلّ مَن يدَّعي أنه كانت له خبرةٌ دينية معينة، وإلّا لوقع في تصديق الدجالين ومدَّعي النبوة فيما يتخيّلونه أو يخيَّل إليهم. فلا ينبغي فتحُ هذا الباب على مصراعيه كما فعل مَن استعمل هذه الحجة.

الأمرُ الثّاني: قد يُقال مِن باب المجادلة للملاحدة الماديين: إنَّ هذه الحجة دليلٌ على

---

(١) ويتفرّع عن هذا ما يجده المؤمن من حلاوة إيمانه وزيادة يقينه وشوقه إلى ربّه، فيزيده يقينًا بوجوده سبحانه.

بطلان مذهبهم، وإنْ لم تكنْ حجة على وجود الخالق. فهذه الحجَّة - المدعومة بالقواعد في نظرية المعرفة التي ذكرها علماءُ الغرب - دليلٌ على أنَّ الوجود ليس منحصرًا في المادة فقط. وإذا كان الوجودُ غيرَ منحصر في المادة، فإنه دليلٌ على أن المذهب المادي باطل. وقد سبقَ الحديث عن ذلك في الباب الأوَّل عند نقد المذهب المادي.

ومعَ ذلك، فلا تكون هذه الحجَّة دليلًا واضحًا على وجود الخالق، وغاية ما تثبته أنَّ المذهب المادي - الذي هو أساسٌ من أسس الإلحاد المعاصر - مذهبٌ باطل.

فالخلاصةُ أنَّه لا ينبغي استعمالُ هذه الحجَّة بإطلاقه، وإذا رأى أحدٌ أن يستعملها فيكونُ ذلك في هذين الأمرين، دون توسُّع.

المبحثُ الرّابع
نقدُ حججِ علماءِ الغرب الحسيَّة على وجود الله

قدْ تناول هذا الفصلُ حججَ علماء الغرب الحسية على وجود الله، وقد ذكرت فيه ثلاثَ حجج، وهي: حجَّة إجابة الدعاء، وحجَّة المعجزات والكرامات، وحجَّة ثبوت الحقائق.

وقد تبيَّن خلالَ هذه المباحث أنَّهم لا يحتجون بحجَّة إجابة الدعاء إلا في النادر، وأغلبُ كلامهم عنْ هذه الحجة في دفع الاعتراضات المتعلقة بعدم إجابة الدعاء. ولكنَّهم تكلّموا عنِ المعجزات بكلامٍ وافر. وأمّا كلامُهم عن حجة ثبوت الحقائق والخبراتِ الدينية، فهي أكثرُ من كلامهم عن حجَّة الدعاء، ولكنْ أقل من كلامهم عن حجة المعجزات.

وإنْ كان بعضُ كلامهم في هذا الباب جيِّدًا، ويُستفاد منه، إلّا أنه يوجد فيه خللٌ واضح، وذلك من ثلاثة أوجه:

الوجهُ الأوَّل: أنَّ أغلبَ علماء الغرب أعرضوا عن الاحتجاج بحجة إجابة الدعاء معَ أنّها حجةٌ قوية على وجودِ الخالق السميع المجيب. وأغلبُ كلامهم منصبٌّ على دفع الاعتراضات عنْ شُبهة الملاحدة المتعلقة بعدمِ إجابة الدعاء. وإعراضهم عن الاحتجاج بهذه الحجَّة القوية معَ احتجاجهم بحججٍ ضعيفة مثل الحجة الوجودية والحجة البراغماتية هو أمرٌ غريب. فإجابةُ الله لدعاءِ الدّاعين في كلِّ وقت وحين تدلُّ دلالة قطعية على وجودِ الخالق، بينما كانت تلك الحججُ الضعيفة الأخرى لا تدلُّ على ذلك. وهذا نقصٌ في خطاب علماء الغرب في هذا الباب.

الوجهُ الثّاني: قد ذكرَ علماءُ الغرب بعضَ التقريرات الجيّدة في حجة المعجزات، وردُّوا على شبهاتِ الملاحدة في ذلك. ولكنَّهم لا يوردون حجةَ المعجزات في

الغالب كحجَّة على وجود الله، بل يستخدمونَها كحجةٍ على ألوهية المسيح - كما سبق -. والإيمانُ بألوهية المسيح مِن العقائد الكفرية الفاسدة لدى النصارى. فقيامُ نبيٍّ من الأنبياء بمعجزة ليس دليلًا على ألوهيته؛ بل هو دليلٌ على أنَّ الله أيّده بهذه المعجزة. ونبيُّنا محمد (ﷺ) أكثرُ الأنبياء معجزة، ومع ذلك لا يقول المسلمون إنّها تدل على ألوهيته، بل هي آياتٌ بيِّنات أنه مرسَل من عند الله ومؤيّد بهذه المعجزات. فهذه المعجزاتُ دليلٌ على نبوَّة الأنبياء، كما أنّها دليلٌ على وجود الخالق الذي أوحى إليهم وأيَّدهم بهذه الآيات والدلائل. فقلَبَ النصارى المسألةَ، وأعرضَ أغلبُهم عن الاحتجاج بهذه المعجزات على وجودِ الخالق، ولم يستدلّوا بها على نبوة المسيح، بل قالوا بأنّها دالة على ألوهيته. ولهذا يجبُ على المسلم أن يكون متنبِّهًا عندما يستفيد بكلام علماء الغرب في هذا الباب، ويكتفي بالاستفادة بتقريراتهم في اعتراضات الملاحدة على وقوع المعجزات. وأمَّا كلامُهم عن ألوهية المسيح فهو كفرٌ محْض، ويبرأ المسلمُ إلى الله منه.

الوجهُ الثّالث: قد ذكر علماءُ الغرب بعض الكلام الجيّد في دلالة الحقائق والخبرات الدينية على بطلانِ المذهب المادي. ولكنَّ احتجاجهم بهذه الحجة على وجود الخالق فيه إشكالاتٌ كبيرة. ومن ذلك أنَّ الاحتجاج بهذه الخبرات قد يفتح الباب أمام المشركين للاحتجاج بوجودِ آلهتهم الباطلة؛ فهُم يدَّعون أيضًا أنَّ لديهم خبرات معهم. ولا شكَّ أنَّ هذه الخبرات مِن تلاعب الشياطين بهم. ولهذا لا يمكن الاحتجاج بكلّ ما يظنُّه الإنسان أنها خبرةٌ دينية. وقد بيَّنت ذلك بالتفصيل في المبحث المخصّص لتلك الحجة.

البابُ الثّالث

ردودُ علماءِ الغربِ على شُبهات الملاحدة

وفيه ثلاثةُ فصول:

الفصلُ الأوَّل: ردودُ علماءِ الغرب على شُبهات الملاحدة العقلية.

الفصلُ الثّاني: ردودُ علماءِ الغرب على شُبهات الملاحدة العلمية.

الفصلُ الثّالث: ردودُ علماءِ الغرب على شُبهات الملاحدة العاطفية.

تمهيد

يتناول هذا البابُ ردودَ علماء الغرب على شبهات الملاحدة. وحيث إن الهدف الأكبرَ للملاحدة الجدد هوَ القضاءُ على الأديان، ويسعونَ بجميع الوسائل لتشكيك المتديِّنين في دياناتهم وعقائدهم؛ فإنَّ شُبهاتهم كثيرة جدًّا، لا يكاد يمكن حصرُها؛ فإنهم لا يكادون يتركون قضيةً متعلِّقة بالدين إلّا ويشكّكون فيها. وعليه؛ فلا يمكن إيراد جميع شبهاتِ الملاحدة في هذا الباب، وإنما يقتصر على أبرز الشُّبهات وأشهرها، مع ردود علماء الغرب عليها.

وقد تمَّ تقسيمُ هذا الباب إلى ثلاثة فصول:

الفصلُ الأوَّل: ردودُ علماءِ الغرب على شُبهات الملاحدة العقلية.

الفصلُ الثّاني: ردودُ علماءِ الغرب على شُبهات الملاحدة العلمية.

الفصلُ الثّالث: ردودُ علماءِ الغرب على شُبهات الملاحدة العاطفية.

وهذا التقسيمُ تقريبي، وإلّا فبعضُ الشبهات العقلية تتناول جانبًا علميًّا أيضًا، وبعضُ الشبهات العقلية تتناول جانبًا عاطفيًّا أيضًا.

الفصلُ الأوَّل

ردودُ علماءِ الغرب على شُبهات الملاحدة العقلية

وفيه تمهيدٌ، وأحدَ عشَرَ مبحثًا:

المبحثُ الأوَّل: ردودُهم على شبهة الخصائص غير المتوافقة.

المبحثُ الثّاني: ردودُهم على شبهة: من خلق الله؟

المبحثُ الثّالث: ردودُهم على شبهة عدم إمكان رؤية الله.

المبحثُ الرّابع: ردودُهم على شبهة تناقض القدرة المطلقة.

المبحثُ الخامس: ردودُهم على شبهة الوحي غير المتناسق.

المبحثُ السّادس: ردودُهم على شبهة عدم إدراك المراد بالإله.

المبحثُ السّابع: ردودُهم على شبهة إبريق راسل.

المبحثُ الثّامن: ردودُهم على شبهة عدم الإيمان.

المبحثُ التّاسع: ردودُهم على شبهة رهان الملحد.

المبحثُ العاشر: ردودُهم على شبهة ضعف التصميم.

المبحثُ الحادي عشر: نقدُ ردود علماء الغرب على شبهات الملاحدة العقلية.

تمهيد

هذا الفصلُ يتناول شبهاتِ الملاحدة العقلية. وهي شبهاتٌ واعتراضات كثيرة. وقد ردَّ علماءُ الغرب على كثيرٍ من هذه الشبهات بردودٍ طيبّة وقويَّة. وإن كانت بعضُ هذه الردود اختلطتْ مع مواقفهم اللاهوتية والفلسفية. ولذلك، فإنَّ هذه الردود بحاجةٍ إلى تقييم وتصحيح. وهذا ما سيتمُّ تناوله في هذا الفصل - إن شاء الله.

المبحثُ الأوَّل
ردودُهم على شبهةِ الخصائص غير المتوافقة

قدْ تقدَّم في بداية الرسالة: اختلاف الباحثين في تعريف كلمة الإلحاد (Atheism) باللغة الإنجليزية؛ فمنهم مَن عرَّفها بأنّها: «عدم الإيمان بوجود الخالق» مطلقًا، ومنهم من عرَّفها بأنّها: «عدم الإيمان بالإله الذي يؤمن به المؤلهة». والمؤلهة هم الذين يتبنّون المذهب الألوهي (Theism). وهو يقوم «على الإيمان بذات كاملة الصفات، يمتنع عقلًا ألا توجد لأنَّ عدمها يلزم منه محالاتٌ عقلية؛ ولأنَّ المحالات العقلية ممتنعة واقعًا... وإذا أطلق المذهب الألوهي في الأدبيات المعاصرة عندَ الجدل العقدي؛ قُصِد به ضرورةً اليهودية والنصرانية والإسلام، وإن كان هو أوسعَ من ذلك إذ يشمل الأديان الصريحة في مذهبها التعدُّدي»[1]. فالمؤلهة يعتقدون أنَّ الخالق متَّصف بصفات الكمال - وإن كانوا يختلفون فيما بينهم في الصفات التي يثبتونها كما سيأتي ذكرُه -. والملاحدة يثيرون شبهات عديدة عنِ الصفات الإلهية، ويسمُّون هذه الشبهات بـ: «حجة الخصائص غير المتوافقة» (Incompatible - properties argument) أو بـ«حجج الاستحالة» (Impossibility arguments)[2]. ويهدفون لإثارةِ هذه الشبهات أنَّ اتِّصاف الخالق بصفة معينة أو صفات عديدة مستحيل عقلًا. وشبهاتُهم في هذا الباب متعدِّدة، وسيأتي خلالَ هذا الفصل - والفصل القادم - أمثلةٌ على هذه الشبهات التفصيلية. أمّا هذا المبحث فإنه يتناول أصلَ شبهة: الخصائص غير المتوافقة. وسأقسّمه إلى أربع فقرات:

---

(١) براهين وجود الله (٥٩).

(٢) انظر:

Impossibility Arguments, by Patrick Grim, in The Cambridge Companion to Atheism (199)

الفقرةُ الأولى: موقفُ اليهود والنصارى من الصفات الإلهية.

الفقرةُ الثّانية: تقريرُ شبهة: الخصائص غير المتوافقة.

الفقرةُ الثّالثة: ردودُ علماء الغرب على شبهة: الخصائص غير المتوافقة.

الفقرةُ الرّابعة: تقييمُ ردود علماء الغرب على شبهة: الخصائص غير المتوافقة.

الفقرةُ الأولى: موقفُ اليهود والنصارى من الصفات الإلهية:

مواقفُ اليهود والنصارى في بابِ الصفات مضطربة. فبينما دلَّت كتبهم المقدّسة على اتِّصاف الخالق بصفات النَّقص، فإنَّ أغلب فرقِهم المتأخّرة وأعلامِهم الكبار معطّلة في باب الصفات. وبيانُ ذلك بما يلي:

اليهودُ والنصارى يقدِّسون الأسفارَ المنسوبة إلى موسى (ﷺ)، و«وتتحدّث الأسفار التوراتيةُ في أماكن متفرِّقة عن الله العظيم بما يليقُ لجلاله وعظمته، ومن ذلك قولها: (اسمعْ يا إسرائيل: الربُّ إلهنا واحد، تحبُّ الربَّ إلهك من كل قلبك) (التثنية ٦ / ٤ - ٥)... واللهُ - عزَّ وجلَّ - ليس كمثله شيء، وفي ذلك يقول موسى [كما نسبوه إليه]: (ليس مثل الله) (التثنية (٣٤ / ٣٦)... لكن التوراة[١] في مواضع لا تعدُّ - لكثرتها - تتحدّث عنِ الله، فتجعله كائنًا بشريًّا، وتصفُه بصفات البشر، وتصفه بنقصهم، بل وأخطائهم وضلالهم، تعالى اللهُ عن ذلك علوًّا كبيرًا... وفي أكبر كنائس الكاثوليك في روما كنيسة (سانت بيتر)، رسمَ الرسام مايكل أنجلو صورةً لله تشبه البشر.

وتتحدَّث النصوص عنْ صور التشابه كما رسمها كتبةُ العهد القديم، ومن ذلك ما جاءَ في رؤية دانيال أنَّ له رأسًا، وشعره أبيض (وجلس القديم الأيام، لباسه أبيض كالثلج، شعرُ رأسه كالصوف النقي، وعرشه لهيب نار) (دانيال ٧ / ٩)...»[٢].

---

(١) يعني الأسفار التوراتية المنسوبة إلى موسى التي يتداولها اليهود، لا التوراة التي أنزلها الله.

(٢) هل العهد القديم كلمة الله؟ (٨٩ - ٩١)، للدكتور منقذ محمود السقار، (دار الإسلام للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٢٨ هـ).

فالخلاصة أنَّ الكتاب المقدَّس لدى اليهود والنصارى يصف الخالق بصفات النقص، وكأنَّه إنسان فائق القدرة.

وهذا هو حالُ الحاخامات الذين كتبوا التلمود أيضًا؛ ففي «صفات الله - عزَّ وجلَّ - والإخبار عنه يثبتُ الحاخامات في حقِّه كثيرًا من الصفات المتناقضة، فيها تشبيهُه بالمخلوقات، فيصفونه بما لا يليقُ بمقام الربوبية والألوهية، فهو عندهم إله يأكل، ويشرب، ويستريح، ويبكي، ويحسُّ بالندم على ما فعل، وينسى، ويتذكّر، ويتدارس التلمودَ مع الحاخامات، ويدلي برأيه في مناقشة قضايا شرعية معهم، ويفرح إذا غلبوا عليه، وهو أبٌ للشعب الإسرائيلي يغضبُ لغضبهم، وعقدَ معهم العهد على أنهم شعبه المختار، يسيرُ أمامهم كما يسير الأبُ مع أولاده، ويزور مرضاهم، ويحزن على ما قضاه مِن نوائب الدَّهر والشدائد على هذا الشعب، وغير ذلك مما يتعالى اللهُ عنه سبحانه ويتقدَّس»[1].

وإنْ كان هذا الكلام الذي يتقزَّز منه الإنسان موجودًا في كتب اليهود المقدّسة، إلا أنَّ كثيرًا من اليهود تأثَّروا بالفلسفة اليونانية، وتبنوا مذهب التعطيل في الصفات. وكان الفيلسوف اليهودي فيلو في القرن الأوَّل الميلادي أوّلَ يهودي حاول صياغة العقائد اليهودية بطريقةٍ منظَّمة، وكان يئوِّل نصوص التوراة[2].

والفيلسوفُ فيلو عاشَ قبل تدوين التلمود، والحاخامات الذين دوّنوه لم يأخذوا بآرائه في التعطيل والتأويل، بل كتبوا هذه القبائح التي سبق ذكرها.

ولكنْ عندما عاشَ اليهود بين المسلمين تأثّر عددٌ منهم بآراء المتكلّمين والفلاسفة المنْتسبين إلى الإسلام. وأبرزُ هؤلاء: موسى بن ميمون[3]. حيث نفى كثيرًا من الصفات الإلهية في كتابه: دلالة الحائرين[4] الذي صنّفه باللغة العربية.

---

(١) التلمود وموقفه من الإلهيات - عرض ونقد - (٢ / ٨٦٢ - ٨٦٣)، لأبي بكر محمد ثاني، (الجامعة الإسلامية، ١٤٣٣ هـ).

(٢) انظر المصدر السابق (٢ / ٨٤٦ - ٨٤٧).

(٣) انظر: المصدر السابق (٢ / ٨٥١ - ٨٥٤).

(٤) والمواضع في كتابه الذي عطّل فيها الصفات كثيرة جدًّا، انظر على سبيل المثال: دلالة الحائرين (١١٦ - ١٢٥)، و(١٣٦ - ١٤٤)، لموسى بن ميمون، (مكتبة الثقافة الدينية، الطبعة الثانية، ١٤٢٩ هـ).

وقد وضعَ الأصول الثلاثة عشَر عندَ اليهود وجعلها أركان الإيمان عندهم. والأصل الثالث من هذه الأصول قوله: «أنا أؤمن إيمانًا كاملًا بأنَّ الخالق تبارك اسمه، ليس جسمًا، ولا تحدُّه حدودُ الجسم، ولا شبيه له على الإطلاق»[(١)]. ولا يخفى مما في هذه الجملةِ من التأثُّر بتقريرات المتكلّمين المعطّلة. وقد أصبحت هذه الأصول الثلاثة عشر عمدةً عند اليهود الأرثوذكس بعدَ موسى بن ميمون إلى هذا العصر[(٢)]. مما يدلُّ على أنَّ عقيدةَ التعطيل أصبحت سائدة عندهم.

وأمَّا النصارى، فإنَّ الأسفار التوراتية من ضمن ما يسمّونه بالعهد القديم في كتابهم المقدَّس. فالنصوصُ التي سبق ذكرها في أوَّل الفقرة مقدَّسة لديهم أيضًا، وتقدّم أنّ منهم مَن يرسم الإله بصورٍ تشبه الإنسان في كنائسهم. ولكن في الوقت نفسه قد تبنّى اللاهوتيون الكبارُ عندهم عقيدة التعطيل.

قد تأثَّر آباءُ الكنيسة في القرون الأولى بعد ظهور النصرانية بالفلسفات اليونانية بواسطة الفيلسوف فيلو اليهودي. وبرزَ عندهم اللاهوت السلبي (Apophatic theology)[(٣)]، أي: أن الأصلَ أنهم يصفون الإلهَ بصفات سلبية. ومِن ضمن هؤلاء اللاهوتيين المعطّلة: القديس أغسطين وتوما الأكويني، حيث كانَا يئوِّلان النصوصَ الواردة في كتابهم المقدّس التي سبق ذكرها[(٤)].

---

(١) انظر: المصدر السابق (٢ / ٨٥٢).

(٢) انظر:

The Limits of Orthodox Theology: Maimonides' Thirteen Principles Reappraised (1-14), by: Marc B. Shapiro, (Littman Library of Jewish Civilization (2011)

(٣) انظر:

Hidden God and Hidden Self, by: Bernard McGinn, in Histories of the Hidden God: Concealment and Revelation in Western Gnostic, Esoteric, and Mystical Traditions (87-88), ed. April DeConick and Grant Adamson, (Routledge, 2014)

(٤) ()انظر: المصدر السابق (٩١)، (٩٣ – ٩٤).

واعتبرتِ الكنيسةُ الكاثوليكية أنَّ توما الأكويني أهمُّ لاهوتي على الإطلاق، ويأتي أغسطين في المرتبة الثانية[١].

وكان توما الأكويني من أشدِّ غلاة اللاهوت السلبي حيث تبنى عقيدةً تسمى بالتَّبسيط الإلهي (Divine Simplicity)، ووفقًا لهذه العقيدة فالإله كائن بسيط لا يتّصف بأيِّ صفاتٍ ثبوتية، وإنما يتَّصف بصفات سلبية. ولا يمكن أن نتحدّث عن الإله بصفاتٍ ثبوتية إلّا عن طريق القياس[٢].

وأنكرَ بعضُ اللاهوتيين النصارى المعاصرين عقيدةَ التبسيط الإلهي، وذكروا أنّ الإله يوصَف بأنه كائنٌ شخصي ومتَّصف بصفات ثبوتية. وإن كان بعضُ هذه الصفات يوصَف بها الإنسان، فإنّها أكمل وأعظم في الإله[٣].

ويرى البروفسور وليام لاين كرايغ والبروفسور جي بي مورلاند - وهمَا من أشهر الفلاسفة واللاهوتيين النصارى المعاصرين كما سبَق - أنَّه ينبغي الرجوع إلى كتابهم المقدَّس في تفسير الصفات الإلهية الواردة فيه وفق لاهوت الكائن الأكمل (Perfect being theology)، بمعنى أنَّ الإله أعظم وأكمل كائن يمكن تصوّره. فيثبتون بعض الصفاتِ الإلهية في ظلِّ هذا اللاهوت[٤].

وذكرَ البروفسور كرايغ والبروفسور مورلاند جملة من الصفات التي يثبتها النصارى - ويثير الملاحدةُ عنها شبهات -، ومِن ضمنها: الأزلية (Eternity)، والعلم المحيط (Omniscience)، والقدرة المطلقة (Omnipotence)، والخيرية (Goodness)[٥]. ولكنهما يقولان في الوقت ذاته: إنَّ الربَّ روحاني (Spirit)، وهو

---

(١) انظر: Atheism: A Short Introduction (48)

(٢) انظر: Philosophical Foundations for a Christian Worldview (524 - 526), by: William Lane Craig and J. P. Moreland, (IVP Academic, 2003)

(٣) انظر: Atheism: A Short Introduction (57)

(٤) انظر: المصدر السابق (٥٠١).

(٥) انظر: المصدر السابق (٥١١ – ٥٣٢).

غير جسدي (Incorporeality) وغير مادي (Immaterial)[1]، ويقصدان بذلك إنكارَ الصفات الذاتية الخبرية مثل: الوجه، واليدين وغيرها من الصفات المذكورة في كتابهم المقدّس.

ولهذا كان النصارى معطلة في باب الصفات، ولكنهم متفاوتون في مدى تعطيلهم. فكيف الجمعُ بين عقيدة التعطيل وبين رسوماتهم للإله؟

بدأتْ رسوماتُ إلههم تظهر في القرن الرابع بعد الميلاد، وأنكر كثير من اللاهوتيين النَّصارى هذه الرسومات لكونهم تبنَّوا عقيدةَ التعطيل. ولكن تسامح الآخرون في وجودِها محتجِّين بأنَّ الإله أظهر نفسَه بهذه الصور في الرؤى المنامية[2]. ومن الأمثلة على ذلك ما سبقَ في رؤيا دانيال في العهد القديم.

والخلاصةُ أنَّ اليهود والنصارى متناقضون في باب الصفات. فبينما دلَّت كتبهم المقدَّسة على اتِّصاف الإله بصفات النقص، ورسم النصارى إلههم في كنائسهم، إلا أنَّ كبارَ اللاهوتيين والفرقَ المتأخِّرة لديهم ينحون منحَى التعطيل والتأويل. ومع ذلك فإنَّ جملةً من النَّصارى يثبتون بعضَ الصفات الإلهية، وهذه الصفات أثار الملاحدة عنها شبهات. وبيانُها في الفقرة الآتية.

الفقرةُ الثّانية: تقريرُ شبهة: الخصائص غير المتوافقة:

قد ألَّف البروفسور جافين هايمان كتابَه: «التاريخ المختصر للإلحاد» (A Short History of Atheism)، وخصّص فيه بابًا بعنوان: «الإله الذي يرفضه الإلحاد المعاصر» (The God that Modern Atheism Rejects). وتحدّث فيه عن سيادة اللاهوت السلبي لدى النَّصارى في العصور الوسطى، وأنَّ الفلسفة الحديثة على يدِ ديكارت غيَّرت

---

(١) انظر: المصدر السابق (٥٠٧).

(٢) انظر:
The invisible Christian God in Christian art, by: Robin M. Jensen, in Histories of the Hidden God (218-231)

مفاهيمَ الغربيِّين في نظرية المعرفة. ثمَّ أصبحت فلسفة إيمانويل كانت وديفيد هيوم من أسباب رفضِ إثبات الصفات الإلهية عنْ طريق القياس. فانتقاداتُ فلاسفة القرن السابع عشر إلى القرن التاسع عشر كانت مِن أسباب ضعف اللاهوت السلبي إلى حدٍّ كبير.

وذكرَ البروفسور هايمان أنه عندما غيَّر اللاهوتيون المعاصرون موقفهم من الصفات الإلهية، ووصفوا الإله بأنه كائنٌ شخصي ومتَّصف ببعض الصفات الثبوتية؛ كان ذلك مِن أسباب انتقادِ الملاحدة المعاصرين[١]. فبينما ركَّز فلاسفة عصر التنوير على انتقاد اللاهوتِ السلبي، ركَّز الملاحدةُ المعاصرون على انتقاد اللاهوت الثاني لدى النصارى.

وقد اهتمَّ فلاسفةُ النصف الثاني من القرن العشرين بصورةٍ بالغة بدراسةِ الصفات الإلهية[٢]. وبعضُ هؤلاء الفلاسفة متديّنون، وكتبوا عن الصفاتِ من باب التقرير والدفاع عنِ الإيمان بها. ومنهم ملاحدةٌ كتبوا عن الصفات على طريقة الانتقاد والردّ.

ونتجتْ من دراسات الملاحدة للصفات الإلهية شبهةٌ: الخصائص غير المتوافقة. وقرَّر بعضُ الملاحدة هذه الشبهة في مؤلَّفاتهم كحجّة للإلحاد الإيجابي.

ومِن الأمثلة على ذلك أنه عندما ألَّف البروفسور مايكل مارتن كتابه المشهور: «الإلحاد: تبرير فلسفي» (Atheism: A Philosophical Justification) خصّص بابًا بعنوان: «الصفات الإلهية وعدم التماسك» (Divine Attributes and Incoherence)[٣].

وألَّف البروفسور كيري والتيرس[٤] كتابه: «الإلحاد: دليل للمتحيّرين» (Atheism: A Guide for the Perplexed)، وخصّص بابًا بعنوان: «لماذا لا يمكن أن يوجد الإله»

---

(١) انظر:

A Short History of Atheism (47-55), by: Gavin Hyman, (I. B. Tauris, 2010)

(٢) انظر:

“The Possibility of God”, by: Charles Taliaferro, in: “Rationality of Theism” (248)

(٣) انظر: Atheism: A Philosophical Justification (287 - 316)

(٤) كيري والتيرس (Kerry Walters): بروفسور الفلسفة في كلية غيتيسبروغ بالولايات المتّحدة. انظر: https: / /www.bloomsbury.com /author /kerry – walters

(Why God can't Exist)، وقسّم هذا البابَ إلى عناوين فرعية، من ضمنها: عنوان: «الاستحالة الإلهية» (Divine Impossibility)[1].

وأصدرتْ جامعة كامبردج المشهورة كتابًا عام: ٢٠٠٧م بعنوان: «دليل كامبردج للإلحاد» (The Cambridge Companion to Atheism)، وهو مشتملٌ على أبحاث مؤيدة للإلحاد، ورافضةٍ له. ومِن ضمن الأبحاث المؤيّدة للإلحاد بحث بعنوان: «حجج الاستحالة» (Arguments from Impossibility)، والبحث مخصّص لهذه الشبهة[2].

وخلاصةُ شُبهات الملاحدة في هذا الباب تنقسمُ إلى قسمين:

القسمُ الأوّل: الشبهةُ العامّة: أنَّ المذهب الألوهي غير متماسك (Incoherent) عقليًا. وذلك أنّهم يزعمون أنه لا يمكنُ أن يوجَد كائن متّصف بالصفات التي يؤمن بها المؤلهة. وذكرَ البروفسور كيري والتيرس أنَّ كثيرًا من الملاحدة يثيرون هذه الشبهات بناءً على ثلاث خطوات:

الخطوةُ الأولى: البحثُ عن اثنتين من الصِّفات الإلهية التي يقال إن الإيمان بهما ضروري.

الخطوةُ الثّانية: بيانُ أنَّه لو اتَّصف الإله بإحدى الصفتين فإنَّه يتناقض مع اتّصافه بالصفة الأخرى.

الخطوةُ الثّالثة: بيانُ أن اتِّصاف الإله بهذه الصِّفات إذن يعدُّ مستحيلًا[3].

ومعَ ذلك، فإنَّ بعضَ الملاحدة يثيرون هذه الشبهة عن صفة معيّنة فقط، بدون مقارنةِ تلك الصفة بصفة أخرى.

---

(١) انظر: Atheism: A Guide for the Perplexed (79 - 81)

(٢) انظر: Impossibility Arguments, by Patrick Grim, in The Cambridge Companion to Atheism (199 - 214)

(٣) انظر: Atheism: A Guide for the Perplexed (79)

القسمُ الثّاني: الشبهاتُ التَّفصيلية: يذكر الملاحدةُ أمثلة على الصفات التي يؤمن بها المؤلهة، وينشرونَ عنها شبهاتٍ فلسفية. والأمثلةُ على ذلك كثيرة، ولكن أشهر هذه الشبهات ثلاث:

الشبهةُ الأولى: الإيمانُ بأزليَّة الإله مع أنَّه خالق كلِّ شيء: وينتج من هذه الشُّبهة سؤال: «إذا كان اللهُ خلق كلَّ شيء، فمَن خلق الله؟». وخصّصت المبحثَ الثاني من هذا الفصل للرَّد على هذه الشبهة.

الشُّبهةُ الثّانية: تناقضُ القدرة المطلقة: وخلاصةُ الشبهة أنّه لا يمكن أن يكون الإلهُ قادرًا على كلِّ شيء؛ لأنَّ الإيمان بذلك يؤدّي إلى تناقضات. ومن ذلك سؤالهم المشْهور: هل يستطيع الإلهُ خلقَ حجر وهو غيرُ قادرٍ على حمله؟». وخصَّصت المبحث الثّالث من هذا الفصل للردِّ على هذه الشبهة.

الشُّبهةُ الثّالثة: مشكلةُ الشَّر: ومَفادُ هذه الشبهة أنَّ الإيمان بإله ذي علم مطلق، وقدرة مطلقة، وكامل الخيرية يتناقضُ معَ وجود الشَّر في هذا العالم. وخصّصت الفصلَ الثّالث للردِّ على هذه الشبهة، وما تتفرَّع عنها من شبهات أخرى.

وحيث إنَّني خصَّصت مباحثَ للشبهات التفصيلية، فسوف أقتصرُ في هذا المبحث على الردِّ على الشبهة العامة المتعلّقة بالصفات الإلهية.

الفقرةُ الثّالثة: ردودُ علماءِ الغرب على شبهة: الخصائص غير المتوافقة:

ذكرَ البروفسور وليام لاين كرايغ أنّه تخصَّص في موضوع تماسك المذهب الألوهي، والردِّ على شبهات الملاحدة فيه منذُ حوالي أربعين سنة. وخلال تخصُّصه في هذا المجال شهدَ تغيّرًا كبيرًا في الساحة الدينية والفلسفية؛ ففي السبعينيات من القرن الماضي ركّز الملاحدةُ كثيرًا على قضية عدم تماسك المذهب الألوهي، ولكنّ هذه الإستراتيجية انقلبتْ عليهم بعدَ ذلك، حيث ألَّف اللاهوتيون والفلاسفة النصارى مؤلَّفاتٍ وأبحاثًا كثيرة في الردِّ على هذه الشبهات، ورجحت الكفَّة إلى صالح النصارى[1].

---

(١) انظر المقال: The Coherence of Theism على الرابط:

https://www.biola.edu/blogs/good-book-blog/2014/the-coherence-of-theism

ومِن أبرز المؤلَّفات التي غيَّرت الساحة الدينية والفلسفية في هذا المجال كتاب: «تماسك المذهب الألوهي» (The Coherence of Theism) للبروفسور ريتشارد سوينبورن، الذي صدرَ أوّل مرّة عام ١٩٧٧م، وحيث إنَّ هذا الكتاب عمدة في هذا الباب، سأذكرُ الوجهين الأوّلين في الردِّ على هذه الشبهة من هذا الكتاب، ثمّ أتبعهما بذكر ثلاثةِ أوجه أخرى. وبيانُه كالآتي:

الوجهُ الأوَّل: بيانُ حقيقة الإمكانيَّة المنطقية: الملاحدةُ يزعمون أنَّ المذهب الألوهي متناقضٌ وغيرُ متماسك منطقيًّا. وفي الحقيقة فإنهم لم يضبطوا المرادَ بالتناقض المنطقي. وقد خصَّص البروفسور سوينبورن بابًا كاملًا من كتابه لبيان الفرق بين الإمكان المنطقي والاستحالة المنطقية، مع الردِّ على تخبُّطات الملاحدة في هذا الباب.

بدأ البروفسور سوينبورن هذا البابَ ببيان الفروق بين ثلاثة أنواع من الجمل:

الجُملةُ المستحيلة منطقيًّا (A logically impossible sentence): هي جملة خاطئة بسببِ اعتبارات مُسْبقة بحتة. فالجُملة تتضمَّن تناقضًا بمجرّد النظر فيها. مثلًا: «زيد موجود وغيرُ موجود في آنٍ واحد» تعتبر جُملة مستحيلة منطقيًّا، فلا يمكن أن يكون الشخصُ موجودًا وغيرَ موجود في آنٍ واحد. وبمجرَّد النظر إلى الجملة يستطيع الإنسانُ اكتشافَ هذا التناقض المنطقي.

الجُملةُ الممكنة منطقيًّا (A logically possible sentence): وهي جملة غير مستحيلةٍ وليس فيها أيُّ تناقض. مثلًا: «زيد كبير السنِّ وكريم» جملة ممكنة منطقيًّا. فلا تناقض بينَ كونه كبيرَ السنِّ وبينَ كونه كريمًا.

الجُملة الضرورية منطقيًّا (A logically necessary sentence): وهي الجملة التي لا بدَّ أنْ تكون صحيحة بسبب اعتبارات مُسْبقة بحتة. مثلًا: «جميع العزَّاب غير متزوّجين» جملةٌ ضرورية منطقيًّا. فتعريفُ الأعزب هو أنه غيرُ المتزوّج، فلا يمكن أن تكون هذه الجملة إلّا صحيحة[1].

---

(١) انظر: The Coherence of Theism (11), (24), by: Richard Swinburne, (Oxford University Press, Second Edition, 2016)، مع ملاحظة أن التعريفات من البروفسور سوينبورن، وأمّا الأمثلة الموضّحة فمن الباحث.

ثمَّ ذكرَ البروفسور سوينبورن أنَّ الفلسفة المعاصرة أدخلت نوعين من الأخطاء في هذه المسألة:

الخطأ الأوَّل: أنَّ الفيلسوف ديفيد هيوم تبنى المذهب التجريبي، وزعم أنّ جميع أفكارنا العامة مبنية على أفكار بسيطة، وهذه الأفكار البسيطة مشتقة من الانطباعات الحسية. ومن الأمثلة على ذلك أنك لو قلت: «يوجد جبل من ذهب». فلديك فكرة بسيطة مبنية على انطباعات حسية عن ماهية الجبل، ولديك فكرة بسيطة أخرى مبنية على انطباعات حسيَّة عن ماهيةِ الذهب. فتتكوَّن عندك فكرة عامَّة عن وجود الجبل من الذَّهب. وزعم هيوم أنَّ الجملةَ تكون ممكنة منطقيًّا إذا كانت مشتملة على هذه الأفكار البسيطة المبنيَّة على الانطباعات الحسية. وإذا لم تكنْ مبنيَّة على ذلك فإنَّ الجملة تكون غيرَ ممكنة منطقيًّا[1].

وقد ردَّ البروفسور سوينبورن على هذا المذهب بأنَّ الانطباعات الحسية عند ديفيد هيوم كانت مُقتصرة على ما أدركَه الإنسان الأوروبي في القرن الثامن عشر. ومن لوازم مذهبِه أنَّ كلَّ شيء لم يدركه الإنسانُ الأوروبي في ذلك القرن لا يعدُّ من الممكنات المنطقية. ولا شكَّ أنَّ هذا الادّعاء غير صحيح[2].

ومِن الأمثلة على ذلك أنَّ جميع الاختراعات الموجودة في القرن العشرين والواحد والعشرين مثل: السيارات، والطائرات، والصواريخ، والإنترنت، إلخ؛ ليست من الممكنات المنطقية عندَ هيوم. ولكنَّ الحقيقة أنَّ جميعَ هذه الأمور ممكنة، بل واقعية. فهذا الادِّعاء في غاية البطلان.

الخطأ الثاني: «مبدأ التحقّق» (Verification principle). انتشر هذا المبدأ في وسط القرنِ العشرين الميلادي، ومَفاده: أنَّ الجملة تكون ذات مغزى واقعية أو ممكنة منطقيًّا إذا أمكنَ التحقّق منها.

---

(١) انظر: المصدر السابق (٣٧ - ٣٨).

(٢) انظر: المصدر السابق (٣٩).

وردَّ البروفسور سوينبورن أنَّ هذا المبدأ غيرُ صحيح؛ لأنّه توجد جُمل لا تعدُّ ولا تحصى تكون ممكنة منطقيًّا، مع أنه لا يمكن التحقُّق منها. ومن الأمثلة على ذلك: جملة «جميعُ الغربان سوداء». فهذه الجملة ممكنة منطقيًّا، ولكن لا يمكن التحقّق منها لأنّه مهْما شاهدت من الغربان السود، فإنَّ وجودَ غراب غير أسود ممكن منطقيًّا[1]. وسيأتي الردُّ التفصيلي لهذا المبدأ في مبحث: عدم إدراك المراد بالإله في هذا الفصل إن شاء الله.

وخلاصةُ هذا الوجه أنَّ الملاحدة تلاعبوا بألفاظ مثل: الممكن أو المستحيل منطقيًّا. وهذا ظاهرٌ في حديثهم عن شبهة: الخصائص غير المتوافقة. ومن الأمثلة على ذلك شبهة: مشكلة الشَّر بصياغتها المنطقية؛ حيث ادَّعوا أنه يوجد تناقضٌ منطقي بين العبارتين:

العبارة الأولى: الإلهُ عليم، وقدير ورحيم.

العبارة الثانية: يوجد شرٌّ في العالم.

والحقيقة أنه لا يوجَد أدنى تناقض بين الجملتين. فقد يكون الخالقُ يخلق العالم الذي فيه شرورٌ لحِكم كثيرة. وسيأتي الردُّ بالتفصيل على هذه الشبهة في مبحث: مشكلة الشَّر في الفصل القادم - إن شاء الله -. ولكنَّ المقصود أنَّ الملاحدة قد يدّعون أنّه يستحيلُ أن يتَّصف الله بصفات، ولكنّهم تلاعبوا في المصطلحات.

الوجهُ الثّاني: بيانُ حقيقة الإمكانية الميتافيزيقية: ذكر البروفسور سوينبورن أنَّ الجملة قد تكون ممكنةً منطقيًّا حيث لا يوجد فيها أي تناقض، ولكنّها صحيحة ضرورة أو باطلة ضرورة من النّاحية الميتافيزيقية. وبينما يمكن اكتشافُ الاستحالة المنطقية أو الضَّرورة المنطقية من الجملة نفسها، فإنَّ الحكم بأنَّ هذه الجمل صحيحة ضرورة أو باطلة ضرورة من الناحية الميتافيزيقية ترجعُ إلى عوامل خارجة عن الجملة. وهذه العوامل يمكن التوصُّلُ إليها عن طريق اكتشاف العالم بأدوات علمية أو تاريخية[2].

---

(١) انظر: المصدر السابق (٤٠).

(٢) انظر: المصدر السابق (٤٧).

وضربَ مثالًا على ذلك بأنّ الماء مكوّن من التركيبة الكيميائية H٢٠، وهذه ضرورة ميتافيزيقية، ولو خرج السائلُ عن هذه التركيبة الكيميائية فإنه لا يسمّى ماءً. ولكن البَشر قبلَ القرن التاسع عشر لم يستطيعوا التحقّق من هذه التركيبة الكيميائية. فشرطُ الحكم على الإمكانية أو الاستحالة الميتافيزيقية هو أن يكون لدى الإنسان أدوات للتحقُّق منها[١].

وخلاصةُ هذين الوجهين أنَّ الملحد الذي يدَّعي أنّ الإيمان بالصفات الإلهية مستحيلٌ بين أمرين:

إمَّا أنه يدَّعي أنَّ الإيمان بهذه الصفة أو هذه الصفات مستحيل منطقيًّا، فعليه أن يبيِّن التناقض المنطقي في هذا الإيمان.

وإمّا أنّه يدَّعي أنَّ الإيمان بهذه الصفة أو هذه الصفات مستحيل ميتافيزيقيًّا، فعليه أن يبيِّن أدوات التحقّق من ذلك. ولكن لا يمكن التحقّق عن ذلك بالأدوات العلمية المعروفة في اكتشاف العالم المادي. وهذا يقودُ إلى الوجه الثالث.

الوجهُ الثّالث: ذكرَ البروفسور تشارلز تليافيرو[٢] أنَّ التصوّرات المسبقة مؤثِّرة إلى حدٍّ كبير في الجدل عنْ تماسك المذهب الألوهي. وإن كان لا يشترط أن يكون الإنسانُ يتبنَّى المذهبَ الألوهي لكي يفهم أنّه متماسك، إلا أنَّ الذي يتبنّى المذهبَ المادي ويعتقدُ أنَّه لا توجَد حقيقة سوى الكون الفيزيائي؛ فإنَّ هذا المذهب سيؤثّر في موقفه مِن قضية الصفات الإلهية[٣].

وهذا الوجهُ صحيح، ويلمس أصلَ مشكلة الملاحدة في تعاملهم مع الصفات الإلهية. وهو أنَّهم يتكلَّمون عن هذه الصفات كأنهم يتكلّمون عن صفات أحد

---

(١) انظر: المصدر السابق (٤٩).

(٢) تشارلز تليافيرو (Charles Taliaferro): بروفسور الفلسفة في كليةساينت أولاف بالولايات المتّحدة. انظر: The Rationality of God (xi)

(٣) انظر:
"The Possibility of God", by: Charles Taliaferro, in: "Rationality of Theism" (252)

المخلوقين. وبناءً على هذا المبدأ يقولون: إنَّ اتِّصاف الخالق بهذه الصفة المعيّنة أو هذه الصِّفات في آنٍ واحد مستحيل. فأدواتُ التحقّق من إمكانية اتّصاف الخالق بالصفات أو استحالته؛ هي أدواتٌ مادية بحتة. وهذا المبدأ باطل بسبب أمرين رئيسين:

الأمرُ الأوَّل: أنَّ الله تعالى ليس مثلَ البشر؛ قال اللهُ تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، «أي: ليس يشبهُه تعالى ولا يماثله شيء من مخلوقاته، لا في ذاته، ولا في أسمائه، ولا في صفاته، ولا في أفعاله؛ لأنَّ أسماءه كلها حسنى، وصفاته صفات كمال وعظمة، وأفعاله تعالى أوجَد بها المخلوقات العظيمة مِن غير مشارك، فليس كمثله شيء، لانفراده وتوحُّده بالكمال من كلِّ وجه»[١].

الأمرُ الثّاني: أنَّ الصفات الإلهية توقيفية، والعلم بحقيقة الصفات يرجع إلى الكتاب والسُّنة، ولا يرجع إلى تخيُّلات الملاحدة فيما يمكن أو يستحيل أن يتّصف الله به؛ قال شيخُ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله): «صفات الله - عزَّ وجلَّ - توقيفية؛ فلا يُثبت إلا ما أثبتَه اللهُ لنفسه، أو أثبته له رسولُه ﷺ ولا يُنفَى عن الله - عزَّ وجلَّ - إلّا ما نفاه عن نفسه، أو نفاه عنه رسوله ﷺ»[٢].

فكلُّ إنسان يستعمل عقلَه بالطريقة الصحيحة فسوف يرى أنَّ الصفات الإلهية الثابتة في الكتاب والسنة، لا تتعارضُ مع صريح العقل. ولكن الإشكال يظهر من إحدى جهتين:

الجهةُ الأولى: أنْ تكون الصفةُ نفسها غيرَ ثابتة لله. وقد تقدّم أنّ الكتاب المقدّس لدى اليهود والنصارى نسبَ إلى الله صفاتِ عيبٍ ونقص، وإثباتُ هذه الصفات يتنافى مع العقل قطعًا.

الجهةُ الثّانية: أنْ تكون الصفةُ ثابتة لله، ولكنَّ الملحد يدَّعي أنَّ إثباتها يتعارض مع العقل. فالمشكلةُ في عقل الملحد وفي منهجيَّته في التعامل مع الصفات الإلهية، وليست في كوْن الخالق متَّصفًا بهذه الصفة.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧٥٤).

(٢) مجموع الفتاوى (٥ / ٢٦).

الوجهُ الرّابع: الخالقُ متَّصف بالكمال المطلق: ذكر البروفسور تشارلز تليافيرو هذا الوجهَ أيضًا في ردِّه على شبهة: الخصائص غير المتوافقة. ومقصدُه أنَّ الألوهي يعتقد أنَّ الخالق يتَّصف بالكمال المطلق في صفاته. وأمّا المعترض فيقيس الصفات الإلهية بصفاتِ البشر المتَّصف بالنقص. وضربَ مثالًا على ذلك بصفة العلم المحيط. فالألوهي يعتقد أنَّ علمَ الله كامل، ولا يمكن قياسُه بعلم المخلوق. بينما المعترض يذكر أنواعًا من العلوم لدى الإنسان، ثمَّ يقول: إن اتِّصاف الخالق بهذا النوع من العلم سوف يؤدّي إلى التَّناقض. ولا شكَّ أنَّ أساس هذا الاعتراض خطأ[1].

فالملحدُ يحاول إلزامَ الألوهي بما لا يلزمه أصلًا. فلو كان الخالق متّصفًا بصفات المخلوقين - وتعالى اللهُ عن ذلك - لأمكنَ الملحد أن يُلزمه بلوازم كلامه، ولكنّ الألوهي يقول: إنَّ المخلوق متَّصف بالنقص بينما الخالق متّصف بالكمال. فالملحد يرتكب مغالطةَ رجلِ القش في إلزاماته في باب الصفات.

والحقُّ في هذه المسألة أنه لا يجوز استخدامُ قياس التمثيل ولا قياس الشمول في حقِّ الله، وإنما يستخدَم قياس الأولى؛ قال شيخ الإسلام (رحمه الله): «والله سبحانه لا تضربُ له الأمثال التي فيها مماثلةٌ لخلقه، فإنَّ الله لا مثيل له، بل له المثل الأعلى، فلا يجوزُ أن يُشرَك هو والمخلوقاتُ في قياسِ تمثيل، ولا في قياسِ شمول تستوي أفراده؛ ولكن يستعمل في حقِّه المثلُ الأعلى، وهو أنَّ كلَّ ما اتصف به المخلوق من كمال فالخالق أوْلى به، وكلّ ما ينزّه عنه المخلوق من نقص فالخالقُ أولى بالتنزيه عنه، فإذا كان المخلوق منزَّهًا عن مماثلة المخلوق معَ الموافقة في الاسم؛ فالخالقُ أولى أن ينزه عن مماثلة المخلوق»[2].

---

(١) انظر:
"The Possibility of God", by: Charles Taliaferro, in: "Rationality of Theism" (248-249)

(٢) مجموع الفتاوى (٣/ ٣٠).

فاللهُ متَّصف بصفات الكمال، ويمكن أن يستخدم في حقِّه قياس الأولى بناءً على المفاهيم المنضبطة الصحيحة. وأمّا الملحد، فإنَّه يخوض في هذا الباب بالأقيسة من قبيل قياسِ الشمول وقياس التمثيل فظنُّوا أنَّ اتِّصاف الخالق ببعض الصفات فيه تناقض.

الوجهُ الخامس: قلبُ المسألة على الملاحدة: الملاحدةُ يزعمون أنّ المذهب الألوهي غيرُ متماسك، واتِّصاف الخالق ببعض الصفات متناقض. وقد تبيّن أنّ هذا القولَ باطل، ولكنَّ بعضَ علماء الغرب قلبوا المسألةَ على الملاحدة، وبيّنوا أنّ المذهب المادي الإلحادي نفسه متناقض[1].

ومِن ذلك أنَّ مارك شيا[2] كتب مقالاً بعنوان: «عدم تماسك الإلحاد» (The In-coherence of Atheism)، وذكر عددًا من الأمثلة على تناقضات الملاحدة، مثل:

المثالُ الأوَّل: إصرارُهم على أنَّ الدين ظاهرة طبيعية محضة ونتيجة لأخطاء في الجينيات، معَ بُغضهم الكبير للدين. فلماذا هذا البُغض لظاهرة طبيعية محضة؟[3]

المثالُ الثّاني: أنهم يزعمون أنَّ أفكارنا ليست حرّة، وإنما هي نتائج تحرّكات جزيئاتٍ في الدماغ، ثمَّ يقولون إنَّ التفكير الديني أكبرُ شرٍّ في الوجود. فإذا كان الإنسان مجبَرًا على أفكاره، ولا يستطيع تغييرها؛ فلماذا اتّهامهم بهذه التهم؟[4]

---

(١) خصّصت مبحثًا في الباب الأوّل بعنوان: تناقضات الملاحدة، وفيه بيان لكثير من تناقضاتهم. وذكرت هذا الوجه هنا بدون استطراد، ويمكن مراجعة المبحث المذكور لمزيد من الفائدة.

(٢) مارك شيا (Mark Shea): الكاتب الكاثوليكي الأمريكي وقد ألّف عددًا من الكتب والمقالات، وهو مهتم بنقد الإلحاد. انظر:

https://catholicexchange.com/author/mark-shea

(٣) وفي الفصل القادم مبحث خاص عن شبهات الملاحدة من علم النفس، وفيه بيان لهذه المسألة بتفصيل.

(٤) خصّصت مبحثًا في الفصل الثالث من هذا الباب لشبهة: سلب الإرادة. وفيه تفصيل لهذه المسألة.

المثالُ الثّالث: أنَّهم ينكرون وجودَ الإله ويكرهونه في الوقت نفسه[1].

وكتبَ جوردان كوبر[2] مقالاً أيضًا بعنوان: «عدم تماسك الإلحاد» (The In-coherence of Atheism)، وقال فيه: «الشيء الوحيد الذي طالما وجدته غريبًا بشكل خاص هو إصرارُ ما يسمَّى بـ«الملحدين الجدد» على أنهم بحاجة إلى تحويل أي شخص آخر إلى أيديولوجيتهم... هذا يقودني إلى سؤالٍ معين: «لماذا يهتمُّ الملحدون بالحقيقة؟» يبدو أن الافتراضَ بالنسبة للملحدين هو أنَّ الحقيقة أفضل بالضرورة من الباطل. ومع ذلك، في نظامٍ غير مؤمن، لا توجَد قيمة متأصلة في أي شيء، وإنما توجد قيم منسوبة. وعليه، فلا توجَد قيمة متأصِّلة في الحقيقة. فلماذا هو مُهمّ؟ لماذا يهمُّ إذا كان ريتشارد دوكينز محقًّا في آرائه عن الكون؟ لماذا يكون هذا بالضرورة أفضلَ من الاعتقاد بأن الأرض مسطَّحة، وتستلقي على ظهرِ سلحفاة عملاقة، وأنه عندما نموتُ نصبح جميعًا السلاحفَ معَ عوالمنا الخاصة على ظهورنا؟ في النظرة الإلحادية المتسقة للعالم، فهي ليستْ - ولا يمكن أن تكون - أفضل»[3].

وهذا التلازمُ بين الإلحاد والعدمية الذي ذكره صحيح. فقد سئلت البروفسورة الملحِدة المشهورة سوزان بلاكمور[4]: «ما هو أهمُّ شيء تعلمتِه في الحياة؟» فأجابت: «أنَّه في النهاية لا شيء مُهم، وكلّ شيء زائل... إذا كنت تفكِّر حقًّا في

---

(١) انظر المقال: The Incoherence of Atheism, Part ١، على الرابط:

https://catholicexchange.com/the-incoherence-of-atheism-part-1

(٢) جوردان كوبر (Jordan Cooper): قسيس أمريكي لوثري، قد ألّف بعض الكتب، وهو مهتمّ بنقد الإلحاد. انظر:

https://www.patheos.com/blogs/justandsinner/author/jcooper/

(٣) المقال: The Incoherence of Atheism, على الرابط:

https://www.patheos.com/blogs/justandsinner/the-incoherence-of-atheism/

(٤) سوزان بلاكمور (Susan Blackmore): بروفسورة علم النفس الموازي في جامعة بليموث ببريطانيا، ومستشارة في عدد كبير من الدوريات والمجلات والجمعيات. انظر:

https://www.susanblackmore.uk/cv/

التطور، ولماذا نحنُ بشر هنا؛ فعليك أن تصلَ إلى استنتاجٍ مَفاده أننا هنا بدون أيِّ سبب على الإطلاق»[1].

وإذا كان هذا مِن لوازم الإلحاد عمومًا، فمِن الغريب أيضًا أن بعض الملاحدة يفنون أعمارَهم في دراسة الصفاتِ الإلهية، ويحاولون إثارةَ الشبهات عنها، مع أنهم ينكرون الخالقَ أصلًا.

الفقرةُ الرّابعة:
تقييمُ ردودِ علماءِ الغرب على شبهة: الخصائص غير المتوافقة:

قد ردَّ علماءُ الغرب على شبهة: الخصائص غير المتوافقة ببعض الردود الجيّدة، والإلزاماتِ العقلية القوية. وتبيَّن خلالَ هذه الردود أنَّ الأصول الذي بنى عليه الملاحدةُ هذه الشبهةَ متهافتة. وسيأتي ردودٌ تفصيلية على شبهاتهم المتعلّقة بصفات معيّنة.

ولكنْ كما أنَّ ردودَ علماء الغرب في هذا الباب جيِّدة، فإنَّ موقفهم في الوقت نفسِه ضعيف. وذلك لعدَّة أسباب، ولكنْ أهمُّها سببان:

السببُ الأوَّل: اليهود والنصارى انحرفوا في باب الصفات انحرافًا كبيرًا. فبينما دلَّ كتابُهم المقدَّس على وصف الخالق بالعيبِ والنقص، وصفاتٍ تشبه المخلوقين، فإنَّ أحبارَ اليهود المتأخّرين واللاهوتيين النصارى من غلاة المعطلة، حيث إنهم اعتمدوا على اللاهوت السلبي بناءً على تأثّرهم بالفلسفة.

ولكن، لا يمكن الاعتمادُ في هذا الباب على كتابهم المقدَّس المحرَّف، ولا على فلسفةِ التعطيل اليونانية؛ بل الاعتمادُ في هذا الباب يكون على الوحي المنزّل من الله في الكتابِ والسنة. «فإنَّ الرسل جاءوا بالإثبات المفصل في صفات الله

---

(١) المقال: The world according to .... Dr Susan Blackmore وهو منشور على الرابط:
https://www.susanblackmore.uk/journalism/the-world-according-to-dr-susan-blackmore/

وبالنفي المجمل»[1]. «وينبغي أن يُعلَم أنَّ النفي ليس فيه مدحٌ ولا كمال إلاّ إذا تضمَّن إثباتًا، وإلا فمجرَّد النَّفي ليس فيه مدحٌ ولا كمال؛ لأنَّ النفي المحض عدمُ محض، والعدم المحض ليس بشيء، وما ليس بشيء هو كما قيلَ ليس بشيء، فضلًا عن أن يكون مدحًا أو كمالًا. ولأنَّ النفي المحض يوصَف به المعدوم والممتنع، والمعدوم والممتنع لا يوصف بمدح ولا كمال»[2].

وأهلُ السنة يؤمنون «بما وصف اللهُ به نفسه، وبما وصفه به رسوله (ﷺ) من غير تحريفٍ ولا تعطيل، ولا تكييفٍ ولا تمثيل»[3]. والواقع أنَّ اليهود والنصارى وقعوا في هذه المحاذيرِ الأربعة. فهُم يعتمدون على كتابٍ قد حرَّف الوحي المنزّل، وحرَّف كلام الأنبياء السّابقين. وهذا الكتاب يدلُّ على تمثيل الخالق بالمخلوق. ففرَّ متأخروهم من ذلك إلى القولِ بالتعطيل، وعندَ كلامهم الفلسفي المتعنِّت في باب الصفات وقعوا في تكييف الصفات.

السببُ الثّاني: أنَّ التثليث أصلُ الأصول في باب الإيمان بالله عند النصارى. وهذه العقيدةُ في غاية التناقض. ففي قانونِ الإيمان المعروف بالعقيدة النيقية يقولون: «نؤمن بإلهٍ واحد... ضابط الكلِّ، وخالق السماء والأرض، وكلّ ما يُرَى وما لا يرى... وبرب واحدٍ يسوع المسيح، ابن الله الوحيد، المولود من الأب قبلَ كلِّ الدهور، **إله من إله... ونؤمن بروح القُدس، الرَّب المحيي**، المنبثق من الأب، ومع الأب والابن، يُعبد ويمجَّد»[4].

فقانونُ الإيمان ينصُّ في البداية على وجود إلهٍ واحد، ثمَّ ينصُّ على وجود «إله من إله»، إذًا، عندهم إلهان، ثمّ أضافوا ربًّا ثالثًا. فكيف يقولون: إنَّ الإله واحد؟ هذا هو التناقضُ بعينه. ومهما حاولَ البروفسور سوينبورن أن يؤصِّل في باب الصفات في

---

(١) مجموع الفتاوى (١٢ / ٤٣٢).

(٢) المصدر السابق (٣ / ٣٥).

(٣) المصدر السابق (٣ / ١٦٢).

(4) Creeds of Christendom (1/27-28), by: Philip Schaff, (Harper & Brothers, 1877)

مسألة: الإمكانية المنطقية والإمكانية الميتافيزيقية؛ فإنَّ النصارى واقعون في التناقض المنطقي والميتافيزيقي معًا. وحيث إنَّ التثليث من أهمِّ معتقدات النصارى، وهو ذو علاقةٍ بالإيمان بالصفات الإلهية، فقد فتحوا البابَ أمام الملاحدة لتقرير شبهة: الخصائص غير المتوافقة. ولكنَّ هذه الشبهة لا يمكن توجهيها إلى العقيدة الإسلامية الصافية.

المبحثُ الثّاني
ردودُهم على شُبهة: مَن خلق الله؟

تقدَّم في المبحث الأوَّل الحديثُ عن شبهة: الخصائص غير المتوافقة، وأنّ الملاحدةَ يثيرون شبهاتٍ عن الصفات الإلهية. ومِن ضمن هذه الشبهات ما تتعلَّق بأزلية الخالق، وتُصاغ كالسؤال الآتي: «إذا كان اللهُ خلقَ كلَّ شيء، فمَن خلق الله؟»

وهذه الشبهةُ مِن أقدم الشبهات وجودًا، ومِن أكثرها ورودًا، وتتَّخذ هذه الشبهة صورًا مختلفة، وتجدَّد بطرق متنوّعة، وإن كان أصلُها واحدًا في نهاية الأمر. وقد ردّ علماءُ الغرب على هذه الشُّبهة بردود قويَّة من جوانب عديدة، وإن كانت بعض هذه الردود اختلطتْ معَ مفاهيمهم الفلسفية واللاهوتية الباطلة، ولهذا يتحتَّم تصحيح هذه الردود وتقييمُها وفقَ الكتاب والسنة. ولذلك سيتمُّ تقسيم هذا المبحث إلى أربع فقرات:

الفقرةُ الأولى: تاريخُ هذه الشبهة.

الفقرةُ الثّانية: حقيقةُ هذه الشبهة.

الفقرةُ الثّالثة: ردودُ علماء الغرب على هذه الشبهة.

الفقرةُ الرّابعة: تقييمُ ردود علماء الغرب على هذه الشبهة.

الفقرةُ الأولى: تاريخُ هذه الشبهة:

قد أخبرَ النبي ﷺ عن هذه الشبهة إذْ قال: «يأتي الشيطان أحدكم فيقول: من خلق كذا؟ مَن خلق كذا؟ حتى يقول: مَن خلق ربَّك؟...»[1].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٣١٠٢)، كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده (٣/ ١١٩٤). وأخرجه مسلم في صحيحه (٢١٤)، كتاب الإيمان، باب بيان الوسوسة في الإيمان وما يقوله من وجدها (١/ ١٢٠)، من حديث أبي هريرة t.

فهذا يدلُّ على أنَّ هذه الشبهة كانت موجودة في زمنه، وحيث إنّها من وساوس الشيطان. ولم أقفْ على أنَّ الفلاسفة القدامى نصُّوا على هذه الشبهة، كما نصَّ بعضُهم على مشكلة الشَّر، وإنما وقفتُ على وجودها في الخطاب الفلسفي المعادي للدين في عصر التنوير. ففي آخر كُتب ديفيد هيوم: «محاورات في الدين الطبيعي» (Dialogues Concerning Natural Religion) عرض هذه الشبهة ضمنًا في الحوار بين شخصياتٍ رمزية يتحدَّثون عن أدلة وجود الله. فأحدُ هؤلاء الفلاسفة الرمزيين هو فيلو (Philo)، ويظهرُ في صورة فيلسوف متشكِّك يُشكِّك في هذه الأدلة. وفي الفصل الرابع مِن الحوار قال فيلو: «... وعلى ذلك فكيف نقنع أنفسَنا بصدد علّة ذلك الموجود الذي نظنُّه صانعَ الطبيعة، أو بمقتضى مذهبك في المشبهة العالم المثالي الذي نحكي عليه العالم المادي؟ أليس لنا أن نقيسَ ذلك العالم المثالي على عالم مثالي آخر أو مبدأ عقلٍ جديد؟ ولكن إذا توقَّفنا ولم نعدْ فلِمَ نذهب بعيدًا؟ لم لا نقف عند العالم المادي؟ كيفَ يسعنا أن نقنعَ أنفسنا دون أن نذهبَ قُدُمًا إلى ما لا نهاية؟ وبعد كلّ هذا أيّ اقتناع هنالك في ذلك التقدُّم اللانهائي؟»[١].

وقد رجَّح بعضُ الباحثين في فلسفة هيوم أنَّ شخصية فيلو رمز عن ديفيد هيوم نفسه[٢]. فعرضَ هيوم هذه الشبهة ضمنًا بطريقةٍ فلسفية معقَّدة في هذا الكتاب، ولم يصرِّح بأنّه صاحب الشبهة.

---

(١) محاورات في الدين الطبيعي (٦١)، لديفيد هيوم، (مكتبة القاهرة الحديثة، الطبعة الأولى، ١٩٥٦ م، ترجمة: الدكتور محمد فتحي الشنيطي).

(٢) انظر المقال: Which Character is Hume in the "Dialogues Concerning Natural Religion, by Will Crouch, وهو موجود على الرابط:
https://web.archive.org/web/20071205192218/http://www.onphilosophy.co.uk/natural_religion.html

وممَّن ذكر هذه الشبهة أيضًا: الفيلسوف جون ستيوارت ميل[1] في سيرته الذاتية، وأنَّه تعلَّم ذلك من والده. وقد نقلَ ذلك عنه الفيلسوف الملحد برتراند راسل، وأنّه نفسُه تأثَّر بهذه الشبهة؛ فقال: «كنت أعتقدُ صحَّة حجة المسبّب الأوّل، إلى أن قرأت في عُمر الثامنة عشرة سيرةَ جون استوارت ميل حيث وردتِ الجملة التالية: علّمني والدي أنه توجَد إجابة عن سؤال: مَن خلقني؟ لأنَّ السؤال التالي سيكون: من خلق الرَّب؟! هذه الجملةُ القصيرة هي التي أوضحت لي مغالطة هذه الحجّة، إذا كان لكلِّ شيء سببٌ يجب أن يكون للرَّب سببٌ أيضًا. وإن أمكن وجود شيء بدون سبب، فيُمكن أن يكون العالم كما أنه يمكن أنْ يكون الله، وبالتالي فلا يمكن أن تكون هناك أيُّ قيمة لهذه الحجة»[2]. فبهذه الطريقة السطحيةِ طرحَ هذا الفيلسوف العملاق - كما يراه الملاحدة - هذه الشبهة، وأخبر أنَّه يرى أن حجَّة الخلق والإيجاد ليست لها قيمة بسببها.

وقدْ أورد عالمُ الكون الملحد كارل ساغان هذه الشبهةَ أيضًا عند حديثه عن نظرية الانفجار العظيم؛ فقال: «إن كانتِ الصورةُ العامة عن الانفجار العظيم المتبوع بكون متوسِّع صحيحة، فماذا حصلَ قبل ذلك؟ هل كان الكون فارغًا عن جميع المادة، ثمَّ ظهرتِ المادةُ فجأة؛ كيف حصلَ ذلك؟ في كثير من الثقافات، فإنَّ الجواب المعتاد: أن إلهًا أو آلهة خلقوا الكونَ من العدم. ولكن، إن كنَّا نريد الاستمرارَ في هذا السؤال بشجاعة، فلا بدَّ أن نسأل السؤالَ التالي: مِن أين جاء الله؟»[3].

ولكن، أشهرُ مَن كتبَ عن هذه الشبهة في هذا الزمان هو ريتشارد دوكينز في كتابِه: وهم الإله، بل جعلَ هذه الشبهة ضمن حجّته الرئيسة في كتابه. وقد خصّص الفصلَ الرابع لهذه الحجَّة الرئيسة. ولخَّص كلامه في آخر الفصل بقوله: «**هذا الفصل يحتوي على المبادئ الأساسية في الكتاب**، وبهذا وعذرًا للتكرار، سألخِّصها في ستِّ نقاط:

(١) جون ستوارت ميل (John Stuart Mill): فيلسوف واقتصادي بريطاني، وأحد روّاد الليبرالية الكلاسيكية. وكانت فلسفته مؤثّرة إلى حدّ كبير في الفكر الغربي. توفي عام: ١٨٧٣ م. انظر: https://www.britannica.com/biography/John-Stuart-Mill

(٢) المقال: Why I Am Not a Christian, وهو موجود على الرابط: https://users.drew.edu/jlenz/whynot.html

(3) Cosmos (212), by: Carl Sagan, Random House (1980)

١. أعظمُ التَّحديات لذكاء الإنسان، وعبر القرون، كان شرح التعقيد الكبير واللااحتمالية العظيمة التي تظهر في الكون.

٢. الإغراءُ الطبيعي هو أنْ نعزو كلَّ ما يبدو مصمّمًا إلى أن يكون مصمّمًا بالفعل. وفي حالة المصنوعات الإنسانية الدقيقة كالساعة مثلًا، فإنَّ المصمّم كان بدون شكٍّ مهندسًا ذكيًّا. ومِن المغري تطبيق نفس المنطق على العين والجناح والعنكبوت والإنسان.

٣. فرضيةُ المصمّم تثير فورًا السؤالَ الأكبر عن مصدر المصمم نفسه. كلّ المسألة بدأت مِن محاولة شرحٍ لاحتمالية منطقية. وهذا بوضوح ليس حلًّا لأنَّه يطرح شيئًا لااحتماليته أكبر. ونحنُ هنا بحاجةٍ لـ«رافعة» وليس لـ«خطاف سماوي»، لأن الرافعةَ لوحدها تستطيعُ العملَ بتدرُّج معقول التصديق من بداية بسيطة لنهاية معقّدة عظيمة اللااحتمالية.

٤. الرافعةُ الأبدع والأقوى حتى الآن هي التطوُّر الدارويني بالانتخاب الطبيعي. داروين ومَن خلفَه شرحوا لنا كيف أنَّ الأحياء بالرغم من لااحتماليتهم الكبيرة والانطباع الذي يُعطونَه عن التصميم إلّا أنهم تطوّروا ببطء وبشكلٍ تدريجي من بدايات بسيطة. وبإمكاننا القولُ بدون مخاطرة بأنَّ التصميم في الكائنات الحيّة هو مجرّد وهْم.

٥. حتَّى الآن ليس لدينا رافعةٌ مماثلة للفيزياء. وشيء ما كنظريةِ الأكوان المتعدّدة يمكنها مِن حيث المبدأ أن تعملَ ما عملته الداروينية في علم الأحياء. شرحٌ من هذا النوع بشكلٍ سطحي أقلُّ إرضاءً مِن قرينه الدارويني الطبيعي، لأنه يتطلّب كميةً أكبر من الحظِّ. ولكنَّ المبدأ الأنثروبي يؤهّلنا لحظٍّ أكبر بكثير مما يمكن لحدسنا الإنساني أن يتقبَّله بارتياح.

٦. لا يجبُ أن نفقدَ الأمل في إيجاد رافعةٍ أفضل في الفيزياء، شيء ما بقوّة الداروينية الطبيعية. ولكن حتَّى في غياب الرافعة فإنَّ وجودَ الروافع الضعيفة الحالية، بدعمها مِن النظرية الأنثروبية، فإنَّها بوضوحٍ أفضلُ

بكثير من التفسير السماوي الذي يناقض نفسَه حول موضوع التصميم الذكي»[1].

ثمَّ ختمَ ذلك كلَّه بقوله: «ولو تقبَّل الفردُ الحجج المطروحة في هذا الفصل، فإنّ المسلَّمة الواقعية للدين وفرضيةَ الإله لن تصمد. والاحتمالُ الأكبر هو أنَّ الله غير موجود»[2].

فخلاصةُ الأمر أنَّ الاعتراض بسؤال: مَن صمَّم المصمِّم؟ موجود ضمن الحجّة الرئيسة في كتاب ريتشارد دوكينز: وهْم الإله. وهو أشهرُ كتابٍ إلحادي معاصر على الإطلاق. وقد ضمَّن هذه الشبهة معَ شبهة: تفسير نظرية التطوّر لوجود الإتقان في عالم الأحياء، وتفسيرُ نظرية الأكوان المتعدّدة والمبدأ الأنثروبي لوجود الإتقان والإحكام في عالم الفيزياء. فالتَّفسير اللاهوتي لوجود الإتقان والإحكام ضعيف عنده، لأنّه يؤدّي إلى هذا الاعتراض الذي نحن بصددِ الإجابة عنه في هذا المبحث.

الفقرةُ الثّانية: حقيقةُ هذه الشبهة:

يمكن تقسيمُ هذه الشبهة إلى ثلاثة أنواع:

النوعُ الأوَّل: وسواسُ الشيطان: وهذا الذي أخبر به النبي ﷺ في الحديث المذكور سابقًا. وهذا النوعُ ليس اعتراضًا فلسفيًّا على حجّةٍ من حجج وجود الله، وإنّما هي وسواسٌ من الشيطان، ويندفع هذا الوسواس بما بيَّنَته السنة، وسيأتي ذكره لاحقًا.

النوعُ الثّاني: اعتراضٌ على حجَّة الخلق والإيجاد: فحجَّةُ الخلق والإيجاد مبنية على مقدِّمتين ونتيجة:

المقدِّمةُ الأولى: كلُّ ما له بداية فلا بدَّ له من سبب.

المقدِّمةُ الثانية: الكونُ له بداية.

النتيجة: اللهُ هو مَن أحدث الكون من العدم.

---

(١) وهم الإله (٢٦٧ - ٢٦٨).

(٢) المصدر السابق (٢٦٩).

فيأتي الاعتراضُ على هذه الحجَّة بقولهم: إذا كان كلُّ موجود بحاجة إلى سبب وخالق، فمَن خلق الله؟ أو ما هي علّةُ وجوده؟ وهذا هو ما ذكره برتراند راسل وكارل ساغان.

النوعُ الثّالث: اعتراضٌ على حجَّة الإتقان والإحكام: فهذه الحجَّةُ أيضًا مبنية على مقدِّمتين ونتيجة أيضًا:

المقدِّمة الأولى: نشاهد الإتقانَ والإحكام والتعقيد في الكون والطبيعة.

المقدِّمة الثانية: الإتقانُ والإحكام والتعقيد يستدعي وجودَ فاعلٍ عليم حكيم.

النتيجة: اللهُ العليم الحكيم هو مَن أوجد العالم على هذا النحو المحكم المتقَن المعقَّد.

فيأتي الاعتراضُ على هذه الحجَّة: إذا كان كلُّ شيء معقَّد بحاجة إلى مصمّم، فلا شكَّ أنَّ الإله أشدُّ تعقيدًا من مخلوقاته، فهذا يستدعي أن يكون الخالق بحاجة إلى مصمِّم أيضًا. وهذا هو ما ذكره ريتشارد دوكينز.

والاعتراضُ في النوعين الأخيرين يئوَّل إلى شيء واحدٍ في نهاية الأمر، وهو استخدام مبدأ السببيةِ في الخالق أيضًا، والادِّعاء أنَّ الخالق بحاجةٍ إلى سبب وعلَّة في وجوده كما أنَّ المخلوقات بحاجة إلى سبب وعلة في وجودها.

الفقرةُ الثّالثة: ردودُ علماء الغرب على هذه الشبهة:

حيث إنَّ هذه الشبهة حاضرةٌ في الخطاب الإلحادي المعاصر، وذكرها كبارُ الملاحدة في كتبِهم، بل جعلها كبيرُ الملاحدة ريتشارد دوكينز ضمنَ حجَّته الرئيسة في كتابه، فقد اهتمَّ علماءُ الغرب كثيرًا بنقدها، وذكروا عدَّة ردودٍ جيِّدة عليها. وستقسَّم هذه الردودُ إلى تسعة أوجه:

الوجهُ الأوَّل: سؤال: مَن خلق الله؟ سؤال خاطئ مبنيٌّ على سوء فهم لإيمان المؤلّهة بوجودِ الله. فالمؤلّهة من المسلمين واليهود والنصارى قاطبة يؤمنون بإله أزلي غير مخلوق، فكيف يوجَّه إليهم السؤال: مَن خلق الله؟ بل، هذا دليل على أنّ الملحد يتخيّل إلهًا مخلوقًا في ذهنه أوّلًا، ثمَّ يسأل السؤال ثانيًا. وقد شرح البروفسور

جون لينوكس هذه النقطة بقوله: «... فما بالُك بسؤال: مَن خلق الله؟ إن مجرَّد طرح السؤال يبيّن أنَّ السائل يتصوّر إلهًا مخلوقًا. ومن ثمّ، ليس غريبًا أنَّ مَن يطرح السؤال يؤلّف كتابًا بعنوان: «وهْم الإله». لأنَّ هذه هي تحديدًا ماهية الإله المخلوق، وهم بطبيعة الحال...كان يمكن استخدام عنوان أدقّ مثل: «وهْم الإله المخلوق»، وكان يمكن عندئذٍ اختصار الكتاب في نشرةٍ صغيرة، ولكن المبيعات كانت ستتأثّر!

والآن «دوكينز» يخبرنا صراحةً أنَّه لا يحبُّ أن يخبره الناس بأنّهم بدورهم لا يؤمنون بالله الذي لا يؤمن هوَ به... والحقيقة أنَّ بضعة مليارات منَّا يشاركونه في عدم إيمانه بهذا الإله. فما كان عليه أن يقلقَ بهذا الشأن. فمعظمنا مقتنعٌ منذ زمن بعيد بما يحاول أنْ يخبرنا به. فمن المؤكَّد أنه ما مِن نصراني يعتقد أنَّ الإله مخلوق، ولا حتى في أحلامه. وهوَ ما ينطبق طبعًا على اليهود والمسلمين أيضًا. فحجَّته، باعترافه هو شخصيًّا، لا تقول أيَّ شيء عن الإله الأزلي، ولا تمتُّ لهذه الفكرة بصلة»(١).

الوجهُ الثّاني: وبناءً على النقطة الأولى، فإنَّ هذا السؤال يفترض وجود هذا التناقض بطريقة خفيَّة؛ قال المحامي دين أوفرمان: «التناقضات المفترضة كثيرًا ما تكون خفيَّة في المقدّمات، مثل سؤال: «لو صمَّم مصمِّمٌ الكون، فمَن صمَّم المصمّم نفسه؟». هذا السؤال يفترض وجودَ تناقض، ويظهر في الإصرار على أن المصمم صُمّم. هذا الإصرارُ يعتمد على تناقض خفيٍّ في سؤاله، وهذا مشابهٌ لسؤال: ماذا أو من جعل المثلَّثات دائرية؟»(٢). فكما أنَّ المثلّثات لا يمكن أن تكون دائرية، لأنه لو كانت دائرية، فهي تخرج من كوْنها مثلّثة، فكذلك الخالقُ الأزلي، لو افترض أنَّ له خالقًا، فإنّه ليس بخالقٍ أزلي غير مخلوق. ومِن الأمثلة الأخرى على ذلك التي ذكرها الدكتور جونثان سارفاتي هو سؤال: «مَن هي زوجة الأعزب؟»(٣)، لأنّه لو كان

---

(1) God's Undertaker (183)

(2) A Case Against Accident and Self organization (18)

(٣) المقال:

If God created the universe, then who created God? By Jonathan Sarfarti

https://creation.com/images/pdfs/tj/j12_1/j12_1_20-22.pdf

للأعزب زوجة، فإنه يخرجُ من كونه أعزبَ إلى كونِه متزوِّجًا. فالسؤال بطبيعة الحال خطأ ومتناقض.

الوجهُ الثّالث: وهو في بيانِ قاعدة مشهورة في فلسفة العلم تقول: «من أجل تحقيق التفسير الأفضل لا يجبُ أن يكون هناك تفسيرٌ للتفسير». وهذا هو الجواب الذي يردّده البروفسور وليام لاين كرايغ عندما يسأل هذا السؤال؛ فيذكر أنَّ هذه القاعدة بديهية في قضية أفضل تفسير كما هو معمولٌ بها في فلسفة العلم. وضرب مثالًا بأنه لو نقّب علماءُ الآثار في الأرض واكتشفوا ما يشبهُ النِّصال، ورؤوس الفؤوس، شظايا الفخّار، فيكون لهم مبرِّر أن يستنتجوا أنَّ هذه القطع الأثرية ليست نتيجة صدفية للترسيب والاستحالة، بل هي منتجاتٌ لأشخاص غيرِ معروفين. وذلك على الرغم أنّه لم يكن لديْهم أيُّ تفسير عن هويَّة هؤلاء الأشخاص أو من أين أتوا. وكذلك إذا كان رواد الفضاء يصادفون كومةً من الآلات على الجانب الخلفي من القمر، فسيكون لهم ما يبرِّرهم في استنتاج أنه نتاجُ كائنات ذكية خارجَ الأرض، حتى ولو لم تكن لديهم أدنى فكرةٍ عمَّن هُم هؤلاء الكائنات، ولا مِن أين أتوا. فمِن أجل تحقيق أفضل تفسير، فإنّنا لسْنا بحاجةٍ إلى تفسير آخر. وفي الواقع، سيؤدِّي ذلك إلى تراجع لا حصر له من التَّفسيرات، بحيث لا يمكن تفسيرُ أيِّ شيء على الإطلاق، وسيدمّر العلم التجريبي. وذكرَ البروفسور كرايغ أنّنا لو فهمنا ذلك، فإنّنا نفهم أن التصميمَ الذكي هو أفضلُ تفسير لظهور التَّصميم في الكون، فإنّنا لسنا بحاجة إلى تفسير المصمّم[1].

الوجهُ الرّابع: مَن اعترض بهذه الشبهة على حجّة الخلق والإيجاد، فإنّه لم يفهم الحجَّة على وجهها الصحيح. فبدلًا من صياغة المقدّمة الأولى بصياغة: «كلُّ شيء له بداية فلا بدَّ له من سبب»، يصيغونها بصياغة: «كلُّ شيء لا بدَّ له من سبب»[2]. وهذه الصياغةُ غير صحيحة، ولا يقولها المؤلّهة. وقد ذكر المحامي دين أوفرمان أنه لو تمَّ تعديلُ الصياغة

---

(١) انظر المقال: Dawkin’s Delusion, على الرابط:
https://www.reasonablefaith.org/writings/popular-writings/existence-nature-of-god/dawkins-delusion

(٢) انظر: الفيزياء ووجود الخالق (١١٩ - ١٢٠).

إلى «كلُّ شيء له بداية فلا بدَّ له من سبب»، فإنّ السؤال لا ينطبق على المصمِّم الذي ليس له بداية. ولو أنه تمَّ تعديلُه إلى استخدامه على الكون لكان بهذه الصياغة:

١ - كلُّ شيء له بداية فلا بدَّ له من سبب.

٢ - الكونُ له بداية.

٣ - إذًا: الكونُ له سبب[١].

وهذه هي الصياغةُ الصحيحة لحجّة الخلق والإيجاد.

الوجهُ الخامس: وهي ردُّهم على قول دوكينز: إنَّ الخالق للتعقيد لا بدَّ أن يكون أكثرَ تعقيدًا من خلقه. فيأتي النصارى المعطّلة ويعترضونَ على قوله بأن الإله غير معقّد، بلْ هو بسيط؛ لأنَّه ليس بجسم وليس له أعضاء. وهذا الردُّ يستعمله البروفسور وليام لاين كرايغ في ردِّه على هذه الشبهة، كما أنَّ البروفسور ألفن بلانتنغا استخدمه في مقاله: «العلم التجريبي أو المذهب الطبيعي؟ تناقضات دوكيز» (Science or Naturalism? The Contradictions of Richard Dawkins)؛ فقال: ابتداءً، هل الإله معقّد؟ وفقًا لعلم اللاهوت الكلاسيكي (مثل: توما الأكويني) فإنّ الإله بسيط، بل بسيط للغاية... والأمرُ الأكثر وضوحًا هو أنَّه وفقًا لتعريف دوكينز الخاص للتعقيد، فإنَّ الله ليس معقدًا. وفقًا لتعريفه (الوارد في كتابه: صانع الساعات الأعمى)، هناك شيء معقد إذا كان يحتوي على أجزاء «مرتَّبة بطريقة من غير المرجح أن تنشأ بالصدفة وحدها».

لكنْ بالطبع الإله ليس كائنًا ماديًّا، وبالتالي ليس لديه أجزاء. الإله روح، كائن روحيٌّ غير مادي، وبالتالي ليس له أيُّ أجزاء على الإطلاق. من باب أولى (كما يحب الفلاسفةُ قوله) إنَّ الإله ليس لديه أجزاء مرتَّبة بطرق من غير المرجح أن تنشأ بالصُّدفة. لذلك، فنظرًا لتعريفِ التعقيد الذي يقترحه دوكينز نفسه، فإنَّ الإله ليس معقدًا»[٢].

---

(١) انظر: A Case Against Accident and Self organization (18)

(٢) مقال: Science or Naturalism? The Contradictions of Richard Dawkins, على الرابط:
https://www.abc.net.au/religion/science-or-naturalism-the-contradictions-of-richard-dawkins/10100636

هذا الردُّ مُشكل، ومنبعُه عقيدةُ تعطيل الصفات التي يعتقدها بعض النصارى، مثل: البروفسور بلانتنغا والبروفسور كرايغ. فالكلامُ على ذات الله أنَّها بسيطة أو معقّدة مِن القول على الله بلا علم. ونفي الأجزاء عنِ الله من الألفاظ المجملة التي يستخدمها المعطّلةُ لإنكار الصفات الذاتية كالوجه، واليدين. أمّا إلزامُه الأخير بتعريف ريتشارد دوكينز، فقد يكونُ فيه شيء من الوَجاهة، لأنَّه من باب إلزامِ الخصم بتعريفه. وهذا الأسلوب مستخدم في المناظرة.

والأولى أنْ يُقال لدوكينز ومَن تبعه: «إنَّ السببَ يجب أن يكون أقلّ تعقيدًا من الأثرِ لا برهان عليه عقلًا؛ فقد ينشأ الأثرُ عن أمر أشدِّ تعقيدًا منه؛ بل لعلّ ذلك هو الأصلُ في الأشياء لا العكس في عالم الأفكار والصنائع. ألا ترى أنَّ المكتوب والمصنوع أبسطُ دائمًا من الدماغ الذي أنشأه؟»[1].

الوجهُ السّادس: وهذه النقطة مبنيَّة على ردٍّ للفليسوف الملحد توماس نيجل الذي اشتهرَ بانتقاداته لمذهب الإلحاد الجديد. فقد ألزم دوكينز في كتابه: «الفلسفة العلمانية والمزاج المتديّن» (Secular Philosophy and Religious Temperament) بإلزام قويٍّ، خلاصتُه: أنَّ دوكينز يردُّ كلَّ أوجه الحياة على الأرض إلى آلية الانتخاب الطبيعي، لكنّ الكائنات الحيَّة لا يمكن أن تتطوَّر دون وجودِ الحياة الأولى في شكلها البدائي؛ فالتطوّر لا يمكن أن يقعَ إلا بوجود رصيد جيني تحدث فيه الطفرات، لكنَّ المادة الجينية الأولى شديدة التعقيد بصورة أعظم من التطوّر اللاحق لظهورها، بما يقتضي أنَّ تفسير أصل التطوّر أعقدُ من التطوّر نفسه[2].

وقد فشلَ العلماءُ الماديون في إيجاد تفسيرٍ لأصل الحياة على هذا الكوكب. ولهذا استحسنَ دوكينز الفكرةَ القائلة بأنَّ كائنات فضائية زرعت الحياة على هذا

---

(١) براهين وجود الله في النفس والعقل والعلم (٤١٨).

(٢) انظر:
Secular Philosophy and Religious Temperament (24-25), by: Thomas Nagel, (Oxford University Press, 2009)

الكوكب - كما سلف ذكره -. وهذا في الحقيقة يؤدِّي إلى الاعتراض الذي يوجّهه دوكينز نفسه، وهو: مَن خلق الكائنات الفضائية التي زرعت الحياة على الكوكب؟!
إن قال: إنَّها تطوَّرت بنفسها، لم يخرجْ من إشكالية وجود الحياة الأولى التي تطوّرت منها هذه الكائنات.

الوجهُ السّابع: أنَّ هذه الشبهة مبنيَّة على أنَّ الملاحدة لا يستطيعون أن يسلّموا بوجودِ شيء أزلي. ولكنَّ الملاحدة بين أمرين في هذه القضية:

الأمرُ الأوَّل: أنَّ كثيرًا منهم يؤمنون بشيء أزلي، فكانوا في السابق يعتقدون أنَّ الكون أزلي؛ قال الفيلسوف أبراهام فارجيس: «الآن، من الواضح أنّ الألوهيين والملحدين يمكن أن يتَّفقوا على شيء واحد: إذا كان هناك شيء موجود فعلًا، فلا بدَّ وأنَّ هناك شيئًا موجودًا على الدوام قد سبقَه. كيف أتى هذا الواقع الموجود منذ الأزل؟ الجوابُ هو أنَّه لم يأتِ من الأساس؛ لأنَّه كان دائمًا موجودًا. اختر ما تشاء: الإله أو الكون. شيء كان موجودًا على الدوام»[١].

وعلى الأقلِّ يعتقد كثيرٌ منهم أنَّ المادة والطاقة أزلية وإن لم يكن الكون بأكمله كذلك. فإذًا، ليس لدى أغلبِ الملاحدة إشكالٌ في مفهوم الأزلية، كما أشار إليه البروفسور جون لينوكس في ردِّه عليهم[٢].

الأمرُ الثّاني: وإنْ قال الملحد: إنَّه لا يوجد أيّ شيء أزلي، وإنَّ الكون ظهر من لاشيء بالمفهوم التقليدي للاشيء[٣]؛ فإنَّهم يخالفون القاعدة العقلية المشهورة: من لاشيء يظهر لا شيء (Ex Nihilo Nihil Fit). فكيف أخرج لاشيء هذا الكون من لاشيء. هذا تناقضٌ واضح ومخالف لبديهيات العقل.

---

(1) Appendix of: There is a God: How the World's Most Notorious Atheist Changed His Mind (165)

(٢) انظر المقطع: ?Who Created God، وهو على الرابط:
https://www.youtube.com/watch?v=LxL8AwT7ObY

(٣) سيأتي الردّ التفصيلي على تلبيسات الملاحدة في إعادة تعريف اللاشيء بأنّه الفراغ الكمّي.

الوجهُ الثّامن: بناءً على الوجه الأخير، فلا بدَّ أن ينتهي التسلسل إلى شيء، إما القولُ بأزلية الكون، وإمّا القولُ بوجود خالق خلق الكون. ولكن على فرض القول بأزليَّة الكون، فلا بدَّ أن ينتهي التسلسل إلى واجب الوجود، وإلا لحصل التسلسلُ الرَّجعي إلى ما لا نهاية، وهذا لا يمكن؛ قال جون باسكويني: «إمّا أنَّ العالم أزلي وإمّا أنْ يكون للعالم مصدرٌ لوجوده. ها هو ريتشارد دوكينز يصيح متهكمًا: «من خلق الإله؟» لو كان الإله «أ» و«ب» خلق «أ»، فالإله إذن يكون «ب» لا «أ»! ولو كان «ج» الخالق لـ«ب» فالذي يكون إلهًا هو «ج». هذا ما يسمى التسلسل الرجعي (إلى ما لا نهاية في الماضي [في المؤثرين]). والإشكال في هذا التسلسل يأتي مرتين:

١ - فهو مُناقض لتجربتنا للواقع، فجميع الأشياء الموجودة في فلك الفهم لدينا موجودةٌ لأنَّ لها موجدًا أحدثها.

٢ - لا يمكن أن ينتهي التسلسلُ الرجعي إلّا عند واجب الوجود: وهو الإله.

(وريتشارد دوكينز عاجزٌ عن فهم مسألة التسلسل هذه[1].

وقد ذكر شيخُ الإسلام (رحمه الله) أنَّ هذا النوع من التسلسل ممنوع بإجماع العُقلاء؛ وقال (رحمه الله): «يمتنع تسلسلُ المحدثات بأنْ يكون للمحدث محدث، وللمحدث محدث إلى غير غاية، وهذا يسمَّى تسلسل المؤثرات والعلل والفاعلية، وهو ممتنعٌ باتفاق العقلاء»[2].

الوجهُ التّاسع: أنَّ هذا الاعتراض كان أحد أسباب إلحاد أكبر ملاحدة القرن العشرين - وهو برتراند راسل -، وضمنَ الحجَّة المركزية لأكبر ملاحدة القرن الواحد والعشرين، وهو ريتشارد دويكنز. وذلك رغمَ هشاشة هذه الحجة كما تقدّم. وهذا في الحقيقة دليلٌ على إفلاس دعوة الملاحدة. وقد عبّر عنه البروفسور جون لينوكس بقوله: «هل هذا أفضلُ ما يمكن للجهابذة أن يقوموا به؟ يمكن أن

---

(1) Atheist Personality Disorder (171-172)

(٢) مجموع الفتاوى: (١٦/ ٤٤٤ - ٤٤٥).

أسمع [من] يقول: «حسنًا، إنَّه يثبت شيئًا واحدًا؛ إذا كان لديهم حجة أفضل، سيستعملونها»»[1].

الفقرةُ الرّابعة: تقييمُ ردودِ علماء الغرب على شبهة: من خلق الله؟

ردودُ علماء الغرب على هذه الشبهة في الغالب جيِّدة، ويُستفاد منها، فهي انتقاداتٌ وإلزامات عقلية وعلمية قوّية. إلّا أنَّه زلَّت أقدامُهم حين تكلموا عما يسمّى بالتعقيدِ الإلهي، واستعملوا ألفاظًا مجملة لا تليق بجلال الله عزَّ وجلّ. وليحذر المسلمُ مِن استعمال هذه الألفاظ التي استعملوها.

وقد بيَّن شيخ الإسلام ابن تيمية موقف أهل السنة من الألفاظ التي يستخدم في حقِّ الله إذ قال: «ومن الأصول الكلية أن يُعلم أن الألفاظ « نوعان»: نوع جاء به الكتاب والسُّنة فيجبُ على كلِّ مؤمن أن يقرَّ بموجب ذلك، فيثبت ما أثبته اللهُ ورسوله، وينفي ما نفاه اللهُ ورسوله. فاللفظُ الذي أثبته الله أو نفاه حق؛ فإن الله يقول الحقَّ وهو يهدي السبيل. والألفاظُ الشرعية لها حرمة. ومِن تمام العلم أن يبحث عن مرادِ رسوله r بها ليثبتَ ما أثبته، وينفي ما نفاه من المعاني؛ فإنه يجب علينا أن نصدقه في كلِّ ما أخبر، ونطيعه في كلِّ ما أوْجَب وأمر. ثمَّ إذا عرفنا تفصيلَ ذلك كان ذلك مِن زيادة العلم والإيمان وقد قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

وأمّا الألفاظُ التي ليست في الكتاب والسنة، ولا اتَّفق السلفُ على نفيها أو إثباتها؛ فهذه ليس على أحدٍ أن يوافق مَن نفاها أو أثبتها حتَّى يستفسر عن مراده؛ فإن أرادَ بها معنًى يوافق خبر الرسول ﷺ أقرّ به، وإنْ أراد بها معنى يخالف خبرَ الرسول ﷺ أنكره. ثمَّ التعبير عن تلك المعاني إن كان في ألفاظه اشتباهٌ أو إجمال عبَّر بغيره، أو بيَّن مرادَه بها، بحيث يحصل تعريفُ الحقِّ بالوجه الشرعي؛ فإن كثيرًا مِن نزاع الناس سببه ألفاظٌ مجملة مُبتدعة ومعانٍ مشتبهة، حتى تجدَ الرجلين يتخاصمان ويتعاديان على إطلاقِ ألفاظ ونفيها، ولو

---

(1) God’s Undertaker (183)

سُئل كلٌّ منهما عن معنى ما قاله لم يتصوّره، فضلًا عن أن يعرفَ دليله، ولو عرف دليلَه لم يلزم أنَّ مَن خالفه يكون مخطئًا، بل يكون في قوله نوع مِن الصواب، وقدْ يكون هذا مصيبًا من وجه، وهذا مصيبًا من وجه، وقد يكون الصوابُ في قول ثالث»[1].

ولفظ: «التعقيد الإلهي» لم تردْ به النصوص، وقد يُراد به: اتّصاف الله بصفات كثيرة، وهذا يثبته أهلُ السنة خلافًا للمعطلة. وقد يراد به: مشابهة الله للمخلوقات المعقّدة، وهذا باطل لأنَّ الله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١].

والنصارى القائلون بهذا القول يتبَّنون مذهبَ التعطيل، ويستخدمون هذه الألفاظَ للتوصُّل إلى إنكار الصفات.

الإرشاداتُ النبوية في التَّعامل مع هذه الشبهة:

سبقَ في بداية المبحث أنَّ هذه الشبهة قد تكون مبنيَّة على وساوس وخواطر في قلبِ الإنسان، بدون أن يكونَ لها عمقٌ فلسفي أو علمي. وقد أرشد النبي ﷺ إلى جملة مِن الإرشادات في التعامل معَ هذه الوساوس. وذلك في أحاديث كثيرة ومتنوّعة؛ منها:

الحديثُ الأوَّل: «يأتي الشيطان أحدكم فيقول: مَن خلق كذا؟ مَن خلق كذا؟ حتى يقول: مَن خلق ربَّك؟ فإذا بلغه **فليستعذ بالله ولينته**»[2].

الحديثُ الثّاني: (لن يدعَ الشيطانُ أن يأتي أحدَكم فيقول: مَن خلق السماوات والأرض؟ فيقول: الله، فيقول: فمَن خلقك؟ فيقول: الله، فيقول: مَن خلق الله؟ فإذا أحسَّ أحدكم بذلك **فليقل: آمنت بالله وبرسله**)[3].

---

(١) مجموع الفتاوى (١٢/ ١١٣ - ١١٤)

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه ابن حبان في صحيحه (١٥٠)، كتب التكليف، باب ذكر الأمر للمرء بالإقرار لله - جل وعلا - بالوحدانية ولصفيه (١/ ٣٦٢)، من حديث عائشة ل، وصحّحه الألباني في الصحيحة (١١٦)، (١/ ٢٣٣ - ٢٣٤).

الحديثُ الثّالث: «يوشك الناسُ أن يتساءلوا بينهم حتى يقول قائلهم: هذا الله خلقَ الخلق، فمَن خلق الله؟ **فإذا قالوا ذلك فقولوا: اللهُ أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولَد، ولم يكنْ له كفوًا أحد، ثمّ ليتفُل عن يساره ثلاثًا**»[1].

وتضمَّنت هذه الأحاديث النبوية خمسةَ إرشادات مهمَّة في التعامل مع هذه الشبهة، وهي:

١) الاستعاذة بالله.

٢) قول: آمنت بالله ورسله.

٣) قول: الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد.

٤) التَّفل عن اليسار.

٥) الانتهاء من الاسترسال مع هذه الوساوس.

وقال الشيخُ الألباني (رحمه الله) جامعًا لهذه الألفاظ: «دلَّت هذه الأحاديث الصَّحيحة على أنه يجب على مَن وسوس إليه الشيطانُ بقوله: مَن خلق الله؟ أن ينصرفَ عن مجادلته إلى إجابته بما جاءَ في الأحاديث المذكورة، وخلاصتها أن يقول: «آمنتُ بالله ورسله، اللهُ أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكنْ له كفوًا أحد. ثمَّ يتفُل عن يساره ثلاثًا، ويستعيذ بالله من الشيطان، ثمَّ ينتهي عن الانسياق مع الوسوسة»[2].

وقد علَّق شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) على هذه الأحاديث بكلام مطوّل في كتابِه: درء تعارض العقل والنقل. وحيث إنَّ طبيعة البحث العلمي تقتضي الاختصارَ وعدمَ نقل النقول المطوّلة، فيستحسن إيرادُ كلامه مختصرًا في ستّ نقاط:

---

(١) أخرجه النسائي في السنن الكبرى (١٠٤٢٢)، كتاب عمل اليوم والليلة، باب الوسوسة وذكر اختلاف ألفاظ الناقلين لخبر أبي هريرة لذلك، (٩/ ٢٤٥)، من حديث أبي هريرةt, وصحّحه الألباني في الصحيحة (١١٨)، (١/ ٢٣٥ - ٢٣٦).

(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة (١/ ٢٣٦).

النُّقطةُ الأولى: أنَّ شيخ الإسلام نقل الجدلَ الحاصل بين بعض المتكلّمين في موقفِهم مِن معالجة النبي ﷺ لهذه الشبهة؛ فقال: «وقد سئل بعض السالكين طريقة هؤلاء - كالرازي[1] وغيره - فقيل له: لمَ لمْ يأمر النبي ﷺ عند هذا الوسواس بالبرهان لفسادِ التسلسل والدور، بل أمرَ بالاستعاذة؟ فأجاب: بأنَّ هذا مثل مَن عرض له كلب ينبحُ عليه ليؤذيه ويقطعَ طريقه، فتارة يضربُ بعصا، وتارة يطلب مِن صاحب الكلب أنْ يزجره. قال: فالبرهانُ هو الطريق الأوّل، وفيه صعوبة، والاستعاذةُ بالله هو الثاني، وهو أسهل.

واعترضَ بعضهم على هذا الجواب بأنّ هذا يقتضي أن طريقةَ البرهان أقوى وأكْمل، وليس الأمرُ كذلك، بل طريقةُ الاستعاذة أكمل وأقوى، فإنَّ دفع الله للوسواس عنِ القلب أكملُ مِن دفع الإنسان ذلك عن نفسه»[2].

النُّقطةُ الثّانية: بيَّن شيخُ الإسلام (رحمه الله) أنَّ هؤلاء أخطأوا في فهم الإرشادات النَّبوية في هذه الأحاديث، وأنّ النبي ﷺ لم يأمر بالاستعاذة فحسب، بل أرشد إلى أصولِ البرهان في هذه القضية؛ فقال: «السؤال باطل، وكلٌّ من جوابيه مبنيٌّ على الباطل؛ فهو باطل، وذلك أنَّ هذا الكلام مبناه على أن هذه الأسئلة الواردة على النَّفس تندفع بطريقين: أحدهما: البرهان، والآخر: الاستعاذة، وأنَّ النبي ﷺ أمرَ بالاستعاذة، وأنَّ المبيّن لفسادِ الدور والتسلسل قطعه بطريق البرهان، وأنّ طريقة البرهان تقطعُ الأسئلةَ الواردة على النَّفس بدون ما ذكره النبي ﷺ وأنّ النبي ﷺ لم يأمر بطريقةِ البرهان. وهذا خطأ مِن وجوه، بلِ النَّبي r أمر بطريقة البرهان حيث يؤمر بها، ودلَّ على مجاميعِ البراهين التي يرجع إليها غاية نظرِ النظّار، ودلَّ من البراهين

---

(١) الرازي: هو فخر الدين محمد بن عمر بن الحسن القرشي البكري الرازي. إمام المتكلمين، ذو الفنون. من مؤلفاته: التفسير الكبير، أساس التقديس. قال الذهبي: ((وقد بدت منه في تواليفه بلايا وعظائم وسحر وانحرافات عن السنة، والله يعفو عنه، فإنه توفي على طريقة حميدة، والله يتولى السرائر)). توفي عام: ٦٠٦ هـ. انظر: سير أعلام النبلاء (٢١ / ٥٠٠ - ٥٠١)، وطبقات الشافعية (٨/ ٨١ - ٨٢).

(٢) درء تعارض العقل والنقل (٣/ ٣١٩).

على ما هو فوقَ استنباط النظار، والذي أمرَ به في دفْع هذا الوسواس هو الاستعاذة فقط، بل أمرَ بالإيمان، وأمرَ بالاستعاذة، وأمرَ بالانتهاء، ولا طريق إلى نيْل المطلوب من النجاة والسَّعادة إلّا بما أمر به لا طريق غير ذلك»[١].

النُّقطةُ الثّالثة: بيَّن شيخُ الإسلام أنَّ هذه الشُّبهة مبنيَّة على جحد المقدّمات الضَّرورية، ومَن جحدَ هذه المقدّماتِ فإنَّه لا يناظر بالبرهان؛ لأنَّ غاية البرهان أن ينتهي إلى هذه المقدِّمات الضرورية، فلا توجَد قاعدة مشتركة بين المتناظرين في المناظرة؛ فقال: «البرهانُ الذي ينال بالنَّظر فيه العلم لا بدَّ أن ينتهي إلى مقدمات ضرورية فطرية فإنَّ كلَّ علمٍ ليس بضروري لا بدَّ أن ينتهي إلى علم ضروري، إذِ المقدِّمات النظرية لو أثبتت بمقدِّماتٍ نظرية دائمًا لزمَ الدور القبلي، أو التَّسلسل في المؤثرات في محل له ابتداء. وكلاهما باطلٌ بالضَّرورة واتِّفاق العقلاء من وجوه... ثمَّ تلك العلوم الضرورية قد يعرض فيها شبهات ووساوس كالشُّبهات السوفسطائية مثلَ الشبهات التي يوردونها على العلوم الحسيَّة ولا بديهية... والشبهاتُ القادحة في تلك العلوم لا يمكن الجوابُ عنها بالبرهان لأنَّ غايةَ البرهان أنْ ينتهي إليها، فإذا وقعَ الشَّك فيها انقطع طريقُ النظر والبحث. ولهذا كان مَن أنكر العلوم الحسية والضرورية لم يناظر، بل إذا كان جاحدًا معاندًا عوقِبَ حتَّى يعترف بالحق، وإن كان غالطًا إمّا لفساد عرض لحسه أو عقله لعجزه عن فهْم تلك العلوم، وإمّا لنحو ذلك، فإنه يعالج بما يوجِب حصولَ شروط العلم له وانتفاء موانعه... وإذا تبيَّن هذا فالوسوسةُ والشُّبهة القادحة في العلوم الضرورية لا تزال بالبرهان، بل متى فكَّر العبدُ ونظرَ ازدادَ ورودُها على قلبه وقدْ يغلبه الوسواسُ حتَّى يعجز عنْ دفعه عنْ نفسه كما يعجز عن حلِّ الشُّبهة السوفسطائية. وهذا يزول بالاستعاذة بالله. فإنَّ الله هو الذي يعيذُ العبدَ، ويجيره من الشُّبهات المضلة والشهوات والمغوية»[٢].

النُّقطةُ الرّابعة: بيَّن شيخُ الإسلام (رحمه الله) أنّ النبي ﷺ لم يكتفِ بالإرشاد إلى الاسْتعاذة فحسب، بل أرشدَ - إضافةً إلى الاستعاذة - إلى الانتهاءِ من التفكير في

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق (٣/ ٣١٩ - ٣٢٠).

هذه الشُّبهات؛ فقال: «النبي ﷺ لم يأمرْ بالاستعاذة وحدها، بل أمر العبدَ أن ينتهي عن ذلكَ معَ الاستعاذة، إعلامًا منه بأنَّ هذا السؤال هو نهاية الوسواس فيجب الانتهاءُ عنه. ليسَ هو مِن البدايات التي يزيلُها ما بعده، فإنَّ النفسَ تطلب سببَ كلِّ حادث وأوَّل كلِّ شيء حتَّى تنتهي إلى الغاية والمنتهى... فإذا وصل العبدُ إلى غاية الغايات، ونهاية النهايات، وجبَ وقوفه، فإذا طلبَ بعد ذلك شيئًا آخرَ وجبَ أن ينتهي، فأمر النبي ﷺ العبدَ أنْ ينتهي معَ استجارته بالله من وسواس التسلسل، كما يؤمر كلّ مَن حصلَ نهاية المطلوب، وغاية المارد، أنْ ينتهي إذْ كلُّ طالبٍ ومريد فلا بدَّ له من مطلوب ومُرادٍ ينتهي إليه، وإنما وجبَ انتهاؤه لأنَّه من المعلوم بالعلم الضروري الفطري لكل من سلَّمت فطرته مِن بني آدم أنَّه سؤالٌ فاسد، وأنه يمتنع أنْ يكون لخالق كلِّ مخلوق خالق، فإنَّه لو كان له خالقٌ لكان مخلوقًا. ولم يكن خالقًا لكلِّ مخلوق، بل كان يكون من جملة المخلوقات، والمخلوقات، كلُّها لا بدَّ لها من خالق، وهذا معلومٌ بالضرورة والفطرة، وإن لم يخطرْ ببال العبد قطع الدور والتسلسل، فإنَّ وجود المخلوقات كلها بدون خالق معلوم الامتناع بالضرورة»[1].

النُّقطةُ الخامسة: ذكرَ شيخُ الإسلام (رحمه الله) أنَّ من الإرشادات النبوية في هذا المقام هو الأمرُ بقول: آمنتُ بالله وبرسوله، وأنَّ هذا نوعٌ من أنواع المعالجة بدفع هذه الشُّبهة الشيطانية بالإيمانِ بالله؛ فقال: «إنَّ النبي ﷺ أمرَ العبدَ أن يقول آمنتُ بالله، وفي رواية: ورسوله. فهذا مِن باب دفع الضدِّ الضّار بالضدِّ النافع، فإن قوله: آمنت بالله، يدفعُ عن قلبِه الوسواس الفاسد... فأمر النبي ﷺ العبد أنْ يقول: آمنتُ بالله، أو آمنتُ بالله ورسوله، فإنَّ هذا القول إيمانٌ وذكر الله يدفَع به ما يضادُّه من الوسوسة القادحة في العلوم الضرورية الفطرية...»[2].

النُّقطةُ السّادسة: وفي نهايةِ كلامه بيَّن شيخُ الإسلام إشكالية الاستدلال على المقدِّمات الضَّرورية الفطرية؛ فقال: «وممّا ينبغي أن يُعرَف في هذا المقام - وإن كنَّا

---

(١) المصدر السابق (٣/ ٣٢٠ - ٣٢١).

(٢) المصدر السابق (٣/ ٣٢١).

نبهنا عليه في مواضع - أنَّ كثيرًا من العلوم تكون ضروريةً فطرية، فإذا طلب المستدلُّ أن يستدلَّ عليها خفيتْ ووقعَ فيها شكٌّ، إمّا لما في ذلك من تطويل المقدِّمات، وإمّا لما في ذلكَ من خفائها، وإمّا لما في ذلك من كلا الأمرين.

والمستدلُّ قد يعجز عنْ نظم دليلٍ على ذلك، إمّا لعجزه عن تصوّره، وإمّا لعجزه عنِ التَّعبير عنه، فإنَّه ليس كلُّ ما تصوَّره الإنسانُ أمكن كلُّ أحدٍ أن يعبّر عنه باللسان، وقدْ يعجز المستمعُ عنْ فهمه ذلك الدليل، وإنْ أمكن نظمُ الدليل وفهمه، فقد يحصل العجزُ عن إزالة الشبهات المعارضة إمّا عن هذا، وإمّا عن هذا، إمّا منهما»[1].

وبهذه النِّقاط الستِّ تتبيَّن عظمةُ هذه الإرشادات النبوية في التعامل مع هذه الشبهة كوسْوَسة.

ولكن، يبقى سؤالٌ مُهمّ، وهو: هل يدلُّ كلامُ شيخ الإسلام (رحمه الله) على أنّه لا ينبغي لنا الاستفادةُ من ردودِ علماء الغرب على هذه الشبهة؟ الجواب: نعم، قد يُفهم من كلامه أنَّ الطريقة التي سلكوها في التعامل مع الشبهة مبنيَّة على المناظرة في المقدِّمات الضرورية[2]. فكيف ينبغي أن يكون موقفنا من ذلك؟

لا شكَّ أنَّ أفضلَ طريقة في التعامل مع هذه الشبهة إذا خطرت في قلب الإنسان كوسْوَسة أنْ يتعامل معها وفقَ الإرشادات النبوية، ففيها شفاءٌ لما في الصدور بإذن الله. وأمَّا في مقام المناظرة لأهلِ الإلحاد فيختلفُ الوضع؛ لأنَّه لا يمكن إرشادهم للاستعاذة مِن الشيطان، لأنَّهم لا يؤمنون بوجوده أصلًا. كما أنه لا يمكن إرشادُهم إلى قول: آمنتُ بالله وبرسوله.

---

(١) المصدر السابق (٣/ ٣٢٢).

(٢) وصرّح الشيخ الألباني ﷺ بذلك إذ قال:«وهذا التعليم النبوي الكريم أنفع وأقطع للوسوسة من المجادلة العقلية في هذه القضية، فإن المجادلة قلما تنفع في مثلها. ومن المؤسف أن أكثر الناس في غفلة عن هذا التعليم النبوي الكريم، فتنبهوا أيها المسلمون، وتعرفوا إلى سنة نبيكم، واعملوا بها، فإن فيها شفاءكم وعزكم». [سلسلة الأحاديث الصحيحة (١ / ٢٣٦)].

وما ذكره شيخُ الإسلام أنَّ مَن جحد المقدّمات الضرورية لا يناظر، فهي قاعدة جيِّدة من حيث الأصل، ولكنَّ المشكلة أنَّ الإلحاد المعاصر مبني على جحد الضَّروريات. ولا يجحدونَ هذه الضروريات بناءً على السفسطة المجرّدة فقط، بل ينظّرون لهذا الجحدِ بشُبهات فلسفيَّة وعلمية. ومع الأسف الشديد يتأثّر بعض الناس بهذه الشُّبهات. فلمّا وصلَ الحالُ إلى ما هو عليه الآن، فلا بدَّ من مقاومة هذه الدعوة، والردّ عليها ومناظرتهم إذا أمكن. وهذا يتطلَّب استخدامَ الحجج والبراهين، ومن هنا تأتي الاستفادةُ مِن ردود علماء الغرب. وكما سبق فإنَّ كثيرًا من كلامهم جيِّد وسليم في هذا الباب.

المبحثُ الثّالث
ردودُهم على شبهةِ عدم إمكان رؤية الله

لقد مدح اللهُ تعالى المؤمنين بقوله: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ [البقرة: ٢ - ٣]. ووصفَ سبحانه المؤمنينَ يخشون ربَّهم بالغيب؛ فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ ﴾ [الأنبياء: ٢١]؛ فمن سماتِ المؤمن أنّه يؤمنُ بالله معَ أنه غيبٌ بالنسبة لنا. وذلك الإيمان مبنيٌّ على ما فطر اللهُ عليه عبادَه من الفطرة السويَّة، وكذلك الآيات البيِّنات التي أقامها الله في خلقه ووحيِه.

ولكنْ من الناس مَن يسأل معترضًا: «كيف نؤمنُ بوجود الله مع أننا لا نراه؟». وبالتَّتبع والاستقراء فإنَّ هذا الاعتراض ليس منتشرًا بين دعاة الإلحاد المشاهير، ولكنه سؤالٌ يطرحه عوامُّ الملاحدة، وكذلك يسأله بعضُ أتباع الديانات ممن وقع في قلبه الشك.

ولكنْ حيث إنَّ شبهة: عدم إمكان رؤية الله موجودة عندَ عوام الملاحدة، فسيتمُّ الردُّ عليها باختصار في هذا المبحث. وسأقسِّمه إلى ثلاثِ فقرات:

الفقرةُ الأولى: أسسُ شبهة: عدم إمكان رؤية الله.

الفقرةُ الثّانية: ردودُ علماء الغرب على شبهة: عدم إمكان رؤية الله.

الفقرةُ الثّالثة: تقييمُ ردود علماء الغرب على شبهة: عدم إمكان رؤية الله.

الفقرةُ الأولى: أسسُ شبهة: عدم إمكان رؤية الله:

الخطابُ الإلحادي المعاصر مبنيٌّ على عددٍ من الأسس والركائز. وقد تمّ الردُّ على أبرزِها في الباب الأوَّل. وثلاثة منها مؤثِّرة في شبهة: عدم إمكان رؤية الله، وهي:

الأساسُ الأوَّل: المذهبُ المادي: الملاحدةُ يتبَّنون المذهب المادي، فيحصرون الوجودَ في المادة، وينكرون كلَّ ما سواها.

الأساسُ الثّاني: العلموية: فالملاحدةُ يروْن أنَّ المعرفة منحصرة في العلم التجريبي؛ فما لم يتوصَّل إليه العلم التجريبي فلا يعدُّ علمًا عندهم.

الأساسُ الثّالث: الشُّكوكية الدينية: الملاحدةُ يشكِّكون في كلِّ ما يقوله أتباع الدِّيانات؛ لأنَّهم يرون أنَّ معتقداتهم ليست مبنيَّة على الأدلة من العلم التجريبي.

وقدْ أفردت كلَّ واحدٍ من هذه الأسس الثلاثة بمبحثٍ مُستقلّ، وردّدت على شُبهاتهم. ولكنَّ المقصود في هذا المبحث أنَّ شبهة: عدم إمكان رؤية الله مبنية على هذه الأسس. فالملاحدةُ يحصرون الوجودَ في المادة، ويحصرون المعرفة في العلم التجريبي، وعليه فإنَّهم يشكِّكون في معتقداتِ أتباع الديانات. ومِن ضمن هذه المعتقدات: الإيمانُ بوجود الله. فينشأ السؤال: «كيف نؤمنُ بوجود الله مع أننا لا نراه؟» عند عوامِّ الملاحدة، بينما يقول دعاةُ الإلحاد: «كيف نؤمن بوجود الله مع أنَّه لا يمكن إثباتُ وجودِه عن طريق العلم التجريبي؟» - كما سبقَ الردُّ عليه في مبحث: تعظيم العلم التجريبي - أو بذكر شبهة: عدم الإيمان - كما سيأتي ذكرُه في المبحث السابع من هذا الفصل -.

وممّا يبيَّن أنَّ السؤال عن عدم إمكان رؤية الله ليس مُنتشرًا في الساحة الجدلية بين الملاحدةِ والمؤمنين بوجودِ الله أنَّ الكتبَ المتعمِّقة في نقد الإلحاد التي أنقل منها في هذه الرِّسالة لا تذكر هذا الاعتراض أصلًا. ولكنْ قد أجاب عددٌ من علماء الغرب عن هذا السُّؤال في مقالاتٍ في الشبكة وفيديوهات في يوتيوب. فالظاهرُ أنَّ عوام الملاحدة يكثرونَ من السؤال بسبب الأسس التي وضعَها لهم رؤوسهم، ويتأثَّر حتى بعض النَّصارى بهذا الاعتراض، بل نجد أيضًا أنَّ بعضَ المسلمين يسألون هذا السؤال. وعليه، فإنَّه لا بدَّ من الإجابة عنه.

وقد أجاب علماءُ الغرب على هذا السؤال ببعضِ الأجوبة الجيِّدة، كما سيأتي بيانُه في الفقرة الثانية.

الفقرةُ الثّانية: ردودُ علماءِ الغرب على شبهة: عدم إمكان رؤية الله:

قد ردَّ علماءُ الغرب على هذا السؤال من أوْجه عديدة، أذكر خمسة منها:

الوجهُ الأوَّل: لا نؤمنُ فقط بما نراه: عندما أجابَ البروفسور جان ماكدويل[(١)] عنْ سؤال: «إنْ كنت لا أرى الإله، فكيف أعلمُ أنه حقيقة»، بدأ بهذا الجواب قائلًا: «هناك أشياء كثيرةٌ نؤمن بها ولا نراها. هناك جسيماتٌ دونَ الذرّة التي لا يمكن رؤيتها، ولكنْ نؤمنُ بوجودها. هناك حقائقُ أخرى في الطبيعة لا يمكن رؤيتها: مثل الجاذبية، ولكنَّنا نرى آثارها... فيمكن أن نعلم أنَّ بعض الأشياء موجودة وإن لم نرها»[(٢)].

وهذا الجوابُ جيِّد كمقدِّمة في الردِّ على هذا السؤال. وقد أجاب بنظير ذلك علماءُ الإسلام. ومِن ذلك سماحة الشيخ ابن باز (رحمه الله) حيث قال: «فالمقصود أنَّ العلمَ يكون بالرؤية، ويكون بالخبرِ اليقين، ويكون بالملامسة، ويكون بالشم، ويكون بالنَّظر، ويكون بالسماع، **طرقُ العلم كثيرة**، ما هو فقط بمجرد اللمس، اللمس واحدٌ مِن الطرق، ومِن أعظمها، بل أعظمها وأوسعها العلمُ بالخبر، أنت تعلم أن في الدنيا بلادًا يُقال لها: أمريكا، وأنتَ ما زرتها، تعلمُها يقينًا بالأخبار والإذاعات وغير ذلك، تعلمُ أنَّ في الدنيا خلفاءَ مضوا، والنبي محمد ﷺ مضى، وأنتَ لم تحضر ذلك بالأدلة، بالأخبار، تعلم أنَّ في الدنيا أنهارًا مُعينة، وحيوانات معينة، وبحارًا معينة، بالخبر، لا بالرؤية، لم ترها، وتعلم أنَّ في الدنيا

---

(١) جان ماكدويل (Sean McDowel): أستاذ مساعد في الدفاع عن النصرانية في جامعة بيولا بالولايات المتَّحدة. وهو متخصِّص في نقد الشبهات الإلحادية. انظر:

https://www.biola.edu/directory/people/sean-mcdowell

(٢) المقطع: If I Can't See God, How Do I Know He Is Real?

على الرابط:

https://www.youtube.com/watch?v=u7ohWCL2QkI

مدنًا كثيرةً لم ترها، لكن بالخبر، وهذا شيءٌ لا ينتهي، لا حصرَ له»[1]. فطرقُ العلم كثيرةٌ ومتنوِّعة، وإدراك العلم بالشيء عن طريق الحواسِّ الخمس مثلَ الرؤية إحدى هذه الطرق فقط، وليست الطريقة الوحيدة.

الوجهُ الثّاني: لا نؤمنُ بكلِّ ما نراه: حتَّى لو كان الناسُ يرون الله في الدنيا، فلا يضمنُ ذلك أنَّ الكفار سيؤمنون به؛ لأنَّ الرؤية لا تستلزم الإيمان. وقد أجاب اللاهوتي توم حبيب[2] عنْ هذا السؤال بهذا الوجه إذْ قال: «أولاً، نحن بحاجةٍ إلى تبديد الأسطورة القائلةِ بأنَّ الرؤية إيمان. إنه ليس كذلك، بل لم يكنْ كذلك قط. الدليل على ذلك موجودٌ في الأشخاص الذين رأوا يسوع... شهدَ الآلاف من الناس أن يسوع يصنعُ معجزات مُستحيلة على الإنسان... الرؤية غير الإيمان: انظر فقط إلى أولئك الذين رأوا يسوع، ولم يؤمنوا»[3].

وهذا الوجهُ في أصلِه صحيح، وإنْ كان صاحبُ المقال يضرب مثالًا بعدم إيمان جميعِ الناس بمعجزات المسيح، معَ أنَّهم رأوه لأنَّه نصراني. ولكن هذا الأمر وقعَ لنبيِّنا محمد(ﷺ) أيضًا. ومِن الأمثلة على ذلك: قصةُ انشقاق القمر؛ قال الله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢ وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣﴾ [القمر:١ - ٣]. فالمشركون

---

(١) إجابة الشيخ عن سؤال: «ما الرد على قول: كيف نؤمن بالله ولا نراه؟»، وهي منشورة على الرابط:
https://binbaz.org.sa/fatwas/20983/%D9%85%D8%A7-%D8%A7%D9%84%D8%B1%D8%AF-%D8%B9%D9%84%D9%89-%D9%82%D9%88%D9%84-%D9%83%D9%8A%D9%81-%D9%86%D9%88%D9%85%D9%86-%D8%A8%D8%A7%D9%84%D9%84%D9%87-%D9%88%D9%84%D8%A7-%D9%86%D8%B1%D8%A7%D9%87

(٢) توم حبيب (Tom Habib): الكاهن الأنجليكاني والباحث في مرحلة الدكتوراه في جامعة كامبردج في اللاهوت النصراني. انظر:
https://au.thegospelcoalition.org/profile/tom-habib/

(٣) المقال: How Can I Believe in God if I Can’t See Him?، وهو منشور على الرابط:
https://au.thegospelcoalition.org/article/can-believe-god-cant-see/

يرون بأعينهم أنّ القمر ينشقُّ نصْفين، ومعَ ذلك أعرضوا وقالوا: إنه سحرٌ مُستمرّ، وكذَّبوا واتَّبعوا أهواءهم. فالرؤية غيرُ الإيمان. فالمؤمن يؤمنُ بالله معَ أنه لا يراه في الدنيا. والمشركون كذّبوا بالمعجزات مع أنَّها وقعت أمام أعينهم.

الوجهُ الثّالث: الناسُ لا يؤمنون لأَنَّهم لا يريدون الإيمان. قد تبيّن في الوجه السّابق أنَّ رؤيةَ الإنسان لشيء لا تضمنُ أنَّه يؤمن به. فلماذا لا يؤمن الكفّارُ بوجود الله إذًا؟ وواصل توم حبيب ردَّه السابق بقوله: «لكنَّ هذا يثير سؤالًا. إذا كانت الرؤيةُ تقتضي عدمَ الإيمان - فما هو السببُ الحقيقي لعدم إيمان الناس بالله؟... الناس لا يؤمنونَ لأَنَّهم ببساطة لا يريدون أنْ يؤمنوا... على الرَّغم من جميع الأدلة، فهُم يرفضون الإيمانَ لمجرَّد أنهم لا يريدون التصديق. عدمُ إيمانهم لا يقوم على العقل؛ بل على التمرد، يريدونَ أن يعيشوا الحياةَ بطريقتهم الخاصة»[1].

وهذا الوجهُ صحيح مِن ناحية، فعدمُ إيمان الكفار يبدأ بإعراضهم عن الحق؛ فالآياتُ البيِّنات تأتيهم، ولكنَّهم يعرضون، ويكذِّبون، ويتَّبعون أهواءهم. **فيعاقبهم اللهُ بالحيلولة بينهم وبينَ التوفيق إلى الحقّ**؛ قال اللهُ تعالى: ﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ [الأنعام:١٠٩ - ١١١].

وقال العلامةُ السَّعدي (رحمه الله) في تفسير هذه الآية: «أي: ونعاقبهم، إذا لم يؤمنوا أوَّلَ مرَّة يأتيهم فيها الداعي، وتقوم عليهم الحجَّة، بتقليب القلوب، والحيلولة بينهم وبينَ الإيمان، وعدم التوفيق لسلوكِ الصراط المستقيم. وهذا من عدل الله، وحكمتِه بعباده، فإنَّهم الذين جنَوا على أنفسهم، وفتح لهم الباب فلم يدخلوا، وبيَّن لهم الطريقَ فلم يسلكوا، فبعدَ ذلك إذا حرموا التوفيق، كان مناسبًا لأحوالهم. وكذلك تعليقُهم الإيمان بإرادتهم، ومشيئتهم وحدَهم، وعدم الاعتماد على الله من أكبر

---

(١) المصدر السابق.

الغلط، فإنَّهم لو جاءتهم الآياتُ العظيمة، من تنزيل الملائكة إليهم، يشهدونَ للرسول بالرسالة، وتكليم الموتى، وبعثهم بعدَ موتهم، وحشر كلِّ شيء إليهم حتى يكلمهم ﴿قُبُلًا﴾ ومشاهدة، ومباشرة، بصدق ما جاء به الرسول ما حصل منهم الإيمان، إذا لم يشأ الله إيمانَهم، ولكنَّ أكثرهم يجهلون. فلذلك رتَّبوا إيمانهم على مجرَّد إتيان الآيات، وإنما العقل والعلمُ أن يكون العبدُ مقصوده اتِّباع الحق، ويطلبه بالطرقِ التي بيَّنها الله، ويعمل بذلك، ويستعينُ ربه في اتِّباعه، ولا يتَّكل على نفسه وحولِه وقوَّته، ولا يطلب من الآيات الاقتراحية ما لا فائدةَ فيه»[١].

فما هي الآياتُ البيِّنات إذًا؟ بيانُ ذلك في الوجه الرابع:

الوجهُ الرّابع: الأدلةُ على وجود الله كثيرة: الذين يسألون: «كيف نعلم أنّ الله موجودٌ معَ أننا لا نراه؟». يعرضونَ عن فطرتهم التي فطرهم الله عليها، كما أنهم يعرضون عنْ جميعِ آياتِ الله الكونية. ولما ردَّ اللاهوتي آرون منيكوف[٢] على هذه الشبهة أشارَ إلى أنَّ الطبيعة كلها دليلٌ على وجود الله. ثمَّ استطرد في ذكر الأمثلة على ذلك مما نشاهده، وكذلك من الضبط الدقيق للكون[٣].

وهذا الكلامُ صحيح، وطلبُ الملاحدة أن يروا اللهَ مباشرة تحكّم؛ فهُم لا يلتزمون بأنَّ الرؤية هي الطريقةُ الوحيدة للمعرفة، بل كثيرُ العلوم التجريبية قائمة على الاستدلال بالآثار والقرائن؛ فـ«البرهانُ المطلوب تحكُّمي في حصريته؛ إذ لا يقوم عليه شاهدٌ عقلي يقرِّر أنَّ العلم بوجود خالق للكون... لا يكونُ إلّا بمعاينته بالحواس

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٢٤٧).

(٢) آرون منيكوف (Aaron Menikoff): القسيس الأمريكي، وحامل شهادة الدكتوراه في اللاهوت النصراني. انظر:
https://mvbchurch.org/about/leadership/staff/aaron-menikoff/

(٣) انظر: المقال: How Do We Know There’s a God When We Can’t See Him? على الرابط:
https://www.christianity.com/bible/apologetics/how-do-we-know-there-s-a-god-when-we-can-t-see-him.html

بطريق مباشر أو أيِّ سبيلٍ آخر يمتنع على المرء أن يشاكسَ في صوابه. وهذا التكلّف مخالفٌ لما يلتزم به الملحدُ في تطلُّب المعرفة في الأوْجه الأخرى جميعها؛ إذ إنَّ العلم الطبيعي - مثلًا - قائم في كثيرٍ من مباحثِه على الآثار والقرائن لا النظر المباشر، خاصة في مباحث الفيزياء والكوسمولوجيا(١)...»(٢).

وقد ذكرَ العلامةُ ابن باز (رحمه الله) وجهًا قريبًا من هذا الكلام في جوابه عن هذا السُّؤال أيضًا: «هذا مِن الإيمان بالغيب: ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ ﴾ [البقرة:٣]، **فتؤمن بالله، وقد رأيت آياته، أنتَ من آياته**، أنتَ مخلوقٌ من آياته، الذي أعطاك السمع والبصر، والعقلَ والجوارح، وخلق الماء، وخلقَ لك هذه النعم، هذه آياته الدالة عليه، «في كلِّ شيءٍ له آية تدلُّ على أنه واحد»، وأنتَ لم تُخلق عبثًا، وآياتُ الله لا تُحصى: من أنهارٍ، وبحارٍ، وجبالٍ، وسماء، وأرض، وغير ذلك، وأنت من آياته، كما قال ﴿ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ۝٢١ ﴾ [الذاريات: ٢٠ - ٢١]»(٣).

ونبَّه العلامةُ ابن باز (رحمه الله) على أمرٍ مهمٍّ للغاية في جوابه هذا، وهو أنَّ الإنسانَ نفسَه آيةٌ من آيات الله. فالإنسانُ لا يحتاج أن ينظر بعيدًا بحثًا عن آيات الله، فالإنسانُ نفسه آية من آياته. وهذا يقود إلى الوجه الخامس:

الوجهُ الخامس: العينُ نفسُها دليلٌ على وجود الله: الملحدُ الذي يسأل السؤالَ عنْ رؤية الله ينسى أنَّ العين التي ينظر بها مِن أعظم الآيات على وجود الله. وقد ذكر الدكتور جوزيف نالي(٤) الوجهَ في ردِّه على هذا السؤال؛ فقال: «العينُ مدهشة للغاية! يجبُ أن تكون جميعُ الأنظمة الفرعية المنفصلة موجودة، وتعمل بشكلٍ

---

(١) بمعنى علم الكون.

(٢) براهين وجود الله (٧٦).

(٣) إجابة الشيخ عن سؤال: «ما الرد على قول: كيف نؤمن بالله ولا نراه؟»، المشار إليها سابقًا.

(٤) جوزيف نالي (Joseph Nally): عالم اللاهوت الأمريكي، وحامل شهادة الدكتوراه في اللاهوت النصراني. انظر:

http://reformedanswers.org/search.asp/au/jos_nally

مثالي في نفس اللَّحظة، وإلّا فلن تعمل العين... لذلك، يمكننا أنْ نرى تصميم العين، إنَّه عجيب، ووجودُها ليس مجرَّد صدفة، بل لها مصمِّم واسمه الإله. لذلك، في كلِّ مرَّة ترى فيها غروبَ الشمس وشروقَ الشمس والقمر والنجوم والمحيطات وكلَّ عجائب الخلق العديدة الأخرى؛ فإنَّ الله هو الذي أعطاك عينًا لرؤيتها»[١].

وإرشادُ السائل عنْ رؤية الله إلى تأمُّل عينيه أوّلًا، ثمَّ إلى استخدام العينين في النظر إلى آياتِ الله تعالى طريقة ذكيَّة في الردِّ على هذه الشبهة، وينبغي الاستفادة منها.

الفقرةُ الثّالثة: تقييمُ ردودِ علماء الغرب على شبهة: عدم إمكان رؤية الله:

قد سبقَ أنَّ شبهة: عدم إمكان رؤية الله ليست منتشرةً بين الملاحدة اليوم، ولهذا كانت ردودُ علماء الغرب عليها قليلة. ومعَ ذلك، فقد نبَّهوا على بعض النقاط المهمَّة في الردِّ على هذه الشُّبهة. فردودُهم جيِّدة من حيث العموم، إلّا أنهم يستخدمون وجهيْن باطلين في ردِّهم على هذه الشبهة، وهما:

الوجهُ الأوَّل: أنَّ الإله أظهرَ نفسَه عن طريق المسيح. ذكر بعض من ردَّ على هذه الشُّبهة هذا الوجْه[٢]. وهو وجهٌ في غاية الضعف بسببين:

السببُ الأوَّل: أنَّه مبنيٌّ على عقيدةٍ فاسدة، وهي الإيمان بألوهية المسيح وحلول اللّاهوت في الناسوت. وقد ردَّ اللهُ - تبارك وتعالى - على هذا الاعتقاد في الآيات

---

(١) المقال: If I Cannot See God, I Cannot Believe in God, وهو منشور على الرابط: http://reformedanswers.org/answer.asp/file/40705

(٢) انظر المقال: How do I know God exists, when I cannot see Him? How do I know the Bible is truly God's Word?

وهو منشور على الرابط:

https://bible.org/seriespage/q-how-do-i-know-god-exists-when-i-cannot-see-him-how-do-i-know-bible-truly-god-s-word

التالية: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ [المائدة: ٧٢]. ثمَّ قال اللهُ تعالى: ﴿ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [المائدة: ٧٥].

فبيَّن اللهُ تعالى حجَّتين أساسيتين في نقضِ دعوى ألوهية المسيح:

الحجَّةُ الأولى: أنَّ المسيح نفسه دعا الناس إلى عبادة الله.

الحجَّةُ الثّانية: أنَّ المسيح وأمَّه كانا يأكلان الطعام. قال العلامة السعدي (رحمَه الله) معلّقًا على هذه الحجَّة أنَّ هذه الآية: «دليل ظاهر على أنهما عبدان فقيران، مُحتاجان كما يحتاجُ بنو آدم إلى الطعام والشراب، فلو كانَا إلهيْن لاستغنيا عن الطعام والشراب، ولم يحتاجَا إلى شيء، فإنَّ الإله هو الغني الحميد»[1].

ويمكن إلزامُ النَّصارى بأنَّ هاتين الحجَّتين موجودتان في كتابهم المقدَّس. فيقول كتابُهم المقدَّس إنَّ الشيطان جاء إلى المسيح، وطلبَ منه أن يسجدَ له، فأجابه بقوله: «اذْهَبْ يَا شَيْطَانُ! إِنَّهُ مَكْتُوبٌ: **لِلرَّبِّ إِلَهِكَ تَسْجُدُ وَإِيَّاهُ وَحْدَهُ تَعْبُدُ**»[2].

كما أنَّه مكتوبٌ في أعمال الرسل: (الإِلَهُ الَّذِي خَلَقَ الْعَالَمَ وَكُلَّ مَا فِيهِ هَذَا إِذْ هُوَ رَبُّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لاَ يَسْكُنُ فِي هَيَاكِلَ مَصْنُوعَةٍ بِالأَيَادِي **وَلاَ يُخْدَمُ بِأَيَادِي النَّاسِ كَأَنَّهُ مُحْتَاجٌ إِلَى شَيْءٍ** إِذْ هُوَ يُعْطِي الْجَمِيعَ حَيَاةً وَنَفْسًا وَكُلَّ شَيْءٍ)[3]. فكيف يكون المسيحُ إلهًا وكان بحاجةٍ إلى أكل الطعام؟ هذا دليلٌ واضح في الردِّ على دعوى ألوهيته.

السببُ الثّاني: الذي يسأل هذا السؤالَ لا يسأل عن المسيح الذي مشى على وجْه الأرض، ويعتقد النصارى أنَّه إلهٌ ويسمُّونه الابن. بل الذي يسأل هذا السؤال يسألُ

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٢١٩).

(٢) لوقا (٤/ ٨).

(٣) أعمال الرسل (١٧/ ٢٤ - ٢٥).

عن خالق السماوات والأرض، الذي يسمِّيه النصارى بالأب. فكلامهم عن المسيحِ وألوهيته في ردِّهم على هذا السؤال في الحقيقة؛ حيدةٌ عن الجواب.

الوجهُ الثّاني: أنَّ البروفسور جان ماكدويل ذكرَ مِن أوجه الردِّ على هذه الشبهة أنّه لا يمكن رؤيةُ الإله لأنَّ الإله روحاني[1].

وهذا كلامٌ باطل. فلا يجوز إطلاقُ وصف (روحاني) على الله تعالى، فهذا من مُبتدعات النصارى، بل لله تعالى ذاتٌ مقدَّسة بالصفات العلية، وليس كمثله شيء في ذاتِه ولا صفاته جلَّ في علاه. وكذلك فإنَّ رؤيةَ الله تبارك وتعالى ممكنة في الدنيا؛ قال العلّامة ابنُ أبي العز الحنفي (رحمه الله): «... فإنَّ الرؤية في الدنيا ممكنة، إذ لو لم تكنْ ممكنة لما سألها موسى ﷺ»[2]. وقد ذكرَ اللهُ في القرآن أنَّ موسى طلب أن يرى الله، كما أنَّ هذا الطلب مذكورٌ في كتابهم المقدَّس. ولكن مِن تناقضات كتابهم المقدّس أن الإله أجابَ في ذلك الموضع: (لا تَقْدِرُ انْ تَرَى وَجْهِي لانَّ الْانْسَانَ لا يَرَانِي وَيَعِيشُ)[3]، مع أنَّه مكتوب قبل ذلك في السفر نفسه: (وَيُكَلِّمُ الرَّبُّ مُوسَى وَجْها لِوَجْهٍ كَمَا يُكَلِّمُ الرَّجُلُ صَاحِبَهُ)[4].

فالنصارى يتخبَّطون في هذه المسألة بناءً على التناقضات في هذا الكتاب. والصوابُ عند أهل السُّنة أنَّ رؤية الله ممكنة في الدنيا، ولكنْ لا نراه لعجز أبصارنا عن ذلك؛ قال شيخُ الإسلام ابنُ تيمية (رحمه الله): «وإنما لم نَرَهُ في الدنيا لعجز أبصارنا، لا لامتناع الرؤيا... فإذا كان في الدار الآخرة أكملَ الله قوى الآدميين حتى أطاقهم رؤيته»[5]. فرؤيةُ الله في الدنيا ممكنة، ولكنَّ أبصارنا لا تطيق ذلك، وأما في الآخرة فإنَّ رؤيةَ الله أعظمُ النعيم؛ قال النبي (ﷺ): «إذا دخل أهل الجنةِ الجنةَ، قالَ:

---

(١) المقطع: If I Can’t See God, How Do I Know He Is Real? المشار إليه سابقًا.

(٢) شرح العقيدة الطحاوية (١ / ٤٣٤).

(٣) سفر الخروج (٣٣ / ٢٠).

(٤) المصدر السابق (٣٣ / ١١).

(٥) منهاج السنة (٢ / ٣٣٢ - ٣٣٣).

يقولُ اللَّهُ تَبارَكَ وتَعالَى: تُرِيدُونَ شيئًا أَزِيدكُم؟ فيَقولون: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنا الجَنَّةَ؛ قالَ: فَيَكشِفُ الحِجابَ، فَما أُعْطُوا شيئًا أَحَبَّ إليهِم من النَّظَرِ إلى رَبِّهِم عزَّ وجلَّ»[1].

والخلاصةُ أنَّ شبهة: عدم إمكان رؤية الله شبهة ضعيفة جدًّا، وقد أحسن علماءُ الغرب في الردِّ على هذه الشُّبهة من بعض الأوجه، وكانت ردودُهم باطلة من أوجه أخرى. والحقُّ الخالص لا يكون إلا في الإسلام.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٨١)، كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى، من حديث صهيب الرومي (رضي الله عنه).

المبحثُ الرّابع
ردودُهم على شبهةِ تناقض القدرة المطلقة

قد تقدَّم الحديثُ في المبحث الأوَّل من هذا الفصل عن شبهة: الخصائص غير المتوافقة. وذكرت أنَّها شبهةٌ عامَّة تتضمَّن شبهات متعدّدة. ومن أشهر هذه الشبهات: شبهة تناقض القدرة المطلقة (Omnipotence Paradox)[1]. ملخّص هذه الشبهة أنّ المؤلهة يعتقدونَ أنَّ الله متَّصف بالقدرة المطلقة؛ فهو قادرٌ على كلِّ شيء. ولكنهم يقولون: إنّ القدرةَ المطلقة مستحيلة، ولو قيل: «الإله قادرٌ على كلِّ شيء»، فلا بدَّ من وجود بعض الاستثناءات من كلمة «كلّ شيء»، وإن لم يكن كذلك، فإنّه يعدّ تناقضًا.

وسأقسِّم هذا المبحث إلى أربع فقرات:

الفقرةُ الأولى: تاريخُ شبهة: تناقض القدرة المطلقة.

الفقرةُ الثّانية: صياغةُ شبهة: تناقض القدرة المطلقة.

الفقرةُ الثّالثة: ردودُ علماء الغرب على شبهة: تناقض القدرة المطلقة.

الفقرةُ الرّابعة: تقييمُ ردود علماء الغرب على شبهة: تناقض القدرة المطلقة.

الفقرةُ الأولى: تاريخُ شبهة: تناقض القدرة المطلقة:

أوَّل مَن أورد هذه الشبهة هُم اللاهوتيون النصارى عندما تحدَّثوا عن القدرة المطلقة؛ فأوردوا اعتراضاتٍ عليها. وهؤلاء لم يكونوا ملاحدة، وما قصدوا

---

(١) ذكر باتريك غريم - بروفسور الفلسفة الأمريكي - أنّها أكثر انتشارًا من الشبهات المتعلّقة بعلم الله المحيط في:

Impossibility Arguments, in The Cambridge Companion to Atheism (204)

إيرادَ الاعتراضات من أجلِ التَّشكيك، وإنَّما أوردوها على طريقة المتكلّمين واللاهوتيين باعتبار أنها شبهات قد تُثارُ عن القدرة المطلقة مع ذكر كيفية الإجابة عنها[١].

ومِن الأمثلة على ذلك ما ذكره اللاهوتي الشهير توما الأكويني في كتابه الأشهر: «الخلاصة اللاهوتية» (Summa Theologica) في الجزء الأوّل، السؤال الخامس والعشرون، المقالة الثالثة، إذْ عنْون بقوله: «هل الإلهُ قادرٌ على كلِّ شيء؟»[٢]، ثمّ كتب: «يظهر أنَّ الإله ليس قادرًا على كلِّ شيء.

الاعتراضُ الأوَّل: أنْ يحرِّكه أحدٌ أو يتصرَّف فيه يدخل في جملة «كلّ شيء»، ولكنَّ الإله لا يمكن تحريكه ولا التصرُّف فيه؛ لأنَّه... غيرُ قابل للتغيير. وعليه، فإنه ليس قادرًا على كلّ شيء.

الاعتراضُ الثّاني: الوقوعُ في الذَّنب هو فعلُ شيء. والإله لا يمكنه الوقوع في الذَّنب، ولا إنكار نفسه كما يعبَّر به في ٢ تيموثاوس[٣] ٢:١٣. وعليه، فالإله غير قادرٍ على كلِّ شيء...»[٤]، وأوردَ اعتراضين آخرين متشابهين بعد ذلك، ثمَّ قال:

«وبالمقابل لهذا، فإنَّ لوقا ١: ٣٧ يقول: «لأنه لا يوجد شيء غير ممكن عند الله». وأنا أجيب: كلُّ أحد يعترف بأنَّ الإله قادر على كلِّ شيء، ولكن يبدو من الصعب أن يصاغَ تقريرٌ عن القدرة المطلقة، لأنَّه يمكن أن تورَد شبهات على مضامين

---

(١) انظر:

The Philosophy of Religion (83), by: Edward R. Wierenga (Wiley Blackwell, 2016)

(2) Summa Theologica, Book 1, Question 25, Article 3,

وهو موجود على الرابط:

https://www3.nd.edu/~afreddos/summa-translation/Part%201/st1-ques25.pdf

(٣) يشير إلى رسالة بولس الثانية إلى تيموثاوس.

(٤) المصدر السابق.

كلمة: «كلّ شيء» عندما يقول أحد: «الإلهُ قادرٌ على كلِّ شيء»[1]. ثمّ بدأ بالردّ على هذه الشُّبهة بعد ذلك. وأسَّس ردَّه على أنَّ الإله قادرٌ على جميع الممكنات، وأمّا المستحيلاتُ فلا تدخل تحتَ لفظ: «قادر على كلِّ شيء»، قد تبع أكثر اللاهوتيين هذا الرَّأي بعده[2]. وسوف نعودُ إلى هذه الردود لاحقًا - إن شاء الله -.

ثمَّ جاء رينيه ديكارت في القرن السادس عشر، وذكرَ هذه الشبهة، ولكنّه ردَّ عليها مِن منظور آخر، وهو أنَّ الإله قادرٌ على كلِّ شيء، سواء كان من الممكنات أو المستحيلات؛ فديكارت يرى أنَّ الإله قادرٌ على جعل المثلَّث مربّعًا مثلًا[3]. ولكن حسبَ التتبُّع والاستقراء فلم يتلقَّ هذا القول قبولًا واسعًا بين اللاهوتيين والفلاسفة النصارى.

وفي القرن العشرين، استجدَّ النقاشُ عن القدرة المطلقة بين الفلاسفة في الغرب. وفي عام ١٩٦٣م، نشرَ جورج مافروديس[4] مقالاً فلسفيًّا بعنوان: «بعض الألغاز المتعلّقة بالقدرة المطلقة» (Some Puzzles Concerning Omnipotence) في دورية المراجعة الفلسفية[5]، وضربَ مثالاً لهذا التناقض المزعوم، وهو السؤال: «هل

---

(١) المصدر السابق.

(٢) انظر:

Analytic Philosophy of Religion (78), by: James Franklin Harris, (Kluwer Academic Publisher, 2002).

(٣) انظر:

The philosophical writings of Descartes (2:294), by: Rene Descartes, (Cambridge University Press, 1984-1991)

(٤) جورج مافروديس (George Mavrodes): بروفسور فلسفة الدين في جامعة ميشيغان بالولايات المتَّحدة. توفي عام ٢٠١٩م. انظر:

https://lsa.umich.edu/philosophy/news-events/all-news/search-news/in-memoriam-george-mavrodes.html

(5) Some Puzzles Concerning Omnipotence, The Philosophical Review 72, 1963

يستطيع الإلهُ أن يخلق حجرًا، ثمَّ لا يقدر أن يحمله»؟ ثمَّ ردَّ البروفسور مافروديس على هذا التناقض المزعوم.

وفي عام ١٩٦٥م، نشرَ سي واد سافيج[١] ردًّا على ذلك المقال بعنوان: «مفارقة الحجر» (The Paradox of the Stone) في تلك الدورية نفسها[٢]. واشتهرت هذه الشبهة بعدَ ذلك بهذا الاسم. وهو مِن الأمثلة الشعبية بينَ الملاحدة إلى اليوم التي يذكرونها في مناقشاتهم مع المؤلهة.

وقد ذكر عددٌ من الملاحدة هذه الشبهةَ في مؤلفاتهم[٣].

الفقرةُ الثّانية: صياغةُ شبهة: تناقض القدرة المطلقة:

هذه الشبهةُ تُصاغ على طريقة السؤال: «هل الله قادرٌ على أن يخلق حجرًا لا يستطيع أن يحمله؟» كما أنَّها تصاغ أيضًا بطريقةٍ منطقية، كما فعل البروفسور سي واد سافيج في مقاله: «مفارقة الحجة». وهذه الصياغة كالآتي:

١) إمَّا أنَّ الإله يستطيع أن يخلق حجرًا ولا يقدرُ حمله، وإمّا أنه لا يستطيع أن يخلقَ حجرًا لا يقدر حمله.

٢) إنْ كان الإلهُ يستطيع أن يخلقَ حجرًا ولا يقدر حمله، فإنّه ليس بقادر على كلِّ شيء (حيث إنه لا يستطيع أن يحملَ الحجر المذكور).

---

(١) سي واد سافيج (C. Vade Savage): بروفسور الفلسفة في جامعة ميشيغان بالولايات المتَّحدة. انظر:

https://www.upress.umn.edu/people/c-wade-savage

(2) The Paradox of the Stone, The Philosophical Review 76, 1967

(٣) ذُكرت هذه الشبهة في المراجع الآتية:

Atheism Explained from Folly to Philosophy (225-228), by David Ramsay Steele.

Atheism-A Guide for the Perplexed (79-81)

Impossibility Arguments, by Patrick Grim, in The Cambridge Companion to Atheism (199)

٣) إنْ كان الإله لا يستطيعُ أن يخلق حجرًا لا يقدر على حمله فهو ليس قادرًا على كلِّ شيء (حيث إنه لا يستطيع أن يخلق الحجر المذكور).

٤) إذًا، الإلهُ ليس بقادر على كلِّ شيء[١].

هذه هي الصياغةُ المعروفة لمفارقة الحجر.

الفقرةُ الثّالثة: ردودُ علماء الغرب على شبهة: تناقض القدرة المطلقة:

قد ردَّ علماءُ الغرب على هذه الشبهات من أوْجه كثيرة، وأبرزها أربعة:

الوجهُ الأوَّل: أساسُ الردود لهذه الشُّبهة هو بفهْم المقصود بالقدرة المطلقة، وأنّه قادرٌ على كلِّ شيء. فـ«كلُّ شيء» هنا يشمل الممكناتِ دونَ المستحيلات. وقد أشار توما الأكويني إلى ذلك بعدَ أن ذكر الاعتراضات على القدرة المطلقة فقال: «إذا نظر المرءُ إلى الأمر بشكل صحيح، فحيث إنَّ القدرة تُذكر في سياق الأمور الممكنة، فيتبع ذلكَ أنَّه إذا قيل: «إنَّ الله قادرٌ على كلِّ شيء»، فالمقصود: أنّه قادر على الأشياء الممْكنة، ولهذا يوصَف اللهُ بأنَّ لديه قدرة مطلقة»[٢]. ثمَّ بيَّن أنَّ المتناقضات لا تدخل في جُملة: «كلُّ شيء»؛ فقال: «وعليه، فكلُّ أمرٍ لا يشمل التناقض يدخل في الأشياء الممْكنة بخصوص ما تسمَّى بقدرة الله المطلقة»[٣].

فقبْل أن يسأل الملحدُ هذا السؤال، فلا بدَّ أن يفهم طبيعة إيمان المؤمن بهذه الصِّفة، وإلّا كان الانتقادُ من قبيل مغالطة رجل القش.

الوجهُ الثّاني: وهو بيانُ أنَّ هذا السؤال متناقض في ذاته. وقد بيّن البروفسور جيورج مافريدوس ذلك بأنَّ هذا السؤال يمكن أن يتوجَّه إلى الإنسان ذي القدرة المحدود؛ فيقال: «هل يستطيع الإنسانُ المحدود في قدرته أن يصنع شيئًا، ثمّ لا يستطيع أنْ يحمله؟» ولكن لا يتوجَّه هذا السؤال إلى الإله القادرِ على كلِّ شيء، لأن

---

(١) انظر: The Paradox of the Stone, The Philosophical Review 76, 1967, (p. 74)

(2) Summa Theologica, Book 1, Question 25, Article 3

(٣) المصدر السابق.

السؤال يكون: «هل يستطيع الإلهُ القادرُ على حمل كلِّ شيء ألا يحمل حجرًا؟ وهنا يبرز التناقضُ في السؤال»[1].

الوجهُ الثّالث: وأضافَ البروفسور وليام لاين كرايغ أنّ المذكور في هذا السؤال لا يعدُّ شيئًا، وغايةُ المذكور هو جملةٌ من الكلمات المتناقضة. وعليه، فلا يمكن أن نتحدَّث عنْ شيء لا يقدر الإله على فعله[2].

الوجهُ الرّابع: ذكر صاحبُ المقال: «الإله، القدرة المطلقة ومفارقة الحجر» (God, Omnipotence and the Stone Paradox)، بعض الأوجه السابقة، ثمّ أضاف وجهًا آخرَ بقولِه: «لتعزيز النُّقطة السابقة: تفترض هذه الحجةُ أنَّ الوزن هو خاصية جوهرية للحجر، في حين أننا نعلم أنَّ الوزن مجرَّد قوة ثقالية يمكن إلغاؤها بحيث تساوي الصفر. الخاصيةُ الجوهرية هي كتلةُ القصور الذاتي للحجر. وعليه، فإنَّ السؤال الوحيد المشروع: ما إذا كان الإلهُ يستطيع تسريعَ الحجر خلال تطبيق قوة كبيرة بما فيه كفاية. وحجر الكتلة اللانهائية يتطلَّب قوةً لانهائية لتسريعها. إذا كان الإلهُ يستطيع أن يخلق حجرًا من الكتلةِ اللانهائية، فيمكنُه أيضًا إنشاءُ قوة ذات حجم غير محدود، ومن ثمَّ نقل الحجر. يجبُ أن ينطبق الأمرُ نفسه على أيِّ كتلة غيرِ محدودة وقوَّة. لكن بحكم التعريف، لا يمكنُ أن يكون للكتلة كتلةٌ أكبر من اللانهاية، لذلك لا يوجد حجرٌ ممكن لا يستطيع اللهُ تحريكه»[3].

---

(١) انظر:
Some Puzzles Concerning Omnipotence, The Philosophical Review 72, (p. 221-223)

(٢) ذكر ذلك في كلمة على البودكاست: Defenders, بعنوان: (Doctrine of God (Part ١٧، وهي مفرّغة على الرابط:
https://www.reasonablefaith.org/podcasts/defenders-podcast-series-2/s2-doctrine-of-god-attributes-of-god/doctrine-of-god-part-17/

(٣) المقال: God, Omnipotence and the Stone Paradox, وهو موجود على الرابط:
https://philosophicaugustine.wordpress.com/2013/05/21/god-omnipotence-and-the-stone-paradox/

وهذا الردُّ فيه ذكاء، حيث يخاطب المتشكِّك بكلام مبنيٍّ على العلم التجريبي، وبيان ماهية الثقل في الحجر، وعليه، فيبيِّن أنَّ هذا السؤال سؤال فاسد.

الفقرةُ الرّابعة: تقييمُ ردودِ علماء الغرب على شبهة: تناقض القدرة المطلقة:

ردودُ علماء الغرب على شبهة: تناقض القدرة المطلقة تنقسم إلى قسمين:

القسمُ الأوّل: ردودٌ عقلية جيّدة.

القسمُ الثّاني: كلامٌ فلسفي معقّد لا طائل من ورائها.

وقد تعمَّدت الإعراضَ عن القسم الثاني من هذه الردود، لأنّها ردود في المجلّات الفلسفية المتخصّصة، ولا فائدة كبيرة من ترجمتِها إلى اللغة العربية، ثمَّ الردّ عليها. وأمّا الردودُ التي سبق ذكرُها في المبحث، فهي ردودٌ عقلية جيّدة. وأصلُ هذه الردود يرجع إلى المفهومِ الصحيح للقدرة المطلقة، وأنَّ المستحيلات لا تدخل في هذه القدرة. وهذا ما نصَّ عليه شيخُ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) أيضًا إذ قال في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠]: «يتناول ما كان شيئًا في الخارج والعلم، أو ما كان شيئًا في العلم فقط، بخلاف ما لا يجوز أن تتناوله المشيئة وهو الحقُّ تعالى وصفاته، **أو الممتنع لنفسه فإنَّه غير داخل في العموم**، ولهذا اتفق الناس على أنَّ الممتنع لنفسه ليس بشيء»[(١)].

وهذا الردُّ قريب مما ذكره توما الأكويني، وردُّه هو أساس ردود النصارى على هذه الشبهة.

«وأساسُ الغلط في تلك الأسئلة راجعٌ إلى الخلط بين ما يمكن أن يقوم في الذهن وبينَ ما يمكن أن يتحقَّق في الخارج، فما يقوم في الذهن أوسع بكثير مما يمكن أن يقع في الوجود، فالذهنُ الإنساني قد يتصوَّر أمورًا كثيرة تكون مستحيلة التحقّق في الخارج، فمجرَّد التصوّر الذهني لا يستلزم إمكانَ التحقُّق في الخارج؛ وذلك أن الوجود الخارجي له طبيعةٌ مختلفة عن طبيعة الوجود الذهني، والظروف المشترطة في تحقّقه مختلفة عن الظُّروف المشترطة في الوجود الذهني.

---

(١) مجموع الفتاوى (٨/ ٣٨٣).

ولكنَّ المعترضين بتلك الأسئلة يغفلون عنْ هذه الفروق الجوهرية المؤثّرة بين الوجودين، بلْ يجهلونها، ويطالبونَ الآخرين بالاستجابة لنتائج غفلتهم وجهلهم، وإن لم يفعلوا حكموا عليهم بالجهْل وعدم العلم!

الطريقةُ الصَّحيحة في التعامل مع الأسئلة التي يتحقَّق فيها الخلط بين طبيعة الوجود الذهني والوجود الخارجي تنحصرُ في بيانِ وجه الخطأ في ذلك الخلط، ولا يصحُّ أن يسترسلَ المسئول في الجواب عنْ مضمونها بالنفي أو الإثبات»[1].

وهذا يلخِّص نقدَ هذه الشبهة بطريقة جيِّدة، ويبيّن مدى سخافتها، وأنَّها مبنية على مُغالطات وسوءِ فهْم للمراد بالقدرة المطلقة.

---

(١) ظاهرة نقد الدين في الفكر الغربي الحديث (٢ / ١١٧ - ١١٨).

المبحثُ الخامس
ردودُهم على شبهةِ الوحي غير المتناسق

الشُّبهاتُ الإلحادية تتَّخذ صورًا وأشكالًا مختلفة، فبعضُها موجَّهة إلى أصل الإيمان بوجودِ خالق، ويشترك المؤلهة والربوبيون في هذا الإيمان معًا.

وبعضُ الشُّبهات الإلحادية موجَّهة ضدَّ إيمان المؤلهة خاصَّة - كما سبق -، ولا تتوجّه إلى الربوبيين. و«يختلف الربوبيون عنِ المؤلهة أساسًا في علاقة الإله بالخلق؛ فالربوبيون ينكرونَ الوحي، ويعارضون الأديان، ويروْن أنَّ الإله الخالق لم يتواصل مع أحد من البَشر»[١]. وقد وقفَ الربوبيون والملاحدة في خندقٍ واحد في إثارة الشبهات المتعلقة بالوحي الإلهي. ومِن ذلك الشبهةُ التي يسمُّونها بـ: «حجة الوحي غير المتناسق» (The Argument from Inconsistent Revelations).

خلاصةُ هذه الشُّبهة أنَّه يستبعد أنَّ الإله الذي يؤمن به المؤلهة موجود؛ لأنَّ المؤلهة يؤمنونَ بأديان مختلفة، ويدَّعون أنَّ أديانهم تستند إلى الوحي الإلهي. وهذا الوحي مُتعارض وغيرُ متناسق. وحيث إنَّ هذا التعارض موجود فإنه يدلُّ على عدم وجود الوحي أساسًا. وعليه، فإنَّ الخالقَ الذي يؤمن به المؤلهة غير موجود[٢].

وسأقسِّم هذا المبحثَ إلى ثلاث فقرات:

الفقرةُ الأولى: تقريرُ الربوبيين والملاحدة لشبهة: الوحي غير المتناسق.

الفقرةُ الثّانية: ردودُ علماء الغرب على شبهة: الوحي غير المتناسق.

الفقرةُ الثّالثة: تقييمُ ردود علماء الغرب على شبهة: الوحي غير المتناسق.

---

(١) انظر: براهين وجود الله (٥٩).

(٢) انظر المقال: Argument from Inconsistent Religion :

http://self.gutenberg.org/articles/Argument_from_inconsistent_revelations

الفقرةُ الأولى:
تقريرُ الربوبيين والملاحدة لشبهة: الوحي غير المتناسق:

قدْ ظهرت هذه الشُّبهة في عصر التنوير حينَ علا صوتُ الربوبيين. وكان الفيلسوف الرُّبوبي فولتير يستخدمُ هذه الشبهة[1]، ثمَّ تلقَّفها الفيلسوف دنيس ديدرو[2]، الذي كان ربوبيًّا في أوَّل أمره، ثمّ تحوَّل إلى الإلحاد. وكان ديدرو يستخدم هذه الشبهة لمعارضة رهانِ باسكال - كما تقدَّم في المبحث المخصّص لتلك الحجَّة -.

وفي هذا الزمان، يستخدم سام هاريس هذه الشبهةَ في عددٍ من المواطن كحجةٍ إلحادية. وقد قرَّر هذه الشبهة في مقدِّمة كتابه: «رسالة إلى أمة مسيحية» (Letter to a Christian Nation)، فيقول: «أنت تؤمن أنَّ الكتاب المقدّس هو كلمة الله، وأنَّ يسوع هو ابنُ الله، وأنَّ الذين يؤمنون بيسوع هُم وحدهم الذين سيجدون الخلاص بعد الموت. ليسَ لأنَّها تجعلك تشعرُ بالرضا، ولكنْ لأنَّك تعتقد أنها صحيحة... إذا كانت المسيحية صحيحة، وأصرَّت على عدم الإيمان، يجب أن أتوقَّع الذهاب إلى الجحيم. والأسوأ من ذلك هو أنَّني أقنعت الآخرين بذلك - وكثيرٌ منهم قريبون منِّي - برفض فكرة الإيمان بالله... إنْ كانت العقيدةُ الأساسية للمسيحية صحيحة، فقد أسأت استخدامَ حياتي بأسوأ طريقة يمكن تصوُّرها. أعترفُ بذلك مباشرة. والحقيقة أنَّ رفضي المستمرّ والعلني للمسيحية لا يُقلقني على الأقلّ؛ يوحي لك أنَّني أعتقد أن أسباب كونك مسيحيًّا غير كافية...»[3].

ثمَّ واصل بعدَ ذلك شبهتَه بعدَ صفحتين بقوله: «تأمَّل: كلُّ مسلم متديِّن لديه الأسبابُ نفسها لكونه مسلمًا التي لديك لكونك مسيحيًّا. ومع ذلك، فإنّك لا ترى هذه الأسبابَ مقنعة. القرآنُ يُعلن مرارًا وتكرارًا أنَّه الكلمة المثالية لخالق الكون. ويؤمن المسلمون بذلك تمامًا كما تؤمنُ أنت بذلك عن الكتاب المقدَّس... لماذا

---

(١) انظر: Voltaire in Candide and Philosophical Dictionary
بواسطة: المصدر السابق.

(٢) انظر: Pensées philosophiques, LIX, Volume 1 (in French). (p. 167).

(3) Letter to a Christian Nation (3-4)

لا يصعب عليك النومُ في الليل بسبب التفكير في اعتناق الإسلام؟ هل تستطيع أن تثبت أنَّ الله ليسَ هو الإله الحقيقي؟ هل تستطيع أن تثبتَ أنَّ رئيس الملائكة جبريل لم يزر محمدًا في كهفِهِ؟ بالطبع لا. ولكنَّك لا تحتاج إلى إثباتِ أيٍّ من هذه الأشياء لرفض معتقدات المسلمين باعتبارها سَخيفة. العبء عليهم لإثبات أنَّ معتقداتهم عن الله ومحمد صحيحة، ولم يفعلوا ذلك، ولا يمكنُهم القيام بذلك. المسلمون ببساطة يدعون دعاوى عنِ الحقيقة يحتاج إلى إثبات. هذا الأمرُ واضح تمامًا لمن لم يخدِّر نفسَه بعقيدة الإسلام.

والحقيقةُ هي كالتالي: أنتَ تعرف بالضبط أنَّ الأمر يشبه أن تكون ملحدًا فيما يتعلَّق بمعتقدات المسلمين. أوَليسَ من الواضح أنَّ المسلمين يخدعون أنفسهم؟... نعم، هذه الأمورُ واضحة. افهم أنَّ الطريقة التي تنظر بها إلى الإسلام هي بالضبط الطريقة التي ينظرُ بها المسلمون المتديّنون إلى المسيحية. وهذه هي الطريقة التي أنظر إلى جميع الأديان»[١].

وأوردَ البروفسور فيليب بيكوريني[٢] هذه الشبهةَ عندما انتقد حجَّة الوحي على وجودِ الله (Argument from revelation). وخلاصة شبهته أنه لا يمكن الاستدلالُ بالوحي على وجود الله، لأنَّ ديانات متعارضة تدّعي أنها مبنية على الوحي[٣].

---

(١) المصدر السابق (٦).

(٢) فيليب بيكوريني (Philip Pecorini): بروفسور الفلسفة في كلية كوينسبوروغ بالولايات المتحدة، ومتخصِّص في فلسفة الأديان. انظر:

www.qcc.cuny.edu/faculty-staff/bio/pecorino.html

(3) Chapter 3: Philosophy of Religion, Proofs for the Existence of God, Argument from Revelation

وهو موجود على هذا الرابط:

http://www.qcc.cuny.edu/SocialSciences/ppecorino/INTRO_TEXT/Chapter%203%20Religion/Arg_Revelation.htm

الفقرةُ الثّانية: ردودُ علماء الغرب على هذه الشبهة:

هذه الشُّبهة، وإن كان يستدلُّ بها بعض الملاحدة، إلّا أنَّها غير منتشرة في خطابهم. وقد أجرى بعضُ الباحثين دراسةً عن آراء أكثر من ٨٠٠ فيلسوف في أقوى الحجج ضدَّ الإيمان، وكانت حجَّة الوحي غير المتناسق في الترتيب السادس من ثماني حجج[١]. فدلَّ ذلك على أنَّ الملاحدة الفلاسفة أنفسهم لا يرون أنَّ هذه الحجة قويّة. ولعل ذلك مِن أسباب قلَّة ردود علماء الغرب عليها.

والإشكالُ في ردودِ علماء الغرب على هذه الشبهة بالذات، أنهم خلطوا ردودهم معَ سرْد الأدلة المؤيِّدة للنصرانية - في زعمهم -. ولهذا كان الاستشهاد بكلامهم من الخطورةِ بمكان. ولهذا سوفَ أكتفي بذكر أربعة أوجه في الردِّ على هذه الشبهة:

الوجهُ الأوَّل: هذه الشبهةُ مبنيَّة على أنَّ الاختلاف بين الوحي يكون دليلًا على بطلانِ الأديان كلّها، وبناءً على ذلك ينكر الملاحدةُ وجود الخالق. ولكن الاستدلال بوجودِ الخلاف لا يلزم إبطالَ أصل الفكرة. وقد ألزم البروفسور ألفن بلانتغا الملاحدة بذلك في قضيَّة السياسة والفلسفة. فذكر أنَّ السياسيين يختلفون في سياساتهم والفلاسفة يختلفون في فلسفتهم، ولا يدلُّ ذلك على بطلان علوم السياسة أو الفلسفة[٢].

وهذا الإلزامُ صحيحٌ في أصله، حيث إنَّ كثيرًا من الملاحدة يعظّمون علمَ السياسة والفلسفة. ولكن يمكن ذكرُ هذا الإلزام في جميع العلوم والمعارف التي يعظّمها

---

(١) انظر:

How Do Philosophers Evaluate Natural Theological Arguments?, by: Helen de Cruz and Johan De Smed

والبحث منشور على الرابط:

https://www.academia.edu/12244038/How_do_philosophers_evaluate_natural_theological_arguments_An_experimental_philosophical_investigation

(٢) انظر المقطع: Can All Religions Be True?، وهو موجود في الرابط:

https://www.youtube.com/watch?v=3CyMlqiMqvU

الملاحدة. فالعلماءُ التجريبيون يختلفونَ في كثير من النظريات العلمية، وعلماء الأخلاق يختلفون في تحديدِ الأخلاق الفاضلة إلى غير ذلك. ولا يدلُّ ذلك على أنّ العلم التجريبي أو علم الأخلاق خطأ. فهذا يدلُّ على أنّ الاعتراض خطأ في أصله.

الوجهُ الثّاني: ردَّ البروفسور ريتشارد سوينبورن على هذه الشبهة بطريقة بديعة؛ ملخَّصها أنَّه قد تتعدَّد الرسائل المنسوبة إلى شخصٍ واحد، وبعض الرسائل تصحُّ نسبتُها، وبعضها لا تصحّ. ومِن أجل التمييز بين هذه الرسائل، فلا بدّ من النظر إلى الدَّلائل التي يمكن التمييزُ بها بين النسبة الصحيحة والنسبة الباطلة، مثل: النظر إلى التَّوقيع في الرسالة، وبهذه الطريقة يمكن التمييزُ بينها. والوحي رسالة من الخالق، ويمكن النظرُ في الرَّسائل المتعدِّدة المنسوبة إلى الخالق للتمييز بين الصحيح وغير الصحيح[1].

وهذا الردُّ في أصله صحيح. فوجودُ رسائل متعدّدة ومتناقضة تنسب إلى إنسان معيَّن هو أمرٌ طبيعي. وقد حصلَ ذلك عبر التاريخ، ولا يزال هذا الأمرُ موجودًا في هذا العَصر. ولا يمنع ذلك من أنَّ رسالة معيَّنة تصحُّ نسبتها، ورسائل أخرى تكون مزوّرة. ولا يمكن استخدامُ هذا التعدُّد والتناقض ذريعة إلى إنكار أنَّ هذا الشخص قد ألّف رسالة، أو أنَّه غير موجود أصلًا. وإذا كان هذا الأمرُ يمكن حصوله بين البشر، فما المانعُ أنَّه قد تنسب رسائلُ متعدّدة ومتناقضة إلى الخالق، ولا تصحّ منها إلا رسالة واحدة؟ بل كيف يتَّخذ ذلك ذريعة إلى إنكار وجوده؟

فعلى الإنسانِ أن ينظر إلى الدلائلِ على صحَّة مضمون الوحي وإلى الرسل، وهم حاملو الوحي، ومن ثَمَّ يميّز بين الوحي الذي تصحُّ نسبتُه إلى الخالق، وبين الوحي الذي لا تصحُّ نسبته إلى الخالق. وهذا الردُّ صحيحٌ في أصله صحيح، وإن كان البروفسور سوينبورن يواصلُ بعد ذلك في محاولةِ الاستدلال على صحّة النصرانية. ولكن يمكن للمسلم أن يستفيدَ من أصل هذا الردّ، ثمَّ يذكر البراهين على صحّة الوحي الإسلامي، وكذلك دلائل النبوة الدالة على أنَّ محمدًا رسول الله (ﷺ).

---

(١) انظر المقطع: Can Many Religions All be True?، على الرابط:
https://www.youtube.com/watch?v=t1fwwCEZrtk

الوجهُ الثّالث: قد ذكرَ سام هاريس أنَّ الأدلة لدى المسلم على صحّة عقيدته هي عينُ الأدلة الدالَّة على صحَّة النصرانية، ولا فرق بينهما. وبناء على ذلك أورد هذه الشُّبهة. وقد ردَّ صاحبُ المقال: «حدسي الأخلاقي أفضل من حدسك الأخلاقي» (My Moral Intuitions are Better than yours) على هذا الادّعاء بطريقة جيّدة. فذكر أن ما ذكره هاريس قد يفهم بطريقة إبيستمولوجية أو بطريقة ميتافيزيقية.

والمرادُ بالطريقة الإبيستمولوجية أنَّ فردًا من أفراد المسلمين لا يعرف من الأدلة على صحَّة معتقدِه إلّا ما يعرفه فردٌ من أفراد النصارى.

والمرادُ بالطريقة الميتافيزيقية أنَّ الأدلة على العقيدة الإسلامية هي متساوية مع الأدلة على العقيدة النصرانية.

وأمَّا الأوَّل فليس بمُهمٍّ لأنَّه يعود إلى العلم أو الجهل لدى أتباع ديانة معيّنة. وأما الثّاني فهو المهمُّ في هذه القضية، وهو مجرَّد ادِّعاء من قبَل هاريس ومَن معه من الملاحدة، وليس عليه أيُّ دليل، بل هو قولٌ متناقض[1].

وهذا الردُّ مع هذا التقسيم صحيحٌ في أصله، إلّا أنَّ المؤلف لكونه نصرانيًّا يحاول أن يدَّعي أنَّ الأدلة على المعتقدِ النصراني هي الأدلةُ الصَّحيحة، وليست الأدلة على المعتقد الإسلامي. وهذا باطل، ولا شكّ. ولكن ادِّعاء سام هاريس أيضًا باطل، لأنه لا يمكن أنْ يطلق الدعوى: أنَّ الأدلة على معتقدٍ معيَّن هي عينُ الأدلة على معتقدٍ آخر إلّا بحجَّة أو برهان. ولم يقدِّم شيئًا من ذلك، وإنَّما غاية ما يستدلُّ به هاريس هو عدمُ فهمه لأدلَّة المسلمين والنصارى لمعتقداتِهم، وأنَّ هذه الأدلة في نظره هو متساوية. ولا تعْدو هذه الشُّبهة عنده إلّا كونها دليلًا على جهله.

الوجهُ الرّابع: ذكر صاحبُ المقال: حجَّة الوحي غير المتناسق (Argument from Inconsistent Revelations) أنّه مهما ما شعرَ إنسان بقوَّة هذه الحجة، فلا

---

(١) انظر المقال: My Moral Intuitions are Better than yours على الرابط:
https://mountcarmelapologetics.com/2018/12/10/my-moral-intuitions-are-better-than-yours/

يمكن أنْ يستخدمَها في إنكارِ وجود الله. وغايةُ ما يمكن أن يستنبطَ من هذه الشبهة أنّها تدلُّ على صعوبةِ الوصول إلى مُراد الإله والوحيِ الصحيح. ولكنَّ هذه الصعوبة ليس لها علاقة بوجودِ الإله أو عدمِ وجوده[1]. فاستخدامُ الملاحدة لهذه الحجَّة لإنكار وجود الله، يدلُّ على جهلهم بحقيقةِ الشبهة.

ولهشاشةِ هذه الشُّبهة تكون هذه الأوجه الأربعة كافية في دحْضها، وليس هناك كبيرُ حاجة إلى الاستزادة في نقضها.

الفقرةُ الثّالثة: تقييمُ ردودِ علماء الغرب على هذه الشبهة:

هذه الشبهةُ لم يكنْ لها ذاك الانتشارُ في الأوساط الإلحادية، ولهذا لا نكاد نجدُ من يتحمَّس لها إلّا سام هاريس. ولهذا نجد أنَّ التفات علماء الغرب إلى نقضها قليل جدًّا مقارنةً مع شبهاتٍ أخرى. ومعَ ذلك فقد ذكروا بعضَ الأوجه القيّمة في الردِّ على هذه الشبهة، ويمكن الاستفادةُ منها.

ولكنَّ الإشكال في ردودِهم أنَّهم يذكرون معها أدلةً مزعومة على صحّة النصرانية. ففي ردودِهم مِن هذا الوجْه خطورةٌ على عقيدة المسلم. فينبغي للمسلمين أن يساهموا في الردِّ على هذه الشُّبهة معَ ذكر الأدلة والبراهين والحجج على صحة المعتقد الإسلامي حتَّى تدحض الشبهة ويبان الحقّ. وهذا ليس مقامَ تفصيل ذلك.

---

(١) انظر المقال: Argument from Inconsistent Revelations, وهو على الرابط: http://philosophiesofmen.blogspot.com/2011/05/argument-from-inconsistent-revelations.html

المبحثُ السّادس

ردودُهم على شبهةِ عدم إدراك المراد بالإله

مِن الشُّبهات المنتشرةِ لدى الملاحدة هي شبهة: عدم إدراك المراد بالإله (Theological Noncognitivism). وتنصُّ هذه الشبهة على أنَّ اللغة المستخدمة في علم اللاهوت تتضمن كلماتٍ ليست ذات قيمةٍ أو معنى، مثل: الإله والخالق، لأنَّه لا يمكن التأكّد من صحّة مضمونِ دلالتها. ولهذا لا يمكن الحديثُ عن وجود خالقٍ أو عدم وجوده. وهذه شبهة مِن شبهاتِ الإلحاد الضعيف، وليست من شُبهات الإلحاد القوي؛ لأنَّه إذا حاول الملحدُ الإلحاد القوي أنْ يستدلَّ على عدم وجود الخالق، فإنّه يعترف أنَّ هذه الكلمة لها معنى. بينما الملحدُ الإلحاد الضعيف أو اللاأدري يستخدم هذه الشبهةَ قائلًا: إنَّ الكلام عنْ وجود الخالق أو عدمِ وجوده لا فائدةَ منه لأنَّه لا يمكن أن يتحقَّق من صحّة الكلام[1]. وسأقسِّم هذا المبحث إلى ثلاث فقرات:

الفقرةُ الأولى: تاريخُ شبهة: عدم إدراك المراد بالإله.

الفقرةُ الثّانية: ردودُ علماء الغرب على شبهة: عدم إدراك المراد بالإله.

الفقرةُ الثّالثة: تقييمُ ردود علماء الغرب على شبهة: عدم إدراك المراد بالإله.

---

(١) انظر المقال:

Theological Noncognitivism Examined, by: Steven J. Conifer

على الرابط:

https://web.archive.org/web/20090326144947/http://www.sewanee.edu/philosophy/Journal/Archives/2002/Conifer.htm

الفقرةُ الأولى: تاريخُ شبهة: عدم إدراك المراد بالإله:

هذه الشبهةُ لها علاقةٌ بفلسفة اللغة[1]، وإبيستيمولوجيا؛ حيث إنَّ هذه الشبهة تنصُّ على أمرين:

الأمرُ الأوَّل: أنَّ اللغة المستخدمة في علم اللاهوت لا تحمل أي معنى حقيقي.

الأمرُ الثّاني: أنَّه لا يمكن التأكُّد من صحَّة مضمون هذه الكلمات.

وهذان الأمران من المسائل التي ناقشها فلاسفةٌ من مدرسة الفلسفة التحليلية[2]. وهذه الفلسفة امتدادٌ للمذهب الحسِّي السائد في بريطانيا في عصر التنوير. وهي الفلسفةُ المقرَّرة في جامعات بريطانيا، والولايات المتَّحدة، والدول الإسكندنافية[3].

وكان مِن أبرز رموزِ هذه الفلسفة الفيلسوف لودفيغ ويتغنستين[4]، وهو تلميذٌ لبرتراند راسل. وقد ألَّف رسالة بعنوان: «رسالة في المنطق والفلسفة» (Tractatus Logico – Philosophicus)، في العلاقة بين اللغة والحقيقة، ولتحديد حدود العلم التجريبي.

---

(١) فلسفة اللغة (Philosophy of Language): البحث المنطقي في طبيعة اللغة وأصولها وطرق استخدامها. انظر:
https://www.newworldencyclopedia.org/entry/philosophy_of_language

(٢) الفلسفة التحليلية (Analytical Philosophy): مجموعة من المناهج ذات الصلة بالمشكلات الفلسفية، وهي سائدةٌ في الفلسفة الأنجلو أمريكية من أوائل القرن العشرين، والتي تؤكد على دراسة اللغة والتحليل المنطقي للمفاهيم. وتسمّى أيضًا: الفلسفة اللغوية. انظر:
https://www.britannica.com/topic/analytic-philosophy

(٣) انظر:
The Blackwell Companion to Philosophy (1), 2nd ed. (Blackwell, 2003)

(٤) لودفيغ ويتغنستين (Ludwig Wittgenstein): فيلسوف بريطاني نمساوي المولد، يعتبره كثيرٌ من فلاسفة الغرب أنَّه أعظم فيلسوف في القرن العشرين؛ فكانت فلسفته مؤثرة في الفكر الغربي إلى حدٍّ كبير. توفي عام: ١٩٥١م. انظر:
https://www.britannica.com/biography/Ludwig-Wittgenstein

وأثّرت هذه الرسالةُ كثيرًا في المجتمعيْن فيما يُعرف بـ«حلقة فيينا» (Vienna Circle) هم جماعة من الفلاسفةِ والعلماء كانوا يجتمعون في عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين في جامعة فيينا، وتبنَّوا الوضعية المنطقية[١]. وفي أثناءِ الحرب العالمية الثانية وبعدها انتشر فلاسفةُ حلقة فيينا في الدول الغربية، وأثَّر طرحهم في فلسفة العلم في تلك الدول[٢].

وكان مِن أكثر ما يركِّز عليه أصحابُ حلقة فيينا ما يسمَّى بمبدأ التحقّق: (Verifiability Principle). وخلاصة هذا المبدأ - كما سبق - : أنَّ ما لا يمكن التحقّق منه حسّيًّا، فليس للكلام عنه أيُّ معنى. فلا يقال: إنه حقٌّ أو باطل، بل إنَّ الكلام لا معنى له إطلاقًا فلا ينظر إليه[٣].

وكان مِن ضمن فلاسفة حلقة فيينا: الفيلسوف ألفرد آير[٤] وقد ألَّف كتابه: اللغة والحقيقة والمنطق (Language, Truth and Logic) عام ١٩٣٦م، وقدَّم فيه مبدأ التحقّق أساسًا وحيدًا للفلسفة؛ وعليه فيكون كلُّ شيء من وراء الطبيعة (Metaphysics) لا معنى له؛ لأنَّه لا يمكن التحقّق منه[٥].

وكان لهذا الكتاب صدًى كبيرٌ في وقته، وانتشرت بسببه هذه الشبهة. وكان ممن طارَ بها في القرن المنصرم: البروفسور أنطوني فلو، وألَّف رسالة: «اللاهوت والتزييف»

---

(١) الوضعية المنطقية (Logical Positivism): حركة فلسفية نشأت في فيينا في عشرينيات القرن الماضي، وتميزت بالرأي القائل بأن المعرفة العلمية التجريبية هي النوع الوحيد من المعرفة الواقعية، وأنَّ جميع المذاهب الميتافيزيقية التقليدية يجب رفضها باعتبارها لا معنى لها. انظر: https: / /www.britannica.com /topic /logical – positivism

(٢) انظر: المصدر السابق.

(٣) انظر مادة: (Verifiability Principle) في موسوعة بريتانيكا:
https://www.britannica.com/topic/verifiability-principle

(٤) ألفرد آير (Alfred J. Ayer): بروفسور الفلسفة في جامعة أكسفورد المروقة في بريطانيا. وكان أحدَ من وضع الأسس للوضعية المنطقية. انظر:
https://plato.stanford.edu/entries/ayer/

(٥) انظر:
Language, Truth and Logic (13-29), by: A.J. Ayer, Penguin Books, 1936)

(Theology and Falsification) في عام ١٩٥٠م، في دورة الجامعة التابعة لجامعة أكسفورد، ثمَّ أعيد نشرُها عام ١٩٥٥م، ثمّ عام ٢٠٠٠م. وذكر فلو عندما نشرَها آخر مرّة أنَّ هذه الرسالةَ أكثر الرسائلِ الفلسفية انتشارًا في النصف الثاني من القرن العشرين. وطوّر أنطوني فلو مبدأ التحقُّق إلى القول بمبدأ التزييف (Falsification)، بمعنى أن الجملة لا تكونُ مفيدة إلّا إذا خضعت لإمكانية التزييف والإبطال[١].

وذكرَ الفيلسوف الملحد جون سمارت[٢] في مقال بعنوان: «الوجود الإلهي» (The Existence of God)، عام ١٩٥٥م، أنَّ هذه الشبهة أكبر تهديد للمذهب اللاهوتي في هذا العصر[٣].

ولكنْ ضعفَ مذهب الوضعية المنطقية في الستينيات من القرن الميلادي المنصرم. وفي مقابلةٍ مع البروفسور ألفرد آير في عام ١٩٧٠م، اعترف بأنَّ أهمَّ نقطة ضعف لمذهبهم أن جلَّه باطل[٤].

وتركَ أنطوني فلو الإلحادَ واعتنقَ المذهب الربوبي في عام ٢٠٠٤، وألَّف كتابه: هناك إله (There is a God) عام ٢٠٠٧م، ولكن رسائله القديمة أثَّرت في فرسان الإلحاد الجديد كريتشارد دوكينز وسام هاريس[٥]. ولكنْ يستخدم الملاحدةُ الجدد هذه الشبهة بعينها كثيرًا في خطابهم اليوم.

---

(١) انظر: Philosophy Now October/November (2000), 28 - 29

(٢) جون سمارت (John Smart): بروفسور الفلسفة البريطاني والأسترالي. وقد تخصّص في الميتافيزقية وفلسفة الدين. توفي عام ٢٠١٢م. انظر:
https://www.theguardian.com/books/2012/oct/30/jjc-smart

(٣) انظر:
The Existence of God, by: J. J. C Smart, in New Essays in Philosophical Theology, (1955)

(٤) انظر:
Logical Positivism (193), by: Oswald Hanfling, (Routledge History of Philosophy, 2003).

(٥) انظر سيرة أنطورني فول في موسوعة بريتانيكا:
https://www.britannica.com/biography/Antony-Flew

وقدْ حاول البروفسور الملحد مايكل مارتن أن يمسكَ العصا من المنتصف في كتابه: «الإلحاد: تبرير فلسفي» (Atheism: A Philosophical Justification)، فاستدلَّ في الجزء الأوَّل مِن كتابه بهذه الحجَّة، وجادل بأنَّ الكلام عن الإله لا يحمل أي معنى. ثمَّ جادل في النِّصف الثاني من كتابه عنْ عدم وجود الإله. وذكر في مقال أنَّ كثيرًا من الملاحدة واللاهوتيين اتَّهموه بالتناقض بسبب هذا التصرّف[١].

والخلاصة: أنَّ هذه الشبهة ظهرت في النصف الأوّل من القرن العشرين، ثمّ قويت في النِّصف الثاني، ثمَّ قلَّ استعمالها في القرن الواحد والعشرين. ولكن حيث أنّها كانت شبهة منتشرة في القرن المنصرم فلا بدَّ من الردِّ عليها.

الفقرةُ الثّانية: ردودُ علماء الغرب على شبهة: عدم إدراك المراد بالإله:

انتشرتْ هذه الشبهة بقوَّة في النصف الثاني من القرن العشرين. وكان كثيرٌ من الفلاسفة في ذلك الزمن مِن الملاحدة. وذكر البروفسور وليام لاين كرايغ أن هذه الشبهة كانت قويَّة جدًّا في أيام دراسته للفلسفة، ولا يكاد يعرف طالبُ اللاهوت كيف يردُّ عليها، ثمَّ ضعفت شيئًا فشيئًا، حتى لا تكاد تُذكر بين الفلاسفة[٢]. ولكنه ذكر في موطنٍ آخر أنَّ هذه الشبهة مازالت منتشرة بين علماء الطبيعة الذين درسوا الفلسفة في تلك الفترة، وكأنَّهم لم يتنبهوا إلى أنَّ الفلاسفة تركوها[٣].

وفي عصر قوَّة هذه الشبهة ظهرَ الفيلسوف النصراني ألفن بلانتغا، وأضحى يؤلِّف كتبًا في تبرير العقائد اللاهوتية من الناحية الفلسفية، وردَّ على أشهر الشبهات

---

(١) انظر المقال: Positive Atheism and the Meaninglessness of Theism
على الرابط:
https://infidels.org/library/modern/michael_martin/meaningless.html

(٢) انظر المقطع: William Lane Craig on Logical Positivism على الرابط:
https://www.youtube.com/watch?v=URknwFd2n7g

(٣) انظر المقطع: Why Did Verificationism Last so Long على الرابط:
https://www.youtube.com/watch?v=JYEVLDpmqPM

المثارة عليها في ذلك الوقت. وقد كانتْ هذه الشبهة من ضمن الشُّبهات التي تصدّى لها في ذلك الوقت. وفي كتابه: «الإله وأذهان أخرى» (God and other minds) عام ١٩٦٨م، خصَّص فصلًا كاملًا للحديث عنْ مبدأ التحقّق وعلم اللاهوت. كما أنّه تحدّث عن مذهبِ الوضعية المنطقية في كتابه: «الإله، الحرية، والشرّ» (God, Freedom and Evil) في عام ١٩٧٧م.

وفي هذا العصر، تحدَّث البروفسور وليام لاين كرايغ عن هذه الشبهة في أكثر من موطن، ولديه بعضُ الردود المسجَّلة القويَّة عليها.

وحيث إنّهما أشهرُ مَن تصدَّى لهذه الشبهة وهذا المذهب، فسأركِّز على ردودهما في هذا المبحث، بالإضافةِ إلى بعض الردود الأخرى.

الوجهُ الأوَّل: ذكرَ البروفسور بلانتنغا أنَّ مبدأ التحقّق كان منتشرًا في السابق، وأما اليوم، فلا يكاد أحدٌ من الفلاسفة المشهورين يتبنَّى هذا المبدأ. ومن أسباب ذلك أنّه لو افترضْنا أنَّه يجب تطبيقُه على علم اللاهوت، فلا بدَّ من تطبيقه على البديهيات والعلم التَّجريبي. ولا شكَّ أنَّ كثيرًا من البديهيات ونظريات العلم التجريبي غير قابلة للتحقُّق حسيًّا ولا تجريبيًّا[١].

ووضَّح البروفسور وليام لاين كرايغ هذه المسألةَ أكثر، فذكر أنَّ قبولَ مبدأ التحقّق لا يقف عندَ تفريغ علمِ اللاهوت عن معانيه، بل ينسجمُ على علوم أخرى كعلم الأخلاق، وعلمِ الجمال. وإضافةً إلى ذلك فلا يمكن التحقُّقُ الحسي من كثير من النَّظريات العلمية، مثل: وجود الكواركات أو الأوتار الفائقة[٢].

---

(١) انظر:

God, Freedom and Evil (66), by: Alvin Plantinga, (William B. Eerdmans Publishing Company, 1974)

(٢) انظر المقطع: Verification Theory of Meaning على الرابط:

https://www.youtube.com/watch?v=eNh75REMxMI

الوجهُ الثّاني: ذكرَ البروفسور بلانتنغا أنَّ هذه الشبهة مبنيَّة على افتراض وجوب قبولِ مبدأ التحقّق، ولكنَّه لا يوجد دليلٌ على أنّه يجب قبولُ هذا المبدأ. فلماذا يجب أن يخضعَ علمُ اللاهوت لهذا المبدأ بلا دليل[1]؟ وذكرَ في كتابه: «الإله والأذهان الأخرى» أنَّه يوجد اضطرابٌ شديد بين فلاسفة الوضعية المنطقية في وضع ضابط واضح لمبدأ التحقُّق، ولم يستطعْ أحدٌ منهم أن يأتي بضابطٍ واضح فيما يمكن التحقّق منه وما لا يمكن التحقّق منه[2].

الوجهُ الثّالث: نبَّه البروفسور وليام لاين كرايغ على أنَّ مبدأ التحقّق نفسه متناقض ذاتيًّا؛ لأَنَّه لا يمكن التحقُّق من تلك الجملة حسيًّا. وبذلك يُبطل المبدأ نفسه بنفسه[3]. ولا شكَّ أنَّ التناقض الذاتي للمذاهب يدلُّ على فسادها؛ لأَنَّه يكشف عن أنَّ المذهب نفسَه يقف على أساس هشّ.

الوجهُ الرّابع: طوَّر أنطوني فلو مبدأ التحقُّق إلى القول بمبدأ التزييف في مقاله: «علمُ اللاهوت ومبدأ التزييف». وبدأ المقالَ بضرب مثال توضيحي كالآتي:

ذهبَ اثنان من المكتشفين إلى الغابة، فوجدوا أرضًا مقطوعة الشجر، وفي هذه البُقعة وُجِد عددٌ من الزهور وأنواع النباتات. فقال أحد المكتشفين: «لا بدَّ أن يكون هناك بستاني زرعَ هذه الزهور والنباتات». وأنكر المكتشفُ الثاني ذلك. فنصبَا خيمة لمراقبةِ الأرض، ولكنَّهما لم يريَا أيَّ بستاني. فقال الذي يعتقد أنه يوجَد بستاني: «لعلَّه بستانيٌّ غير مرئي». فوضعَا حاجزَ الأسلاك الشائكة مع الكهرباء، وصارَا يراقبان القطعة الأرضيَّة بكلابٍ بوليسية. ولكنَّ الأسلاك الكهربائية لا تتأثّر، ولم تنبح الكلاب، ولم يرَ أدْنى أثرٍ من البستاني. فقال الذي يعتقد أنَّ البستاني موجود: «ولكنه بستاني غير مرئي وغيرُ ملموس، ولا يتأثَّر بصعقة كهربائية، ولا يشمُّ منه رائحة، ولا يسمع منه صوت، ولكنَّه يأتي من أجل بستانه المحبَّب ويُراعيه». فيقول المتشكِّك: «ولكن، ما الذي يبقى

---

(١) انظر: God, Freedom and Evil (66)

(2) God and other minds (164 - 167)

(٣) انظر المقطع: Verification Theory of Meaning

من ادِّعائك الأوَّل؟ كيف يختلف ما تسمِّيه بستانيًّا غير مرئي أو غير ملموس أو بعيد المنال أبدًا عن بستاني وهمي، أو حتى من غير البستاني على الإطلاق؟».

ثمَّ بنى أنطوني فلو حجَّته في التَّشكيك بوجود الله على هذا المثال، وخلاصتها: أنّه لا يمكن للمتشكِّك أنْ ينفي وجودَ مثل هذا الكائن، لأنّه المؤمن يؤمن به بدون أدنى أدلَّة، ويتمسَّك بمعتقده مهْما حصل. ورأى أنَّ الكلام إذا كان بهذا الأسلوب، فهو عديمُ الفائدة[1].

وقد ردَّ البروفسور وليام لاين كرايغ على هذا المثال بأنه مخصَّص لما يريده، ولا يدلُّ على ما يريده أنطوني فلو. وبيانُ ذلك أنَّ فلو ضرب هذا المثال الخيالي ليتوصّل إلى أنَّ الكلامَ عن البستاني بلا جدوى، فكذلك الحديثُ عن وجود الله. ولكن هذا ليس بصحيح؛ لأنَّ كوْن المكتشفين تحدَّثَا عن وجود البستاني وعدم وجوده، واختلفا بينهما وحاولَا الاستدلالَ على وجوده أو عدمه يدلُّ على أنَّ الكلام له جدوى. وغاية ما تدلُّ عليه القصة أنَّ القول بعدمِ وجوده كان أقوى، والمثبت كان معاندًا. وكذلك الحديث عن وجودِ الله، أو عدم وجودِه؛ له جدوى، لأنَّ الناس يفهمون المقصود من الكلام ويتباحثونَ في الأدلة على وجوده أو عدم وجوده. ولكن الأدلة على وجوده أقوى. فأنطوني فلو ضربَ هذا المثال المخصَّص من أجل تأييد الإلحاد، ولكنه لا يدلُّ على أنَّ الكلام عن وجود الله بلا جدوى[2].

ويحسنُ التَّنبيه على قضية أخرى هنا لم يتنبَّه البروفسور كرايغ لها، وهي أنَّ الإيمان بوجودِ الله علمٌ ضروري فطري، ثمَّ يضاف إليه الاستدلال بالأدلة الكثيرة جدًّا. وأما وجودُ بستاني أو عدمُ وجوده فهو علم نظري، يقبل النقاش.

---

(١) انظر المقال: Theology and Falsification (1)، على الرابط:

http://www.politik-salon.de/files/theory_of_falsification.pdf

(٢) انظر المقطع:

Epistemological Objection to God: Verificationism and Logical Positivism and Falsificationism

على الرابط:

https://www.youtube.com/watch?v=T8XkrlKs37o

ويمكنُ أن يعكس المثال على الملحد، فالأدلةُ واضحة كالشمس، ولكنه يعاندُ ويكابر. وعليه، فلا يعْدو المثالُ المذكور كونه نوعًا من المغالطات.

الوجهُ الخامس: هناك نقطةٌ مهمَّة نبَّه عليها البروفسور بلانتنغا، وهي أنّ هذه الشُّبهة تتوجَّه إلى بعض المبادئ الأساسية في اللاهوت المسيحي الموجود في الكتاب المقدَّس؛ حيث إنَّ هذه المبادئ يصعب فهمها[1]. وهذا الاعتراف مهمٌّ لأنَّ العقائد النصرانية المنافية للعقل ساهمتْ في بروز نحْو هذه الشبهة، حيث رأى الفلاسفة الملاحدة أنَّ العقائد اللاهوتية غيرُ مطابقة للواقع، وبالتالي لا تعني شيئًا. فعقيدة مثل التثليث تقول إنَّ الإلهَ واحد، وهو في الوقت نفسِه ثلاثة أشخاص تتعارض مع بديهيات العقل. ورغمَ ذلك يؤمنُ بها النصارى، ويدعون غيرهم إلى هذه العقيدة اللامنطقية. وأمّا الإسلامُ فلا يوجد فيه أيُّ شيء من قبيل ألبتَّة.

الفقرةُ الثّالثة:

تقييمُ ردود علماء الغرب على شبهة: عدم إدراك المراد بالإله:

هذه الشبهةُ كانت منتشرةً في الغرب قبلَ حوالي نصف قرن، ثمَّ ضعفت تدريجيًّا. وهي شبهةٌ فلسفية محْضة، لا يفهمها إلّا المتخصّصُ في الفلسفة. وقد ردَّ عليها علماءُ الغرب ببعضِ الردود العقلية الجيِّدة، ومِن أقواها أنَّ الوضعية المنطقية نفسها متناقضة ذاتيًّا.

وهناك نقطةٌ قد تكون مؤثِّرة في بروز هذه الشبهة، وهي أنَّ الطابعَ العام بين النَّصارى المتأخّرين أنهم يصفونَ الإله بالصفات السلبية كما تقدّم تقريره في المبحث الأوَّل من هذا الفصل.

ووصفُ الإله بالصفات السلبية يؤدِّي إلى شبهة: عدم إدراك المراد بالإله؛ لأنَّه لا يكادُ يفهم ما يقصدُه الواصف. ومَن تأمَّل مثال أنطوني فلو لهذه الشبهة وجد شبهًا وصف الإمام حماد بن زيد (رحمه الله) للجهمية إذ قال: (مثل الجهمية كقوم قالوا:

---

(١) انظر: God and Other Minds (157)

في دارنا نخلة. قيل: لها سعف؟ قالوا: لا. قيل: فلَها كرب؟ قالوا: لا. قيل: لها رطب وقنو؟ قالوا: لا. قيل: فلها ساق؟ قالوا: لا. قيل: فما في داركم نخلة)[1].

وقد تقدَّم في المبحث الأوَّل من هذا الفصل أنَّ طريقة القرآن في الصفات هي الإثباتُ المفصَّل والنفي المجمل غالبًا. والصفاتُ السلبية يجب معَ نفيها إثباتُ كمال ضدِّها على الوجه الأكمل. وأمّا النفي المحض فليس بمدح.

فطريقةُ أهل السنَّة في الصفات هي الطريقة الواضحة الصحيحة، وبسلوك هذه الطَّريقة يسلم الإنسانُ مِن نحو هذه الشبهات التي انتشرت في الغرب.

---

(١) العلو للعلي الغفار في إيضاح صحيح الأخبار من سقيمها (٢٥٠)، لشمس الدين محمد بن أحمد الذهبي (مكتبة أضواء السلف، الطبعة الأولى، ١٤١٦ هـ، اعتنى به: أشرف بن عبد المقصود).

الفهرس

البابُ الثّالث